

مذاهب وشخصيات



سيرة عنترة

تأليف

رکسور محمد الحفني







مذاهب وشخصيات

# سيرة حمزة

تأليف

ركنة محمد الحفني





# الباب الأول

## الفصل الأول

المقومات الاجتماعية للبيئة العربية





## طبيعة الجزيرة العربية

في أقصى الجنوب الغربي من قارة آسيا تقع شبه جزيرة مستطيلة الشكل تحيط بها مياه البحر من ثلاث جهات . . البحر الأحمر في الغرب، وخليج عدن مع المحيط الهندي، في الجنوب، والخليج الفارسي في الشرق وهي تقع بين خطي طول ٣٥ و ٦٠ شرقاً، وخطي عرض ١٢ و ٣٧ شمالاً أي أن مدار السرطان يمر في وسطها تقريباً .

هذه هي بلاد العرب التي عرفت منذ الجاهلية الساحقة باسم «جزيرة العرب» على سبيل التجاوز ولو أن جغرافيين العرب حاولوا أقصى جهدهم تخريج هذه التسمية فالمقدس يقول : « أن العرب يسمون شبه الجزيرة جزيرة » (١) فمثلما أطلقوا على بلادهم جزيرة العرب أطلقوا على شبه جزيرة ايبيريا اسم جزيرة الاندلس ، وأطلقوا على الأرض الواقعة بين نهري دجلة والفرات اسم «جزيرة اتور أو ابن عمر» أما الهمداني (٢) فيقدم تخريجاً آخر مؤداه أن الضلع الرابع من أضلاع شبه الجزيرة يحده الماء كذلك ، وأن كان في هذه المرة ماء نهر الفرات الذي ينبع من مشارف الجبال المظلة على البحر الأبيض قريباً من مدينة حاب بالشام ليصب في الخليج الفارسي .

وتخريج الهمداني ينتقل بنا إلى نقطة بحث أخرى هي تعيين الحدود الشمالية لبلاد العرب . فالهمداني - بقوله ذاك - يدخل ضمن بلاد العرب أرض الشام كلها وأجزاء من العراق ومن مصر ، وهذه المناطق يفصلها المقدسي عن بلاد العرب التي يعتبر أن حدها الشمالي هو صحراء النفود .

والواقع أن هذه المسألة فيها خلاف بين الجغرافيين ، سواء في ذلك القدامى والمحدثون ، كما أن فيها خلافاً بين الجغرافيين من جهة والمؤرخين من جهة أخرى ، ولعل أقرب الآراء إلى الواقع وأكثرها تمشياً مع طبائع الأشياء هو ذلك الرأي القائل بفصل بادية الشام وأرض العراق عن الجزيرة العربية ، واعتبار أن حدها الشمالي هو أطراف صحراء النفود عند التقائها ببادية الشام .

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٩٧

(٢) صفة جزيرة العرب ص ٢٧

وتتكون شبه جزيرة العرب من هضبة صحراوية يفصلها عن مياه البحر - التى تحدها من الشرق والغرب والجنوب - سلاسل جبلية. تترك بينها وبين الساحل سهولا ضيقة تختلف سعتها باختلاف مواقعها، وترتفع قمم هذا الاطار الجبلى الى علو يبلغ ثلاثة آلاف من الامتار فى بعض الجهات الركنية وبذلك وقف حاجزا بين البحر والداخل حيث تنبسط الهضبة فى صورة فيافي وصحارى يختلف نصيبها من العمران باختلاف ما تصيبه من مياه الامطار .

وعلى هذا فانه من الممكن تقسيم بلاد العرب الى ثلاثة اقسام جغرافية متميزة هى :

- ١ - الاطار الجبلى .
- ٢ - السهول الساحلية التى تقع بين الاطار الجبلى والبحر .
- ٣ - الهضبة الداخلية .

### أولا - الاطار الجبلى :

وهو عبارة عن سلسلة من الجبال البركانية تحيط بشبه الجزيرة من جهاتها الشرقية والغربية والجنوبية . وعلى الرغم من أن جميع هذه الجبال متشابهة من حيث التكوين ، الا أن جبال كل جهة من هذه الجهات الثلاث تختلف عن الاخرى اختلافات كبيرة تبعا لاختلاف طبيعة البحر الذى تتاخمه اذ أن هناك فروقا جوهرية بين البحر العارى ، والمحيط الواسع ، والخليج الضيق .

وعلى هذا الاساس فانه يلزم تقسيم الاطار الجبلى الى ثلاثة اقسام متميزة هى :

### ١ - سلسلة الجبال الغربية :

وتتألف من سلسلة جبال «السراة» التى تمتد من خايج العقبة شمالا حتى اليمن جنوبا بمحاذاة البحر الاحمر وبانحدار شديد نحو - أى نحو الغرب - وميل تدريجى نحو الداخل - أى نحو الشرق . ويطلق على الشريط الساحلى الضيق المحصور بين هذه الجبال وبين مياه البحر الاحمر اسم «تهامة» .

وتنقسم هذه السلسلة الجبلية - تبعا لاختلاف عروضها الجغرافية - الى ثلاثة اقسام . . سراة الحجاز فى الشمال ، وسراة اليمن فى الجنوب ، وبينهما سراة العسير .



أ - أما سراة الحجاز فتبدأ من خليج العقبة حتى خط عرض ٢٠ ،  
أي أن طول سراة الحجاز يصل إلى حوالي ألف كيلو متر . ويطلق على  
القسم الشمالي من هذه المنطقة اسم «مدين» . ويقطع سلسلة جبال  
سراة الحجاز عدد من الأودية التي تكون ممرات طبيعية بين البحر  
والداخل ، كذا بين الشمال والجنوب . وقد عرفت هذه الممرات منذ  
القدم على أنها طرق للقوافل ومن أشهرها « وادي العقيق » بين مكة  
والمدينة « و « وادي القرى » ( بين الشام والمدينة ) .  
وتقل الأمطار في هذه المناطق ، وترتفع درجة الحرارة وتعم الرطوبة  
على الجانب الغربي - المواجه للبحر - بينما تكاد تنعدم على الجانب  
الشرقي . وتوجد الزراعة حيثما يكثر المطر أو حيث يمكن تخزين مياهه  
- مثلما في الطائف - فيزرع القمح والشعير والذرة والحمص والبلح  
والكروم والتين . وفي هذه المنطقة - سراة الحجاز - تقع مدينتا «مكة  
والمدينة»

ب - وسراة العسير تمتد من جنوب مكة حتى مشارف اليمن  
في شكل كتلة واحدة صماء لا نبات فيها ولا ماء ولا ممرات للقوافل .

ج - أما سراة اليمن فتنتشر على مدخل البحر الأحمر وتختلف  
اختلافاً كلياً عن سابقتيها ، فهي أخصب بقاع شبه الجزيرة وتتبع في  
مناخها الإقليم المداري ذا الأمطار الصيفية « ولذلك سميت منذ أقدم  
العصور باسم «بلاد العرب السعيدة» . وانحدارها متدرج على شكل  
مساطب مما يساعد على زراعتها . والمحصول الرئيسي لهذه المنطقة  
هو البن ، وأشهر مدنها « صنعاء » .

## ٢ - سلسلة الجبال الجنوبية :

وتمتد من مضيق باب المندب حتى رأس الحد «شرقي عمان» .  
وهذه السلسلة الجبلية مكونة من كتل صخرية تبلغ أقصى ارتفاعها -  
في الغرب وتتدرج في الانخفاض كلما اتجهت شرقاً . وأمطارها صيفية  
غزيرة تنبت المراعي والأشجار «وأهمها أشجار البخور والمطاط» .

## ٣ - سلسلة الجبال الشرقية :

وتمتد من رأس الحد «شرقي عمان» إلى «رأس مسند» في مضيق  
هرمز) وهذه السلسلة الجبلية تشبه سالفاتها - أي السلسلة الجنوبية -  
إلى حد كبير وتبلغ أقصى ارتفاعها في إقليم عمان ، وتتلقى أمطاراً شتوية  
كافية لنمو الأحراش الطبيعية والمراعي الجبلية . وفي هذه المناطق

كذلك يزرع البن والفواكه والحبوب ، وتخترقها أودية خصبة يزرع فيها النخيل .

### ثانيا - السهول الساحلية :

وهي عبارة عن شريط ساحلى ضيق محصور بين ذلك الاطلس الجبلى وساحل البحر . وهذا الشريط يضيق فى بعض المناطق بحيث يصير فى حذاء الشاطئ مباشرة ، بينما يتسع فى مناطق اخرى حتى يصل عرضه الى اكثر من ٥٠ كيلومترا . وكما قسم الاطار الجبلى المتاخم لتلك السهول الى ثلاثة اقسام ، فانها - تبعا لذلك - تنقسم الى اخرى الى ثلاثة اقسام مناسبة لاقسام الاطار الجبلى . وهذه الاقسام هي :

#### ١ - السهول القريبة :

وهي السهول المحصورة بين سلسلة جبال السراة والبحر الاحمر ويطلق عليها اسم « تهامة » . ( وكلمة تهامة انت من « التهم » وهو ركود الريح . فسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها ) « ١ » . وهذه المنطقة « تهامة » تنقسم الى نفس الاقسام التى تنقسم اليها جبال السراة ، فامام سراة الحجاز توجد تهامة الحجاز ، وامام سراة العسير توجد تهامة عسير ، وامام سراة اليمن توجد تهامة اليمن .

وسطح هذه السهول مؤلف - فى معظم اجزائه - من مجروفات السيول ومن رمال البحر ، لذا فهو غير صالح للزراعة . ودرجة حرارته شديدة الارتفاع لا يعدل منها القرب من البحر « لان البحر الاحمر بحر مطلق » ولا هطول الامطار « لانها قليلة جدا باستثناء نهاية الشريط عند اليمن حيث تغزر الامطار صيفا » .

ولهذا فان الحياة فى هذا الاقليم الحار الجاف تعتبر صعبة وقاسية ، فالنباتات معدومة الا من اعشاب قليلة واشواك لا تصنع الا لرعى الابل ، بعكس المناطق المرتفعة المجاورة الصالحة للزراعة . وساحل البحر قليل الفجوات غير صالح للملاحة فى معظم اجزائه ، وهو عرضة للمد والجزر ويجاوره عدد من الجزر المرجانية والبركانية « ولكن الحاجة الملحة خلقت بعض الموانى لتكون مراكز اتصال بين شبه الجزيرة والبحر مثل مرفأ الوجه وينبع وجده والحديدة » .

(١) معجم البلدان - ياقوت الحموى ج ٢ : ٣٦



## ٢ - السهول الجنوبية :

وتشمل سهول جنوب عمان ومهرة وحضرموت وعدن والمحميات التسع . وهذه السهول يطلق عليها كذلك اسم «تهامة» . وهى سهول فقيرة جافة منعدمة المطر ، ولا تقوم الحياة بها الا فى بعض الوديان حيث يمكن استخراج الماء من الارض . وتهب عليها رياح صيفية حارة تعرف باسم «السموم» .

وبعض سهول عدن والعوالق السفلى غنى بينابيع المياه والاشجار المثمرة «مثلما فى لحج» . وعلى الرغم من أن الساحل الجنوبي لا يصلح كذلك للملاحة «باستثناء مرفأ عدن المشرف على مدخل البحر الاحمر» الا أن معظم سكان المنطقة يعتمدون على الصيد البحرى وتجفيف الاسماك شتاء وجمع بلح النخيل صيفا .

## ٣ - السهول الشرقية :

وهى تسمى فى الجزء الجنوبي منها باسم «تهامة» كذلك اذ يقال لها «تهامة عمان» لشدة شبهها بالسهول الساحلية الغربية . وهذه المناطق يزرع فيها الحبوب والفاكهة والنخيل ، ويشتغل سكانها بالملاحة كذلك لصلاحية الساحل وقيام المرافئ الطبيعية فيه .

اما فى الجزء الشمالى فان جبال عمان تبدأ فى الانحدام وتصبح المنطقة كلها هضبة متدرجة الانخفاض . وهى تتألف من ساحل القرصان وبحر البنات فشبه جزيرة قطر فخليج وجزر البحرين حتى خليج الكويت . وتعتبر الملاحة وصيد اللؤلؤ من المهن الاساسية لسكان تلك المناطق . والاقاليم المتاخمة للساحل رطبة موبوءة بالحميات ، شديدة الحرارة .

## ثالثا - الهضبة الداخلية :

وهى عبارة عن اراضى منخفضة اطلق عليها اسم «صحارى» . وتنقسم الى اربعة اقسام :

### ١ - الربع الخالى :

ويطلق عايه اسم «الصحراء العربية الكبرى» ، ويشمل حوالى ربع مساحة شبه الجزيرة ولذلك عرف باسم «الربع» ، كما أنه اشتهر بخلوه من السكان لصعوبة الحياة فيه ولنعومة رماله التى تبتلع المار عليها .

## ٢ - النفود الكبرى :

ويقصد بها الصحراء الواسعة الممتدة بين نجد وبين وادي الشام والعراق ، «ومصنى كلمة نفود هو الرمال الكثيفة التي تسفوها الرياح فيصعب المرور فيها» . وفي أطراف هذه الصحراء توجد كثير من المنخفضات التي تتجمع فيها المياه مكونة الواحات «مثل واحة البتوف - ودومة الجندل - ومعان وتبوك وتيماء» أو توجد آبار المياه الجوفية التي يحفرها رجال القوافل والرعاة . وتجتاز القوافل صحراء النفود لا سيما في فصلي الربيع والشتاء حين تهطل بعض الأمطار وتعتبر الأراضي الشمالية منطقة انتقال بين الصحراء والسهول إذ يكسوها العشب شتاء وتتخللها وديان تبقى فيها مياه الأمطار مدة أسابيع وتكثر المياه الجوفية القريبة من الأرض وذلك عن طريق حفر الآبار .

## ٢ - الدهناء :

وهي امتداد لصحراء النفود الكبرى نحو الجنوب والشرق ولذلك فإنها تعرف أحيانا باسم «النفود الصغرى» وتقع بين الأحساء ونجد على شكل لسان طويل يصل بين صحراء الربع الخالي جنوبا وصحراء النفود الكبرى شمالا . وهذه المنطقة عبارة عن سلسلة من الأكام الرملية التي يصعب اجتيازها وتخترقها عدة طرق صحراوية تصل بين نجد والأحساء .

## ٤ - هضبة نجد :

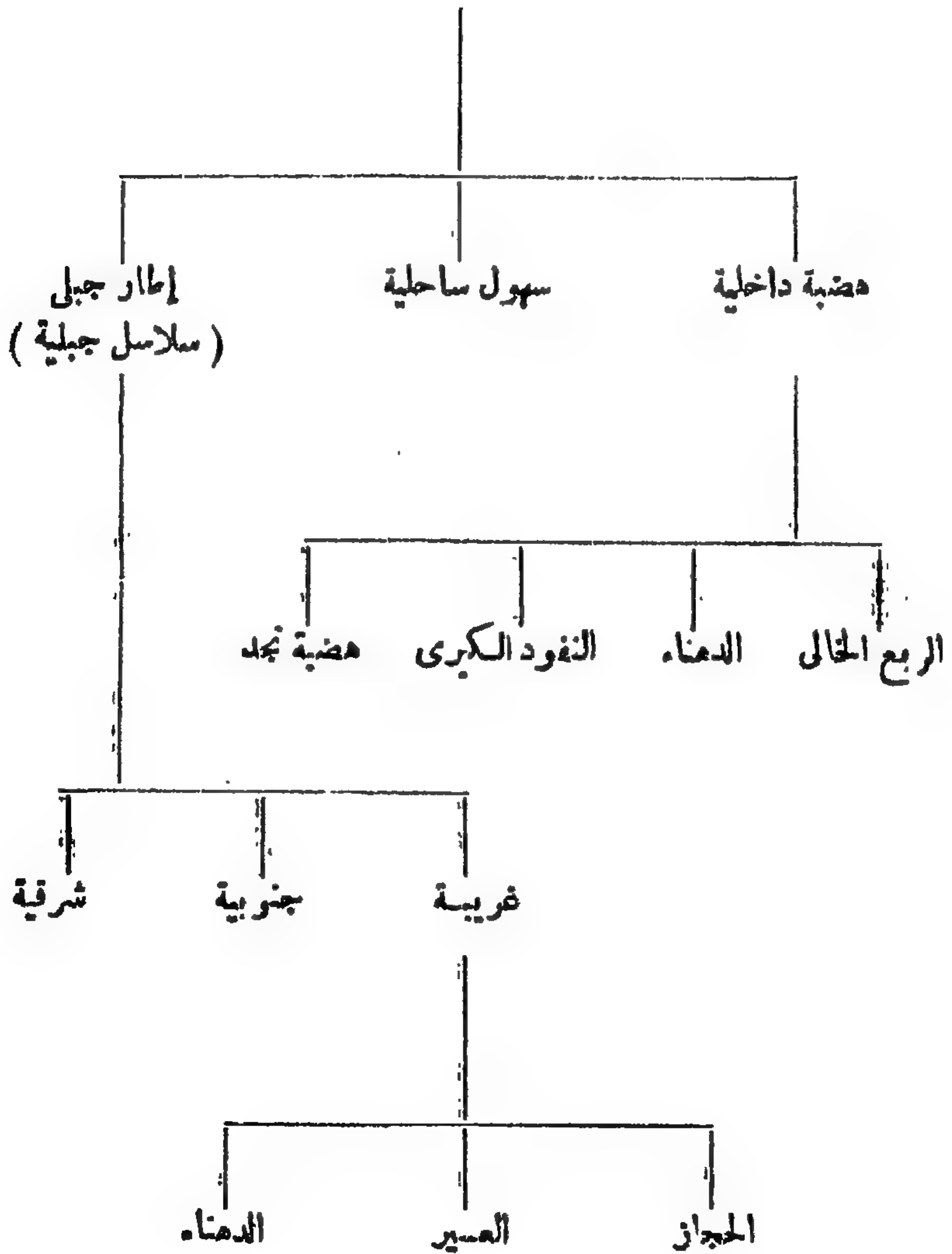
وتشمل وسط شبه الجزيرة وتعتبر أكثر أقاليمها اتساعا ، فهي تتألف من هضبة واسعة يطلق عليها اسم «نجد أو العارض» وتتكون من سلسلة متشابهة من الواحات ترتفع في وسطها سلسلة من الجبال متجهة من الشمال إلى الجنوب يعرف الجزء الشمالي منها باسم «السدير» ثم يتفرع جنوبا إلى شعبتين ، شعبة تتجه نحو الجنوب الغربي وتسمى «الطويق» والآخرى تتجه نحو الجنوب الشرقي وتسمى «العرمة» ، كما توجد في الشمال كتلة جبلية تسمى «جبل شمر» وتحتوي على جبلين متوازيين هما «اجا وسلمى»

وتتلقى نجد كمية من الأمطار تكفي لإفاضة السيول في الوديان وإقامة واحات استقرارية وحياة زراعية إلى جانب قبائل البدو الرحل الذين ينتقلون شتاء إلى سهول النفود ويعودون صيفا إلى واحسات نجد لتبادل التجارة وكذلك للغزو وشن الغارات .



# التقسيم الطبوغرافي

## لشبه جزيرة العرب



## الحياة الاجتماعية لسكان الجزيرة العربية

من ذلك العرض السريع لجغرافية الجزيرة العربية يتضح . ان طبيعة ارض هذه الجزيرة وتضاريسها تختلف اختلافا بينا من مكان لآخر . فمياه البحار والمحيطات تحصر فيما بينها مساحة هائلة من الارض تعادل ربع اوروبا . ومع ذلك فانه لا يوجد بها نهر واحد او بحيرة . وارض الجزيرة ترتفع في معظم انحاءها ارتفاعا كبيرا فوق سطح البحر ، فهضبة نجد - التي في الوسط - يبلغ ارتفاعها نحو الفين وخمسمائة قدم اما جبال اليمن الشاهقة - في الجنوب - فتصل قممها الى اكثر من ثنتي عشر الف قدم (١) . وبين هذه وتلك تمتد الصحراء الرملية المترامية الاطراف التي يتخللها القليل من الاغوار والنجاد .

وتبعاً لاختلاف تضاريس مكان عن آخر من شبه الجزيرة العربية يختلف كذلك مناخه كما تختلف احواله المعيشية . فالسواحل معتدلة المناخ - نسبيا - بردها محتمل وحرها يطاق ، والمناطق المرتفعة تكسو الثلوج قمم جبالها شتاء «٢» ويربض في ارجائها الصقيع بينما وسط شبه الجزيرة الصحراوى يسوده المساك القارى وتهب عليه رياح السموم والانواء .

وتعتمد شبه الجزيرة اعتمادا كليا على مياه الامطار الى جانب القليل من العيون والآبار وبعض مسابيل المياه التي تقوم حولها المسكن والقري اذ يتوفر فيها الماء لرى بعض الزراعات البسيطة ، والا فلينبت الكلا حيث تهطل الامطار ، فاذا لم تهطل حل الجذب والقفر . وهكذا نجد ان قلة الماء بالاضافة الى جفاف الهواء وملوحة التربة جعلت فرص نمو النباتات تقل الى درجة كبيرة بحيث أصبحت «النخلة» هي الاساس الزراعى الاول واصبح بلحها قوام طعام البدوى «٣» .

(١) تاريخ العرب ( مطول ) لفيليب حتى ج ١ ص ١٦

(٢) المسالك والممالك - للاصطخرى ص ١٩

(٣) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٣ ص ٢٠٩



وعلى ذلك فانه يمكننا ان نقسم الجزيرة العربية - من حيث البيئة الطبيعية - الى ثلاثة نطاقات اجتماعية هي :

اولا - مناطق الاستقرار الطبيعي حيث يوجد الماء وينبت الزرع ويعتدل المناخ فتنشأ دول مستقرة نسبيا مثلما في اليمن والشام والحيرة . ويكون اعتماد هذه المناطق الاساسى على الزراعة والتجارة . وتجمع اهلها وحدة اجتماعية واسعة فيكونون شعبا او دولة . ويرتفع مستوى حياتهم الطبقي والحضارى بحيث يصلون الى درجة لا بأس بها من الرقى .

ثانيا - المناطق الصحراوية التى تهطل بها بعض الامطار او ينسج فيها بعض العيون والآبار فتقوم عليها زراعات بسيطة تسمح باستقرار نسبي مثاما في مدن وقرى الحجاز او الواحات المنتشرة في الصحراء . ولما كانت الزراعة لا تكاد تقيم حياة سكان تلك المناطق ، فانهم يعتمدون - الى جانبها - على الرعى . ووحدهم الاجتماعية لا تصل الى مستوى الشعب - لقلة عددهم - وانما تكون على شكل قبيلة او عدد من القبائل بينها حلف او جوار . وهؤلاء لا يصلون في مستواهم الحضارى الى مستوى سكان المناطق السابقة .

ثالثا - المناطق الصحراوية التى لا يفي مأوها بحاجة الزرع وربما انبتت الكلا لترعاه الابل فاذا ما غاض الماء وجف الكلا اضطر سكان هذه المناطق الى الارتحال بحثا عن كلاً جديد . وعلى ذلك فان هؤلاء السكان يكونون مجموعة من البدو الرحل القليلى العدد بحيث يصلون - في تكوينهم الاجتماعى - الى عشيرة او فخذ او بطن من قبيلة . وقوام حياتهم الرعى كمهنة والغارة كمورد من موارد الرزق ولهذا فان مجتمعهم بدائى غير متحضر .

ومنذ القدم قسم جغرافيو العرب اهل الجزيرة العربية الى : «سكان الممالك وسكان البوادي» ، واعتبروا ان سكان الممالك هم اهل اليمن والشام والحيرة ، اما سكان البوادي فقد قسموهم الى قسمين : «اهل المدر ، واهل الوبر» ، ومثلوا لاهل المدر بقبيلتى الاوس والخزرج في المدينة وبثقيف في الطائف وقريش في مكة ، واعتبروا اهل الوبر بقية سكان الجزيرة من البدو والرحل سكان الخيام «١» واهل هذا هو ما حدا ببعض المستشرقين الى القول بأن العرب لم يكونوا مجتمعا واحدا وانما كانوا طبقات مختلفة تمثل المجتمعات الانسانية التى مرت بها البشرية في تاريخها الطويل . «٢» .

(١) مختصر الدول لابن العبري ص ١٥٨

(٢) مصادرها الشجر الجاهلي - لناصر الدين الأسد ص ٩

ويرجع المؤرخون الشعب العربي الى اصلين اوليين هما العرب الماربة - أو شعب قحطان - والعرب المستعربة - أو شعب عدنان الذين يرجع نسبهم الى اسماعيل بن ابراهيم (١). وهذا يختلفان عن بعضهما اختلافات كبيرة من حيث النظام الاجتماعى واللغة والدين والاسماء. وذلك تبعا لاختلاف اصلهما ويشتهما (٢) .

وتناسل من عقب عدنان : معد الذى كان له اربعة اولاد هم : اباد ونزار وقنص وانمار . ولكن الفتنة ما لبثت ان وقعت بينهم ففرقوا ولعل السبب الاساسى فى تفرقهم هو تكاثرهم المستمر بحيث وصلوا الى درجة اصبح المكان معها لا يتحمل مجموعهم فصار لزاما على البعض ان يرحلوا للبحث عن ماوى جديد . . . وتلك هى سنة الحياة البدوية .

ومن نزار انحدر : ربيعة ومضر . ومن مضر تشعب : قيس عيلان والياس ، ومن قبائل قيس بنو غطفان ، التى من بطونها بنو عباس وفارسهم عنبرة بن شداد .

وهكذا نجد ان الظروف الطبيعية لتلك البيئة الصحراوية هى التى قسمت اولئك البدو الى وحدات اجتماعية صغيرة اطلقوا عليها اسم «القبيلة» . فاذا تكاثر افرادها حتى ضاقت بهم الارض انقسموا الى بطون أو افخاذ أو عشائر ، وكون كل منهم وحدة اجتماعية قائمة بذاتها ومستقلة عن غيرها استقلالاً تاماً مع ارتباطها بقبيلتها الأم ارتباطاً معنوياً أو نحوه .

والبدو الذى تربط حياته بالكلا والماء لا بد ان يتكالب عليها ويتناحر حولها ، فاذا عز عليه الماء والكلا خرج الى عرض الصحراء باحثاً عن القوت فيصيد أو يصاد ، والا فالغارة والغزو لاغتنام ما يقيم الاود . لهذا كانت حياة البدوى دائماً قتالاً أو تاهباً لقتال ، ولهذا كانت القوة والشجاعة شرطاً من شروط بقائه وعاملاً من أهم العوامل التى تلعب دوراً فعالاً فى مجتمعه ، ولهذا أيضاً كانوا يكرمون الشجعان ويتفاخرون بأعمالهم ويشيدون بذكورهم وذكر شجاعتهم (٣) . ومن هنا جاءت شهرة عنبرة .

والبدو - افراد القبيلة الواحدة - لا تجمعهم المصلحة المشتركة التى توحد بين أبناء الامة والوطن ، لان هذه المصلحة لا تلبث ان تشيق عليهم فتقلب الى مصدر نزاع وخصومة بدلا من ان تكون رابطة عقد وجامعة شمل . لهذا كان لا بد لابناء القبيلة الواحدة من رابطة اخرى

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٨

(٢) العرب قبل الاسلام لجورجى زيدان ص ١٨٧

(٣) مروج الذهب - للمسعودى ج ١ ص ٢١١

تجمعهم وتربط بينهم . وقد وجدوا هذه الرابطة في النسب ، ولذلك نجد أنهم عنوا بحفظ أنسابهم وضبطها وردها إلى الآباء الأولين والمبالغة في استقصائها كما تفاخروا بها واعتمدوا عليها كل الاعتماد في الفخر والمدح والهجاء . ويبدأ النسب عندهم بالعائلة «الوالدان والاختوة والاعمام» ثم الفصيلة التي تتألف من عدد من العائلات ، يليها الفخذ الذي يضم بعض القبائل ، وهذه تنضم إلى بعضها فتكون البطن ومن البطون تكون العمارة ، ومن العمائر تتألف القبيلة ، ومجموع القبائل هو الشعب .

من هذا يتضح أن الأصل في العصبية عند العرب هو الأبوة والأمومة . أي الانتساب إلى أب وأم كريمين نسبهما معروف ومتصل . فالأب هو الأصل في الانتساب والام تقوده إلى الخؤولة التي كان لها شأن عظيم عندهم . ولهذا فإن العربي كان لا يلحق بنسبه إلا من كانت أمه حليلة من ذوات النسب . . قال الحجاج بن يوسف مفتخرا «لم تلدني أمة بيني وبين آدم ما خلا هاجر» (١) وهذا الأمر هو الذي أنشأ عقدة العقد لعنترة وكان عاملا ذا أثر قوى سواء في تكوينه أو في مجرى حياته .

فإن الأمة كان يعتبر عبدا بصرف النظر من أبيه وعن اعترافه بوطء تلك الأمة أو عدم وطئها . ومع ذلك فإن هذا النظام لم يقف حائلا دون البارزين من العبيد - الذين يأتون أعمالا عظيمة أو تدعو الحاجة إلى استحقاقهم والانتساب إلى ساداتهم من العرب الذين خلص نسبهم ، أو على الأصح الحاقهم بنسبهم ، مثلما حدث لعنترة . فالاستحقاق كان من توابع العصبية العربية ، وعن طريقه يمكن للعربي أن يلحق بنسبه عبدا أو أسيرا أو مولى ، وأن يسميه باسمه وبذلك يصبح كواحد من القبيلة له نصيب النحر وجميع حقوقه وعليه جميع واجباته ، كما أنه يرث ويورث مثله في ذلك مثل الابن الصريح . (٢)

والدافع إلى الاستلحاق - في هذا المجتمع البدوي - غالبا ما يكون هو الرغبة في استغلال الشخص الذي يريدونه أما لكسب مادي مثلما روى عن نصيب - المغنى المعروف - حينما أراد مواله أن يلحقه بنسبهم فأبى وقال لهم : « والله لأن أكون مولى لائقا أحب إلى من أن أكون دعيا لاحقا ، وقد علمت أنكم تريدون مالي » (٣) ، أو أن يكون الدافع إلى الاستلحاق هو الرغبة في الحصول على نصرته المستلحق

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٧١

(٢) الأغاني ج ١٧ ص ٩٤

(٣) الأغاني ج ١ ص ١٢٤



مثلاً فعل معاوية بن ابي سفيان مع زياد بن ابيه - أو زياد بن سمية - فاستشهد خماراً من أهل الطائف أن أبا سفيان جاءه والتمس منه بغيا فأقاه بسمية فحملت منه زياد وبذلك الحقه بنسبه ، وسمى بعسدها زياد بن ابي سفيان . (١) أو يكون الدافع الى الاستلحاق هو الحاجة الحقيقية للقبيلة الى هذا الذي ولد لاحد رجالها وكل ذنبه أن أمه كانت أمة وليست حرة ولكن أخلاقه وفعاله تدفع القبيلة الى الاعتراف به ورد حقه المسلوب اليه ، وهذا هو ما حدث لعنترة حينما أعلن شداد الحاقه بنسبه .

بومع ذلك فإن الاستلحاق لم يكن يعيد الى الرجل الا حقوقه المادية والرسمية فحسب ، أما الحقوق الاجتماعية والنفسية فإنه كان يفتردها ويظل تحت تأثير المعاناه منها من ذلك أنهم كانوا يطلقون عليه اسم « الدعى » ويتأخرونه الا فيما تقتضى الرسمىات ، ويعزونه بأصله لأوى الأسباب اوريا بلا سبب . وهكذا يعيش وسط القبيلة بعقدته القديمة أو بعقدة جديدة قريبة الشبه من العقد القديمة .

ولعل السبب فى ذلك هو الحرية الشخصية التى كان يتمتع بها كل فرد من افراد القبيلة لا سيما حرية الراى وحرية القول ، وقد تصل هذه الحرية الى درجة أنه يستطيع رفض ما اجتمع عليه راي الاغلبية من أبناء القبيلة . (٢) - ولما كان العربى دائماً يحتقر أبناء الاماء (٣) ، فمعنى هذا أن استلحاق الرجل لن يعفيه من هذا الاحتقار بل ربما زاد عليه شيئاً من التحامل والحقه وكان سبباً من اسباب مناهضته والتحرش به .

من هذا يتضح ان علاقة الفرد بالقبيلة كانت تنقسم الى قسمين متميزين ، أولهما ما كان يتعلق بالسياسة العامة لها - أى علاقتها الخارجية - وهنا كانت شخصية الفرد تكاد تختفى وتذوب بأكملها فى القبيلة . هذه العلاقة هى التى كانت تضمن بقاء الفرد وتيسر معيشته وتحميه من الأعداء ، وأوضح مظاهرها تلك المقولة المتواترة بين القبائل « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، وهذا هو ما عبر عنه أبو سفيان بقوله

عن قريش : أنا رجل منها ما فعلت فعلت (٤) كما كان أوضح قوانين هذه العلاقة اجتماع القبيلة كلها على دفع الدية اذا ما قتل احد أبنائها فرداً من قبيلة أخرى .

(١) الكامل فى التاريخ - لابن الاثير ج ٣ ص ٢٢٥

(٢) الدعوة الى الإسلام - لسير توماس أرنولد - ترجمة حسن

ابراهيم حسن ص ٣٦

(٣) وفيان الأعيان - لابن خلكان ج ١ ص ٣٢٠

(٤) كتاب المغازى - للواقدي ص ٢٠٠

اما داخل القبيلة فقد كانت حرية الفرد مطلقة ومكفولة ما لم يقترب ائاما في حق قبيلته ، فله مثلا حرية القول وحرية معارضة شيخ القبيلة بل واجماعها - وذلك في الشئون الداخلية فحسب - ولكن اذا استقر رأى الجماعة على امر معين في شأن من شئونها الخارجية - كفارة ، اورد غارة ، او تحديد علاقة بالجيران - فان كل فرد من افراد القبيلة ملزم بتنفيذه وتابع لها في كل ما تأتية . وله كذلك حرية تامة في طريقة معيشته وفي تنقله ، وفي عقيدته ، وفي تجارته فلم تكن هناك اية قوانين تلزم بمعيشة معينة او بعقيدة معينة ، كما كانت القبيلة لا تتدخل في تجارة ابنائها وفي دخلهم ومعاملاتهم ، ولكن اذا ما اقترب الفرد امرا من شأنه تعريض سلامة القبيلة للخطر او تهديد وحدتها - كان قتل فردا من افراد قبيلته - فانه يعد بذلك مجرما وتطارده القبيلة للقصاص منه ، او تخلعه عنها وتتركه وحيدا وسط الغلالة ليفنى . فان كتبت له الحياة انضم الى عصابة من عصابات الصعاليك ، او زاد حظه قليلا فتسلحه قبيلة من القبائل .

هذه الحريات الشخصية كان عمادها المساواة التامة بين جميع افراد القبيلة ، فلا سيد ولا مسود ولا طبقة تعلو اخرى ، وانما الجميع سواسية لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات ، حتى شيخ القبيلة كان لا يزيد عن اى فرد من افراد قبيلته ، فهو لا يحتجب ولا يخاطبه أحد بالقاب التعظيم والتفخيم ، وانما ينبع احترامهم اياه لكبر سنه ورجاحة عقله وقيامه بالفصل بينهم في قضاياهم الداخلية (١) ... فهو « اى شيخ القبيلة - لا يتوج ولا يحرص على القاب التفخيم ولا يحتجب عن عشيرته ولا يستأثر بالرأى في الامور العظام ، فليست سلطته مطلقة . » (٢)

والنظم الاجتماعية تختلف من امة لاخرى اختلافات كبيرة تبعا لاصل السكان وطبيعة البيئة وظروف الحياة ، فقد اثبت البحث في حياة الامم ان النظام الاجتماعى للامة هو في الحقيقة عنوان مشاعرها واحتياجاتها الموروثة . ولما كانت الجزيرة العربية من اكثر بلاد العالم جدبا ، وكان اهلها مقيدون بحدودها لا مناص لهم من الاكتفاء بما تنتجه ارضهم القاحلة ، لذلك فان نظامهم الاجتماعى أحل الغارة والغزو باعتباره مصدرا طبيعيا من مصادر الرزق ، ورفع مفهومه بحيث أصبح بالنسبة لهم يوازى مفهوم الحروب الدولية بالنسبة للامم الحديثة ..

(١) ملوك العرب لامين الريحاني ح ١ ص ٢٦

(٢) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية - للدكتور طه حسين ص ٨٧

فالفارة والسلب لم تكن عملا قانونيا فحسب ، وانما هى عمل بطولى ومصدر شرف ومجال مفاخرة .

وبقدر ما كان الفوز فى الفارة مفخرة ، كانت الهزيمة فيما مدلة ومجلبة للعار فضلا عن ضياع مصادر الحياة الاساسية من اخذ الابل والانعام وسبى النساء والاطفال . وهذا العار لا يمحوه الا القصاص والاخذ بالثأر . فالبدوى المهزوم لا يعيش الا على أمل واحد هو رد تلك الهزيمة والتمكن من غريمه مهما طال الزمن . لذلك كانت الحرب هى المحور الاساسى للحياة البدوية باعتبارها اول ضرورة من ضروريات تلك الحياة . وكانت فلسفتهم تجاهاها ان اغز انت قبل ان يسزوك غيرك وكن دائما على استعداد لدفع محارب أو رد مغير .

وكان من مظاهر ذلك النظام الاجتماعى انه اصبح من العسير على الفرد أن يعيش بنفسه ، فالانسان الذى يعيش منفردا فى مثل هذه البيئة مصيره الى زوال عاجل « ولا يزول ضعفه هذا الا اذا انضم الى غيره ليكونوا جماعة هدفها الاول هو العمل على حفظ الحياة لعضائها ، وبقدر ما يكون من تضامن بين افراد هذه الجماعة تكون عداوتها وتربصها بغيرها من الجماعات .

وعلماء الانساب يقسمون الطبقات الاجتماعية فى البيئة العربية الجاهلة الى عدة اقسام يندرج بعضها تحت بعض هى فى معظمها : الجماهير - أى مجموعة الشعوب - وبعد الشعب تأتى القبيلة فالعمارة فالبطن فالخذ فالعشيرة فالفصيلة فالرھط الذى هو أسرة الرجل خاصة وقد قال البعض : ان الشعوب هم العجم بينما القبائل هم العرب . وقد سميت القبيلة قبيلة لتقاربها وتناظرها وإن بعضها يكافئ بعضها . وقيل لها عمائر من الاعتمار والاجتماع ، وقيل لها بطون لانها دون القبائل ، والافخاذ لانها دون البطون ، ثم العشيرة وهى رھط الرجل ثم الفصيلة وهى اهل بيت الرجل خاصة . « ١ »

من هذا نرى ان الرھط والاسرة والفصيلة تكاد تكون كلها بمعنى واحد وتدل جميعا على اهل البيت وان الفرق بينهم هو اختلاف من حيث الحجم فقط ، فالرھط ما دون العشيرة والاسرة فوق ذلك والفصيلة اكثر من هذه وتلك ، وقد اعتبر العرب ان هذه الوحدة العائلية هى اصغر وحداتهم الاجتماعية . اما العشيرة والفخذ والبطن والعمارة فتكاد كلها تتشابه كذلك لتدل على اصغر وحدة من وحداتهم السياسية . وقد عرفوا العشيرة بقولهم : « هم الذين يتعاقلون

---

(١) المقدم الفريد - لابن عبد ربه ج ٢ ص ١٥



الى اربعة آباء . « (١) - اما القبيلة فمرتبة اكبر وان كانت لا تختلف عن العشيرة الا من حيث الحجم ودرجة البعد عن الاصل المشترك (٢) .

والواقع ان محور الحياة الاجتماعية الجاهلية يدور في معظمه حول العشيرة لا حول القبيلة . فالعشيرة هي الاصل ، ولم يظهر النظام القبلي بعد ذلك الا عندما اضطرت العشائر الى التقرب من بعضها لضرورة حربية او اقتصادية . ومع ذلك فقد ظلت العشيرة هي الاصل والاساس ، كما ظلت محتفظه بذاتيتها وكيانها داخل النظام القبلي اما الاسرة فلم تعد تسهم في الحياة الاجتماعية الا بقدر يسير حيث ان كيانها الفعلي قد ذاب في العشيرة .

وكان يطلق على العشيرة كذلك كلمة « الحى » ، وهى كلمة تدل على ذوى القربى - اى الجماعة التى يمت افرادها الى بعض بعلاقة الدم - وهذه الكلمة مشقة فى الاصل من الحياة لاعتقادهم ان لاهضاء الحى حياة واحدة بسبب ما يجرى فى عروقهم من دم واحد . وكان الحى يتكون من عدة بيوت يطلق على كل منها اسم « الدار » . فلما كثرت هذه البيوت وامتدت اطرافها تنوسى المعنى القديم لكلمة « حى » واصبحت تدل على الاقليم او مكان السكنى ، واصبحت العشيرة عبارة عن جماعة اقليمية تتألف من عدة بيوت لو أسر وتقتن مكانا واحدا هو « الحى » (٣) .

وكان لكل حى - او مجموعة من الاحياء - مرعاها الخاص بها ، وماؤها الخاص بها الذى لايسمح لغريب بوروده او الاقتراب منه . وكان الحى يعمل كجماعة واحدة مترابطة نظرا لظروف البيئة الصحراوية ، فكان يرحل سويا ويقاىل سويا (٤) ، وكان جميع اعضاءه متساوين فى الحقوق والواجبات ، وكان اقدس تلك الواجبات المطالبة بالنار للقتيل والتضامن عند دفع الدية لقاتل .

ولما كانت العشيرة هى جماعة اقليمية اوجدتها الظروف البيئية القاسية والمعيشية الصحراوية الصعبة ، لذا وجب عليها ان تواجه امرين متعارضين : اولهما الدفاع عن النفس وهذا يتطلب كثرة فى عدد افراد العشيرة اذ كلما ازداد عددهم كلما ازدادوا مناعة وقوة ، ولكن كيف نفى البيئة الفقيرة بحاجات العشيرة من الماء والكلا ؟ ان هذا -

---

(١) نهاية الارب - للشويرى ج ٣ ص ١٦١

(٢) Smith Kinship p.5

(٣) الاغانى ج ١٨ ص ٢١٠

(٤) الاغانى ج ٤ ص ١٦٣

ولا شك - يدعو الى ان تكون العشيرة اقل ما يمكن عددا حتى يستطيع  
الحى ان يستوعبهم ويفى بحاجات معيشتهم . لهذا فان عدد افراد  
العشيرة كان يتراوح بين ثلثمائة وستمائة فرد وكثيرا ما يبلغ الالف .  
ولعل الالف كان هو العدد المناسب للعشيرة حيث نجد ان لفظة «الف»  
فى العبرية هو اللفظ المستعمل للدلالة على العشيرة . (١) - فاذا نمت  
العشيرة وزاد عددها عما يستطيع الحى ان يقدمه من ضروريات الحياة  
كان من اللازم - بحكم الضرورة الاقتصادية - ان تنقسم الى جماعتين  
او اكثر ، وان ترحل احدى الجماعتين ان هونا وان قسرا ، وتبحث لها  
عن حى جديد .وبذلك تصبح كل جماعة عشيرة مستقلة لها ظروفها  
ومصالحها الخاصة بها والتي ربما تعارضت مع مصالح أختها الاولى  
فتتنازعان وتتحاربان . وهذه الظاهرة سائدة ومطردة فى حياة العرب  
الاجتماعية ، نجدها بين الكثير من الاخوة مثل الاوس والخزرج ، وبكر  
وثعلب ، ومثل عبس وذبيان . فعلى الرغم من ان كل زوج منهما كان  
فى الاصل يكون حيا واحدا الا انهما ما ان وقفت بينهما ظروف الحياة  
وافترقا حتى وقع السيف بينهما ودارت عليهما رحى الحرب . (٢)

وكان يرأس العشيرة شيخ يختار من بين افرادها غالبا ما يكون اكبرهم  
سنا واكثرهم مالا واعظمهم نفوذا واجدرهم بكسب الاحترام  
الشخصى . (٣)

والتخطيط العام لمواقع الحى ( كما ذكره كوست (٤) ) : هو ان  
تكون خيمة الرئيس فى الوسط وتليها خيام الإنائه المتزوجين ، فخيام  
الاقرباء ، فخيام الخدم . وتكون الافراس امام الخيام لتكون حاضرة  
مند اول اشارة ، ثم تليها مرابط الابل والضأن والماعز وتصف الجمال  
حول خيمة الحرس على شكل دائرة ، وتنصب خيام الارصاد الصغيرة  
بعيدة عن المخيم قليلا للرقابة ليلا .

اما داخل الخيمة فانه الى جانب المتاع البسيط الملائم للحياة البدوية  
لا بد ان تحتوى كل خيمة على اسلحة ورمح ، فالحراب هى عماد  
حياتهم وهى المحور الاول الذى يدور حوله كل سلوكهم ، فهى بذلك  
العامل الاساسى فى تكوين المجتمع العربى الجاهلى ، لان البدوى دائما

---

(١) النظم الاجتماعية والسياسية عند العرب - لمحمود  
جمعة ص ١٤٦

(٢) راجع ايام العرب فى الجاهلية والعقد الفريد

(٣) الدعوة الى الاسلام - لسير توماس أرنولد - ترجمة

حسن ابراهيم حسن ص ٣٦

(٤) حضارة العرب - لليون ص ٣٤٥

أما مغير أو معرض للاغارة عليه ، بل انه ربما أقدم على الحرب تلقائية  
وبحكم العادة ، « فاذا لم يجدوا من يقاتلونهم قاتلوا انفسهم . ولعل  
خير ما يمثل ذلك قول القطامي : -

فمن تكن الحضارة أعجبه فأي رجال بادية ترانا  
أغرنا من الضباب على حلال وضبة أنه من حان حانا  
أحيانا على بكر أخينا إذا مالم نجد إلا أغانا<sup>(١)</sup>

والبدوي دائما وأبدا صاحب ثأر يسعى وراءه ، أو انه مطلوب الثأر  
منه وعليه ان يدافع عن نفسه . وهذا الثأر لا يموت مهما طال الامد ،  
فحروب الثأر دائرة تذكيتها اجيال بعد اجيال وتمر عليها السنون التي  
قد تربو على الأربعين مثلما حدث في حرب البسوس بين بكر وتغلب ،  
وفي حرب داحس والغبراء بين عيس وذبيان . (٢) - ثم هو بعد كل  
ذلك وجهها لوجه امام وحش الصحراء الكاسر الذي يشاركه سكنى  
الجزيرة والذي عليه ان يرده عن غنمه وعن نفسه ، فاذا ما جاع سعى  
وراء ذلك الوحش يطارده ويصطاده ويتخذ منه قوته وقوت اولاده .

هذه الحياة المصبوغة دائما وأبدا بالدم والتي لا مكان فيها الا للقوى  
الذي يعرف كيف يدافع عن نفسه اذا هوجم ، وكيف يهجم اذا مادفعته  
ظروف الحياة الى ذلك ، لا بد ان تكون الصفة البارزة فيها هي اجادة  
الحرب واتقان اساليب القتال ، وان تكون الفروسية هي المثل الاعلى  
والهدف الاسمى الذي يسعى اليه الجميع ، وان تكون الشجاعة هي  
قمة الصفات لا سيما اذا ما واكبها قوة احتمال وحسن تبصر . ولهذا  
فان طرق التربية عند هؤلاء القوم كانت تقوم على اساس واحد لا اساس  
سواه هو تعليم الصغار طرق الحرب والقتال وقنشتهم على الشجاعة  
والاقدام ، وتهيئتهم لاحتلال مكان الفارس في مجتمعهم وقد اقر  
الاسلام هذه السياسة التربوية واستمر عليها ودعمها بكثير من الاحاديث  
النبوية والاقوال الماثورة .

هذه التنشئة الحربية كانت وقفا على ابناء العرب ذوى النسب ،  
أما العبيد فعملهم الاساسى هو الرعى والخدمة وليس لهم ان يتدربوا  
على القتال ، بل ان ذلك كان محرها عليهم لان الدربة على القتال تتطلب  
جوادا ، والفرس في الجزيرة العربية كان شيئا عظيما لا يرقى اليه  
العبيد . ولهذا فان كاتب سيرة عنزة جعل بطله يتدرب على القتال

---

(١) فجر الإسلام - لأحمد أمين ج ١ ص ١٠ - ١١

(٢) راجع أيام العرب في الجاهلية والعقد الفريد ج ٣



خفية وهو بعيد في الصحراء ، وحينما بلغ امره مولاه شداد عاقبه على ذلك عقابا شديدا .

والحرب في ذلك المجتمع كانت محصلة للانسان والحصان والسلاح ؛ لهذا كان اهتمامهم بالفرس يعادل اهتمامهم براكبه . فكما ان الفارس يجب ان يكون عربيا اصيلا على النسب كذلك الحصان يكون معما مخولا معروف الاباء موصول النسب ، وكما كانت افضل وجباتهم هي شرب اللبن الغبوق في الصباح فان الفرس له نصيب من هذا اللبن كذلك . وكما كانوا يتغنون بانفسهم في اشعارهم ويفخرون بشجاعتهم كانوا ايضا يصفون افراسهم ويمدحون شجاعتها ويتغنون بمحاسنها . وكما كانت الحرب تندلع اذا ما اهين عربي او مست كرامته كذلك كان القتال يدور بسبب الخيل مثلما حدث للفرسين « داحس والغبراء » . وكما ان هناك مشاهير من فرسان العرب فان هناك كذلك مشاهير من افراسهم حفظ لنا الرواة اسماءها وانسابها وافعالها . (١)

ولهذا وجدنا ان كاتب سيرة عنترة لا يرضى بان يركب فارسه فرسا عاديا ، وانما هو يركبه « الأجر » الذي أبوه « واصل » وأمه « النعامة » ويجعله يدفع مقابله كل ما غنمه فرسان عبس من اسلاب واموال ، بل ويضيف الى ذلك ان عنتره نسي عشقه لعله بذلك الحصان (٢) . وليس كاتب السيرة - في ذلك - موغلا في المبالغة اذ من المعروف ان الجواد العادي كان يعادل خمسا وعشرين ناقة (٣) ، فما بال هذا الجواد المعجز المؤصل ؟

لكل ذلك كان الفارس العربي يضع فرسه في المكان الاول بل وكان يقدمه على نفسه في كثير من الاحيان ، وكان يطلق عليه من الاسماء ماله دلالة على المكانة والاعزاز ويسومه حتى لا يختلط نسبه ، ويعلمه بعلامات تبرزه ويعرف بها . وقد بلغ من وثوق الصلة بين الخيل واصحابها ان الفارس كثيرا ما كان يعرف بفرسه لا بقسماته وزيه (٤) وكان العربي خبيرا بالافراس يعنى بها العناية كلها : روى ان عمر بن الخطاب قال لعمرو ابن معد يكرب : كيف معرفتك بعرب الخيل ؟ قال : معرفة الانسان بنفسه واهله وولده (٥) وقد حفظت لنا كتب الادب والتاريخ

(١) راجع العقد الفريد ج ١

(٢) سيرة عنترة بن شداد مجلدا ص ١٣٦

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ص ٣٧١

(٤) الهلالية في التاريخ والادب الشعبي - للدكتور عبد الحميد

يونس ص ٨٩

(٥) راجع الفهرست لابن النديم

الكثير من اسماء الخيل العربية الاصيلة كما افلحنت في شرح صفاتها وما هي عليه من خصال والفوا العديد من الكتب عنها بخاصة (١)

والركن الثالث من اركان هذا المظهر الاجتماعى من مظاهر البيئة الجاهلية هو السلاح الذى لم تكن تخلو منه خيمة عربى والذى كان يحظى من صاحبه بالعناية الفائقة . وكان البدوى يقضى الوقت فى تثقيف اسلحته وصقلها واعدادها للقتال كما كان يفاخر بجودة صنعها وصلابة نصلها . وقد فطن كاتب سيرة عنتره الى هذه الناحية فسلم بطله سيفاً صقيلاً مصنوعاً من شهاب وقع من السماء ولم يقنع بان يحمل عنتره مهنداً او مشرفياً عادياً مع ان هذه من أشهر اسيايف العرب المستوردة من الهند ومشارف اليمن ) .

والى جانب السيف الذى كان يعتبر السلاح الاول للفارس العربى وجدت الرماح « الخطية واليزينية » ( نسبة الى ذى وزن المنك ) . فالسيف كان للمبارزة والقتال عن قرب اما الرمح فللكر والمباغتة . وكما كان الفارس يتدرب تدريباً كاملاً على استعمال السيف سواء وهو راكب او هو راجل ، كان عليه كذلك ان يتدرب تدريباً آخر على استعمال الرمح . وربما كانت تدريبات هذا الاخير اشق من تدريبات السيف حيث يتطلب استعماله مهارة خاصة فى التصويب .

اما الرمي من بعيد فبواسطة القسي والسهام . وكان اجود انواعها ما اطلق عليه اسم « العصفورية » . واستعمالها يتطلب اجادة التصويب وتحديد موقع الهدف دون رؤيته اعتماداً على السماع والتقدير . وهذه هى الطريقة التى اختارها مؤلف السيرة لينهى بها حياة بطله بواسطة سهم يصيبه من يد الاسد الرهيص ( فاقد البصر ) صوبه اليه عن طريق السماع والتقدير فاصاب منه مقتلاً .

تلك هى اجهزة القتال التى كان العربى لا يفارقها ولا يدخر وسعاً فى الاحتفاء بها وتقريبها من نفسه حتى ان كثيراً منهم كان يتصور اسلحته وكأنها كائنات تنبض بالحياة تعى وتحس وتستنطيع التمييز والتعرف على الأعداء وتتأثر بالفاظ الحماس وتستجيب للحث على الاقدام (٢) .

وهناك اجهزة اخرى كانت تستعمل للدفاع يأتى فى مقدمتها الدرع وهو ذلك الرداء الحديدى الذى يابس به الفارس ليقية الطعنات . وكان لبس الدرع ليس من العيوب التى تؤخذ على الفارس

---

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٤٧

(٢) بلوغ الارب للالوسى ج ٢ ص ٣٥٤ و ٣٥٧

العربي وان كان التخلي عنها يعتبر منتهى الشجاعة وقمة الفروسية .  
 أما الترس فقميص مصنوع من الجلد وكان يسمى « الدرق أو المجن » .  
 أما رأس الفارس فيغطيها بالبيضة أو المغفر كما كانت تسمى .  
 هذه الأجهزة الحربية هي عدة العربي وعتاده الذي يقيم عليه كل حياته حتى ان زيد بن حاتم يقول في أدرة اشترأها : « اننى لست اشترى أدرة وإنما اشترى أعماراً (١) » وتلك العدة لا غناء فيها اذا لم يحسن العربي استعمالها ، فالسيف لا يتر الا باليد التي تحمله . قال العتبي ان عمر بن الخطاب بعث الى عمرو بن معديكرب ان يبعث اليه بسيفه المعروف باسم « الصمصامة » ، فبعث به اليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب اليه في ذلك ، فرد عليه : انما بعثت الى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث بالساعد الذي يضرب به . (٢) .  
 وحين استعمال القوس تعتبر المهارة في اصابة الهدف هي العامل الأول ، وكان المتخصصون في ذلك يسمون « رماة الحدق » لما لهم من قدرة فائقة في التحكم والسيطرة على اقواسهم واصابة الأهداف بها . . . يروى ان رجلاً خرج يقطع الصحراء في بعض أمره فلما أصبح لحق به اعرابي راكب على حمار معه قوس وكنانة فسارا معاً ، وعنت لهما ظباء ، فقال له الاعرابي : اي هذه الظباء أحب اليك ، المتقدم منها أم المتأخر فأذكيه لك . قال له : المتقدم . فرماه فخرمه بالسهم ، فاشتويا وأكلا فاغتبط الرجل بصحبة الاعرابي . ثم عن له زفة قفا فقال : أيتها تريد فاصرعها لك ؟ فأشار الى واحدة منها ، فرماها فاقتصدها ثم اشتويا وأكلا . (٣)

وهكذا كانت الحرب هي العامل الأساسي الأول في تكوين المجتمع العربي في الجاهلية . فهي المحور الذي تدور عليه حياة الناس ، وهي المصدر الذي منه يرتزقون وعليه يعتمدون ، وهي الدستور الذي يسود العلاقات بين القبائل والأفراد ، وهي اللغة التي يفهما كل عربي والتي يتكلمها مع غيره لسبب ولغير ما سبب .

أما العامل الثاني في تكوين ذلك المجتمع فهو المرأة ووضعها فيه ، ولعل اهتمامنا بها يزداد اذا ما عرفنا أنها كانت العامل الأساسي الأول في تكوين شخصية عنبرة وتطويرها ورسم اتجاهات سيرها ، وتحديد المنحى الذي نحا اليه فارسنا بحيث لا نستطيع تفسير كل ذلك الا على أساس من معرفة مكان المرأة العربية في المجتمع القبلي .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٥٣

(٢) السابق .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٥٥



وأول ما يقابلنا من ذلك هو علاقة الرجل بالمرأة ، أو بمعنى آخر طبيعة الزواج وكيفية بناء الأسرة التي على أساسها يبنى المجتمع . من الثابت أن الانتساب إلى الأب كان هو النظام السائد بين عرب الجاهلية ، فكان الأب هو رأس الأسرة المتصرف في جميع شئونها وأمورها ، المهيمن على كل أفرادها ، إليه ينسب الأبناء وأبناء الأبناء حتى أن القبيلة كلها كانت ترجع في نسبها إلى الجد الأكبر لها . وتبعاً لذلك كان العربي القديم يظن أن كل شعب منحدر من أب واحد ينتسب إليه ، فكان « الأشوريون » في نظره منحدرين من رجل يدعى « آشور » ، والكنعانيون من رجل يدعى كنعان ، والمؤابيون من مؤاب ، والاسرائيليون من اسرائيل (١)

ويختلف المؤرخون وعلماء الأنثروبولوجي حول هذا النظام ، ففريق يقول بأنه الأصل الذي عرفه العرب وآخرون يدعون أنه تطور طبيعي للحياة الاجتماعية البدائية التي لا بد أن تكون قد بدأت بنظام الانتساب إلى الأم وأن تقدم الجماعة أدى إلى تحول هذا النظام إلى قيام العصبية الأبوية . وسواء صح رأى هؤلاء أو أولئك فمن الثابت أن العرب عرفوا نظام الانتساب إلى الأم وأنهم مارسوه بقدر طفيف . يدل على أنه كان شذوذاً وليس قاعدة ، فعلماء الأنساب يذكرون أن العرب كانوا يطلقون على ولد الياس بن مضر بن نزار ( وهم مدركة وطابخة وقمعة ) اسم « خندف » نسبة إلى أمهم خندف . (٢) وقد أفرّد مؤرخو الأدب عدداً من الرسائل عن نسب إلى أمه من الشعراء . (٣) ولكن يبدو أن هذا الإجراء الشاذ كانت له دوافع اجتماعية قاهرة أوجدتها نظم الزواج في الجاهلية . ومع ذلك فإن البدوي كان يمتنع هذا الوضع ويأنف من قبوله فقد حدث أن خطب عمرو بن حجر إلى عوف بن محلم الشيباني ابنته أم ياس ، فقال : نعم ، أزوجهما على أن أسمى بניהما وأزواجه بناتها . فقال عمرو بن حجر : أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا بوعمومتنا ، وأما بناتنا فنسكنهن أكفاءهن من الملوك ، ولكنني أصدقها عقارا في كنده وأمنحها حاجات قومها لا ترد لأحد منهم حاجة . فقبل ذلك منه أبوها وأتكنحه أياها . (٤)

(١) النظم السياسية والاجتماعية عند العرب - لمحمود جمعة ص ٧٩

(٢) نهاية الارب - للنويري ج ٢ ص ٢٦٢

(٣) ورد ذكرها في كتاب الاصابة لابن حجر العسقلاني والفهرسته

لابن النديم

(٤) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٢٣

من ذلك نرى أن أساس قيسام الأسرة في الجاهلية كان الزواج العادى الذى يذهب فيه الزوج الى أب العروسة خاطبا ، فان قبل دفع اليه المهر وحمل زوجته الى داره وأصبحت فردا من أفراد عشيرته هو وسمى أبناءه باسمه . وهذا هو السبب الذى دفع بعض المستشرقين الى اطلاق اسم « الزواج بالشراء Marrige by purchase على هذا النظام باعتبار أن المهر ان هو الا نوع من أنواع التعويض . فالعرب كانوا ينظرون الى الفتاة نظرتهم الى السلعة القيمة التى تضيف الى مال أبيها الكثير ، ومن أجل هذا كانوا يسمونها « النافجة » وكانوا يحيون الرجل اذا رزق ابنة يقولهم « هنيئا لك النافجة » (١)

ولعل هذا يفسر لنا ظاهرتين اجتماعيتين هامتين وجدتا في المجتمع اقبلى فالعرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من قبيلة اجنبية ، وكانوا يختارون لهن أفضل أبناء القبيلة وأوسعهم ثراء ، وسموا ذلك « بالكفاءة » وعدوا من الشرف الا تعطى المرأة الا للكفاء حتى ان قيس بن زهير قال للثمر : « ان لم تجدوا الاكفاء لبناتكم فخير ازواجهن القبور » (٢) ولهذا ايضا كانوا يغالون في المهر ويجادلون في طلب المزيد ، فاذا تقدم الفتاة اكثر من خاطب كان أساس المفاضلة الوحيد بينهم هو ارتفاع المهر . وربما كانت المبالغة في المهر ضربا من ضروب التعجيز حينما لا يستطيع الأب اظهار الرفض الصريح لسبب او لآخر مثلما نجد في قصة عنبرة مع مالك - أبى عبلة - وتصفه في طلب مهر ابنته منه . وكان العرب كذلك يرفضون وفضا بانا تزويج بناتهم للموالى ، وكانوا يعيرون من يفعل ذلك ، وكثيرا ما كان المعير يعترف صراحة بأن دافعه هو طلب المال وارتفاع قيمة المهر ( كما في قصة خولة بنت مقاتل بن قيس ) (٣)

فالاسرة العربية اذن كانت قائمة على أساس نظام الزواج العادى، وكما كان هذا الزواج يتم برغبة الرجل وبناء على طلبه فان التحلل منه كان كذلك يتم برغبة الرجل فيقع الطلاق لمجرد مشيئته وبكأمة منه ، ولكن عليه في هذه الحالة أن يقدم من الاسباب ما يقنع أهل الزوجة والا وقع السيف بينهم ، فان عددا غير قليل من أيام العرب كان سببه المباشر وقوق طلاق أو انفصال بين زوجين من قبيلتين مختلفتين .

وكما أباح هذا النظام الطلاق ، أباح كذلك تعدد الزوجات . واغلب الظن أن ذلك كان لحاجات يئسية فرضتها طبيعة حياة البدوى في تلك

---

(١) في القاموس : النافجة هي البنت لأنها تعظم حال أبيها بمهرها

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٤٤

(٣) الكامل للمبرد ج ١ ص ١٨١ ، والعقد الفريد ج ٢ ص ٢٤٤

الصحراء ، أهمها الرغبة في زيادة النسل وكثرة الإبناء الذين هم عماد قوى من عمد الحياة القبلية ، ولم يكن دافعه في معظم الحالات هو مجرد الانغماس في الشهوة والاغراق فيها ، فكثيرا ما كان الزوج يزف إلى زوجة ثانية بناء على رغبة زوجته العاقر وبمساهمتها . ويقد لنا «لوى» في كتابه الجماعة البدائية سببا آخر لتعدد الزوجات هو أن المرأة في كثير من الأحيان كانت تدفع زوجها إلى الاقتران بأخرى لشدة رغبتها في طرح جزء من أعباء واجباتها المنزلية على عاتق المرأة الجديدة (١) وربما كانت لها أسباب سياسية مازالت قائمة حتى الآن منها مجرد الرغبة في المصاهرة لتوفيق بين جانبيين أو للحصول على القوة أو الرغبة في عقد حلف .

والى جانب تعدد الزوجات كان يوجد في المجتمع الجاهلي نظام الاماء وما ملكت اليمين . ولعل سبب وجود هذا النظام هو ما كان لزيادة النسل من أهمية كبرى عندهم ، فالزوجة كانت اذا آتست من نفسها عقما أثرت أن يدخل الزوج بأمته على أن يتزوج من أخرى ، لأنها تعلم أن الأمة لن تطمع قط إلى مكان الزوجة ولن تنازعها أوضاعها الاجتماعية التي تتمتع بها ، أضف إلى ذلك أن تعدد الزوجات يعتبر من الناحية الاقتصادية عبئا يثقل كاهل الرجل بحيث لا يستطيع حمله إلا الأغنياء في حين كان الاحتفاظ بعدد من الاماء والجوارى - على قسلة نفقته - ينيل الرجل مآربه إلى جانب توفير الأيدي العاملة في البيت وفي خارج البيت .

وكان من عادة العرب في الجاهلية أسر النساء في الحروب والغزوات . وكانوا يتزوجوهن قصرا لأن سبي النساء هو أحد الأغراض الرئيسية للحرب والغارة . والمرأة التي تؤخذ في السبي كانوا يطلقون عليها اسم «النزيلة» لأنها انتزعت من أهلها وفصلت عنهم . والنزيع ولد الأسيرة ، فاذا ولدت الأسيرة هجينا لم يعترف به ولا بينوته ولا يورث وإنما يعامل معاملة العبيد . ويعتقد البعض أن الزواج بالأسر يرتبط ارتباطا وثيقا بنظام الزواج الخارجي الذي يتطلب من كل فرد من أفراد القبيلة أن يبحث له عن زوجة خارج القبيلة من غير أهله وذوى قرياه لاعتقادهم أن أبناء السبايا أصلح وأقوى . قال الأصمعي في ذكر النساء : بنات العم أصبر ، والفرائب أنجب ، وما ضرب رؤوس الأبطال كابن الأعجمية (٢) - وقال حاتم الطائي :

وما أنكحونا طائمين بناتهم ولكن خطبناها بأسيا فناقرا

---

Lowie R. : Primitive society, p. 40 (١)

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣٢



فما زادها فينا السباه مذلة      ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدراً  
ولسكن خاطناها بخير نساءنا      فجاءت بهم بيضا وجوههم زهرا  
وكأن ترى فينا من ابن سبية      إذا لقي الأبطال يطعمهم شذرا  
ويأخذ رايات الطمان بكفه      فيوردها بيضا وبصدرها حمراً<sup>(١)</sup>

وهكذا نجد أن نظام زواج الاماء وزواج الاسارى كان لهما أكثر من سبب اجتماعى واقتصادى وحربى مثله فى ذلك مثل تعدد الزوجات . فالبيئة الطبيعية هى التى فرضت تلك النظم وأمثالها لتلافى حاجاتها وحاجات أهل العصر . ومع ذلك فإن الكثيرين كانوا لا يقرون تلك النظم أو يأنفون منها . فبعض الآباء كان يشترط على الزوج ألا يقترن بغير ابنته أو ألا يقرب الجوارى والاماء . (٢)

من هذا يتضح أن المجتمع النسائى الجاهلى كان يتكون من طبقات ثلاث : أولها طبقة الحرائر - أو بنات العائلات - وتلك هى التى يتزوج منها العربى زواجا موثقاً ويذهب اليها خاطباً بعد أن يتأكد من جمالها وحسبها ونسبها وربما مالها كذلك ، وهو فى نظير ذلك يدفع المهر الوفير ثم يحملها الى قبيلته ليفتح لها منزلاً ويبنى بها عائلة ، والطبقة الثانية هى طبقة السبايا ، وهؤلاء يبعن فى الاسواق ويقمن - الى جانب الاستمتاع بهن وانجاب الاطفال - بخدمة المنزل والقيام على اوازمه وأداء بعض الاعمال اليدوية من غزل ونسج . وقد يظن أن هذه الطبقة مكونة فى معظمها من اجنبيات كان يجلبهن تجار الرقيق لبيعهن فى أسواق مكة وغيرها ، ولكن الواقع يدل على أنهن كن عربيات أو على الأقل كانت نسبة العربيات بينهن أكثر من نسبة الاجنبيات ، فحياة العرب كانت قائمة على الغزوات والحروب الداخلية أكثر من الخارجية وكانت هذه الغزوات تسفر عن عدد كبير من السبايا اللاتى يعتبرن أسرى وملكا لليمن ويحل ووطئوهن كما يحل بيعهن . فليس غريباً أن يكون قوام هذه الطبقة من العربيات ، وليس غريباً كذلك أن يختلفن اختلافاً كبيراً - من حيث الحقوق والواجبات - عن الطبقة الاولى - طبقة الزوجات - .

أما الطبقة الثالثة فهى طبقة الاماء ، وهؤلاء عليهن القيام بالاعمال الشاقة التى يقوم بها عادة العبيد وأهمها رعى الأغنام والأبل ، ثم

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٤٤

(٢) شرح الحماسة للتبريزى ص ١٩٠

الاعمال المنزلية المجهدة كاعداد الطعام وطحن الفسلال وجلب الماء . وبطبيعة الحال لم يكن لدى هؤلاء الاماء من المؤهلات الجسدية مايرفعهم الى درجة السبايا ، ومع ذلك فانه كان من الجائز وطوئن مرة - او مرات - تحت ظروف متحكممة وليس بصورة منتظمة مثل السبايا . . هذا فضلا عن أن السبية كانت وقفا على سيد واحد ، أما الامة فكانت مشاعا لكل المغيرين ، ولهذا فان الاعتراف بابن السبية كان أمرا طبيعيا . مسلما به ، بينما كان الاعتراف بأنفساء الاماء أمرا لا يقره العربى ولا يجيزه . . .

وهذه الطبقة هى التى كان معظم أفرادها من غير العرب ، بل ومن السودان والحبشة على وجه الخصوص ، وان كان هذا لا يمنع وجود عربيات بينهم . ونحن وان كنا قد فرقنا تفرقة واضحة بين طبقة السبايا وطبقة الاماء الا أنهما فى الواقع يتداخلان ببعضهما تداخلا كبيرا اذ كان مجرد غضب الرجل أو رضاه كفيلا بنقل المرأة من إحدى الطبقتين الى الأخرى ، كما كانت هناك حالات بين بين أى لسن بالاماء ولسن بالسبايا وانما هى شىء وسط بينهما ، وربما يجمعهما معا .

## قبيلة بنى عبس

«عبس بن بغيض» بطن عظيم من غطفان بن قيس بن عيلان بن مضر من العدنانية ، سكن نجدا وحدد صاحب «معجم ما استعجم» منازلهم بأنها بين الابانين والنقرة ومادان والزبدة . (١) «والابانان جبلان غربى القصيم يسمى أحدهما أبان الاسود والثانى أبان الابيض» والنقرة منهل يقع شرقي المدينة » . أما حديثا فقد حددها صاحب كتاب «فارس بنى عبس» بأن حدها الغربى هو جبلا الابانين ، وحدها الشرقى الرمال الواقعة شرق القصيم ، وحدها الشمالى اطراف القصيم الشمالية ، وحدها الجنوبى اقليم السر . أى أن منازلهم هى ديار القصيم ونواحيه . (٢)

وكان يجاور عبسا من ناحية الشمال والغرب بنو أسد ، وشرقا جاورهم بنو تميم ، وجنوبا بنى عامر . والى جوار بنى أسد نزلت قبيلة طيء بن أدد فى جبلى أجا وسلمى (٣) وكان بنو فزارة يقطنون وادى القرى والجانب الآخر من جبال الابانين .

ولم تكن عبس مهيبة الجانب بين جارائها فحسب ، وإنما كانت عالية المكانة بين قبائل العرب عامة ، وبين بطون قيس عيلان بصفة خاصة . فملكها زهير بين جذيمة كان يعتبر سيد قيس عيلان برمتها وكانت بقية بطون قيس تأتية بالاتاوة كل عام (٤) ، كما كانت بقيقة القبائل تخشاه وترهبه حتى أنه عندما قتل ابنه شاس « منبح » على يد رياح من قبيلة غنى لم تستطع قبيلته أن تحميه كما كانت تقضى بذلك التقاليد العربية وإنما اضطرت الى أن تتبرا منه وتنفيه خوفا من بطش زهير بها (٥) . ولعل أوضح مظهر لقوة زهير ومدى نفوذه فى الجزيرة العربية هو أن النعمان بن المنذر أصهر اليه وتزوج من اخته المتجردة .

وتبعنا لسنة الحياة الجاهلية فى الجزيرة العربية فان عبسا لم

- 
- (١) البكرى ص ١٧٨ (٢) عبد الله القرشى ص ٢٦  
(٣) معجم قبائل العرب - لعمر رضا كحالة ج ٢ ص ٦٨٩  
(٤) الأغاني ج ١ ص ٨ (٥) المثل السائر - لابن الأثير ج ١ ص ٣٣٧



تبلغ هذه المكائنة الا اغتصابا ، ولم تنل تلك المنزلة الا بشجاعة فرسانها وحسن بلائهم وكثرة عددهم . ونحن نلمح ذلك لا في سير حروبهم فحسب وانما في نظرة القبائل الاخرى اليهم ومن واقع الاوصاف التي يطلقونها عليهم . ففي اخبار يوم النناء مثلا نجد ان المستكشف الذي ارسله بنو عامر ليستطلع لهم قوة اعدائهم المغيرين عليهم لا يلبث ان يعود قائلا : « ارى قوما كأنهم الصبيان على متون الخيل ، أسنة رماحهم عند آذان خيلهم . قالوا : تلك فزارة . قال : وارى قوما بيضا جمادا كأن عليهم ثيابا حمراء . قالوا : تلك أشجع . قال : وارى قوما نسورا قد علوا خيولهم آخذين بعوامل رماحهم يجرونها . قالوا : تلك عبس اتاكم الموت الزؤام . اما في يوم اللوى فقد قال بنو هوازن عن كل قبيلة وصفها لهم المستكشف انها « ليست يشيء » الى ان قال لهم : ارى قوما ادمانا كأنهم يحملون الجبل بسوادهم ، يخذون الارض باقدامهم خدا وهم يجرون رماحهم جرا . قالوا : تلك عبس والموت معهم . ( ١ )

وعلى ذلك فان حياة عبس كانت سلسلة متصلة من الحروب المتلاحقة ، اما مشتركة مع قبيلتها الام - قيس في حروبها ضد غيرها من القبائل ، او متلاحقة مع شقيقة لها من بطون قيس وافخاذها لسبب او لآخر من تلك الاسباب التي كانت تدعو اليها طبيعة الحياة الاجتماعية في البيئة البدوية ومعظمها يتعلق بالغزو والغارة والتكالب على اسباب الحياة مما جعل لها رصيда كبيرا في ايام العرب ( ٢ )

ولكن هذه القبيلة لم تلبث ان فقدت ملكها غدرا ، الأمر الذي اقحمها في سلسلة طويلة من الحروب استمرت سنين عديدة وانتهت بفناء عبس وتحطيم كيائها كقبيلة موحدة . . فبينما كان زهير بن جديعة في اوج مجده حققت عايه هوازن بسبب اعتدائه على احدى عجائزها وتربص له خالد بن جعفر الكلبي وقتله في يوم النقر اوات ( ٣ ) فتراس على القبيلة من بعده ابنه قيس الذي لم يكن يثقل كاهله شئون القبيلة بقدر ما كان يثقله الاخذ بشار ابيه . فسار الى المدينة ليتجهز لقتال بني عامر . واثناء هذا التجهيز وقعت حادثة لم تكن على بال احد لانها شيء عادي يقع مثله كل يوم . فالعربي معتد بنفسه فخور بها يريد دائما ان يبرز الجميع وان يكون هو الذي في المقدمة . فهو يفتخر بحسبه ونسبه ، فان تساوت الانساب يفتخر بقوته ، فان كان المجال

(١). الأغاني ج ١ ص ٣٠٣ والمثل السائر لابن الاثير ص ٣٩٥

(٢) راجع العقد الفريد ج ٣ وایام العرب في الجاهلية نـ

الاجاد المولى

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ٥٠

لا يسمح بالنزال افتخر بما يملك ، وارفح الاشياء التي يملكها شأنها هو الخيل ، ولا تظهر قوة الخيل الا بالسرعة . حيثئذ يأخذ الفخر بهما مظهرا عمليا هو اطلاقها في سباق .

وهكذا شاء القدر ان تتحول المفاخرة بين قيس بن زهير وبين جذيمة بن بدر الى سباق تجرى فيه خيولهما . فاجرى الاول فرسيه . داحس والغبراء ، واجرى الثانى الخطار والحنفاء . وقيل ان حذيفة خشى الهزيمة فبعث بمن اعاق داحس عن السبق وبذلك وقع الشقاق وثار الفتنة فقتل قيس ندبة بن حذيفة ، وانتقم هذا منه بقتل اخيه مالك بن زهير ، فجمع كل منهما فرسانه ودارت المعارك بين الشقيقتين . عيس وذبيان واستمرت ما يقرب من الاربعين عاما .

وفي حرب داحس والغبراء ظهرت شجاعة عنتر بن شداد . (١) وبدا وسط قبيلة بنى عيس كواحد من فرسانها العتاة ينازل الاعداء فيهمزهم ويقتلهم . . نازل في يوم المريقب ضمضا - ابا الحصين - وهو من كبار فرسان بنى مرة فقتله بعد ان قتل العديد من فرسانهم الذين لم يبلغوا شهرة ضمضم . (٢) ثم هو بعد ذلك يظهر بمظهر البطل الذى يحمى القبيلة باجمعها ، فحينما صاحب قومه في غزوة لهم على بنى تميم وانهزموا امامها واخذ بنو عيس في التقهقر وقف عنتر بمفرده يحمى تقهقرهم ويذود عنهم بنى تميم الذين كانوا في ثرهم فمنعهم عنتر ونجت عيس دون ان يصيب مدير منهم اى سوء . وقد دفع هذا بنى عيس الى الشهادة لعنتر بحسن صنيعه وان كان قد داخل اعترافهم ذاك شئ من المرارة دفعت يقيس بن زهير ان يقول : « والله ما حما الناس الا ابن السوداء » . (٤) وهكذا أصبح عنتر بن شداد فارس فرسان بنى عيس التى اسلمت له قيادها واستحق عن جدارة لقب « عنتر الفوارس » . (٥) وسارت شهرته في طول الجزيرة وعرضها وأصبح يخشاه الفرسان حتى اننا نجد فارسا من أشهر فرسان العرب هو عمرو بن معديكرب يصرح دون خجل قائلا : « ما ابالى من لقيت من فرسان العرب ما لم يلبنى حراها وهجيناها » . ( وهو يعنى بالحرين عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث ويعنى بالهجينيين عنتر والسائب بن سلكة ) (٦)

ولم تكن حرب داحس والغبراء سببا في شهرة عنتر كفارس.

---

(١) الشعر والشعراء - لابن قتيبة ج ١ ص ٣٠٦

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٥٧

(٤) شعراء النصرانية - للأب لويس شيخو ج ١ ص ٧٩٥

(٥) العقد الفريد ج ٣ ص ٥٧ (٦) الأغاني ج ٨ ص ٢٤٦

فحسب ، وانما اظهرت - الى جانب ذلك - لونا آخر من الوان بطولته لا يقل في اهميته عن الفروسية ونعنى به القدرة القولية - التى كانت بالنسبة للعرب - لا تقل قيمة وقدرها عن البطولة الحربية ، فتفجرت مواهب عنثرة الفنية ، وتوالت قصائده الشعرية الجيدة التى اخذت طريقها الى اسماع العرب جميعا - فى كل جزء من اجزاء الجزيرة - فتداولوها بكثير من الاحترام للقبيلة والتقدير لذك الفارس الذى منع قومه بسيفه ولسانه معا فكان كسبا مزدوجا لها .

ويستمر تقدم عنثرة الشعرى مسائرا لتقدمه الفروسي حتى يصل الى منتهى ما يأمل شاعر عربى من مجد ورفعته ، اذ يضم الى صفوة شعراء الجزيرة الذين علقت قصائدهم على أستار الكعبة احتراماً وتقديراً ، وبذلك أصبح عنثرة فارس الفرسان وشاعر الشعراء ولعل هذا هو ما دفع الدكتور فيليب حتى الى عقد مقارنة بين عنثرة وبين « أخيل » فارس اليونان الشهير وبطل الياذة هوميروس . (١) وحذا لو ان الدكتور فيلب - او غيره - قام بعقد دراسة مقارنة بين سيرة عنثرة بن شداد وبين الياذة هوميروس .

ومهما يكن من أمر ، فان حرب داحس والغبراء - التى تعتبر من اطول حروب العرب واشهرها - قد اضنت بنى عبس وانهكت قواهم واثت على الكثير من رجالهم وقللت اموالهم ، وألبت عليهم معظم القبائل الاخرى الامر الذى اضطر بنى عبس الى ترك ديارهم والضرب فى الصحراء بحثا عن أحلاف ومجيرين . فكانوا كلما نزلوا يقوم حلت عليهم لعنة القتال فلا يلبثون أن يتخلصوا منهم . او لا يلبث بنو عبس أن يحسوا ضيما أو ضغينة فيشدوا الرجال مرة أخرى . . وهكذا امضى بنو عبس الايام والأعوام فى قتال وحروب حتى بلفوا درجة لم يستطيعوا بعدها مواصلة القتال فقرروا العودة الى ذبيان وطلب الصلح معهم - بعد ان دارت الحرب بينهم اربعين سنة لم تنتج لهم ناقة ولا فرس لانشغالهم بالحرب . (٢) أما ملكهم قيس بن زهير فلم يقبل الانجدار الى هذا الدرك من مذلة التسليم فتركهم وراح يهيم على وجهه فى الصحراء وحيدا الا من ذكرى ملك قد اندثر ومجد قد زال .

وهكذا نجد أن تاريخ بنى عبس يعتبر نموذجا مثاليا لحياة القبيلة العربية . ففيه تصوير صادق للطريقة التى كان يعيش بها هؤلاء القوم ولكن هذا العرض التاريخى لا يتناول الا جانبا واحدا من جوانب

---

(١) تاريخ العرب ج ١ ص ١٠٧

(٢) العقاد الفريد ج ٣ ص ٥٦



الحياة التي مرت بقبيلة بنى عبس . ولو أننا أخذنا هذا القطاع من حياة بنى عبس ونظرنا اليه من زاوية أخرى لنرصد الاسس الاجتماعية التي قامت عليها حياتهم لا يمكننا الوصول الى كثير من الحقائق التي توضح معالم المجتمع العربى الجاهلى . غير ان المصادر التاريخية المأجودة الآن لا تؤهل لاقامة مثل هذه الدراسة الاجتماعية على قواعد سليمة ومن ناحية أخرى يمكننا ان نصل الى ما نريد عن طريق استكشافه من احداث « سيرة عنترة بن شداد » غير ان هذا العمل سوف يكون بعيدا عن الحقائق التاريخية المجردة ، ولكنه - بالرغم من ذلك - يعتبر أقرب الى تصوير هذا الوجه الاجتماعى للبيئة العربية الجاهلية بعامة ولحياة عنترة وقبيلته بصفة خاصة .

وقد كان من الممكن كذلك استشفاف صورة هذه الحياة العربية الجاهلية من ديوان عنترة والاعتماد على شعره فى تبيان المظاهر الاجتماعية لقبيلة بنى عبس . ولكن عنترة - كما سنرى فيما بعد - لم يقل شعرا جماعيا كما هو الحال عند معظم الشعراء الجاهليين وانما خرج على اجماعهم ليكون شاعرا فرديا يصور بشعره خواص نفسه ويعبر عن شخصيته ولهذا فان شعر عنترة ان صلح لاعطائنا صورة عن شخصية قائله ونفسية منشئه ، فانه لا يمكن بأى حال من الاحوال ان يعطينا صورة عن قبيلته وبالتالي عن البيئة الاجتماعية الجاهلية .

ولما كان غرضنا الاساسى هو دراسة عنترة وتسليط الاضواء على شخصيته فان ما رايناه من امر المقومات الاجتماعية للقبيلة العربية يكفى لان ينير امامنا اول الطريق الى شخصية عنترة ، اما بقية الاضواء فنسلطها عليه من زوايا أخرى عمدها تاريخه الخاص وشعره ثم السيرة الشعبية التى الفت عنه .

ولكننا قبل ان نفعل نحاول ان نقبس شعاعا آخر يضيء لنا الطريق خطوة ، وذلك من معرفة النظرة التى كان ينظر بها العربى الجاهلى الى الفارس البطل ، ومن محاولة تحديد مفهوم الفروسية العربية والوقوف على فلسفتهم تجاهها ، لا سيما وأن هذا المجال كان هو اوضح المظاهر الاجتماعية التى كونت ييئتهم ولونتها بذلك اللون المميز لها .

## الفصل الثانى

### مفهوم الفروسية العربية وفلايتها

يختلف مفهوم الفروسية وتصور البطولة من أمة الى أمة تبعاً لاختلاف البيئة الطبيعية والظروف الاجتماعية ، الاحوال السياسية ، بل ان هذا المفهوم يختلف عند الأمة الواحدة باختلاف الزمان وتطور العصور . ولهذا فان البيئة الاجتماعية الجاهلية فى الجزيرة العربية حددت مفهوماً معيناً للفروسية ، وجعلتهم يتمثلون مظهراً معيناً للبطولة يوائم ظروفهم البيئية ويتمشى مع احوالهم الاجتماعية ويواكب نظمهم السياسية .

العربى البدوى - ابلان الجاهلية - كان لا يعيش فرداً قائماً بذاته ، مستقلاً بشخصيته ، كما انه لم يكن يعيش كمضو فى المجتمع الكبير الذى يشمل الجزيرة كلها ، وانما كان يعيش ضمن نطاق اجتماعى محدود هو القبيلة . ومن خصائص هذا المجتمع القبلى ان شخصية افرادة تكاد تفنى فى شخصية القبيلة . ولكن مهما كانت قوة الجماعة القبلية فلا يمكن ان يوجد المجتمع الذى يفنى الذاتية الفردية للانسان فناء تاماً ، وعلى ذلك فان المجتمع العربى الجاهلى كان له مظهران اساسيان هما المظهر الجماعى والمظهر الفردى غير ان المظهر الاول كان اقوى بكثير من الثانى ، وكان هو صاحب التأثير المباشر - او غير المباشر - على منحى المظهر الفردى ومجالات ظهوره ومدى هذا الفهور . وتبعاً لذلك فلا بد ان يكون لمفهوم البطولة عند العرب نفس هذين المظهرين - الجماعى والفردى - وان يكون المظهر الجماعى اقوى من المظهر الفردى ، ويأتى سابقاً له لىؤثر فيه ويحدد معالمه . فاذا نظرنا الى مفهوم البطولة عند العرب من الزاوية الجماعية التى تخفى شخصية الفرد وتذيبها فى شخصية القبيلة وجدنا ان اول مظهر من مظاهرها هو القوة بمعناها العام الشامل الذى يوصل الى الغلبة ، وعكسها الضعف الذى يؤدى الى الهزيمة . والسبب فى هذا ان الغلبة فى البيئة البدوية القفراء معناها الحياة والحصول على الغذاء سواء للأشخاص او للانعام ، اما الهزيمة فمعناها الحرمان من هذا الغذاء والماء ومنه الى الفناء .

ولهذا فان لفظة « القوة » هنا تعنى القوة البدنية الطبيعية سواء فى تكامل اجزاء الجسم وعضلاته ، وفى قوة الاحتمال ، وهى تعنى كذلك القوة البدنية المكتسبة من اجادة ركوب الخيل وحسن استعمال السلاح واتقان فنون القتال والنزال ، ثم هى بعد ذلك تعنى القوة

الفكرية او الشخصية التي تدفع صاحبها الى التقدم والشجاعة بل وربما التهور احيانا . فمحصل هذه القوى جميعا هو ما يريده العربى في فارسه ليستطيع ان يشن الغارات ويخوض المعارك فينتصر فيها ويعود الى قومه بالانعام والاسلاب ، فاذا ما جاء الدور على قبيلته وهو جمت تصدى هو للمغيرين فيهزمهم ويردهم عن قومه ، وبذلك يحفظ لهم ما حصل عليه في غاراته .

هذا المفهوم ولا شك مفهوم عادى وطبيعى بالتسببة للبيئة المادية الصحراوية التي تعيش على الفطرة وتبنى حياتها على ما تجود به الطبيعة . والطبيعة الصحراوية قد تكون بخيلة فتقتصر عليهم في الرزق، وقد تقسو فلا تجود بشيء ، وهنا تثور عند هؤلاء القوم غريزة حب البقاء ، والبقاء لا يكون الا بالحصول على الغذاء ، والغذاء في كف الجار - او حتى في كف الاخ - فهذا شيء لا يهم لان نفسى اولا ، فيلزم ان احصل على هذا الغذاء باى طريق وبأى ثمن والا فالهلاك في الانتظار، والطريق الوحيد الى ذلك هو طريق القوة الموصلة الى الغلبة . ولذلك كان اول مظهر من مظاهر البطولة عند العرب هو القوة .

ولعل اوضح ما يمثل لنا مدى ارتباط القوة - كمظهر بطولى - بحياة الجماعة هو الوجه الآخر من اوجه هذا المظهر . ففوة القتال والهجوم لها وجه ثان لا يقل عنها قيمة وقدرا عند البدوى، ويتصل بها اتصالا وثيقا ، الا وهو الانتقام والاخذ بالثأر ، تلك العادة التي قامت عليها الحياة البدوية القبلية جميعها . وبصرف النظر عن الآراء الحديثة في هذه العادة ، فانها لم تكن تعنى عند العربى الا شيئا واحدا هو انه قد خسر الجولة الاولى ، والخسارة في الصحراء معناها الفناء ، فعليه اذن ان يكسب الجولة الثانية والا فنى وهلك . وحتى يحس بوطأة الفناء والهلاك فانه كان يفرض على نفسه ما يشعره بذلك ، فكان العرب اذا ما عقدوا النية على الانتقام حرموا على انفسهم النساء والدهن حتى يدركوا ثأرهم (١) - اى انهم كانوا يحرمون انفسهم من منابع الحياة الاساسية التي هى الاحتفاظ بالنفس وخلق النفس الجديدة، وبمعنى آخر انهم يرغمون انفسهم على صورة مصغرة من صور الفناء ليعرفوا فداحة ذلك ويقدموا على القتال بكل قوة وشجاعة حتى يأخذوا بثأرهم فيزيلوا عن انفسهم شبح الفناء وترد القوة اليهم روح الحياة .

هذا المظهر البطولى - بوجهيه - مظهر جماعى تكاد تتلاشى فيه الشخصية الفردية . فهم يخرجون لغزواتهم في جماعات ، فاذا ماغنموا شيئا عادت الغنائم للقبيلة باكملها قبل ان تعنود على اشخاص

(١) البعد الفريد - لابن عبد ربّه ج ٣ ص ٦٥



الغائبين ، واذا كسبوا مجدا توجت به القبيلة كلها دون ما ذكر  
لأشخاص الكاسيين ، يقابل هذا انه اذا انهزم الفرد هبت القبيلة كلها  
لنصرته سواء كان ظالما او مظلوما ، وعلى ذلك فان قوة البطل الفرد لم  
تكن تمثل نفسه او تعود على شخصه بقدر ما كانت تمثل القبيلة وتعود  
عليها ، وكل ما يحرزه من مجد ورفعة انما عائد اليها .

اما المظهر الجماعى الثانى من مظاهر الفروسية العربية فيتمثل  
فى لون آخر من ألوان القوة ، ولكنها قوة معنوية وليست قوة مادية .  
وكلا القوتين الغرض منهما واحد هو حماية القبيلة وتوفير الحياة  
لها . القوة الاولى تؤدى عملها فى سبيل القبيلة وهى فى حومة الوغى  
بينما القوة الثانية تؤدى نفس الشئ ولكن فى المجالس والاسواق .  
والقوة الاولى وسيلتها الخيل والسيف بينما القوة الثانية عدتها القول  
والنظم : فالشاعر كان لسان القبيلة المتحدث باسمها والمعبى عنها ،  
وكان صحيفة القوم يذيع بشعره أخبارها وأحداثها بين الناس ، وكان  
المدافع عنها ضد أعدائها ينازلهم بسلاحه القولى فى ميدان الفخر  
والهجاء . لكل هذا « كانت القبيلة من العرب اذا نبع فيها شاعر  
أتت القبائل فهنأتها وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر -  
كما يصنعون فى الاعراس - ويتباشرون الرجال والولدان لانه حماية  
لأمرأتهن وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم » . (١)

فالقوة المادية فى القتال لا تكتمل الا اذا واكبتها قوة قولية فى  
الاشعار لتصور هذا المجد الحربى الذى حازته القبيلة فتفتخر به وتنتبه  
على غيرها من القبائل وليكون سجلا لتلك الاعمال يحفظها من النسيان  
ويذيعها بين أرجاء الجزيرة فى صور شعرية يسهل حفظها وتداولها ،  
ثم هو بعد ذلك يلقي أبناء القبيلة ويحمس رجالها ليحافظوا على  
ما نالوه من قدر ، او ليلغوه ويتفوقوا به على غيرهم من القبائل .  
ولهذا كانت قيمة الشاعر للقبيلة لا تقل عن قيمة الفارس ، فكل منهما  
نصف من كل ، هو قوة القبيلة ورفعته ، وبمعنى آخر دوام حصولها على  
ضروريات الحياة ، وهذا يصل اليه الفارس بسيفه كما يصل اليه  
الشاعر بلفظه ، وهما معا جماع ذلك السؤدد الذى تصبو اليه كل قبيلة .

فالشعر هو المظهر الجماعى الثانى من مظاهر مفهوم الفروسية  
والبطولة العربية وكما مثل المظهر الاول القبيلة دون الفرد فان هذا  
المظهر الثانى يمثل القبيلة دون الفرد كذلك . ولهذا كانت اول سمة  
من سمات الشعر الجاهلى هى انه شعر جماعى بعيد عن الفردية لا يمثل

---

(١) العمدة - لابن رشيق ج١ ص ٣٧

شخصية قائلة بقدر ما يمثل الجماعة التي يتصهر فيها ذلك الفرد. (١).

هذان هما المظهران الأساسيان في مفهوم البطولة عند العرب ، والجمع بينهما معناه الوصول الى اقصى مراتب الفروسية . فالابطال مهما كان قويا وشجاعا لا يبلغ مرتبة البطولة المحقة الا اذا كان مفوها في الشعر تدر شجاعته في القتال . وكان العربي لا يتصور بطلا قويا يعجز عن قول الشعر . ولعل هذا هو التعليل المنطقي لما نجده في كتب الروايات والسير من شعر عربي فصيح قاله جميع ابطال التاريخ سواء اكانوا عربا او غير عرب ، وسواء اكانوا قدامى ام محدثين ، حتى نوح وادم قالوا شعرا - او على الاصح قال الرواة شعرا على لسانهم . ولعل هذا كذلك هو التعليل المنطقي لما نجده في سيرة عنترة - وفي غيرها من السير - من مبارزات شعرية يتبادلها الابطال بالسنتهم قبل ان يتبارزوا بسيوفهم . وكاتب سيرة عنترة يقتنع بالربط بين هذين المظهرين اقتناعا غريبا ينعكس في ذلك الموقف القصصى الخيالى الذى صور لنا فيه عنترة وهو يحاول تعليق قصيدته على الكعبة . فهو يجتمع بشعراء المعلقات جميعا لا ليتبارى معهم في قرض الشعر فقط ، ولا لينافسهم في معرفة علوم العرب فحسب ، وانما هو يبارزهم مبارزة حربية حقيقية فينتصر عليهم ويأسرهم جميعا ، ثم يطلق سراحهم ليعرض عليهم قصيدته فيبزههم في قول الشعر كما بزههم في ضرب الحسام . وبذلك يتم فوزه عليهم طبقا لمفهوم الفروسية عند اهل ذلك العصر من انها جماع بين قوة اليد وقوة اللسان . وربما كان هذا هو السبب الذى جعل معظم الكتب التى وصلتنا عن العصر الجاهلى تجمع بين دفتيها مقدارا من الشعر - يكثر او يقل حسب موضوع الكتاب - ولكن مهما كان ذلك الموضوع فالكتاب فيه شعر لا محالة .

اما المظهر الثالث من مظاهر مفهوم البطولة عند العرب فهو ما يمثل في جانب الشرف والكرامة . هذا المظهر اوجدته الاوضاع الاجتماعية لقبائل العربية ، فالفرد الذى لا يمكنه ان يعيش وحيدا والذى لا بد له من الاندماج مع غيره في وحدة عشائرية اندماجا كليا حتى يضمن حياته وسلامته لا بد ان يفنى فيها بحيث تصبح هى وحدة متكاملة دستورها « الفرد في سبيل الجماعة » والجماعة في سبيل الفرد « ، وبصبح شعارها « انصر اخاك ظلما او مظلوما » . فالقبيلة كلها تنصر رجلها وقت الشدة سواء اكان على صواب او على خطأ ، فاذا ما ارتكب هذا الشخص اثما في حق قبيلته او في حق فرد آخر من افرادها فازر

العقوبة الوحيدة — التي لا عقوبة غيرها — هي خلعة والتبرؤ منه وطرده  
عن الديار .

ويبدو هذا المظهر من مظاهر البطولة بوجه آخر هو اجارة اللاجئين .  
فاذا ما لجأ غريب الى القبيلة واحتوى بها اجارته وحمته ودافعت عنه  
وكأنه فرد من افرادها وشرعت رماحها ولسانها للذود عنه ، وتمسكت  
بوعدها له مهما تحملت في سبيل ذلك من مشاق ومهما خاضت من  
اجله الحروب . فالمظهر البطولى هنا هو « نجدة القبيلة » ممثلة في  
افرادها اولا وفيمن آوتهم او قطعت على نفسها العهود لهم وبذلك  
اصبحوا جزءا من كيانها لهم كل ما لافرادها الاصليين من حقوق .  
فالبطل لا يعتبر بطلا حقيقيا الا اذا اوفى بهذا المظهر من مظاهر البطولة .  
وتحن نجد في سيرة عنتره انه مهما جفا قبيلته واختلف معها وتركها  
مغضبا فان مجرد وصول رسول منها يدعوه الى نجدتها — او مجرد  
علمه بان قومه في مأزق — سرعان ما يجعله ينسى كل خلافاته واحقادها  
— او يتناساها مؤقتا — لينقذ قبيلته او ليساند حليفا من حلفائها  
قطعت له العهد وعقدت معه الكلمة .

ورب وجه ثالث من اوجه هذا المظهر الجماعى نجده في الكرم .  
فالضيف اذا ما نزل على القبيلة اقرته واكرمته وضحت في سبيل  
ذلك بخير زادها وعزيز ماله ، وهو يعد في حماها ويعتبر كأبن من  
ابنائها ، وربما وقعت بسببه حروب مثل حرب « حاطب » التي ثارت  
بين الاوس والخزرج بسبب اعتداء الخزرج على ذبياتى كان قد نزل  
ضييفا على حاطب بن قيس الاوسى . (١)

ولهذا فاننا نجد ان الكرم الجماعى — او كرم القبيلة — هو اشهر  
الصفات التى اثرت عن العرب ، وانه كان اهم الفضائل واوسع مجالات  
المديح ، واخصب موضوع من الموضوعات التى كان يدور حولها  
الفخر ويتشبهت بها الهجاء .

تلك هى المظاهر الجماعية لمفهوم البطولة عند العرب . ولكن —  
كما سبق ان ذكرنا فان القبيلة مهما قوى جانبها الجماعى ونجحت في  
اذابة شخصية الفرد في بوتقة الجماعة فانها لا يمكن ان تفنى هذه  
الشخصية او ان تجعلها تتلاشى كلية . فالشخصية الفردية موجودة  
في كل زمن وفي كل بيئة وفي كل مجتمع مهما كانت ظروفه او اسسه  
او مثله ومذاهبه ولكن الذى يحدث — في الواقع — هو غلبه احدهما  
على الاخرى بنسب متفاوتة لا يمكن ان تبلغ الصفر باى حال من  
الاحوال . لذلك فانه — الى جانب تلك المظاهر الجماعية للبطولة عند

---

(١) أيام العرب — جاد المولى ص ٧٢



العرب - كانت هناك مظاهر فردية تتصل بالشخص نفسه ، وتمثل في الفرائز الانسانية والنوازع النفسية .

وكما يرد بعض علماء النفس المحديثين جميع تلك الفرائز الانسانية الى غريزة واحدة هي الغريزة الجنسية ، فان اهم مظهر من المظاهر الفردية للبطولة عند العربى كان هو الجنس كذلك ، او بمعنى آخر كان يتمثل في المرأة ... تلك الصورة الجميلة التى ما ان يراها الرجل حتى يشتتها وينقلب الى طفل تدفعه غريزة حب الاقتناء الى امتلاكها . ولهذا كان البدوى ما ان يلمح امرأة وتقع في نفسه حتى يعمل على الحصول عليها ويتمثل له مفهوم البطولة كله في نجاح مهمته . فيبدأ بالتقرب اليها ودعوتها اليه ، فان أبت أتى أباهها خاطباً وامامه استعداد غير مشروط بان يقدم المهر مهما كانت قيمته ومهما كان نوعه . فان رفض الاب - لسبب او لآخر - فليس هناك الا حل واحد هو استعمال العنف ، وعليه ان يحارب القبيلة بأكملها ، وان يأسر الفتاة وأباهها ، وبذلك يرغمه على تزويجها منه ، والا فمصيها امة من الاماء او جارية من الجوارى .

وربما فسر لنا هذا المظهر من مظاهر البطولة ظاهرة اجتماعية . ملفتة من ظواهر المجتمع القبلى الجاهلى التى بقيت حتى الآن دون تفسير مقنع . فمما هو مأثور عن الجاهلية ان الرجل كان اذا شبب بفتاة وتفزل فيها امتنع ابوها عن تزويجه منها بعكس ما هو متوقع في مثل تلك الحالات ، اذ من الطبيعى جمع شمل المحبين بمجرد ظهور حبهم ، ومباركة هذا الحب بعقد او رباط . فلماذا اذن كان الجاهلى يمتنع عن تزويج ابنته ممن شبب بها ؟! ... ان تشبيهه بها معناه انه يقول فيها شعرا ويذكر محاسنها ويشيد بجمالها ، وهذا الشعر يسير وينتشر في ارجاء الجزيرة العربية فيسمعه الجميع ومن بينهم من يأنس في نفسه البطولة ، ويروم تحقيق هذا المظهر الفردى من مظاهرها وذلك بان يحصل هو على تلك الفتاة الجميلة . وتبدأ القصة بان يذهب الى ابىها خاطباً فلو ان اباهها قد وعد بها ذاك الذى شبب وقال شعره فيها لما امكنه التحلل من وعد قطعه ولعرض نفسه لנקمة هذا البطل الوارد اليه في سبيل تحقيق المظهر الذاتى لبطولته فمن الحكمة اذن ان يمتنع عن تزويجها لمن شبب بها ، وان ينتظر القدر ليهبط عليه بفارس - او بفارسان - حتى اذا فاز احدهم دفع اليه بالعروس دون ان يصيبه من جراء ذلك ضرر او معرة .

وهذا هو ما حدث لعنترة ، اذ رأى ان اكتمال بطولته وتحقيق المظهر الذاتى لها لن يتم الا بحصوله على سيدته التى كان يقوم على خدمتها حين كان عبداً ، فلما صار سيداً اصبحت هى الهدف الذى

يتركز فيه تحقيق المظهر الذاتي لبطولته . ويتمنع والدها - اول الامر - احتقارا لوضع عنتره الاجتماعى ، ولكن حاجته الى الحماية دفعته الى الرضوخ ووعد عنتره بها اذا ما ابلى بلاء حسنا فى الذود عنهم وعن القبيلة . ولكن ما ان يشبب عنتره بهيلة ويسير شعره فيها بين العرب حتى يتراجع مالك - ايوها - عن الوفاء بوعد له عنتره ، او عله يتأنى انتظارا لما يحدث من وصول ابطال يطمحون الى تلك التى شهرها شعر عنتره . فكان على عنتره ان ينازلهم واحدا واحدا ، وكلما قضى على احدهم تريت مالك فى انتظار وافد جديد .. وهكذا .

ويتمثل المظهر الذاتى للبطولة العربية كذلك فى حفظ كرامة الفرد وعدم قبول ما قد يمسه من قريب او من بعيد . ولعل حرب البسوس ان توضح لنا هذا المظهر ، فكلب بن ربيعة يسأل زوجته - جلييلة بنت مرة - : هل على الارض امنع منى ذمة ؟ فقالت : نعم ، اخواى جساس وهمام . فيخرج كليب مغضبا ليلتقى بشاقة لبنى مرة فيطفيء غيظه فيها ويقتلها . ويعتبر فارس بنى مرة ان هذا العمل اهانة موجهة اليه فيقضى على كليب ، وهكذا تدور رحى تلك الحرب الشهيرة التى استمرت اكثر من اربعين عاما . (١) ومثلها تماما كانت حرب داحس والغبراء ، فقيس بن زهير وحديفه بن بدر لم يقبل كل منهما ان يعد فرسه مهزوما فى السباق لان فى ذلك خفضا لكرامته امام الناس ، فلتكن اذن حربا تمكث هى الاخرى اربعين عاما وتنتهى بشبه فناء لبنى عبس . (٢) وتضطر قبيلة عبس اضطرارا الى طلب الصلح من ذبيان ، وهنا يقفز هذا المظهر البطولى بشكل آخر ، اذ يأنف قيس بن زهير من فعل ذلك ويؤثر عليه الخروج بمفرده هائما على وجهه فى الصحراء . (٣) والامثلة التى توضح هذا المظهر البطولى الذاتى فى سيرة عنتره

اكثرت من ان يجمعها الحصر . تبدأ بتلك الحادثة التى قتل فيها عنتره عبدا من عبيد الامير شساس ابن زهير لاعتدائه على اعرابية عجوز ، وتستمر معه فى كل خطوة من خطواته وفى كل مرحلة من مراحل حياته لتنتهى بتلك الحادثة الدرامية التى تبدو من عامر بن الطفيل ، فعبلة - بعد وفاة عنتره - تتزوج عامر بن الطفيل عملا بنصيحة عنتره لها ، ولكنها تكثر فى حياتها معه من المقارنة بينه وبين عنتره ، فيحس فى نفسه بالصغار والهوان الذى يدفعه الى قتل عبلة ليتخلص منها

(١) ايام العرب فى الجاهلية لجاد المولى ص ١٤٢

(٢) العقد الفريد - لابن عبد ربه ج ٣ ص ٥٦

(٣) السابق

ومن مقارناتها . وعندما يذهب أبوها وأخوها للتفاهم معه وهو لا يزال تحت تأثير هذه العقد يقتلها كذلك . (١)  
ولعل اعتماد كاتب سيرة عنتره على هذا المظهر الذاتي للبطولة العربية وحسن استغلاله في بناء شخصية بطله من أول حدث في القصة حتى آخر حدث فيها هو الذي مكنه من تقديم مواقف درامية رائعة وأعانته على تطوير شخصية عنتره وتحديد معالمها مرحلة بعد أخرى . كما ساعده على الاطناب أو الافاضة بحيث أصبحت قصته بهذا الطول المفرط .

وكمظهر ذاتي للبطولة العربية يجب ان يتحلى الفارس بكثير من الخصال التي تعتبر في حد ذاتها فضائل بطولية شخصية . وأوضح جوانب هذا المظهر هو العفو عند المقدرة . فالفارس الذي يتمكن من خصمه بحيث يصبح تحت رحمته ويسهل عليه قتله أو القصاص منه، ان فعل كان فارسا عاديا ، اما اذا عفا عنه واطلق سراحه فانه يكتسب بذلك مظهرا بطوليا واعترافا بفرط فروسيته ، فهذا دليل على انه لا يخشى منافسه في شتى الظروف ، وان انتصاره عليه لم يكن وليد صدفة أو ضربة حظ وانما هو تفوق ثابت ومضمون . هذا المظهر حققه كاتب السيرة لبطله في لقائه مع الكثيرين من الفرسان الذين قدروا فيه هذا المظهر البطولي واعترفوا له بالفروسية ثم انضموا الى جملة فرسانه ورجاله مثلما حدث مع عروة بن الورد ودريد بن الصمة وهانيء بن مسعود وغيرهم .

ولهذا المظهر وجه آخر لا يختلف كثيرا عن سابقه ، ويتمثل في العفو عن الاسير لا بسبب ضعف بدا منه ، ولكن تقبلا لشفاعة صديق فيه . فعنتره يأسر ذا الخمار عدة مرات وفي كل مرة يتشفع فيه صديق فلا يلبث عنتره ان يطلق سراحه ، ومثل هذا حدث مع عدد كبير من الفرسان آخرهم وزر بن جابر النبهاني الملقب بالاسد الرهيص ويستغل كاتب السيرة هذا المظهر البطولي الفردي استغلالا جميلا اذ يجعلها في النهاية الدرامية التي ينهى بها حياة بطله ، فهو يعفو عن الاسد الرهيص مرة بعد أخرى تحت رجاء صديقه عمرو بن معد يكرب ، ومن هذا العفو المتكرر تتكون السقطة الكبرى التي يتردى فيها فيموت قتيلا بيد هذا العدو الذي طالما عفا عنه واطلق سراحه وبذلك يصبح هذا المظهر البطولي هو العقدة التي تقود القصة الى نهايتها الدرامية .  
وفن القيادة مظهر من مظاهر البطولة عند العرب ، فالشجاعة الفردية والكفاية الشخصية وقوة الشكيمة والعريكة في القتال ، كل

---

(١) سيرة عنتره مجلد ٨ ص ١٨٧



بذلك لا يكفي ان يجعل من الفارس بطلا وانما يلزم ان يكون هذا البطل قادرا على ان يقود الفرسان في المعارك ، وان يترأس الجيوش في الغزوات والحروب . ولهذا قال الحطيثة عن عنتر بن شداد ردا على سؤال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب انه كان قائد بني عبس ، يسرون خلفه فيهمجون اذا هجم ويهمجون اذا احجم . (١) - ولهذا ايضا خرج كاتب السيرة بطله عنتر من حيز القبيلة الى حيز الشعب فجعله يقود جيوش العرب ضد النعمان ، ثم جيوش العرب والنعمان ضد كسرى مرة وضد قيصر اخرى ، وبعد ذلك يتأمر عنتر على جميع جميع جيوش قيصر واساطيله ليفتح له ممالك الشرق والغرب ويخضع بسيفه ويغن قيادته كل بلاد العالم المعروفة في زمانه .

وهكذا نجد ان العرب قد فطنوا منذ قديم الى الفروق الدقيقة بين الفروسية الفردية وبين البطولة العامة - اى بين الشجاعة الذاتية وبين الموهبة القيادية والقدرة على التحكم في الجماعات وتوجيهها بتسييرها ، واعتبروا ان فن القيادة هذا صفة لازمة للبطل ومظهر من المظاهر الاساسية للفروسية . وقد بعد كاتب سيرة عنتر في استغلال هذا المظهر لا في شكله الواقعي فحسب ، وانما في شكل ملحمي اذ جعل ابناء عنتر يحاربون القبائل - بعد موته - وقد جمعوا عظامه على جمل ودفنوا به في صدر المعركة رمزا الى ان بطلهم عنتر لا زال هو القائد الذي يقود معاركهم .

اما الجانب الاخلاقي للفارس فامر له من الاهمية قدر كبير اذ يعتبر أوضح المظاهر الذاتية له . والصقها به واقربها في علاقته بالناس . والمرأة كانت - في المجتمع القبلي - محورا يرتكز عليه اكثر من مظهر اجتماعي بدقيق في اصالته بوجدانات هؤلاء القوم ومثلهم وكرامتهم . فأسرها - او حصول قبيلة اخرى عليها عنوة - يعتبر كارثة الكوارث وقمة الهوان والمذلة والعار ، ولهذا فان حماية النساء من الاسر ومنعهن عن المغيرين يعتبر اول هدف من اهداف القبيلة ، وعلى ذلك فلا بد للفارس الذي يريد ان يحمل لقب البطولة من القيام بهذا العمل الهام وبحيث يكون قادرا على ادائه في كل وقت وضد كل عدو . ونحن لا نكاد نمر بقصيدة من قصائد الفخر في الادب الجاهلي الا ونجد ان منع النساء هو مجال المفاخرة الاول الذي يزهو به العربي . فاذا تحول الغرض الشعري من الفخر الى الهجاء وجدنا ايضا ان اقصى معيرة يعبر بها البدوي هي عدم تمكنه من حماية نساء قبيلته وتركهن يقعن اسيرات في ايدي المغيرين .

وعنترة لم يشذ عن هذه القاعدة ، فأهم ما افتخر به في شعره هو منعه لنساء قبيلته وحمايتهن . وقد أولى كاتب السيرة الشعبية هذا المظهر عناية فائقة اذ على اساسه بنى اول لبنة في صرح المجد الذي شيده لبطله عنترة ، وجعله السبب المباشر لظهور فروسيته سواء حينما قتل عبد شاس لاعتدائه على عيسية عجوز ، أو حينما رد بمفرده فرسان بنى طيء اذ اغاروا على ديار عيس بعد ان رحل الرجال عنها ولم يبق الا النساء ومعهن عنترة الذي هزم المغيرين وردهم . ويستمر هذا الحال على طول السيرة معتبرا ان اهم مظهر من مظاهر الفروسية العنترية هو حماية نساء القبيلة .

وكما يحمى الفارس نساء قبيلته من الاعداء المغيرين ، فان عليه واجبا آخر هو حمايتهن من نفسه . فشهادة الفارس تدفعه الى حفظ اعراض قومه وعدم استغلال مكانته او قوته في الوصول اليهن وتلويث شرفهن . وليس من شك في ان هذا المظهر الاخلاقي البطولى كان من انبل المظاهر الاجتماعية في الجاهلية ، وليس من شك كذلك في ان عنترة بن شداد هو المثل الاعلى الذي اتخذه العرب - على اختلاف عصورهم - لهذا المظهر البطولى الاخلاقي . فها هو احد ائمة المسامين يقول : « وددت لو ان لنا مع اسلامنا كرم اخلاق آبائنا في الجاهلية . الا ترى ان عنترة الفوارس جاهلى لا دين له والحسن بن هانئ اسلامى له دين ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانئ دينه فقال عنترة :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

وقال الحسن بن هانئ مع اسلامه : -

كان الشباب مطية الجهل ومحسن الضحكات والمهزل  
والهاعثى والناس قد رقدوا حتى أتيت حليمة البعل<sup>(١)</sup>

وكان الاولى بهذا القائل ان يدرك ان الذى منع عنترة انما هو فروسيته التى يمثلها هذا المظهر ، وان مفهوم الفروسية وفلسفتها التى تغيرت بعد ذلك هى التى جعلت ابن هانئ يقول ما قال ويفعل ما ذكر . وكم الح عنترة بن شداد فى شعره على اظهار هذا الجانب من

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٩

جوانب فروسيته ، فهو لا يغشى فتاة الحي اذا ما سافر حليها ، وهو لا يقرب امرأة الا بعد الزواج منها واداء مهرها . (١)

والخمر في المجتمع الجاهلي كان لها مظهران متناقضان ، فهي من ناحية مظهر من مظاهر السيادة والغنى لا يعاقرها الا الاشراف الذين تسمح مواردهم المالية بدفع اثمانها المرتفعة ، ثم هي من ناحية اخرى رذيلة حيث تذهب بهيبة شاربها وكرامته اذا ما افرط في شربها وبذلك يصبح مهزاة القوم ومجال سخرياتهم . لهذا كان مظهر الفروسية يتمثل في ضرورة معاقرة الخمر ولكن الى حد الاعتدال وبالدرجة التي تحفظ للفارس كرامته ولا تفقده وعيه . وقد عبر عنتره عن هذا المظهر اللاتي من مظاهر الفروسية العربية اجمل تعبير حين قال في معلقته :

فاذا شربت فإني مستهلك مالي ، وعرضي وافر لم يكام (٢)

اما كاتب السيرة فقد استغل مكانة الخمر في المجتمع الجاهلي بمظهرها . فحينما أعجب الملك زهير بعنتره - وهو لا يزال عبدا - قربه اليه ثم قدم اليه الخمر كأعظم مظهر من مظاهر التكريم . فاذا ما أصبح عنتره الفارس الحر بطل الجزيرة العربية ومقوض عروش الملوك وحامي حمى الامبراطوريات ، تهاون في الحفاظ على هذا المظهر وافرط في شرب الخمر ، فما كان من زوجته عبلة الا ان سخرت منه امام اترابها وطالبتة بتقبيل قدمها ، حينئذ افاق الفارس وعرف سقطته فأوقع على نفسه العقاب المناسب وهو ترك الديار والخروج منفردا الى الصحراء . (٣)

---

(١) ديوان عنتره ص ٧٦

(٢) » » ص ٢٤

(٣) السيرة مجلد ٥ ص ٢٢٤



## الفصل الثالث

### شخصية عنتره في التاريخ

على الرغم من ان كتب الادب تسرف في ذكر اسم عنتره وتتخذ منه مثلاً للشجاعة وللحب العفيف البناء وتروى الكثير من شعره ، الا ان القليل من تلك الكتب اهتم بحياته وبذكر اخباره ، الامر الذي دفع باحثاً كالدكتور طه حسين الى رفض هذا الشعر بل والى انكاد وجود عنتره كإنسان حقيقى عاش في جاهلية ما قبل الاسلام واعتبره شخصية اسطورية اتخذها الرواة والواضعون اساساً يستمدون منه مادة لقصصهم ومرجعاً ينسبون اليه اشعارهم المنحولة . (١)

والواقع ان الواضعين قالوا من الشعر على لسان عنتره اكثر مما قال هو ، ونسبوا اليه ديوانا ليس له فيه الا النذر القليل ، ولكن هذا لا ينفي شعره جملة وتفصيلاً ، فقارىء ديوان عنتره يستطيع في يسر وسهولة ان يفرق بين شعره الرصين وبين اشعارهم المنحولة المفرقة في ذكر عبلة والموغلة في التشويق بالشجاعة في نسج ركيك ملء بالهفوات والاختطأ ثم ان هذا لا ينفي - من ناحية اخرى - وجود عنتره نفسه كشخصية واقعية . فالربط بين الشك في بعض شعر عنتره - او حتى في شعره كله - وبين الشك في وجوده امر لا يرتضيه منهج البحث الصحيح ، هذا فضلاً عن ان وجود عنتره كشخصية جاهلية لا يحتاج الى تدليل . فهو ان لم تثبت تلك القصص والروايات وشهرة اسمه في الافاق ، اثبتته معلقته المعروف بها من الجميع فهي اساس بين المملكات سواء كانوا عشرا ام سبعة ، واثبتته كذلك احاديث الرسول عليه السلام واقوال الصحابة والاقدمين مما هو صريح في المراجع الادبية والتاريخية . وغاية ما هنالك ان الحقائق التاريخية اختلطت بالمواقف القصصية التي الفت حول عنتره بحيث اصبح من العسير استخلاص الاولى وتنقيتها من اوشاب الثانية .

فالرواة جميعاً متفقون على ان ام عنتره كانت امة سوداء حبشية الاصل تدعى « زبيبة » سبأها آل شداد ووقع عليها احدهم فانجبها هذا الغلام . اما من الذى وطأ الأمة من آل شداد ، وبمعنى اخر من هو اب ذاك الغلام ، فهذا ما اختلفوا فيه . معظمهم يقول ان الذى فعل ذلك هو عمرو بن شداد (٢) ، وبذلك يكون شداد جده الا أن اسمه غلب

(١) حديث الاربعاء ح ١ ص ١٤١

(٢) بلوغ الادب ح ١ ص ١٢٦ وخزانة الادب ح ١ ص ٦٢ والشعر

والشعراء ح ١ ص ٢٠٤ والافغانى ح ٨ ص ٣٩

على اسم أبيه فعرف بعنتر بن شداد . ويقول غير هؤلاء ان اياه هو شداد نفسه ، وعلى هذا الزعم سار كاتب السيرة في بناء قصته . وقال آخرون ان شداد لم يكن جده ولا اياه وانما كان عمه كفله بعد موته أبيه فنسب اليه . (١)

اما قوم عنتره فقراد من بنى مخزوم ، وقبيلته عبس بن بغيض التي تنحدر من قيس بن عيلان بن مضر . (٢)  
وكما اختلف الرواة حول أبيه اختلفوا كذلك حول اسمه . فالاعم انه « عنتر » ولكن بعضهم ناداه « عنتر » محتجين بورود ذلك في شعره مثلما في المعلقة : « يدعون عنتر والرماح كأنها . . » ، او في قوله :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قبل الفوارس ويك عنتر أقدم  
وواضح دون كبير عناء ان التاء هنا محذوفة للترخيم او انها محذوفة للضرورة الشعرية .

والعنتره هي السلوك في الشدائد والشجاعة في الحرب . وهذا هو ما دفع صاحب مقدمة احدى طبعات الديوان (٤) الى القول بأن « عنتره » ليس اسما وانما هو لقب خلع عليه بعد تميزه بالبطش ، وغلب هذا اللقب وشاع فمحا اسمه الاول الذي ما كان الا اسما بأسا لولى مغمور ، مثله في ذلك مثل السماخ والشنفرى وغيرهم كثيرون (٥) نصف الى ذلك ان لفظة « عنتره » كانت شبه قاسم مشترك بين أغلب القاب الاخرى مثل « عنتره الفلحاء » ( لتشقق شففيه ) ، و « عنتره الفوارس » ، وغيرها .

ونحن لا نعلم تاريخ ميلاد عنتره — ولا حتى تاريخ وفاته — مع ان حياته كانت قبل الاسلام بفترة وجيزة ، اذ انه من الثابت اشتراك عنتره في حرب داحس والغبراء التي انتهت بين عامى ٦٠٨ و ٦١٠ م . وعلى ذلك فان وفاة عنتره تكون حول هذا الزمن دون امكان تحديد تاريخ معين . (٦)

(١). شعراء نجد والحجاز . رواية ابن الكلبي ج٦ ص ٧٩٤ من شعراء النصرانية .

(٢) الاغانى ج٨ ص ٢٣٧ ، وجمهرة انساب العرب ص ٢٣٩ ط المعارف

(٣) الديوان ص ٩ ، وص ٣٠ ط بيروت ١٩٥٨

(٤) الاستاذ ابراهيم الايسارى في مقدمة الديوان ط المكتبة التجارية

(٥) كتاب هدية الاحباب في ذكر المعروفين بالكنى والالقب للقمي

(٦) جدد حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون وفاة عنتره بعام

٦١١ م وجددها الدكتور فيليب حتى في كتابه تاريخ العرب بعام ٦١٥ م

ص ١٠٧

وقد اتفق الرواة على أن عنتره عمر طويلا ، بل وبلغ أرذل العمر حتى لقد ادعى البعض أنه مات من البرد ، أو أنه وقع عن فرسه في معركة فلم يستطع ركوبه مرة أخرى بسبب شيخوخته ، (١) من ذلك نستطيع القول بأن عنتره عاش حياة استغرقت معظم القرن السادس الميلادي دون أن نحاول تحديد سنة مولده . (٢)

ونحن لا نقف من حياة عنتره بعد ذلك إلا على بضعة روايات وأقاصيص هي في معظمها تفسير لبعض شعره . ولكن هذه الروايات تدلنا على شيئين هامين لونا حياة عنتره ، أولهما الحرب وثانيتهما هي المرأة . فذلك العبد — ابن الامة — لم يقعد على رعى الأغنام والقيام بما يقوم به العبيد من أعمال الخدمة ، وإنما اتجه إلى السيف والفرس فاجاد استعمالهما ، وشارك بهما في حروب قومه ضد أعدائهم ، وعن طريقهما اكتسب اعترافا بنسبه واستلحاقا بقبيلته ، وبذلك ارتفع عن طبقة العبيد ولحق بطبقة العربان . (٣)

يقول أبو الفرج الاصبهاني : ان السبب المباشر الذي دفع أبا عنتره إلى ادعائه هو أن بعض أحياء العرب أغاروا على بني عيس فأصابوا منهم واستاقوا ابلا ، فتبعهم العبيسون ولحقوهم ، فقاتلوهم عما معهم — وعنتره يومئذ فيهم — فقال له أبوه « كر » . . فقال العبد لا يحسن الكر ، وإنما يحسن الخطاب والصر . فقال أبوه : كر وأنت حر . فكر عنتره وهو يقول :

**أنا المهجـين عنـترة كل امرئ يحـمى حمـره**

وقاتل يومئذ قتالا حسنا فادعاه أبوه بعد ذلك والحق به نسبه . (٤)  
وهذه القصة تتفق اتفاقا كبيرا مع ما ذهب إليه كاتب سيرة عنتره . ولم يكتف هذا الرجل بما بلغه من مكان بين الفرسان في قبيلته ، وإنما أخذ يتقدمهم ويبرزهم حتى تولى قيادهم وأصبح في مكان الصدارة منهم . يدلنا على ذلك تلك الرواية التي تقول أن عمر بن الخطاب سأل الحطيثة يوما : كيف كنتم في حريكم ؟ فقال الحطيثة : كان قيس بن

(١) الأغاني ج ٨ ص ٢٣٩ — الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٠٦  
خزانة الأدب ج ١ ص ٦٢

(٢) حدها الدكتور فيليب حتى لعام ٥٢٥ م على أساس أن عنتره توفي عام ٦١٥ من تسعين سنة ( تاريخ العرب ص ١٠٧ )

(٣) الأغاني ج ٨ ص ١٢٣٨

(٤) الأغاني ج ٨ ص ٢٢٦



زهير فينا - وكان حازما - فكنا لا نعصيه ، وكان فارسنا عنثرة فكنا  
نحمل اذا حمل ونحجم اذا أحجم . (١)

وهذا النص يدلنا على أكثر من معنى . فقوله « كان فارسنا عنثرة »  
يدل على أنه اعتبر عنثرة واحدا منهم ، أى فردا من أفراد القبيلة .  
والعرب في الجاهلية كانوا لا يعترفون بالعبيد ولا يعتبرونهم جزءا من  
كيان القبيلة ، وإنما هم متاع مملوك مثلهم في ذلك مثل الانعام التي  
يرعونها . فهم لا يحماون اسم القبيلة ، ولا يقرنون بذكرها . واذن  
فعنثرة لم يكن عبدا بينهم إنما كان واحدا من احرار القبيلة ، سواء أحدث  
ذلك ابتداء أو بعد أن استلحقه أبوه .

أما قوله « كنا نحمل اذا حمل ، ونحجم اذا أحجم » فمعناه أن الرجل  
كان مقدما عليهم وقائدا لجيوشهم ، أسلموا اليه القياد وساروا من  
خلفه ، اذا امرهم بالهجوم هجموا ، واذا اشار بالتريث قبلوا . والعرب  
ماكانوا ليسلموا قيادهم الى شخص ليس منهم أو الى عبد من عبيدهم  
الا اذا فاز هذا الشخص بشرف الانتساب اليهم وأظهر من ضروب  
الشجاعة والاقدام ما أوصله الى مكان الصدارة بينهم . فمن المعروف  
أن مناصب الرياسة في القبيلة العربية لم تكن تشغل بالوراثة ولا  
بالتعيين ، وإنما كانت تكتسب بالعمل والخبرة ويستحوذ عليها بالجدارة  
والكفاءة . وهذا يقطع بأن عنثرة لم يصل الى المكانة التي وصل اليها -  
والتي وصفها الحطيئة - الا لانه كان حائزا على مجموعة من الصفات  
والمزايا الشخصية التي تؤهله لتولى هذا المنصب .

هذه الصفات والمزايا الشخصية يأتي في مقدمتها الشجاعة والاقدام  
وحسن البلاء في القتال . ولكن النص - سالف الذكر - يلفتنا لفتنا  
لطيفا الى أن شجاعة هذا القائد لم تكن من نوع الشجاعات المطلقة  
المتهورة ، وإنما كان يواكبها ويساندها حكمة مبحرة . -ة بفنون  
القتال والنزال تمكن صاحبها من معرفة الاوضاع معرفة صحيحة  
وتقدير المواقف تقديرا سليما ، بحيث يستطيع أن يقرر متى يحسن  
الهجوم فيهجم ، ومتى يكون الاحجام خيرا فيحجم .

وهكذا يثبت لنا هذا النص - أول ما يثبت - وجود عنثرة كشخصية  
تاريخية حقيقية عاش في الجزيرة العربية في الحقبة التي سبقت الاسلام  
مباشرة بحيث عاصر الحطيئة - أو عاصره الحطيئة وعاش بعده ليحكى  
عنه لعمر بن الخطاب . ثم هو بعد ذلك يثبت أن عنثرة كان فردا من

القبيلة ، أى أن القبيلة كانت قد اعترفت به والحقنة بنسبها ، وبذلك أزال عنه وصمة العبودية وتخلص منها الى الابد ، وأن تخلصه ذاك كان بسبب شجاعته وقدرته الحربية الفائقة بحيث اتخذ القوم قائدا لهم يتبعونه في قتالهم . وليس من شك في أن هذا القائد كان محاربا بارعا ، وأن ذكره قد ملا آفاق الجزيرة ، وسار بين العربان بحيث أصبح مجرد الإشارة الى اسمه الاول تكفى للدلالة عليه . فالحطيثة - في النص السابق - عندما ذكر قيس بن زهير أورد اسمه كاملا بينما ذكر عنتره باسمه المفرد . ومعنى ذلك أن عنتره كان أشهر من أن يعرف باسمه الكامل ، وأنه كان أشهر من الملك زهير بن قيس ملك بنى عبس ، وأن فروسيته كانت هى السمة المميزة له ، بل ان اسمه كان الصفة المميزة للفروسية - وليس العكس - بدليل أن الحطيثة يصف قيس بن زهير بقوله « وكان حازما » .

لما عنتره فيصف الفروسية به قائلا « . وكان فارسنا عنتره » .

وهكذا تقفز الروايات التاريخية بعنتره من مولده تحت ارساف العبودية الى قيادته لجيوش بنى عبس دون أن تذكر لنا كيف تم ذلك ، ودون أن تتلرج في حياته مرحلة بعد مرحلة ، ودون أن توقفنا على أى شيء من طفولة عنتره أو صباه أو شبابه ، اللهم الا حادثة اعتراف ابيه به ، بل انها حتى لم تعن بتحديد تاريخ ميلاده .

ومعرفة تاريخ تلك الحقبة من حياة عنتره له من الاهمية قدر كبير . فهذا الطفل الذى ولد عبدا ، وشب ليعهد اليه برعى الاغنام ، كانت له - ولاشك - نفس وثابة عالية أبت ذل العبودية وثارت على العمل الحقر الذى عهد اليه به . ومما لاشك فيه أن هذا الموقف خلق لعنتره العديد من المنغصات وعقد النقص والالام النفسية وربما البدنية التى لا تذكرها روايات التاريخ بينما تصورها خيال كاتب السيرة تصورا لا بأس به ومرضا علينا فى مجموعة متتالية من الاحداث لا تخلو من حبكة قصصية الى جانب ارتباطها بالبناء العام للسيرة .

وما يقال عن نشأة تلك العقد يقال كذلك عن تغلب صاحبها عليها وهذا أيضا أغفله مؤرخو عنتره بينما أجاد فى تخيله ووصف أحداثه كاتب السيرة الذى لمس عقد النقص عند عنتره فوصفها ووصف موقف عنتره منها واصراره على التغلب عليها ، ثم لم يلبث أن حولها الى أهداف محدودة يتمثل فى الحصول عليها حل كل تلك العقد . ولهذا اوقف عنتره حياته على حلها . وتسير هذه الاهداف فى سلسلة متصلة تبدأ بموضوع النسب ، ثم بحصوله على الزوجة العربية التى يريد لها هو ، وتنتهى بتعليق قصيدته على الكعبة بين المذاهبات . ولا يصل كاتب السيرة

يفارسه الى تحقيق غاياته الا بعد ان يجعله يمر باحداث تتلوها احداث ،  
ويخوض المعارك تلو المعارك ، ويقطع من فصول سيرته ما ينيف على ستة  
عشرا جزءا . اما رواية التاريخ فكما قفزوا بنا من ميلاد عنتره الى حصوله  
على النسب ماودوا القفز مرة اخرى لنجد انفسنا امام بطولته وهى  
معلقة على الكعبة .

ويذكر رجال الادب - لا التاريخ - السبب الذى من اجله قال عنتره  
تلك القصيدة وهو ان رجلا من بنى عبس سابه وشاتمه فذكر سواده  
وسواد أمه واخوته وغيره بذلك وبأنه لا يقول الشعر . فقال له عنتره :  
« والله ان الناس ليتراقدون بالطعمة فما حضرت مرفد الناس أنت ولا  
أبوك ولا جدك قط . وان الناس ليدمبون في الفارات فيعرفون بتسويهمهم  
فما رأيناك في خيل مغيرة في أول الناس قط . وأن اللبس ليكون بيننا  
فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فيصل . وانما أنت فقع نبت  
بقرقر . وانى لاحتضر الياس ، وأوفى المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود  
بما ملكت يدى ، وأفصل الخطة الصمعاء ، وأما الشعر فستعلم » . فكان  
أول ما قال قصيدته :

### هل غادر الشعراء من مـتردم

وهى أجود شعره . وكانوا يسمونها المذهبة . (١) أما كيف علقت  
هذه المذهبة على الكعبة واعتبرت واحدة من مسمطات العرب ، وما الذى  
فعله عنتره لينال هذا الشرف ويصل يشعره - أو بغير شعره - الى  
تلك المكانة ، فهذا ما لم يرد له ذكر في أحاديث المؤرخين والادباء على حد  
سواء ، بينما تكلف كاتب السيرة عددا آخر من فصول سيرته فصل فيها  
الكثير من الاحداث ، وذكر الكثير من الاسباب والمسببات التى انتهت  
بعنترة الى هذا المركز الادبى الممتاز الذى يكمل سلسلة الاهداف التى  
هدف اليها كتعويض للعقد التى صاحبت مولده ونشأته .

ولا يرد لعنترة بعد ذلك من ذكر في كتب التاريخ اللهم الا اشارة  
هابرة تدرج اسمه ضمن من اشتركوا في حرب داحس والغبراء ، تلك  
الحرب التى استمر أوارها بين عبس وذبيان ، واستمرت ما يقرب من  
أربعين عاما ، واعتبرت واحدة من أشهر أيام العرب وملا ذكرها كتب  
التاريخ والادب . ومع ذلك فان عنتره لا يذكر في أحداثها الا ضمنا ،  
ولا يذكر عنه الا أنه كان ممن اشتركوا في هذه الحرب بحكم كونه واحدا  
من بنى عبس ، ثم هم لا يذكرون من شعره في تلك الحرب الضروس الا  
أبياتا قلائل قال بعضها في رثاء مالك ابن زهير ، وبعضها في مناسبات

(١) الشعر والشعراء - ابن قتيبة ج ١ ص ٢٠٥ والاعانى

ج ١ ص ٢٢٣ وخزانة الادب - البغدادى ج ١ ص ٦١



أخرى متفرقة لا تحدد مكانا واضحا لعنترة في تلك المواقع ولعل هذا هو السبب الذي دعا كاتب سيرة عنترة أن يمر بهذه الحرب المشهورة مرور الكرام دون أن يفيض في وصفها ورسم صور معاركها مثلما فعل في تلك الوقائع التي لا نهاية لها والتي أنشأها خياله ، ورسمها تصويره ، وجعل عنترة فيها لا فارسا فحسب ، بل وبطلا تراجيديا مرة ، وملحميا مرة ، وأسطوريا مرة .

ولم تكن شهرة عنترة في التاريخ والأدب كفارس تعادل شهرته كعاشق . متيم أحب عبلة - ابنة عمه - وهام بها وراح يقول فيها الشعر ويلذكرها أينما سار وأينما حل وأصبحت قصة حبه ذاك من أشهر قصص الحب المعروفة . وعلى الرغم من ذلك فإن المؤرخين ورواة الأدب لا يحددون لها مدى العلاقة التي كانت بين عنترة وبين حبيبته عبلة ، ويتركونها نقف وسط متاهة من التكهّنات والآراء المتضاربة دون أن يقطعوا الشك باليقين فيذكرها صراحة : هل تزوج عنترة من عبلة أم لم يتزوجها ؟ . ونحن لن نحاول تجشم المصاعب - مثلما فعل كثير من الباحثين (١) - لنرجع أحد الاحتمالين ، ونروح نتصيد أوهى الأسباب لبنى عليه . ونؤكد أن عنترة قد تزوج عبلة أو أنه لم يتزوجها ، فهذا أمر ليس له من القيمة ما يوازي الافتئات على الحقائق بترجيح رأى ظنى في موضوع تاريخي . واللوم في هذا يقع - ولا شك - على عاتق أولئك الذين أغفلوا ذكر هذا الحدث ولم يحددوا لنا ماتم بين عبلة وعنترة . أما كاتب السيرة فقد زوجهما ، بل واتخذ من زواجهما خيطا يقيم عليه صرح البناء الفني لقصته الطويلة التي دارت معظم أحداثها حول عبلة أو بسببها .

ويسكت عنا مؤرخو الأدب فلا يوردون لعنترة ذكرا حتى نصل إلى النهاية فيموت عنترة . ولكن ... كيف مات هذا البطل ؟ ومتى توفي ؟

إن الشق الثاني من السؤال لا يهم مؤرخي الأدب في كثير أو قليل . ولذلك أغفلوه أغفالا تاما . أما الشق الأول فقد عادوا فيه إلى سابق عهدهم من اختلاف الروايات وتضارب الآراء . فيقول أبو عبيدة ؟ أن عنترة أغار على بنى نبهان من طيء فطرد لهم طريدة - وهو شيخ كبير - وكان وزر بن جابر النبهانى - الملقب بالأسد الرهيص - في فتوة ، فرماه وقال : خذها وأنا ابن سلمى . فقطع ظهره . ولكن عنترة تحامل بالرمية

---

(١) فارس بنى عبس - لحسن عبد الله القرشى ص ٦١ والفتوح .  
هند العرب لعمر الدسوقي ص ٤٣٤

حتى أتى أهله وهو مجروح . (١)  
ويذكر أبو عمرو الشيباني قصة أخرى في موت عنبرة هي أنه غزا  
طبئاً مع قومه فانهزمت عبس ، فخر عن فرسه ولم يقدر - من الكبر -  
أن يعود فيركب . فدخل دغلاً وأبصره طليعة طيء فنزل إليه وهاب أن  
يأخذه أسيراً فرماه وقتله . (٢)

ومع أن الرواية الأولى أقرب إلى التصور من الرواية الثانية ، لأن  
لقاء عنبرة المن بفارس كالأسد الرهيص - وهو شاب - وتمكن الثاني  
من الأول أمر أقرب إلى طبائع الأشياء من تصور وقوع عنبرة عن فرسه  
فلا يستطيع العودة إليه وهو الفارس المغوار المحنك إلا أننا لا نستطيع  
ترجيح هذه الرواية لأن أبا عبيدة لا يستقر عليها وإنما يضيف إليها  
رواية ثالثة أكثر غرابة من رواية الشيباني ، مؤداها أن عنبرة كان قد  
أسن واحتاج وعجز - لكبر سنه - عن الفارات ، وكان له على رجل من  
غطفان بن بكر ، فخرج يتقاضاه إياه ، فهاجت عليه ريح من صيف وهو  
بين « شرج وناظرة » - وهما ماءان لعبس - فقتلته ووجد بينهما  
حيثما (٣) أي أن عنبرة المحارب الصندي الذي لم تقتله الحرب ومنازلة  
أعتى الفرسان ، ولم تلتهمه المواقع التي خاضها ، تضر به ريح في منازل  
اعتادها كل عام فتقضى عليه . ولهذا فإن أغلب الباحثين - قدماء  
ومحدثين - اعتبروا الرواية الأولى أصح الروايات وأنها هي الصورة  
الواقعية التي مات عليها عنبرة (٤) وهي كذلك الصورة التي أخذها  
كاتب السيرة وأضاف إليها إضافات درامية جعلتها نهاية رائعة لقصة  
ممتازة .

ونحن لا يهمنا كثيراً أن نرجح رواية على أخرى ، أو أن تستعمل  
المنطق والحساب لنحدد سنة وفاة صاحبنا مثلما فعل البعض (٥) أو أن  
نحدد سنة لذلك دون ماسند أو دليل (٦) ، فإن هذه الحقائق التاريخية  
ليست مجالاً للاجتهاد . ولكن الذي يهمنا هو أن نسأل : لماذا سكوت  
مؤرخو الأدب عن إثبات ذلك ؟ هل لأن عنبرة بن شداد كان شخصاً  
خاملاً لا يستحق العناية والتأريخ ؟

(١) الأغاني ح ٨ ص ٢٤٤

(٢) الأغاني ح ٨ ص ٢٤٥

(٣) السابق

(٤) المؤلف والمختلف ص ٩٩ ظ القدسي وشعراء النصرانية ،

ح ٦ ص ٧٩٨ وخزانة الأدب للبغدادي ح ١ ص ٦٢ وفارس  
يبنى عبس للقرشي ص ٦٦

(٥) مقدمة ديوان عنبرة لأبراهيم الأبياري

(٦) تاريخ الأدب العربي للزيات ص ٤٨

والاجابة على هذا الغرض هي النفي القاطع طبعاً . فعنتره كان شخصاً ذا مكانة بارزة في عصره . وبين قومه ، نصبوه فارساً عليهم وقائداً لهم ، وتبعوه ونفذوا أوامره كما أقر بذلك الحطيثة . ولم تكن قيمته وشجاعته أمراً داخلياً محصوراً في نطاق قبيلته ، وإنما كانت شهرة عامة بين العرب ، وصيته ذاتها في أرجاء الجزيرة العربية . فهاهو صاحب الاغانى يروى أنه قيل لعنتره : « أنت أشجع العرب وأشدّها ؟ قال : لا . قيل : فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ . قال كنت أقدم اذا رايت الاقدام عزماً ، واحجم اذا رايت الاحجام عزماً ، ولا ادخل الا موضعاً ارى لى منه مخرجاً ، وكنت اعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه واقتله (١)

فعنتره اذن معروف في الجزيرة العربية كلها ، مشهور بالشجاعة ومشهود له بها حتى لقد خلعوا عليه لقب « أشجع العرب وأشدّها » . فلماذا اذن سكت عنه المؤرخون . ربما كان ذلك لان قصص شجاعته وبطولته لم تكن تذاع في الناس ؟ . ولكن الواقع يلحظ هذا الغرض كذلك ، نقص عنتره واخباره كانت تروى وتحكى للناس ، وما كان يروى منها لم يكن خلق خيال وتنميق قلص ، وإنما كان أحداثاً حقيقية واخباراً واقعية رائدها الصدق والواقع ، والا لما جسر أحد على حكايتها للنبي محمد عليه الصلاة والسلام . وهي الى جانب ذلك كانت - ولاشك - شيئاً رائعاً مشوقاً مشرفاً ، أعجبت الرسول حتى أنه قال عنها : « ما وصف لى اعرابى قط فأحببت أن اراه الا عنتره » . (٢) ومعنى هذا أن عنتره كان يذكر أمام النبي ، وكان يوصف وتروى قصصه وتسرد سيرته ، وأن هذه القصص وتلك السيرة كانت مشرقة رائعة لدرجة جعلت النبي يود لو أن الظروف قد اتاحت له رؤية صاحب تلك القصص وبطل هذه السيرة .

ونعود الى السؤال . . لماذا اذن سكت عنه مؤرخو الادب ؟ وأقرب اجابة على ذلك عندنا هي أن أولئك المؤرخين ماكانوا يهتمون بالقصص والسير ولا بالاشخاص والاعلام ، ولا بالتاريخ والأحداث ، وإنما كان كل همهم موجهاً نحو الشعر والشعر وحده . فهم يرون الشعر أولاً وأخيراً ، فاذا ما اتصل ذلك الشعر برجل ذكروه واذا ارتبط بحدث أوردوه ، واذا جرى في مكان كتبوا اسمه .

ولن نخوض في أسباب هذا الاتجاه ولا في نتائجه الضارة ومدى

(١) الاغانى ح ٨ ص ٢٤٤

(٢) بلوغ الأرب - الالوسى والاغانى ح ٨ ص ٢٤٣



ما سببت من خسائر أدبية فادحة نحن أمام أحداها الآن ، فهذا الحديث يطول وليس هنا مكانه ، ولكن علينا أن نحاول محاولة أخرى ، فنقنع بما وقع بين أيدينا من شعر عنتره وندرسه علنا نستطيع أن نستشف منه تاريخا لحياة صاحبه .

هذا من حيث تاريخ حياة عنتره تاريخا منهجيا ، أما اذا انتقلنا الى ناحية أخرى محاولين استغلال تلك الروايات والاعبار المتفرقة في رسم صورة لعنتره تبين شخصيته وتوضح حياته ، وتلمس عاداته ونوازمه متبعة الاسباب التي أدت الى ذلك ووجدنا أن أول ما يلفتنا هو بناء تلك الشخصية . فأم عنتره هي زبيبة الحبشية التي وقعت في أسر بعض قبائل العرب ، فعملت ورعت الإبل وتحملت المشاق . ومعنى هذا أنها لابد كانت في صحة جيدة وقوة احتمال تعين عليه بنية قوية ، كما كان شكلها - أو منظرها العام - مقبولا الى حد ما والا لما وقع عليها ذلك الفارس العربي الذي أنجبها عنتره . وهذا الفارس - سواء أكان هو شدادا نفسه أو ابنه أو أخاه - فانهم جميعا من صفوة فرسان هبس ، تلك القبيلة التي كانت من جمرات العرب بل وكانت أشهر القبائل في الحرب وأقواها شكيمة وأعزها جانبا . فلاشك أن فرسانها كانوا هم أقوى الفرسان وأعتاهم ، وكان أبو عنتره واحدا من صفوة أولئك الفرسان .

وهكذا نجد أن التزاوج المختلط بين فارس عربي قوى وأمة حبشية قوية - أي بين أصليين قويين صالحين من جنسين مختلفين - قد أنتج خامة جديدة جمعت بين قوة الأصلين وحصلت على مزايا التزاوج المختلف الاجناس ، وامتازت بما في كل منهما من محاسن وافضال ، وأهلت لعنتره أن يجمع بين القوة البدنية التي يمتاز بها العربي وقوة الاحتمال التي يمتاز بها الجنس الحامي . وهذان العاملان يكمل كل منهما الآخر ، فالقوة البدنية دون مقدرة على الاحتمال مثلها مثل قوة الاحتمال دون قوة بدنية ، كلاهما لا يوصل صاحبه الى شيء ، وانما اجتماعهما هو الذي يبلغه ارفع درجات الفروسية .

وقد التفت مؤلف سيرة عنتره الى هذه النقطة الهامة في البناء التكويني لشخصية عنتره فأحسن استغلالها ثم حور فيها قليلا ليكسبها المظهر القصصي وذلك بأن أضاف اليها قوة غيبية خارقة حبا الله بها عنتره فكان كلما أجهد في القتال تأخر خطوة للخلف وانتظر لحظة ثم تقدم وقد عادت اليه قوته بأكملها من جديد ، وبهذا يستطيع أن يستمر في الضرب والطعان يوما كاملا أو يومين - وربما أكثر - دون أن يصيبه تعب أو خور أو كلال .

وكان لهذا التزاوج المختلط الذى انتج عنتره وحباه بمزايا الجنسيتين المتزاوجين ان شب الصبى وفي صدره رغبة متوثبة نحو الفروسية أخذها عن أبيه ، وفي نفسه قوة احتمال ومثابرة أخذها عن أمه . قدفعته القوة الاولى الى عدم القناعة بالرعى والقيام بما يقوم به العبيد من أعمال الخدمة فراح يتعلم الفروسية ويتدرب على ركوب الخيل ، وساعدته الثانية على الاستمرار في هذا العمل اذ لاشك انه كان يقوم به خلسة دون علم أسياده لانهم لم يكونوا يسمحوا له بامتهان خيلهم واجهادها وترك العمل الموكول به اليه كما أنهم لم يكونوا يسمحوا لعبد من عبيدهم بالتمرس على أعمال الفروسية التى هى مظهر من مظاهر السادة محرم على العبيد .

وهنا تظهر فضيلة المثابرة التى ورثها عن أمه الحبشية ، اذ بواسطتها تمكن من مزاولة المران والتغلب على كل ما قد يصادفه في عمله هذا من عقبات . ولاشك ان هذه الفضيلة ماكانت لتوصله الى مبتغاه لو لم يؤازرها فضيلة أخرى مشهورة عن الجنس الحسامى . كذلك هى المراوغة وسعة الحيلة وحسن تبصر الامور . وهذه الفضيلة اكتشفها عنتره في نفسه وأحسن استغلالها وبنى عليها مجده بل وحياته وعبر عنها اصدق تعبير في عبارة أبى الفرج الأصبهاني . (١) فهذه الفضيلة استغلها في صباه فمكنته من التدريب على الفروسية واجادة استعمال الخيل والسلاح ، ثم استغلها بعد ذلك فكانت الاساس الاول الذى بنى عليه شهرته ومجده . وكاتب السيرة لم يذكر تلك الفضيلة لعنتره فحسب ، بل واكد انها فضيلة حامية مكتسبة من الام ومن جنسها فركزها في شيبوب - أخى عنتره - وجعلها أظهر صفاته ، ورد اليها الفضل في تخلص عنتره من كثيرا من المآزق التى كانت تحقيق به ، كما جعل من شيبوب وزيرا له ومشيرا يرجع اليه في كثير من أموره فيشير عليه شيبوب بما تمليه عينه المتبصرة وذهنه ذو الحيل .

وشب الوليد الذى اكتسب تلك الصفات البدنية والذهنية عن والديه المختلطين فوجد نفسه في مركز لا يليق به ولا تحتمله نفسه العربية الابية . فهو عبد يملكه سيده ، وهو خادم عليه ان يقوم بأعمال وضيعة قليلة الشأن ، وهو تابع يجب ان يطيع كل ما يصدر اليه من اوامر ، ثم هو أسود البشرة بين قوم يعتبرون السواد عيبا وسببة وسمة من سمات العبيد كل هذا جعل الصبى يشعر بالذل والهوان ، وأوجد عنده عددا من مركبات النقص وأمراض النفس ... أوجد

---

(١٠) الأغاني ج ٨ ص ٢٣٩ ...

عنده عقدة ضد العبودية ، وعقدة ضد اللون ، وعقدة ضد أعمال الخدمة التي يقوم بها ، وعقدة ضد السادة البيض الذين يستغلون عليه . ولم يكن عنتره ضعيف الشخصية بحيث تؤثر عليه تلك العقد النفسية تأثيرا سلبيا فيركن الى الفرار والخذلان ، ويقع فريسة سهلة بين برائن الامراض والعلل النفسية ، وانما كان بفضل المزايا البدنية والذهنية التي اكتسبها عن طريق الوراثة ايجابيا في مجابهته لتلك العقد جميعا . فبدأ في محاربتها منذ اللحظة الاولى بأن تدرب على الفروسية وأعد نفسه لمهنة القتال وبذلك تخلص أولا من مهنة الرعى وأعمال العبيد ، ثم أخذت مكانته تعلو بين قومه حتى ساوى فرسانهم وكلون من ألوان التعويض أخذ يبرزهم ويتفوق عليهم حتى أصبح وحده حامى حمى القبيلة . ثم يستغلها استغلالا آخر يمكنه من الحصول على حريته ، فبعد أن أصبح فارس القبيلة الاول يقف فجأة متمنعا عن القتال محددا حريته ثمنا لذلك فلا تجد القبيلة أمامها سوى الرضوخ ودفع الثمن وبذلك يتخلص عنتره من عقدة العبودية بعد أن تخلص قبلها من عقدة الرعى فأصبح سيدا حرا وفارسا مغوارا بعد هذا واجه عنتره عقدة اشد على نفسه من العقدتين السابقتين هي عقدة الجنس واللون . فعنتره - وان تحرر رسميا - الا ان القوم ما زالوا يعتبرونه عبداً أسود الوجه ، وهم يعاملونه - اجتماعيا - على هذا الاساس ، ولم تغلج فروسيته وحمايته للقبيلة في تغيير هذا الوضع الاجتماعى . فعليه اذن أن يسلك الى ذلك سبيلا آخر ، وان يبحث لنفسه عما يوقف هذه التفرقة العنصرية ويعوضه عنها بطريق مباشر - أو غير مباشر -

وجد عنتره أمامه طريقين ربما مكناه من بلوغ مأربه فسلكما معا . وكان اول الطريقين هو المرأة . فالمجتمع العربى يعتز بالمرأة العربية كل الاعتزاز ويحفل بالحرائر العربيات ويعتبرهن آلهة أو أشباه آلهة بالنسبة للعبيد . فعلى عنتره اذن أن يحاول الحصول على واحدة من تلك الحرائر اللائى استعبده حينما ثبت لنفسه أنه لم يعد عبدا وانما صار سيدا له كل ما للسادة من حقوق . فبدأ محاولاته أولا بالحصول على عربية حصولا جنسيا ليرضى هذه النزعة التي تعمزق نفسه . ولم يقنع عنتره باقتحام خدر أى عربية ، وانما هفت نفسه الى اسمى أولئك العربيات وأعلاهن قدرا عنده وأوثقهن صلة بمشكلته الا وهى « سمية » امرأة سيده السابق شداد ، فراح يراودها عن نفسها (١) ولم تحدد الروايات التاريخية ما اذا كانت الصلة قد



توثقت فعلا بينهما أم أنها لم تتم ولكن اغلب الظن أنها تمت واستمرت .  
فسمية حين وشت به الى بعلمها الذى غضب وضربه ضربا شديدا  
لا تحتمل النظر الى عنتره وهو يضرب فتلقى بنفسها عليه وتكف  
زوجها عنه ويسيل منها دمع العين أسى على حبيبها الأسمر . وحبيبها  
يعرف هذا الدمع جيدا فكم شاهده من قبل حتى أنه ليقول عنه :

**أمن سمية دمع العين مذروف      ولو أن ذا منك قبل اليوم مذروف**

وهكذا يصل عنتره الى مبتغاه وينجح فى أن يرضى نفسه معوضا  
عقدة التفرقة العنصرية . ولكن هذا الرضى النفسى الذى بلغه لم يحل  
المشكلة بأكملها وإنما حلها حلا داخليا فقط ، أما المظهر الخارجى فباق  
كما هو ، فعنتره لازال فى أعين الناس عبدا . اذن فلا بد له أن يغير  
هذه العقيدة . ومادام قد استطاع الوصول الى عربة فى الخفاء فعليه  
أن يحصل على واحدة فى العلن . وكما اختار فى المرحلة الاولى زوجة  
سيده التى كان يقوم على خدمتها ابان عبوديته ، اختار للمرحلة الثانية  
ابنة أخى سيده التى كان يقوم على خدمتها كذلك لما لكل منهما من  
صلة وريقة بعقدته . فراح يخطب عيلة من إبيها علنا وامام الناس  
حتى اذا ماتم الزواج منها وأقر له الجميع بهذا كان قد تخلص من تلك  
العقدة التى أضنته . وهنا تقف الروايات التاريخية دون أن تحدد  
لما هل تم لعنتره ما أراد أو أنه لم يستطع تحقيق هدفه ولم يتزوج  
من عيلة . ولكن الذى لا شك فيه هو أن هذا الهدف الذى وضعه عنتره  
نصب عينيه كان عاملا هاما من العوامل التى تضافرت على بناء  
شخصيته ، ودافعا قويا حفزه الى المزيد من الاعمال . فهو يعلم أنه  
لم يحصل على حريته الا باظهار بأسه وقوته ومدى احتياج القبيلة  
إليه ، فعن نفس هذا الطريق يستطيع أيضا الحصول على هدفه  
الجديد .

أما الطريق الثانى الذى سلكه عنتره ليجابه به عقدة النقص لديه  
من الناحية العنصرية فهو طريق الشعر . فالقبيلة كما تحتاج الى  
الفارس لحمايتها تحتاج الى الشاعر لحمايتها كذلك، وكما تدرب عنتره  
ليكون فارسا ويرتفع بنفسه عن أعمال العبيد ويبرز الفرسان ، تدرب  
كذلك ليكون شاعرا ويرتفع بنفسه بين قومه ويبرز الشعراء . وهكذا  
نجد أنه اتخذ الشعر وسيلة الى غاية وعلاجا من عقده النفسية ومركبا  
يوصله الى ما يصبو اليه من مكانة بين العرب . ونحن نجد مصداق  
ذلك فيما ساقته الاخبار عن السبب المباشر الذى دفعه الى انشاء  
معلقته فقومه لازالوا يحتقرونه ويسبونونه ويعيرونه ، فيرد عليهم معرفتهم

مفاخرها بأنه يبزهم في القتال مثما يبزهم في الشعر سواء بسواء ،  
ويسبب إحدى تلك المعايير قال عنتره معلقته (١)

فعنتره اذن ليس فارس القبيلة وحاميا فحسب ، بل هو أيضا  
شاعرها وصوتها المتحدث بلسانها بين القبائل . وكما أن عقدتي النقص  
والرغبة في التعويض عنها دفعاه الى أن يتفوق على الفرسان جميعا  
فيصبح « عنتره الفوارس » وأشجع العرب وأشدها ، فهو كذلك شاعر  
الشعراء وأحد الفحول الذين خلد العرب انتاجهم ووضعوه موضع  
التقديس فوق استار الكعبة .

وربما كانت هذه العقد النفسية وسلوك عنتره للتغلب عليها هي  
السبب الذي جعل الفردية تظهر بوضوح في شعره بخلاف ما هو  
معروف عن الشعر الجاهلي عامة من أنه تعبير عن الجماعة لا عن  
شخص قائله ، وأنه لسان حال القبيلة بأكملها وليس لسان حال  
الشاعر الفرد . ولكن بما أن عنتره كان يتخذ الشعر وسيلة للوصول  
الى مغايم شخصية وطريقا من الطرق التي سلكها في سبيل التخلص  
من عقد النقص التي واجهته ، لذلك كان شعره معبرا عن نفسه أكثر  
من تعبيره عن القبيلة ، وكانت معظم اقواله تعود الى ذاته وتدافع عن  
شخصه وتفخر بمآثره هو قبل أي شيء آخر .

تلك هي المعالم الكبرى التي حددت شخصية عنتره ورسمت له  
طريق السير في الحياة ، وكونت الاسس والدوافع التي جعلته يسلك  
سلوكا معيناً وينهج هذا النهج البطولي . فاذا ما أردنا أن نفحص وراء  
بعض دقائق تلك الشخصية ، وأن نقف على مزيد من صفاتها الفردية  
ومزاياها الخلقية وجدنا أن أول اشارة تحدد لنا معالم هذا الطريق  
هي ذلك الحديث النبوي الذي قاله الرسول عليه السلام : « ما وصف  
لى اعرابي قط فأحببت أن أراه عنتره . » (٢)

فهذا النص وإن كان لا يعطينا أي تفاصيل عن شخصية عنتره ،  
إلا أنه يلفتنا الى أمور عديدة . أولها أن عنتره كان ذائع الصيت في  
الجزيرة العربية ، وكان مادة خصبة من مواد السمر الذي يلجأ اليه  
العرب في مجالسهم . فصاحب العقد الفريد يذكر أنه قيل لبعض  
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كنتم تتحدثون به إذا  
خلوتم في مجالسكم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار  
جاهليتنا » (٣)

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٠٥

(٢) الأغاني ج ١ ص ٢٤٣

(٣) ج ٣ ص ٤٩

فأحاديث السمر تلك كانت تدور بين القوم كما كانت تدور في حضرة الرسول عليه السلام ، وكان عنتره يذكر فيها كثيرا ، بأشعاره مرة ، وبأعماله مرة ، بل وبصفاته وأخلاقه مرات وكما كانت أشعاره عبقرية رائعة ، وأعماله بطولية فائقة ، فلا بد أن أوصافه وخصاله كانت كذلك حميدة ومثالية استحوذت على اعجاب النبي فخص عنتره بهذا الحديث الذي يرفعه فوق جميع أبطال الجاهلية ورجالها .

ولم يكن عنتره قدوة بين أهل زمانه فحسب ، بل أنه كان قدوة للآزمان التالية بعده رغم ما طرأ على حياة العرب الدينية والسياسية والاجتماعية من تطور بعيد . ومعنى هذا أن أخلاق عنتره وخصاله الحميدة لم تكن تناسب العصر الذي هو فيه وحده ، وإنما كانت مثالا عليا ثابتة القيمة صالحة لكل انسان في كل زمان ومكان حتى تمنى بعض أئمة الاسلام لو أن تلك القيم الاخلاقية الجاهلية التي سنها عنتره بقيت وتأصلت في نفوس شباب الاسلام فقال : وددت لو أن لنا مع اسلامنا كرم اخلاق آبائنا في الجاهلية . الا ترى أن عنتره الفوارس جاهلي لا دين له ، والحسن بن هانيء اسلامي له دين ، فمنع عنتره كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانيء دينه . فقال عنتره :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى . أوأوها

وقال الحسن بن هانيء مع اسلامه :

كان الشباب مطيعة الجمل ومحسن الضحكات والمزحل

والباءى والناس قد قدوا حتى أتيت حامدة البعل<sup>(١)</sup>

ولعل هذا النص هو الذى لفت كاتب السيرة فمقله بفكرته - وبما يقارب لفظه - ليجرى على لسان « شاس بن زهير » حينما يسرع عنتره الى اتقاذه وتخليصه من الاسر مرة تلو اخرى على الرغم من الاساءات التي كان شاس يلاحقه بها . واخيرا يعترف شاس بافضال عنتره ويحسن خصاله ويتمنى لو كانت له مثلها فيقول مخاطبات نفسه : « هذه فعال عنتره معى ومع سائر الناس وهو ابن الامة ، فكيف تفعل انت بضده يا شاس وانت ابن حرة مكرمة »<sup>(٢)</sup>

وهكذا نجد ان التاريخ لا يقدم لنا صورة عن حياة عنتره ، ولا يزودنا باحداث وافعال تمكثنا من تصور هذه الصورة واستنتاجها وكل ما يستطيعه التاريخ هو ان يعطينا تأكيدا بوجود عنتره ثم يطمئننا الى ان حياته كانت مشرقة فاضلة ، وانها كانت مثالا للفروسية العربية وتطبيقا لمفهومها الصحيح سواء قبل الاسلام وبعده .

(١) العقد الفريد - ابن عبد ربه ح ٣ ص ٤٩

(٢) سيرة عنتره مجلد (١) ص ٣٨١



## الفصل الرابع

### شخصية عنتره من شعره

طبع ديوان عنتره عددا كبيرا من الطبقات في اماكن متعددة ، وكان اقدم هذه الطبقات هي مجموعة القصائد التي جمعها « اسكندر اغا ابيكار يوس » واطلق عليها اسم « منية النفس في اشعار عنتر عيس » ونشرها عام ١٨٨٣ م مرتبة ترتيبا ابجديا . وقد اعيد طبعها بعد ذلك عدة مرات في كل من القاهرة وبيروت . وتلا ذلك محاولة جديدة للاستاذ عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي حيث اضاف الى « منية النفس » عددا من القصائد التي رواها البطليوسي والاصمعي واعاد نشره تحت اسم « شرح ديوان عنتره بن شداد » ، ورتب القصائد ترتيبا ابجديا . كذلك مع ذكر مصادر كل قصيدة وبحرها ، وذيلا بشرح مختصر لبعض الالفاظ والعبارات .

اما احدث طبقات الديوان فتلك التي اصدرها الاستاذ كرم البستاني عام ١٩٥٨ ونهج فيها نهجا جديدا اذ قسم الديوان الى قسمين متميزين ، القسم الاول يشتمل على القصائد التي اطلق عليها اسم « الشعر الثابت له » ، وهي ما رواه الرواه الذين تقدموا وضع قصته كالاصمعي وابي عبيدة ابى عمر بن العلاء والمفضل الضبي وابي سعيد السكري والبطليوسي ومن اخذ عنهم . والقسم الثانى يحتوى على القصائد التي اطلق عليها اسم « الشعر المشكوك فى صحته » وهو ما روى فى القصة وما روى فى الديوان دون ان يكون مرويا عن احد اولئك الرواه الثقات

ومعنى هذا ان الاستاذ كرم البستاني وضع الشعر الذى ورد فى سيرة عنتره ضمن ما حمل عليه ، ومعنى هذا ايضا ان شعر عنتره الذى ورد فى ديوانه ليس جميعه مقطوعا بصحته . والاعتماد فى التفريق بين الشعر الصحيح والمنحول يرجع اولا الى روايات الثقات من الرواة ثم بعد ذلك يعتمد على دراسة الشعر نفسه ، تلك الدراسة التى تظهر للقارئ المدقق فرق ما بين الشعرين .

ولسنا هنا بصدد تنخل شعر عنتره لنقبل الصحيح من شعره . فنثبتة ، ونرفض المحمول عليه فنبعده . وانما غايتنا هى دراسة شخصية عنتره وحسب ، لابرار صور هذه الشخصية فى اوجهها

المختلفة والمقابلة بين تلك الاوجه لا سيما بين الوجه الحقيقي الثابت من احداث التاريخ ووقائعه وبين الوجه الفني الذي تخيله القاصون المنشئون لشخصية عنترة الروائية . وقد بدأنا بمحاولة رسم الصورة الحقيقية لعنترة كما صورها التاريخ بعد ذلك سوف نحاول تتبع الصورة - او الصور - التي تخيلها مؤلف السيرة الشعبية له . وعلى ذلك فلست ارى ما يمنعنا من النظر في شعر عنترة على نفس الاساس فنقبل كل ما حمل اسم عنترة من قصيد لا باعتبار انه صاحبه دائما ولكن على انه يبرز لنا شخصية عنترة في صورة من الصور . وعلينا ان نقبل مبدئيا ذلك التقسيم الذي اصطلحه الاستاذ البستاني ، فنأخذ القسم الاول اساسا لتبيان شخصية عنترة الحقيقية ونعتبر القسم الثاني تقويما فنيا لتلك الشخصية ، وهذا بالطبع بعد تدقيق النظر في شعر عنترة جميعه والقيام بعمليات استقرائية فيما صح وما لم يصح حتى نطمئن الى ذلك التقسيم .

هذه « الثنائية » التي تبدو في شعر عنترة هي في الواقع ثنائية طبيعية ومنطقية ، فشعر عنترة الثابت له يعبر عن شخصيته الحقيقية او شخصيته التاريخية - ولكن من زاوية خاصة هي الزاوية الذاتية فيظهر لنا كيف يرى عنترة نفسه ، وكيف يحس بذاته ويعبر عنها ، وهو في ذلك ربما رسم لنا خطوطا نفسية مكمل للصورة الشكلية او الخارجية التي رسمها الرواة والمؤرخون . اما الشعر المحمول عليه فمن اوضح مظاهر القصص العربي ان القاص كان يؤيد مروياته بما يعن له من قصائد يحتاج اليها الموقف الروائي ، او يتطلبها الصراع الدرامي ، او ربما ليضفي على مروياته ظلا من الحقيقة يدفعها الى نفوس المتلقين ، او ان المتلقين انفسهم هم الذين كانوا يحسون بتلك الحاجة الى عدد من ابيات الشعر لتثبت الرواية القصصية في نفوسهم . فعبيد بن شريح - الذي استدعاه معاوية بن ابي سفيان ليقص عليه قصصه - كان يذكر على لسان ابطاله الشعر الذي قالوه ، فاذا اغفل عبيدا امر الشعر لاحقه معاوية قائلا : « سألتك الا تمر بشعر تحفظه فيما قاله احد الا ذكرته » (١) ، او يقول له : « سألتك الا شددت حديثك ببعض ما قالوه من الشعر ولو ثلاثة ابيات » (٢) . ولهذا فانه لا غرابة في ان نجد قاصا كوهب بن منبه يذكر قصصه مشفوعة بابيات من الشعر قالها آدم او نوح او حتى غير العرب من ابطال قصصه .

فهذا الشعر اذن هو الصورة المكمل للشخصية الروائية التي

(١) التيجان ص ٣١٤

(٢) التيجان ص ٣١٨

يرسمها القصاص ، ووجود هذا الشعر جزء من منهج التأليف الروائي عند العرب بحيث يعتبر اهماله - او طرحه جانبا - قصورا في خطة البحث واغفالا لمقوم اساسي لا تقوم شخصية عنتره التقويم الفنى المناسب الا بايراده ودراسته . اما مسألة قبول هذا الشعر او رفضه فامر متروك لمتخصص فى دراسة شعر عنتره من ناحية التحقيق والتأريخ الادبى . اما نحن فنقبل هذا الشعر على اعتبار انه جزء من فن الرواية العربية اصطنعه القصاص كمقوم من مقومات البناء الفنى لعملهم .

وقد يوحى قبول هذه الثنائية فى شعر عنتره بتخبط منهج البحث على اعتبار ان شخصية عنتره من شعره سوف تكون مهزوزة . مترددة بين الشعر الصحيح والشعر المنحول ولهذا فاننا نسرع قائلين ان هذه الدراسة يجب ان تسير على اساس فهمين مختلفين لشخصية عنتره ، فهم يعطيه شعره الثابت له ، وآخر يعطيه شعره المنحول ، وان كلا الفهمين قائم بذاته منفصل عن الآخر تمام الانفصال وان كانا معا قد عملا فى دأب على خلق « عنتره البطل » الذى اخترق حدود الواقع الى دنيا الاساطير . بمعنى ان شخصية عنتره الحقيقية - او الواقعية - كانت مادة جلبت اليها القصاصيين كما كانت فى نفس الوقت مادة طيبة مكنتهم فى سهولة ويسر من تحويلها الى صور روائية . ومعنى هذا ايضا ان شخصية عنتره الاسطورية كانت تجمع صفات الواقع التاريخى الى جانب تخيلات القصاص وما اضيفوه عليها من صفات روائية .

وهنا يلزم ان نحدد شخصية عنتره بتحديدين مبدئيين : تحديد خلقى يرسم الهيكل الانسانى بخطوطه وقسماته وملامحه الظاهرة ، وتحديد خلقى يرسم النفس الانسانية بعواطفها وغرائزها وانفعالاتها ومواقفها من الحياة والكون . وسوف نرى ان التحديد الاول - اى التحديد الخلقى - قد عنيت به القصة اكثر من عنايتها باى شئ آخر ، فرسمت صورة هيكلية لعنتره جعلت منه انسانا مكتملا للصفات البطولية الظاهرية بينما نرى التحديد الثانى - اى التحديد الخلقى - وقد عنى به التاريخ فصور بعضه فيما اورده عن عنتره من روايات ، واكملة هو نفسه بما قال من شعر ثابت له .

وربما كان سبب عناية القصاص بالتحديد الخلقى لعنتره دون التحديد الخلقى هو طبيعة البناء القصصى عند العرب ، اذ ان منهج التأليف الروائى العربى كان يعتمد اساسا على طريقة السرد وحدها دون اللجوء فى كثير او قليل الى طريقة التحليل . ولهذا فانه لم يحاول



العناية بالنفس البشرية وتتبع خلجاتها والغوص في أعماقها لاستكشاف مشاعرها وانما وجه كل همه نحو الخطوط البارزة والملامح الظاهرة. وأوضح مثل على هذا هو ذلك الجزء من السيرة الذي يحكى لنا اللقاء عياض بن ناشد وفرسانه بعنترة واتفاقهم على اغزو معا ، ولكن عنترة رد كل ما غنموه ليحصل على فرسه الابجر ، فاراد عياض ان يؤدبه. وينتقم منه ، فتقدم لمبارزته ولكنه ما ان واجه عنترة حتى رجع عن عزمه وعاد الى قومه ذليلا مخذولا . فلما سألوه عن سبب ذلك لم يستطع تبرير خوفه من عنترة على اساس نفسى استبطانى ، وانما بحث له المؤلف عن تبرير مادي ظاهري وان وضع فيه التكلف والاغراق في المبالغة اذ قال عياض عن عنترة : « لما نزل يشد حزام فرسه واراد ان يركب رأيت خصيتيه مدلاتين الى قرب ركبتيه فعلمت اننا لم نخطر له على بال ، ولو اننا خطرنا على باله لارتفعت خصيتاه وتغيرت جميع احواله » (١)

وهكذا نجد ان القاص العربى الذى اتبع طريقة السرد لم يحاول حتى فى المواقف النفسية البحتة - ان يتزحزح عن ايراد الظواهر الطبيعية دون غيرها . ولهذا فان العناية بالتحديد الخلقى تعتبر الاساس الاول للبناء القصصى عنده . وربما امكن استشفاف الجانب النفسى من بعض الاحداث او الوقائع ، اما ايراده فى صورة مستقلة فامر تفتقده سيرة عنترة كما يفتقده القصص العربى على وجه العموم. ولهذا فاننا نقرر من البداية ان دراسة القسم الاول من شعر عنترة سوف تكون مكملة لدراسة شخصية عنترة الحقيقية او التاريخية ، بينما تكمل دراسة القسم الثانى من شعره شخصيته الاسطورية فى السيرة .

ونود ان ننوه هنا كذلك باننا لن نعرض للطعون الكثيرة التى تناول بها بعض الباحثين الشعر الجاهلى بعامة ، وشعر عنترة على وجه الخصوص من أمثال المستشرق نلينو والدكتور طه حسين ، حيث أن هناك كثيرا من الابحاث المتخصصة التى تعرضت لهذا الموضوع وإثبتت وجود الشعر الجاهلى (٢) ، كما حاولنا نحن من قبل اثبات الوجود التاريخى لعنترة كإنسان ولمعلقاته كشعر جاهلى . هذا فضلا عن ان بحثنا يتناول تصوير شخصية عنترة فى مصادرها الموجودة دون الخوض فى تحقيق وجود تلك المصادر .

والناظر فى شعر عنترة يجد - منذ الوهلة الاولى - ان شعره

---

(١) السيرة مجلد (١) ص ١٤١

(٢) من ذلك كتاب « مصادر الشعر الجاهلى » للدكتور

ناصر الاسد

يختلف عن الشعر الجاهلي عامة في مظهرين أساسيين . المظهر الاول هو ان شعر عنتره يتسم بالرقه والوضوح مع بلاغة التعبير وجودة الاسلوب ، وأنه لم يأخذ مأخذ الشعر الجاهلي عامة من حيث ضخامة الالفاظ وخشونة المعاني ، ووعورة الوصف (١) . والمظهر الثانى أن شعره يكاد يكون فى معظمه شعرا ذاتيا يعبر عن فردية قائله بعكس ما هو معروف عن الشعر الجاهلي من انه شعر جماعى يعبر عن القبيلة اكثر مما يعبر عن قائله . ولا شك ان هذا العامل سوف يساعدنا على استكشاف شخصية عنتره من شعره ، اذ لو كان هذا الشعر جماعيا اكثر منه فرديا لما استطعنا الوقوف على سورة واضحة المعالم لشخصية قائله .

و اول خبر تاريخى لعنتره هو انه ولد عبدا لشداد من أمة تدعى زبيبة ، ثم استمر عنتره يرسف فى اغلال تلك العبودية الى أن اعتقه ابوه والحقه بنسبه عندما ابلى بلاء حسنا فى الدفاع عن قومه . هذه الفترة من تاريخ عنتره ، وهذه النقطة بالذات - نقطة العبودية - ليس لهما اى ذكر أو اشارة فى شعره . فديوان عنتره لا يعرض لعنتره « العبد » ولا يصوره ، بل انه لا يكاد يذكر هذه الكلمة اطلاقا . ولسنا نرى لذلك من تفسير الا ان يكون احد هذه الفروض الثلاثة : -

اولا : ان عنتره لم يقل شعرا فى تلك الفترة ، وانه بدأ قول الشعر بعد ان تخلص من عقدة العبودية واصبح سيدا حرا مالكا لنفسه . اى ان ملكة عنتره الشعرية لم تترعرع وتزدهر الا حينما تخلص من « القينية » وذل الرق (٢) .

واصحاب هذا الراى يعزونه بتلك الرواية التى ذكرت بين يدي معلقته مبررة السبب الذى حفزه على قول الشعر وهو ان رجلا من بنى عبس سابه وشاتمته فذكر سواده وسواد امه واخوته ، وعيره بذلك وبانه لا يقول الشعر . فقال له عنتره : « واما الشعر فستعلم » . فكان اول ما قال قضيدته تلك (٣) .

والواقع ان اصحاب هذا الراى لفتتهم الظاهرة ، ولكنهم ارادوا ان يريحوا ويستريحوا فعللوها هذا التعليل الساذج دون أن يحاولوا سؤال انفسهم : كيف يبقى الفنان طوال هذا الوقت دون ان يستجيب لنزعاته الفنية ؟ ولو امكن حدوث ذلك فانه من غير المستساغ ان

- 
- (١) شعراء النصرانية : للاب لويس شيخور ج ١ ص ٨٨٢  
(٢) تاريخ الادب العربى - للزيات ص ٤٨ وفارس بنى عبس - للقرشى ص ٣٥ .  
(٣) الشعر والشعراء - لابن قتيبة ج ١ ص ٢٠٥

يبدأ شاعر قرض الشعر بمثل تلك القصيدة التي تعتبر عينا من عيون الشعر العربي ، والتي لم تعلق على الكعبة فحسب وانما وضعت ضمن المعلقات سواء أكانت عشرا أم سبعة . أضف الى ذلك انها اجود ما في الديوان طرا ، ومن غير المعقول ان يبدأ شاعر قول الشعر بمثلها ثم كلما تقدم في عمره وفي فنه وفي تجاربه أخرج قصائد تقل عنها قدرا وكما وجمالا وفنا . ثم ان عنتره في هذه القصيدة يصور عشقه لعبلة بما يدل على ان هذا العشق قد مضى عليه زمن طويل ، وهو يتباهى بفروسيته وحمايته للقبيلة بما يدل كذلك على انه قد تربع على عرش البطولة منذ أمد بعيد . فلماذا اذن لم يقل شعرا طوال ذلك الزمن ؟ الاوفق ان نقول بوضع تلك المقدمة ، وانها وضعت بعد القصيدة - كتفسير لها - وربما بعد حياة عنتره نفسه . والدليل على ان هذه المقدمة من اضافات الرواة هو ان السبب الاساسي من قول القصيدة - كما تزعم المقدمة - كان الرد على عيسى سابه وشاتميه وغيره ، ومع ذلك فان عنتره لم يرد على شيء من كل هذا ولم يذكر ذاك الخصم ولا الحادثة ، في الوقت الذي ذكر فيه ابني ضمضم ( وهما ليسا من عيس ) بما يشبه هذا الادعاء حيث قال عنهما :

ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تدر      للحرب دائرة على ابني ضَمَضَمِ  
الشاتِمَى عرضي ولم أشتِهمُما      والناذِرَيْنِ إذا لم القهُمَا دى<sup>(١)</sup>

ولهذا فاننا نعتقد انه من ابعد الامور ان تكون هذه القصيدة اول شعر قاله عنتره كما نرفض تلك المقدمة التي زج بها بين يديها . ثم نحن لا نوافق على الزعم بان عنتره قد امضى تلك الفترة الطويلة من عمره - التي ذاق فيها طعم الحب ، وعاقب الخمر ، وانتشى بالنصر - دون ان يقول شعرا ، ودون ان تترعرع ملكاته وتزدهر .

ثانيا : والفرض الثاني لهذه الظاهرة هو أن عنتره لم يكن قينا قط ، وان كان هذا الزعم يخالف كل ماورد عن عنتره سواء في التاريخ او في السيرة ، في الوقت الذي لا يسنده فيه سوى خلو الديوان من شعر او اشارة تعرض لتلك المرحلة من حياته ، اللهم الا تلك الابيات الثمانية التي تسبقها مقدمة تقرر ان « امرأة ابيه - قبل ان يدعيه ابوه - حرشت عليه وقالت انه يراودني عن نفسي ، فغضب ابوه من ذلك غضبا شديدا وضربه ضربا مبرحا بالسيف ، فوقع عليه امرأة ابيه وكفته عنه ، ولما رأت ما به من جراح بكت » (٢) .

(١) الديوان ص ٣٠ - ٣١ ط ١٩٥٨

(٢) الديوان ص ٥٣



فالخبر بهذا السياق صريح في أن عنتره مر بفترة لم يدعه فيها أبوه ، وهذه الفترة هي حياته في ظل القينية . أما الأبيات فليس فيها دليل على الخبر سوى لفظة واحدة وردت في البيت الذي يقول فيه : -

المال ما لكم والعبد عبدكم فهل عذابك عني اليوم مصروف

والبيت بهذه الصورة لا يدل على قينية باي حال من الأحوال . فان ناقشنا حركة الضمير في كلمة ( عذابك ) ووجدنا انها «فتحة» في الديوان عجبنا ان تكون كذلك والخطاب فيما قبل البيت وفيما بعده موجه الى « سهية » مما يستدعى ان يكون الخطاب في هذا البيت كذلك موجهها اليها وان تكون حركة الضمير فيه هي « الكسرة » لا الفتحة .

ولكن . . من هي سهية هذه ؟ ان الأبيات ليس فيها اشارة واحدة تنم عن انها زوجة ابيه ، بل - على العكس من ذلك - فان فيها ما ينم عن انها لا يمكن ان تكون زوجة ابيه وانما هي مجرد صديقة يتغزل فيها . وآية ذلك قوله : -

كانها يوم صدت ما تكلمني ظبي بمسغان ساحبي الطرف مطرُوف

فبالله . . كيف يصف عبد من العبيد زوجة ابيه بهذا الوصف ، وكيف يوجه اليها هذا الغزل الصريح ، وهذا الادعاء ، بل وكيف يصرح بقيام علاقة بينهما فيها الكلام وفيها النقاء وفيها الصد وفيها الغزل .

اغلب الظن ان هذا الخبر كله مصنوع ، وانه - مثل سابقه - وضع بعد قول الأبيات وربما بعد عصر عنتره . اما القصيدة نفسها فلا بد ان تكون المرأة فيها غير زوجة ابيه . وفي هذه الحالة لا يكون فيها اشارة الى « قينية » او نحوها ، اذ يفسر البيت الذي اثار هذا الزعم : « المال ما لكم والعبد عبدكم » على انه ضرب من ضروب الضعف عند العاشق حتى انه ليسلم لصاحبه بكل شيء ، ويجعلها فوق الجميع ويرضى منها . يمكن العبد تتصرف فيه وتتأمر دون ان يقدر هو على مخالفة او عصيان .

يبقى بعد ذلك عدة أبيات فيها ذكر لسواد جلده دون اي تصريح بالقينية . والمفهوم السائد عند العرب هو ان الاسود ينبغى ان يكون عبدا . ولهذا اخذت تلك الأبيات على انها موحية بعبودية عنتره . ومن الواضح خطأ هذا الاعتقاد اذ لا يلزم أن يكون كل اسود عبدا لا سيما

في بيئة صحراوية لافحة الشمس ومجاورة لمناطق الحاميين الذين يتبادلون معهم التجارة والناس .

ولكن - على الرغم من كل ذلك - فليس من السهل أن يدعى بعدم قينية عنتره وليس لدينا من دليل سوى عدم ذكر ذلك في ديوانه . وعليه فلا يبقى أمامنا إلا الفرض الثالث وهو : -

ثالثا : أن عنتره ترفع عن القينية فابى أن يسجلها على نفسه . وإن يذكر شيئا عن حياته خلالها فاسقطها من شعره عامدا متعمدا ، ونسيها آملا أن ينساها الناس كذلك بل أنه - كتعويض لهذا النقص الذي يحسه - أفاض في تصوير نفسه كسيد عظيم مترئس على قومه ، أمر فيهم ، إذ يقول : -

زادْتُ عبساً فاستجابوا بالقنا وبكل أبيض صارم لم ينجل<sup>(١)</sup>

فالعبد لا يمكن أن يدعو فيستجيب له الأحرار . وهو فضلا عن ذلك حامى حماهم ومقيل عثراتهم ، يلجئون إليه في الملمات ويستجيرون به في النوازل .

يدعون عنتره والرماح كأنها أشطان بُثر في لبان الأدم<sup>(٢)</sup>

ولا شك أن هذا الوضع التعويضي قد سبب له راحة نفسية لم يستطع إخفاءها فصرح بها قائلًا : -

واند شفي نفسي وأذهب سقمها قيل الفوارس وبك عنتر أقدم<sup>(٣)</sup>

ثم هو يركز كثيرا من الاهتمام حول فعل بالذات كان سمة من سمات الإشراف هو معاقرة الخمر ، لأن العبد لم يكن من حقه شربها علنا ، ولهذا حاول عنتره في أكثر من موضع أن يذكر الخمر وإن يفتخر بمعاقرته إياها وكأنما ليقنع نفسه - والناس - بأنه سيد من الإشراف . فيقول :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف الملم<sup>(٤)</sup>

وهو لا يشرب الخمر مثل السادة فحسب ، ولكنه يصرع أولئك السادة الإشراف الذين يعاقرون الخمر ليكون أكثر منهم تعمقًا

---

(١) الديوان ص ٥٧

(٢) الديوان ص ٢٩

(٣) الديوان ص ٣٠

(٤) الديوان ص ٢٣

في السيادة . فهو اذ يصور لنا سيدا من هؤلاء السادة الذين كان يصرعهم ، يحرص الحرس كله في هذه الصورة على اظهار ذلك السيد بمظهر « هتاك غايات التجار » ، اي رايات الخمارين التي كانوا ينصبونها ، والتي كان عنتره يتخذها هدفا لهجومه حيث تحتها اكثر من سيد . واكثر من بطل ..

رَبِّدِرْ يَدَاهُ بِالْقَدَاحِ إِذَا شَتَا هَتَاكِ غَايَاتِ التَّجَارِ مُلَوَّمٌ (١)  
وتكمل مقومات السيد لعنتره في هذه القصيدة ذاتها حين نراه يصطحب جارية له . فهذه الخاصة لم تكن لتقن قط وانما السادة فقط هم الذين يملكون العبيد .

فَبِمَتُ جَارِيَتِي فَمَاتُ لَهَا إِذْ مَيَّيْ فَنَحْسِي أَخْبَارَهَا لِي وَاعْلَمِي (٢)  
وكأنما يريد عنتره ان يقول انه ليس بعبد ولكنه سيد ومالك . للعبيد . ومهما يكن من امر عنتره وعبوديته ، فمن الواضح انه نجح نجاحا كبيرا في اخفاء ذلك من شعره ، وجعل ديوانه يظهره بمظهر السيد البعيد كل البعد عن القينية ..

وقارئ الديوان يلحظ - منذ النظرة الاولى - ان ما فيه من شعر يعطى صورة كاملة للفارس كما تصوريته البيئة العربية البدوية ، وانه يساير في ذلك - خطوة بخطوة - فلسفة الفروسية العربية بجميع مظاهرها ودقائق مفهومها وبشطريها الجماعي والفردى .

وقد سبق ان بينا مدى اهتمام العربي بنسبه حفظا للعصبية وتوثيقا لارتباطه بالقبيلة وتماسك وحدتها سواء في ذلك النسب الى الاب والنسب الى الام . وهنا تبدو الهوة سحيقة امام عنتره ، فهو لا يستطيع ان يفخر بنسبه كاملا ، وانما يقر في صراحة بان امه ليست عربية فيقول عن نفسه :

يَقْدَمُهُ فَيَّ مِنْ خَيْرِ عَبَسٍ أَبُوهُ ، وَأُمُّهُ مِنْ آلِ حَامٍ (٣)

فنسبه لآبيه يكفي . اما النصف الثاني من النسب فانه يستعوض عنه بسيفه :

(١) الديوان ص ٢٧

(٢) الديوان ص ٢٨

(٣) الديوان ص ٢٧



إِنِّي أَمْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عِبَسٍ مَنصِبًا شَطْرِي وَاحِمِي سَأْرِي بِالْمُنْصَلِ (١)

وهو في ذلك خير ممن سلم نسبه من الناحيتين ، ناحية ابيه  
وناحية امه :

وَإِذَا الْكَتَبَةُ أَحْجَمَتْ وَتَلَاخِظَتْ

الْفَيْتُ خَيْرًا مِنْ مُعَمِّمٍ مُخَوَّلٍ (٢)

بل ليعترف صراحة بان سواد امه وعدم عروبته كانا يسببان  
له احراجا ويؤلبان عليه القوم . يقول :

فَإِنْ تَكُ أُمِّي غُرَايِسَةً مِنْ أَبْنَاءِ حَامٍ بِهَا عِبْتَنِي  
فَإِنِّي لَطِيفٌ بِيَبْضِ الظُّبَى وَسُمْرٍ الْمَوَالِي إِذَا جِئْتَنِي (٣)

ونقف هنا وقفة قصيرة لنناقش هذه الابيات التي تثبت امرين  
دون الثالث . ففيها يعترف عنتره بسواد لونه ، وبان امه ليست عربية  
وانما من بنات حام ، ولكن هذه الابيات لا تثبت باى حال من الاحوال  
عبودية عنتره في اى فترة من الفترات . فمن المسلم به انه ليس كل  
اسود عبدا . وهذا الشعر - بالاضافة الى المعلقة - يثبت ان عنتره  
كان له اكثر من عدو واكثر من حاسد ، وان هؤلاء كانوا يسبونهم  
ويشتمونهم ويعيرونهم . ولكن كل ذلك اقتصر على سواده وسواد امه ،  
ولم يذكر اى واحد من هؤلاء مسألة عبوديته ولم يعيره بها او يذكره  
بايامها . ومسألة العبودية سلاح نافذ بتار ، لو انه وجد حقا لما اغفله  
اولئك الاعداء والحاسدون . فهل معنى ذلك ان عنتره لم يكن عبدا  
في اى مرحلة من مراحل حياته ؟ ام لان العربى كان اذا وافق على  
الحاق احد بقبيلته احترام كلمته ونسى كل ما كان قبل ذلك ، او ان  
عنتره بلغ من العظمة والسطوة وقوة الشكيمة ما مكنه من تكميم جميع  
الافواه بالنسبة لهذه النقطة بالذات - حيث كانت مركز عقده  
النفسية - ونجح في ابعاد كل الاقوال وكل الاشارات عنها . او لعل  
ما أداه للقبيلة من خدمات سودته عليها ، ودفعهم الى ان يخجلوا من ذكر  
ماضى ذلك العبد الذى نصبوه سيدا عليهم وقائدا لهم ، فاسقطوا تلك  
الفترة من حياته وتناسوها تناسيا كلياً .

ان واحدا من تلك الفروض جميعا لا يستطيع ان يرجح على غيره

(١) الاغانى ح ٣ ص ١٥٣

(٢) الديوان ص ٥٧

(٣) الديوان ص ٣٦

دون دليل ، وطالما اننا لا نملك هذا الدليل حتى الآن ، لذلك سيبقى  
هذا السؤال الحائر : هل كان عنتره عبدا ، ام لم يكن ؟.

وقد سبق لنا القول ان اول مظهر من مظاهر البطولة هو القوة  
البدنية - سواء اكانت طبيعية او مكتسبة - وتمثل القوة الطبيعية في  
الشجاعة والاقدام والقدرة على مقارعة الفرسان ، بينما تتمثل القوة  
المكتسبة في اجداد ركوب الخيل وحسن استعمال السلاح ، واتقان فنون  
القتال والنزال . ولما كانت القوة مظهرا من مظاهر البطولة الجماعية،  
فقد تغنى عنتره بقوة قومه في قصيدتين من قصائد الديوان ، واختار  
لهم من الصفات كل تلك التى كان يحتاج اليها البدوى ويأتى على راسها  
كثرة العدد . ولهذا يصفهم قائلا :

إِذَا مَا مَشَوْنَا فِي السَّابِغَاتِ حَسِبْتَهُمْ سُبُولا وَقَدْ جَاسَتْ بِهِنَّ الْأَبَاطِحُ (١)

وليست المسألة مجرد عدد فحسب ، وانما كل فرد من ذلك العدد  
الكبير يتصف بقوة الشكيمة ورجاحة العقل والقدرة على ممارسة  
القتال ، وهو بعد ذلك لا يهاب الحرب ولا يطيش لهولها صوابه .  
يقول عنتره :

فَأَمْرَعْتُ رَايَاتٍ وَتَحْتَ ظِلَالِهَا مِنْ الْقَوْمِ أَبْنَاءَ الْحُرُوبِ الْمَرَاجِحُ (١)

وهؤلاء القوم ليسوا حديثى العهد بالحروب ، ولكن لهم فيها  
قدم راسخة وكفاح طويل وتجارب متعددة . فهو يصفهم بقوله :

قَلَمُ أَرَحِيًّا صَابِرُوا مِثْلَ صَبْرِنَا وَلَا كَاخِرُوا مِثْلَ الَّذِي نُكَافِحُ (٢)

ويعدد عنتره بعض المصارك التى خاضها قومه وكتب لهم فيها  
النصر قائلا :

فَلَمَّا اتَّقَيْنَا بِالْجِفَارِ تَصَعَّصَمُوا وَرُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهِنَّ الْمَسَاحُ  
تَرْكْنَا ضِرَارًا بَيْنَ عَيْنِ مُكَبَّلٍ وَبَيْنَ قَتِيلٍ غَابَ عَنْهُ النَّوَاحُ  
وَعَمْرًا وَحَبَّانًا تَرْكْنَا بِفَقْرَةٍ تَعَوَّدُهَا فِيهَا الضَّيَّاعُ الْكَوَالِحُ (٣)

(١) الديوان ص ٣٨

(٢) الديوان ص ٣٨

(٣) الديوان ص ٣٨ ، ص ٣٩

كما يعدد عنصرة بعض المواقع المشهورة التي حازت عيسى فيها  
النصر على اعدائها واثبتتها في سجل ايام العرب باسمها . يقول :  
فَإِنْ يَكُ عِزِّي فِي قُضَاعَةٍ ثَابِتٌ فَإِنْ أَنَا رَحْرَحَانٌ وَأَسْدُفٌ (١)

ولم يتغن عنصرة بقوة قومه كثيرا ، وانما راح يتغنى بقوته الفردية،  
ويفيض في ذكر شجاعته وحمايته للقبيلة بأسرها ، وكأنما هو يدل عليها  
بذلك . وهنا تظهر فردية عنصرة واضحة وطاقية . وربما يرجع هذا  
السلوك الى سببين أساسيين ، أولهما اخفاقه في ربط نفسه بالقبيلة وربط  
نسبها فامه حامية غير عربية الامر الذي فصل بينه وبين القوم وجعله  
لا يستطيع التباهى بنسبه الخهم والفخر بخوولته فيهم - تلك الخوولة  
التي كان لها عند العرب شأن كبير - فلم يجد امامه من سبيل سوى  
الاعتماد على نفسه ورفعها لتكون خيرا من كل معم وكل مخول . ولهذا  
وضحت الفردية في شعر عنصرة بشكل لم يظهر في شعر اى شاعر  
جاهلي غيره .

اما السبب الثانى لهذا السلوك فهو عقد النقص العديدة التي  
كان يعاني منها في حياته الجماعية ، ويأتى في مقدمتها عقدة اللون التي  
لم يفتأ القوم يعيرونه بها ، والتي لم يستطع اخفاءها مثلما فعل بمقدمة  
العبودية التي نجح في اغفالها اغفالا تاما من شعره . وفي لباقة وثقة  
بالنفس حول عنصرة عقدة اللون عنده من مطعن الى مفخرة مظهرا اعتزازه  
بها ، معتبرا اياها مجال مدح لا مجال قذح . وكعمل تعويضى انساق  
عنصرة في فخره ذاك مبالغا بعض الشيء ليقنع نفسه - ويقنع المستمعين  
معه - بهذا العمل التعويضى . فيقول مثلا :

إِنِّي أَنَا عَنْصَرَةُ الْمُجَسِّينُ فَجِئْتُ الْآنَ قَدْ عَلَا الْآنِينَ  
يُخَصِّدُ فِيهِ الْكَفُّ وَالْوَتِينَ مِنْ وَقَعِ سَيْفِي سَقَطَ الْجَدِينَ  
عِنْدَكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْيَقِينُ (٢)

وعلى هذا الاساس اعتبر عنصرة ان التعويض الطبيعى لعقد النقص  
عنده هو التماذى في ذكر شجاعته وقوته والفخر بانه اشجع الجميع  
وتذكر القبيلة دائما بانه هو الذى يحميها ويرد كيد اعدائها . ولهذا  
فانه لا تكاد تخلو قصيدة واحدة من قصائد ديوانه من تلك الصيحات  
المعوضة لعقد النقص ولالام النفس . ولعل هذه الفردية التي بدت

(١) الديوان ص ٥٢

(٢) « ص ٧٣



فى شعر عنتره ، وتلك الصور الشعرية التى رسم فيها شجاعته وفروسيته هى التى لفتت إليه مؤلف السيرة ليختاره بطلا لقصته الطويلة .

أما اجتهاد فنون القتال ، وحسن الدرية على استعمال الاسلحة والعتاد مع العناية بانتقائها وتثقيفها ، فان هذا جزء مكمل للفروسية ، ولذلك نجد ان عنتره لا يذكر شجاعته وقوة بأسه الا وقد اكمل الصورة بذكر سلاحه والتغنى بحسن استعماله له . يقول مثلاً لعمارة بن زياد العبسى :

مَتَى مَا تَلَقَّيْتُ فِرْدَوْسَ بْنَ تَرْجُفٍ رَوَانِ الْيَتِيمِ وَتُسَاطَارَا  
وَسَيْفِي صَارُمٌ قَبَضْتُ عَلَيْهِ أَشَاجِعُ لَا تَرَى فِيهَا إِنْشَارَا  
وَسَيْفِي كَالْمَقِيَّةِ وَهُوَ كَيْمَى سِلَاحِي لَا أَفْلٌ وَلَا فُطَارَا (١)

والدروع يلبسها ولا يكاد يخلعها لكثرة حروبه ولاعتماده عليها فى تلك الحروب . يعطينا عنتره صورة شعرية جميلة للفارس الدائب الحرب الذى لا يجد فى قتله متسعاً لخلع الدروع والاعتسال . يقول :

عَجِبْتُ عُبَيْلَةَ مِنْ فَتَى مَقْبَذِلٍ عَارِي الْأَشَاجِعِ شَاحِبِ كَالْمُنْصِلِ  
شَعْتُ الْمَفَارِقِ مُنْهَجٍ سِرّاً بِأَلِهِ لَمْ يَدْهَنَّ حَوْلَا وَلَمْ يَتَرَجَّلِ  
لَا يَكْتَسِي إِلَّا الْحَدِيدَ إِذَا اكْتَسَى وَكَذَاكَ كُلُّ مَنَاورٍ مُسْتَبْسِلِ  
قَدْ طَالَمَا لَبِسَ الْحَدِيدَ فَإِنَّمَا صَدَأُ الْحَدِيدِ بِجِلْدِهِ لَمْ يُغْسَلِ (٢)

وهو كما يجيد استعمال السيف يجيد كذلك استعمال الرمح . قال فى يوم جبلة :

وَمَا لِبَيْتِهِ إِلَّا وَسْـبِي وَرُحْمِي فِي الْوَغَى فَرَسًا رِهَانًا (٣)

والفرس بالنسبة للبطل شىء هام ، بل انه اهم عنده من نفسه ومن اهله . فلا غرابة ان نجد تلك المقطوعة المعبرة لعنتره يزجر فيها امرأة لامته لانه يحابى فرسه ويؤثره بالغبوق دونها ، فما كان من عنتره الا ان رد عليها قائلاً :

لَا تَذْكُرِي مُهْرِي وَمَا أَطْعَمْتُهُ فَيَكُونُ جِلْدِي مِثْلَ جِلْدِ الْأَجْرَبِ  
إِنْ الْغَبُوقُ لَهُ وَأَنْتِ مَسْـوُوءَةٌ فَتَأْوِي مَا شِئْتِ ثُمَّ تَحْوِي بِي (٤)

(١) الديوان ص ٤٣

(٢) « ص ٥٩

(٣) الديوان ص ٧١

(٤) « ص ٣٣

ثم يرسم لنا عنتره صورة رائعة معبرة لذلك الفرس يعدد فيها  
أسباب إثاره إياه ، ويعترف له فيها بالفضل ، ويجعل منه شريكا  
وصاحبا يقاسمه أمجاده وجهاده . تقول هذه الصورة الانسانية  
الجميلة :

جزى الله الأغر جزاء صدق إذا ما أوقدت نار الحروب  
يقيني بالجبين ومنكبيه وأنصره بمظرد الكعوب  
وأذنه إذا هبت شمالا بأيلا حرجفا بسد الجنوب<sup>(١)</sup>  
وبختمها هامسا في اذن الأغر :

أست صاحبي يوم الثمين بسيف صاحبي يوم الكتيب  
أما الكر والفر وحسن تقدير الموقف مع خفة الحركة واصطناع  
الحيلة فإنها جميعا خصائص لازمة للفرس وركن هام من أركان الحرب  
والنزال . ولقد زادت العناية به في العصر الحديث فخصصت له  
الدراسات والطرق والتعليمات تحت اسم « التكتيك العسكري » .  
وأول مبدأ من مبادئ هذا التكتيك هو حسن تقدير المواقف واتخاذ  
الاجراءات المناسبة لها . وهذا ما نجده في بيت عنتره :

إن يلحقوا كُرُرْ، وأن يستلحموا أشدُّ، وأن يلفوا بضنك أنزل<sup>(٢)</sup>  
ثم هو يصف لنا خطة هجومية ناجحة يقول فيها :

ومررت في واث الظلام أقودهم حتى رأيت الشمس زال ضحاها  
ولقيت في قبل الهجير كتيبة فطمنت أول فارس أولاهما  
وضربت قرني كبشها فتجدلا وحمات مهري وسطها فمضاهما<sup>(٣)</sup>  
ولمظهر القوة في البيئة الجاهلية وجه عكسي لا يقل في قيمته  
وقدره عن الوجه الاساسي ونعني به الانتقام والاخذ بالثأر . وهذا  
الوجه يظهر في شعر عنتره باعنف صورته واقوى مظاهره . فهو وديع  
طيب مسالم ما لم يعتد عليه أحد ولكنه يضيف :  
وإذا ظلمت فإن ظلي بأسيل رر مدافقه كطعم الملقم<sup>(٤)</sup>

(١) الديوان ص ٣٤

(٢) الديوان ص ٥٧

(٣) « ص ٧٥

(٤) « ص ٢٣

وإذا غدر به الحليف فاقبل جزاء يلحق به هو جددع الانفس  
وأنا كذلك يا مهي إذا غدر الحليف نقود بالخطم (١)  
أما الثأر فهو صنو الحياة ولا يحول دونه حتى الموت . يقول عنتره :  
لقد خشيت بأن أموت ولم تدُر للحرب دائرة على ابني ضمضم (٢)  
ويقول : -

وقد كنت أخشى أن أموت ولم تقم قرأب عمرو وسط نوح مسلب (٣)  
ثم هو يوصي قومه بالثأر له إذا ما حالت المنية بينه وبين مبتغاه ،  
فيقول لهم :

إن ابن سلمى - فاعلموا - عنده دمي وهبات لارخي ابن سلمى ولا دمي (٤)  
وحينما قتل مالك بن زهير العبسي أقسم عنتره لينتقم له ،  
ووجه إليه الخطاب قائلا :

فصوف ترى إن كنت بعدك باقيا وأمكنني دهرتي وطول زمان  
وأقسم حقا لو بقت لنظرة لقرت بها عينك حين ترائي (٥)  
وهكذا نجد أن المظهر الأول من مظاهر الفروسية العربية - وهو  
مظهر القوة بوجهيها - يكتمل عند عنتره ويصوره شعره في وضوح  
وجلاء يدلان على أنه كان بحق نموذجا مثاليا للفارس العربي . فإذا  
انتقلنا إلى المظهر الثاني من مظاهر الفروسية العربية وهو القوة  
القولية والفصاحة الشعرية ، وجدنا أن ما بين أيدينا من أبيات تسلم  
لعنتره بالقيادة الفنية مثلما سلم الأقدمون له بها وعلقوا قصيدته  
على الكعبة .

والمظهر الثالث من مظاهر الفروسية العربية - وهو ما يتمثل  
في الشرف والكرامة وحميد الخصال - فإن شعر عنتره يرسم لنا  
صورة وضاعة له . ولعل أبرز ما في شعر عنتره خاصا بهذا الموضوع  
هو ذلك الشعور الانساني الفياض ضد الحرب وويلاتها والملفت هنا  
حقا هو أن هذه اللفتة الانسانية صادرة عن فارس تعتبر فروسيته  
مصدرا أساسيا لوجوده ولبناء كيانه الاجتماعي ، ثم هي صادرة عن

(١) الديوان ص ٦٤

(٢) الديوان ص ٣٠

(٣) الديوان ص ٣٥

(٤) الديوان ص ٦٨

(٥) « ص ٧٠



«عنترة بالذات وهو الذي اتخذ من الحرب وسيلة يرقى بها من طبقة إلى طبقة ويصل عن طريقها إلى مصاف السادات - بل انها كانت الدواء الشافي لعقده النفسية - ومع ذلك فاننا لا نستطيع الا ان نجل ذلك الشعور الانساني الذي قاض به شاعر عنترة وهو ينعى على أولئك الذين يتسببون في اشعال نار الحرب ليكتوى بها الناس وهم في غنى عنها ، أما هو فما أثار حرباً ولا سعى اليها ولكنه مضطر للدفاع عن نفسه وعن قومه ضد تجار الحروب ، وكم يتوق الى انتهاء تلك الحروب والخلاص منها .. يقول :

وإن تَكُ حَرْبُكُمْ أُمستَ عواناً      فإنّي لم أكنْ مَعَن جَنَاحاً  
ولكنْ وُلِدْتُ سَوْدَةً أرثُوها      وشَبَّوا نارها لن أطلّوها  
فإنّي لستُ خاذِلُكُمْ ولكنْ      سأسعى الآنَ إذْ بَلَغتُ أناها<sup>(١)</sup>  
وهو وان كان يكره الحرب الا ان شهامته تأبى الاشاحة عن مستجير استجار به ، فاذا ما دعاه مكروب هب لنجدته وفرج كربته .  
يقول :

ومَكْرُوبٍ كَشَفْتُ الكَرْبَ عنه      بضَرْبَةٍ فيصِلُ لِمَا دعاني  
فلَمْ أَمْسِكْ بِسِمِي إذْ دعاني      ولكنْ قد أَيْبَانَ له إِسَانِي  
فَفَرَقْتُ المَوَاكِبَ عنه قَهْرًا      بَطْنِمْ يَسْبِقُ البرقَ اليماني  
وما لِي به إلا وسيفي      ورمحي في الوغى فرسا رهان<sup>(٢)</sup>

فاذا انتقلنا للبحث عن الخصال الحميدة والسلوك الاخلاقي الكريم وجدنا ان عنترة يرسم لذلك - بشعره - صورة مثالية لم تكن فريدة وفذة في عصره الجاهلي فحسب وانما اعجب بها كذلك كبار رجال الدولة الاسلامية وحثوا شبابهم على اتباعها (٣) . وجماع هذه الفضائل نجده في قصيدته الهائية التي يقول فيها :

ما اسْتَمْتُ أنْشَى نَفْسِي في موطنٍ      حتّى أَوْقَى مَهْرَهَا مَوَلاها  
ولما رَزَّاتُ أَخَا حِفَاطٍ سَلَمَةً      إلّا له عِنْدِي بِهَا مِثْلُها  
واغشى فتاةً الحى عند حليلها      وإذا غَزَا في الجيش لا أغشاها

(١) الديوان ص ٧٧

(٢) الديوان ص ٧١

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٤٩

وَأَغْضَ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَاوَاهَا  
أَنِ أَمْرُؤٌ سَمَحَ الْخَلِيقَةَ مَا جَدُّ لَا أُتْبِعُ الْمَنْفَسَ الْجُوجَ هَوَاهَا<sup>(١)</sup>

وهكذا يضع لنا عنتره دستوراً أخلاقياً اجتماعياً فريداً يحدد  
أصول المعاملات ، ويبين واجبات الفرد تجاه مجتمعه ، ويعين علاقاته  
يجيرانه ، ويوضح السلوك السوى للمواطن الصالح . فإذا أضفنا إلى  
ذلك بعض التعاليم الأخرى التي وردت في شعر عنتره اكتملت لنا الصورة  
الأخلاقية المثالية للفارس العربي . فإلى جانب تلك الفضائل الاجتماعية  
التي تتحرى الحق والعدل في المعاملات ، والتي ترعى حرمة الجار ،  
والتي تنادى بالسماح وعدم اللجاجة ، فإن الرجل الأبي لا ينال عيشه  
إلا عن طريق شريف مهما لاقى في سبيل ذلك من مصاعب . ولهذا  
فإن عنتره يقول :

وَلَقَدْ أَبَيْتُ عَلَى الطَّوْى وَأَطَاةُ حَتَّى أَمَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ<sup>(٢)</sup>  
وعفة النفس من الصفات التي أسندها عنتره إلى نفسه حين قال:  
يَخْرِكُ مَنْ مَهَّدَ الْوَقِيعةَ أَنِّي أَغْنَى الْوَغَى وَأَعْبُ عِنْدَ الْمُغْنَمِ<sup>(٣)</sup>  
ومن حسن الخصال حفظ الجميل وشكر النعمة . وفي ذلك  
يقول عنتره :

نَبِئْتُ عَمْرَأَ غَيْرَ شَاكِرٍ نِعْمَتِي وَالْكَفْرَ مَخْبَثَةً لِنَفْسِ الْمُنْعَمِ<sup>(٤)</sup>  
والفارس قد يشرب الخمر ، ولكن عليه في هذه الحالة ألا يسرف  
في الشراب إلى الدرجة التي يفقد عندها وعيه أو هيئته ، إذ يجب  
عليه أن يظل دائماً محافظاً على وقاره وكرامته ، يقول عنتره :  
فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي . وَعِزِّي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ<sup>(٥)</sup>  
والندم من الصفات المدمومة التي لا يرضى عنها عنتره فينفى عنها  
نفسه قائلاً :

وَأِذَا حُمِلْتُ عَلَى الْكَرْبَةِ لَمْ أَقُلْ بَعْدَ الْكَرْبَةِ لَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ<sup>(٦)</sup>  
ثم هو بعد ذلك شريف المعاملة شريف الخصومة ، يعتبر المبارزة

(١) الديوان ص ٧٦

(٢) الديوان ص ٥٧

(٣) الديوان ص ٢٥

(٤) الديوان ص ٢٨

(٥) الديوان ص ٢٤

(٦) الديوان ص ٥٨

مباراة رياضية ما ان تنتهى حتى تنتهى معها الخصومة ، فلا يستوجب الامر بعدها حقدا على مهزوم أو تشفيا في مغلوب . قال عنتره عن جريته ابن الهجيم بعد أن قاتله وقرعه :

فَإِنْ يَرَأْ فَلَمْ أَنْفِ عَلَيْهِ وَأَنْ يُفَقِّدَ فَحُقَّ لَهُ الْفُقُودُ<sup>(١)</sup>

وتكتمل صورة البطل في شعر عنتره بذلك الايمان بقدرة الخالق والتسليم بالقدر . ولن نستند في ذلك على بيت عنتره المشهور :

يَا عَيْلُ أَيْنَ مِنَ النِّيةِ مَهْرَبِي إِنْ كَانَ رَبِّي فِي السَّمَاءِ قَضَاهَا<sup>(٢)</sup>

حيث ان البعض يشك في هذا البيت لا لشيء سوى ذكر الله والسمااء فيه مع ان قائله جاهلي لم يدرك الاسلام . ومن الثابت ان الجاهلية عرفت الاديان السماوية واعترفت بوحدة الخالق في الدينين المسيحي واليهودي اللذين كانا منتشرين في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وليس هناك ما يمنع من معرفة عنتره لدين من هذه الاديان بل وربما ايمانه به . وقد يعزز هذا الرأي عدم ذكر عنتره لآي اله من آلهة الوثنية واصنامها ، ويعضده كذلك تلك الدساتير الاخلاقية السامية التي ضمنها عنتره ابياتا كثيرة له مما يكاد ان ينطبق انطباقا كاملا مع تعاليم الاديان السماوية . ولكننا لن نعتمد على هذا البيت وانما نعتمد على ظاهرة واحدة بدت في شعر عنتره بصورة ملحة وملفتة ، وكان لها - ولا شك - اثر عظيم على سلوكه حتى اننا لانغالي اذا ما قلنا انها كانت الدافع الاول لشجاعته وفروسيته . تلك الظاهرة هي تسليمه المطلق بالقدر وايمانه بان الحياة الانسانية موكولة الى قوة غيبية ، وان الموت لا ينجى منه شيء ولا يبعد عنه خوف أو هرب أنظر اليه وهو يقول :

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الْخُوفَ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضٍ الْخُوفِ بِمَزَلٍ  
فَأَجِبْتُهَا : إِنْ النِّيةِ مِنْهُلٌ لَا بَدْءُ أَنْ أُسْقَى بِكَأْسِ الْمَنْهَلِ<sup>(٣)</sup>

ويقول في قصيدة اخرى :

وَعَرَفْتُ أَنَّ مَنِيْقَى إِنْ نَأَيْتَنِي لَا يَنْجِيْنِي مِنْهَا الْفِرَارُ الْأَسْرَعُ<sup>(٤)</sup>

(١) الديوان ص ٤٢

(٢) الديوان ص ٧٤

(٣) الديوان ص ٥٨

(٤) الديوان ص ٤٩



وهكذا نجد ان شعر عنتره يرسم لنا صورة متكاملة واضحة  
للفارس العربى ، ويجعلنا نرى فى صاحب هذا الشعر نموذجا مجسما  
للبطل حسب مفهوم العصر الجاهلى ولكن هذه الصورة تعتبر فى واقع  
الامر قاسما مشتركا بين الفرسان جميعا ، وبذلك فاننا لا نخرج منها  
الا بان عنتره كان فارسا جاهليا وبطلا من ابطال العرب ، وهو فى ذلك  
يشبه الكثيرين غيره من الفرسان والابطال . اما اذا اردنا ان نستخلص  
صورة مفردة له تميزه عن غيره من الفرسان والابطال ، وتوضح جوانب  
شخصيته ، فاننا ما تكاد نعيد النظر فى شعره حتى تكشف النقاب عن  
حقيقتين هامتين — لا باعتبار ان كلا منهما قائمة بذاتها ومنفصلة عن  
الآخرى — ولكن على اساس انهما ممتزجتان ومتفاعلتان مع بعضهما .

هاتان الحقيقتان هما الصورة المستخلصة لعنتره الفارس البطل،  
والصورة المستخلصة لعنتره المحب المدنف . فالجمع بين هاتين  
الظاهرتين يجعل بؤرة الصورة تتركز على شخص واحد هو فى نفس  
الوقت « محارب عاشق » ، اى ان البطولة والعشق قد تفاعلا معا  
وانتجا شخصية مميزة لا تشبهها اية شخصية جاهلية اخرى سواء  
فى الفرسان كفرسان فقط او فى العشاق كعشاق فحسب .  
هذه الشخصية الفريدة فى تكوينها ومواصفاتها يصورها لنا شعر  
عنتره تصويرا ممتازا جاء بعضه فى لاميته المشهورة التى مطلعها :

فَجِيتَ عُيَيْلَةً مِنْ فِتْيٍ مُتَبَدِّلٍ    هَارِي الْأَشَاجِعِ شَاحِبِ كَالْمُئْتَلِ (١)

فنحن نرى فى هذه القصيدة صورة العاشق الفارس . . العاشق  
الذى يريد ان يهب روحه لصاحبه، والفارس الذى يريد ان يقدم حياته  
للمنصر . والمعنى فى الحالين سواء ، اذ هو بذل وسماحة وكرم مسرف .  
وقد ظهر هذا الاتجاه — اول ما ظهر — فى الملاحم القديمة ، ثم تقدم  
بعد ذلك على اعتبار انه ممثل لمرحلة من مراحل التطور فى وجدانات  
الامة حتى رأيناه فى الطور الرومانسى يظهر عند جميع الامم .  
ولقد كان الفارس فى اوربا فى القرون الوسطى يجمع بين القوة  
الخارقة والضعف الجميل ، فهو قادر على كل شئ ما دام بعيدا عن  
حبيبته ، فان عرض له امر معها سلم لها القيادة لانه يحب ولانه يريد  
ان يرضى حبيبته .

هذه هى الصورة الفريدة لعنتره التى تميزه عن جميع فرسان  
الجاهلية وأبطالها فغيره من الفرسان كانوا بدوا تعتبر المرأة عندهم  
متاعا يشتري بالمهر أو يحصل عليه بالسلاح ، وفى هذه الحالة تكون  
متعتهم معها متعة جسدية لا مكان فيها للمشاعر الوجدانية والتجاوب

الروحي . والمؤهل الأول للمرأة - بهذا الوضع - هو جمال الشكل الخارجى . فاذا ما ذوى الجمال ، أو بشم منه الرجل ، أو عرضت له من هى أجمل ، ترك الأولى - غير مبال - وراح يسعى وراء متعة جسدية جديدة . أما عنتره فقد أعطانا صورة للعشق بمعناه الروحي الذى يحيل البطل الفضنفر الى قط وديع تسعده البسمة أكثر من اللمسة ، ويفنيه الرضى النفسى عن اللقاء الجسدى .

ولعل هذه الظاهرة هى التى لفتت كاتب السيرة ، فكانت عاملا من العوامل التى دفعته الى اختيار عنتره كشخصية أولى لروايته مع الاحتفاظ له بطابعه الحقيقى . وقد صور الكاتب هذه الظاهرة ثم ضخّمها تضخيما روائيا فجعل عبلة تتمادى فى تدللها على عنتره وتسخره لتقيام بكثير من الاعمال ، ثم يصل الامر الى منتهاه حينما تطلب منه أن يقبل قدمها أمام أترابها امعانا فى التدلل . ولعل هذه الظاهرة كذلك هى التى اوحى للكاتب المطاصر - الاستاذ محمود تيمور - بفكرة مسرحيته « حواء الخالدة » التى جعلها تدور أساسا حول تدلل عبلة وتحكمها فى عنتره وبالتالي فى غيره من الفرسان

ونعود الى القصيدة لنرى عنتره يتشفع الى حبيبته بصفة خلقية هى النحول ويقول انه خفيف أشعث الشعر ، يريد بذلك أن يلفت نظرها الى أنه رجل رحلة وحرب . وقد قرر صراحة فى مطلع القصيدة انه « متبذل » أى باذل نفسه فى الحرب ، لذلك فانه ...

لَا يَكْتَسِي إِلَّا الْحَدِيدَ إِذَا كُنِيَ      وَكَذَاكَ كُلُّ مُنَاوِرٍ مُسْتَبَسِّلٍ

قَدْ طَالَمَا لَبِسَ الْحَدِيدَ ، فَإِنَّمَا      صَدَأُ الْحَدِيدِ بِجَمَادِهِ لَمْ يُغَسَّلِ

على أن هذا الفارس المغوار يهون أمام حبيبته ويرجوها ويتوسل اليها ألا تهجره ، فيقول لها :

لَا تُضْرِمِينِي يَا عُيْبِلَ وَرَاجِي      فِي الْبَصِيرَةِ نَظْرَةَ الْمُقَامِلِ

وهو يحب عبلة حبا صادقا لذاتها وليس لجسدها ، فلو أن غرضه كان قضاء لبانة أو نحوها فان سبيل ذلك أمامه ميسور ، وطريقه الى غيرها من الحسان موصول ، لانه مطمح الفتيات ، وقبله انظار الغانيات . وعنتره لا يجد غضاضة فى التصريح بكل ذلك لحبيبته قائلا :

فَلَرَبِّ أَمْلَحَ مِنْكَ دَلًّا فَاعْلَمِي      وَأَقَرِّ فِي الدُّنْيَا لِبْنِ الْمَجْتَلِي

وَصَلَّتْ حَبَالِي بِالَّذِي أَنَا أَهْلُهُ      مِنْ أَوْدَهَا وَأَنَا رُخَى الطَّوْلِ

وعنتره - ذلك الفارس العاشق - يعرف من نفسه هذه

الظاهرة ، ولا ينى يرددها في الكثير من شعره . فنحن نراه مثلاً يقول في المعلقة :

إِنْ تُعْدِ فِي دُونِي الْقِنَاعَ فَإِنِّي طَبُّ بِأَخَذِ الْفَاسِ الْمُسْتَلِثِ (١)

ولعل عنثرة هنا يتساءل في دهشة : كيف يستطيع رفع اللامة عن هامة الفارس ، ولا يستطيع رفع القناع عن وجه حبيبته ؟ . وربما كان هذا البيت الذي نسوقه بعد أقوى لمسة في قصة هذا الشاعر العاشق الذي امتزج هذان العاملان في نفسه امتزاجاً كاملاً وانتجا طرازاً فريداً من الرجال جعلته أحاسيسه يهمهم قائلاً في حيرة .

عُلِقَتْهَا عَرَضاً وَأُقْتُلُ قَوْمَهَا زَعَمًا لَمَعَرُ أَيْبِكَ لَيْسَ بِمَزْعَمٍ (٢)

فهو في ميدان الوغى لا ينسى قلبه ، وهو في ساعات عشقه لا يغفل من حربه ، وهو في الحالين نتاج للتفاعل بين الفارس والعاشق ، ذلك التفاعل الذي خلق له شخصية معينة هي شخصية عنثرة الفارس الذي يختلف عن جميع الفرسان ، وعنثرة العاشق الذي يختلف عن بقية العشاق ، وعنثرة الشاعر الذي يختلف عن غيره من شعراء الجاهلية .

هذه الظاهرة تتكرر في شعر عنثرة باطراد وتكاد تلح على جميع قصائده ، ففي غارة له على بنى ضبة نراه يقول :

تَمَاتَ بِي الْأَشْوَاقُ سَتَى كَأَنَّمَا بَرَّادِينَ فِي جَوْفِي مِنَ الْوَجْدِ قَادِحُ  
وَقَدْ كُنْتُ تَخْفَى حُبِّ سَمْرَاءَ حِقْبَةٍ فُبِيعَ لَأَنَّ مِنْهَا بِالَّذِي أَنْتَ بِأُمِّحُ

ولكنه لا يلبث عقب هذه الأبيات الرقيقة الحالة أن يهدر مرعداً وقد انتقل بكيانه كله إلى الحرب والقتال . فيقول :

أَعَاذِلَ ، كَمْ مِنْ يَوْمٍ حَرَبَ شَهْدَتُهُ لَهُ مَنَظَرُ بَدَى النُّوَاجِذِ كَالْحُ  
فَلَمْ أَرِ حَيًّا صَارُوا مِثْلَ صَبْرِنَا وَلَا كَالْفُحَا مِثْلَ الَّذِي نَكْفَحُ  
إِنْ شِئْتُ لَا قَانِي كَمَيِّ مُدَجِّجٍ عَلَى أَعْوَجَى ، بِالْعُلْمَانِ مُسَامِحُ  
تَزَاحَفُ زَحْفًا أَوْ نَلَاقِي كَتِيبَةً تَطَاعَنَّا أَوْ يَذْعَرُ السَّرْحُ صَاحُ (٣)

وفي معلقة عنثرة لمحة فنية تدل بوضوح على روحه التي امتزجت فيها عواطف الحب بشعارات الحرب . فعنثرة شاعر مرهف الحس متأجج العواطف له روح الفنان وقدراته الإبداعية في نفس الوقت

(١) الديوان ص ٢٣

(٢) الديوان ص ١٦

(٣) الديوان ص ٣٧



الذى تمتلئ فيه نفسه بالشجاعة والفروسية . يصور لنا هذه  
اللمحة بيت عنتره الذى يقول :

عُلِّقَتْهَا عَرْضًا وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا زَعَمَّا لَعَبَرُ أَيِّكَ لَيْسَ بِعَزَّعَمٍ (١)

وقد يزعم البعض أن هذا البيت يوحى بانفصام عصابى أو بلون  
من ألوان المرض النفسى ، إذ أنه يظهر تناقضا فى سلوك الشاعر ، ويترجم  
عن تضارب عواطفه وتذبذبها ، ويجعل لعنتره شخصية مهزوزة قد  
جمعت بين عاطفتين متناقضتين تجاه انسان واحد . وأبسط رد على  
هذا الزعم هو أن ذلك البيت المفرد قد جمع بين شطريه كل المعانى  
والأحاسيس والانفعالات التى حملها « شكسبير » لمسرحيته الشهيرة  
« روميو وجولييت » .

والواقع أن شاعرية عنتره تتجلى فى التعبير عن هذا المزج  
الشعورى عند الفارس العاشق ، إذ نراه لا يلبث أن يتبع البيت  
السابق بقوله :

وَلَقَدْ نَزَّاتِ فَلَا أَظُنُّ فَيْرَهُ مَنِ بِمَنْزِلَةِ الْحَبِّ الْمَكْرَمِ (٢)

فعنتره محب صادق الحب وليس طالب لذة عابرة ، وهو مصر  
على هذا الحب مهما لاقى فى سبيل حبه من صعاب وعقبات ومهما  
تدخل القدر الساخر ليحكم العداء بينه وبين أهل حبيبته . هذا الحب  
الذى يحسه اذن حب حقيقى مركز حول حبيب واحد لا يمكن  
استبداله أو تركه الى غيره . ولهذا فان عنتره حينما يصف لنا عبلة  
يبدأ بذكر صفة مادية لها هى عدوبة الثغر ولذة المقبل . ولكنه لا يلبث  
أن تتحول وجداناته عن النواحي الموضوعية المادية وتحلق فى أقصى  
آفاق التجريد والتحليل . يأخذ عنتره فى البحث عن أسباب يعلل بها  
عدوبة ثغر حبيبته ، فيبتعد ذهنه ابتعادا كليا عن الماديات ويتجه من  
فوره نحو الرائحة الزكية ، ولكن هذا التجريد لا يشبع انفعالاته  
العاطفية فيجعل تلك الرائحة ناتجة من روضة . ولكن ... أى  
روضة ؟ انها ليست الروضة فى صورتها المادية ، وانما يريد الشاعر  
صورة تعبيرية يبدع فى وصفها وتحليلها فى أبيات لا تحتاج الى تعقيب  
أو تعليق ، يقول فيها :

وَكَأَنَّ فَارَةَ تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ الْقَمَرِ

أَوْ رَوْضَةً أَنْفَا تَضْمَنُ نَبْتَهَا غَيْثٌ قَائِلُ الدُّمَنِ لَيْسَ بِمَعْلَمٍ

(١) الديوان ص ١٦

(٢) الديوان ص ١٦

جاءت عليه كَلُّ يَكْرِ حُرَّة فتركنَ كَلَّ قَرَارَة كالدرهم  
سَمْعًا وتسكبا فكلَّ عَشِيَّة بِجَرَى عليها الماء لم يَقْصُرْ  
وَحَلَا الذبابُ بها فليس بِبَارِح غَرْدًا كفعلِ الشاربِ الْمُتَرَنِّمِ  
هَرَجًا يَحْكُ ذراعِهِ بِذراعِهِ قَدَحَ المكب على الزناد الاجذم<sup>(١)</sup>

فهذه الصور الشعرية المتتابعة التى انساق وراءها عنتره مدفوعا  
بصدق فنيته الشعرية حتى كان ان ينسى أصل التشبيه وان دفع - فى  
حماس - محاولا التعبير عن الصورة الفنية التى تخيلها لتلك الروضة ،  
محددا كمية الغيث التى تسقيها ومشبها قطراته بالدراهم ، ثم  
وصفها ما فى الروضة من طيور وشبهها بالشارب المترنم مرة ،  
وبالاجذم المكب على الزناد مرة أخرى . ونوشك على الاعتقاد بأن عنتره  
قد نسى حبه وغزله وفتنه جمال الروض ، ولكن فجأة تطفو مشاعر  
الفارس العاشق وتنطلق جميعها فى بيت واحد يوقفنا من تلك الرحلة  
التخيلية التى قطعناها مع عنتره فى روضته ، ويعيدنا - أمام انفعالات  
الفارس العاشق - الى تلك الحقيقة التى لا تزال تلح عليه . يقول :

تَمْسَى وتصبحُ فوقَ ظَهرِ حَشِيَّةٍ وأَبيتُ فوقَ سَراةِ أَدَمَ مُجَمِّمِ

وهكذا نجد انفسنا امام مثال نالطق لفارس فريد يمثل جماع  
الصفات والخصال التى كان عليها الفارس البدوى ، ويترجم لنا  
فلسفة الفروسية كما فهمها المجتمع العربى ، ويحدد الاصول والاسس  
التى تقوم عليها الفضيلة الجاهلية ، ثم ينفرد عنتره بعد ذلك بصورة من  
صور الفروسية تميزه من الناحية العاطفية وتجعل منه نموذجا ناجحا  
لعمل روائى ممتاز .



وننتقل الى الشعر المشكوك فى صحة نسبته الى عنتره - بما فى  
ذلك شعر السيرة - لننظر فيه من الناحية الموضوعية وحدها ونطرح  
جانبا مسألة صحة نسبته أو عدم صحتها ، كما لا نحاول أن نبحث له  
عن صاحب أو قائل . وانما نحاول فقط أن نستخلص منه صورة  
لشخصية عنتره تكون هى فى الواقع الصورة التى تخيلها شعراء ذاك  
العصر لعنتره . وهذه الصورة تختلف كثيرا عن الصورة التى يصورها  
شعر الشاعر لصاحبه ، كما تختلف أيضا عن الصورة التى تصورها له

السيرة الشعبية . فشعر الشاعر يعبر عن الانفعالات الذاتية له والاحساسات النفسية التي يستشعرها هو الامر الذي لا يستطيع غيره أن يعبر عنه بلسانه ، والسيرة تعطي صورة كاملة محددة المعالم ، واضحة القسمات ، مرسومة بحذق قصصى وطبقا لتخيل سابق مسير للاحداث والمضامين . أما هذه المقطوعات الشعرية التي قالها بعض الناس في مناسبات مختلفة ولأسباب متفاوتة وتحت وقع ظروف تختلف من شخص لآخر ومن موقف لآخر فانها لا يمكن أن تعطينا صورة تامة كاملة لشخصية عنتره لا سيما واننا تلاحظ منذ القراءة الأولى لتلك المقطوعات أن معظمها موضوع على مثال من شعر عنتره الحقيقى . فمثلا يقول عنتره مخاطبا عمارة بن زياد

فإن تك أمى غرايةً من أبناء حامٍ بها عُبْتُنى  
فإني لطيفٌ ببيضِ الظُّبى وسُمُرِ الدَّوالى إذا جُمُنْتُنى<sup>(١)</sup>  
فيأتى الواضعون ليحملوه قولهم على لسانه :

لئن ألك أسودا فإمسك لوني وما لسواد جلدى من دواء  
ولكن كُبَعْدُ الفجشاء عني كبعْدِ الأرض عن جر السماء<sup>(٢)</sup>

فضعف هذين البيتين الأخيرين يكاد يشير الى وضعهما والى انهما موضوعان على قياس واحتذاء لبيتى عنتره الصحيحين . ويشبه هذا الى حد كبير احتذاء كاتب هذه القصيدة لنفس المعنى اذ يقول :

لئن يميموا سوادى فهو لى نسب يوم الزال إذا ما قاتنى النسب<sup>(٣)</sup>

وواضح أن هذا القول لا يمكن أن يصدر عن عنتره ، لا لما فى نسجه من هزال وتفكك - فهذه وصمة تسوم كل الشعر المنحول عليه - ولكن لأن هذا المعنى الذى فى البيت يتعارض تعارضا كاملا مع ما فى شعر عنتره الصحيح . فعنتره - فى شعره الصحيح - قد فرق بين مشكلة اللون ومشكلة النسب وناقش الأولى بعيدا عن الثانية التى اغفلها - أو كاد - فاذا ما اضطرته الظروف الى ذكرها اعتر بنسبته الى القبيلة ، وبنسبته الى أبيه ، بل واعتز كذلك بنسبه الحامى الى أمه زبيبة ، ولم يذكر مطلقا وضاعة نسبه أو معرفته منه كما فى البيت المنحول .

(١) الديوان ص ٣٦

(٢) الديوان ص ٨٨

(٣) الديوان ص ٩٢



فالشعر المنحول قد وضع على مثال من شعر عنتره الصحيح ، ولكن المثال الواحد وضع على ظله العديد من القصائد التي تمتاز جميعا بوحدة التقسيم الشكلى لها ، فهي تبدأ بالغزل ، وهذا الغزل يتناول عبلة بالذات ويصر على ذكر اسمها عددا من المرات قد يصل الى العشر فى القصيدة الواحدة وبعد ذلك يأتى الحديث عن بطولة عنتره ومغامراته ، وتنتهى القصيدة عادة بحكمة مناسبة . وقد يعكس ترتيب القصيدة فتبدأ بالحكمة وتنتهى بالغزل وبينهما وصف شجاعة عنتره وقوته وبلائه فى الحروب .

وليس هنا مكان تحليل هذه القصائد فنيا للدلالة على وضعها ، ومع ذلك فان مجرد القراءة السريعة لها تظهر ما فيها من ضعف وسقطات وتكاد تقطع بأنها ليست لعنتره على الرغم من أنها موضوعة على مثال من شعره الصحيح . فمثلا مقطوعة عنتره الشهيرة التى يقول فيها :

إِنِّ أَنَا عَنْتَرَةُ الْمَجِينُ كَجِ الْآتَانِ قَدْ عَلَا الْأَنِينُ  
يُخَصِّدُ فِيهِ الْكَفُّ وَالْوَتَيْنُ مِنْ وَقَعِ سَبْفِ الْجَعْنَيْنِ<sup>(١)</sup>

نجد قصيدة منحولة على منوالها تتناول معظم هذه المعانى الى جانب الاطار العام للقصيدة ولكنها تظهر بوضوح مفهوم الناحلين عن عنتره . تقول القصيدة المنحولة :

دَعْنِي أَجِدُّ إِلَى الْعِلْيَاءِ فِي الطَّلَبِ وَأَبْلُغُ الْغَايَاتِ الْقَصْوَى مِنَ الرُّتَبِ  
لَعَلَّ عِبْلَةَ تُضْحَى وَهِيَ رَاضِيَةٌ عَلَى سَوَادَى ، وَتَمُحَوِّصُورَةُ الْغَضَبِ  
إِذَا رَأَتْ السَّادَاتِ سَائِرَةً تَزُورُ شَعْرَى بَرَكْنِ الْبَيْتِ فِي رَجَبِ  
فَبَادِرَى وَانْظُرَى طَعْنًا إِذَا نَظَرْتُ عَيْنُ الْوَلِيدِ إِلَيْهِ شَابٌ وَهُوَ سَبِي<sup>(٢)</sup>

ولعل من حقنا بعد ذلك أن نتصور عبلة بعد أن تنظر الى هذا الطعن الذى اذا نظر اليه الوليد شاب ، فما الذى سوف يصيب عبلة منه ؟

وفى قصيدة أخرى من تلك القصائد المنحولة يعمل العقل الباطن لوضعها عملا يكاد يكشف أمره ويجعله يعترف بالحقيقتين السابقتين

(١) الديوان ص ٧٣

(٢) الديوان ص ١٠٢

وهما انه هو الذى وضع القصيدة على لسان عنتره ، والثانية انه وضعها على مثال من قصائده الحقيقية . فبعد ان انهمك هذا الواضع فى وضع ما يقارب الاربعين بيتا - على لسان عنتره - يصف فيها حملة له على الفرس ، يختم القصيدة بقوله :

فدَوْنَكُمْ يَا آلَ عَبْسٍ قَصِيدَةٌ يَلُوحُ لَهَا ضَوْءٌ مِنَ الصَّبْحِ أَبْلَجُ  
أَلَا إِنَّهَا خَيْرُ الْقَصَائِدِ كُلِّهَا يُفْصَلُ مِنْهَا كُلُّ ثَوْبٍ وَيَنْسَجُ<sup>(١)</sup>

وكأنى بهذا الواضع - بعد طول ما عاناه ابان وضع قصيدته - قد تصور نفسه متقمصا شخصية عنتره ، وتصور ان الناس الذين يقدمها اليهم هم آل عبس ، ولما كان هذا الرجل يعرف انه ينسج قصيدته على منوال قصائد عنتره الصحيحة ، فقد تصور مدى ما فى هذا العمل من فخر لصاحب القصيدة الاصلية ، فدفعه عقله الباطن الى الافتخار بأن القصيدة التى وضعها الآن سوف تكون احسن مثال ينسج على منواله الواضعون والناحلون فيما بعد

وقد يتمادى الواضع فى اتخاذ المثال الذى يطلبه ، فلا يكتفى بشعر عنتره نفسه وانما يسطو على شعر غيره من الجاهليين ليتخذ منه مثالا لما ينحل . ففى احدى تلك القصائد يقول ناعلهما على مثال قول عمرو بن كلثوم فى ختام معلقته :

إِذَا بَلَغَ الرَّضِيعُ لَنَا فِطَامًا تَخَرُّ لِي الْجَابِرُ سَاجِدِينَا<sup>(٢)</sup>  
فيقول ناعله شعر عنتره :

إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخَرُّ لِي أَعَادِينَا سُجُودًا<sup>(٣)</sup>

ولعل معلقة عمرو بن كلثوم كانت اقرب الشعر الجاهلى الى اذهان واضعى شعر عنتره واكثره ارتباطا بتصورهم لبطلهم . فنحن لا نلبث ان نلتقى بما يشبه ابيات عمرو بن كلثوم التى يقول فيها :

وَنَحْنُ إِذَا عَاهَدَ الْحَى خَرَّتْ عَنْ الْأَحْفَاضِ نَمْنَعُ مَنْ يَلْمِينَا  
وَنَحْنُ غَدَاةَ أَوْقَدَ فِي خَزَازَى رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدِينَا  
وَنَحْنُ الْحَابِسُونَ بِذَى أَرَاطَى تَسْفُ الْجِلَّةُ الْخُورُ الدَّرِينَا<sup>(٤)</sup>

(١) الديوان ص ١١٣

(٢) شرح المعلقات السبع - للزوزنى ص ١٣٥

(٣) الديوان ص ١٢٣

(٤) شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٣٠

ويقول واضع الشعر على لسان عنتره :  
 ونحنُ العادِلون إذا حكمنا ونحنُ المُشفِّقون على الرُّعيَّة  
 ونحنُ المُنصفون إذا دمعينا إلى طَمَن الرُّماح السُّمَّهرية  
 ونحنُ الغالبون إذا حَمَلْنَا على الخيلِ الجيادِ الأعرجية  
 ونحنُ الموقدون لِكُلِّ حرب ونصلاها بأفئدة جَريَّة (١)

ومهما يكن من أمر ، فالذي يهمنا هو الصورة التي يرسمها هذا الشعر المنحول لعنتره ، والشخصية التي تخيلها واضعو شعر عنتره له وتقمصوها ليكتبوا الشعر على لسانه ومن العجيب حقا أن هذه الصورة لا تكاد تتفق مع الصورة التاريخية الواقعية لعنتره ، كما أنها تتعارض تعارضا تاما مع الصورة التي يرسمها شعره الصحيح .

أول وجه للخلاف بين صورة الشعر الصحيح وصورة الشعر المنحول هو طبيعة التصور أو أساسه المبدئي ، فبينما يهتم الشعر الصحيح بتصوير اللوحات الخلقية عند عنتره ، يميل الشعر الموضوع الى رسم الجوانب الخلقية معتمدا في رسمه على المادية . . والمادية في كل شيء . فعنتره بن شداد - ذلك الفارس المغوار - لابد أن يكون وحيدا في نسجه ، فريدا في نوعه ، لا يشبهه أحد ، ولم يخلق الله من طرازه سواه . يقول عن نفسه :

إِنِّي لَيْتُ عَـبَسَـوسَ لَيْسَ لِي فِي الْخَلْقِ ثَانِي (٢)

وتبدأ قصة هذا الأوحـد منذ مولده ، فهو لم يولد لام آدمية كما يولد الأطفال ، وهو لم يرضع من لبنها ، ولكن الحرب هي التي ولدته ومن لبن المعامع أرضعته :

وفي الحرب المَوَانِ ولدتُ طفلا ومن لبن المَعَامِعِ قد سُقِيتُ (٣)

فهذا البطل الذي ولد في الحرب ورضع من لبن المعامع لابد أن تكون خلقته مناسبة لهذا المنبت الشاذ ، فيكون له شكل رهيب مخيف يكفى النظر اليه لارهاب العدو وحمله على الفرار يبكى حظه العاثر الذي أوقعه بين برائن هذا الوحش المخيف :

وآخرُ هاربٍ من هولِ شخصي وقد أجرى دموعَ المُقلَّتين (٤)

(١). الديوان ص ٢٤٠

(٢). الديوان ص ٢٢١

(٣). الديوان ص ١٠٧

(٤). الديوان ص ٢٢٥



ومع ذلك فان هذه الصورة الرهيبة لعنتره التي تجعل الناظر اليها يفر هلعاً ورعباً ثقل كثيراً عما يتصوره في نفسه ، فهو يعتقد أن صورته لا تدفع الى الهرب وحده وانما هي كفيلة بأن تميت الناظر اليها . ولهذا يقول :

إِنِّي لَا أَعْجَبُ كَيْفَ يَنْظُرُ صُورَتِي يَوْمَ الْمَقَالِ مِبَارِزُ وَيَعِيشُ<sup>(١)</sup>

ويساعدنا الشاعر على تصور هذا الشكل المخيف بإبراز لمحات من وجهه ربما كانت كفيلة بجعلنا نتخيل باقى معالم خلقته . فهذا البطل - غير الآدمي - ينفث اللهب من مقلتيه . يقول الشاعر : انه يواجه الأعداء ...

وَجْهٍ مِثْلَ ظَهْرِ التُّرْسِ فِيهِ لَهَبُ النَّارِ يُشْمَلُ فِي الْمَآقِي<sup>(٢)</sup>

فالقل يشع منها اللهب ، أما الفم فيخرج أنفاساً حارقة يلين لها الحديد :

تَخَالُ أَنْفَاسِي إِذَا رَدَدْتُهَا بَيْنَ الطُّلُولِ مَحَتْ نَقُوشَ الْمِبْرَدِ<sup>(٣)</sup>

وتشبيه هذا البطل بالأسد الهزبر الغضنفر تشبيه عام دارج تكاد لا تخلو منه قصيدة ، ولكن المهم في الموضوع هي أوصاف هذا الهزبر ... انه هزبر شرس عبوس

إِنِّي لِبَثْ عَبُوسٍ أَيْسَ لِي فِي الْخَلْقِ ثَانِي

أما الشراسة فيحدث عنها عبلة قائلاً :

يَا عَيْلَ إِنِّي فِي الْكَرِيمَةِ ضَيْغَمٍ شَرَسٍ إِذَا مَا الطَّعْنُ شَقَّ جِبَاهَا<sup>(٤)</sup>

وهو قوى الاحتمال للدرجة معجزة ... يقول عن نفسه :

وَإِنِّي لِحِمَالٌ لِكُلِّ مُلَمَّعٍ تَخِرُّ لَهَا شَمُّ الْجِبَالِ وَتُرْجَعُ<sup>(٥)</sup>

وقد ساعدته قوة التحمل هذه على مداومة الطراد وعدم الشعور بأي كلل أو ملل منه ، ولهذا نراه ينذر عمارة بن زياد العبسي قائلاً :

لَقَدْ عَادَيْتَ يَا بَنَ الْعَمْرِ لَيْثًا شَجَاعًا لَا يَمَلُّ مِنَ الطَّرَادِ<sup>(٦)</sup>

(١) الديوان ص ١٦٢

(٢) الديوان ص ١٧٦

(٣) الديوان ص ١٣٧

(٤) الديوان ص ٢٣٦

(٥) الديوان ص ١١٢

(٦) الديوان ص ١١٨

ولا تظهر قوة هذا الليث في المبارزات الفردية فحسب ، وانما هو  
يبيد الجيوش ويقضي على الجحافل ولا يخشى لقاء الاعادى مهما كان  
عددهم ... يقول :

يَا عَبْلَ لو أَنَّى لَقِيتُ كَتَبَةً سَبْمِينَ أَلْفَا مَا رَهَبْتُ إِقَامَهَا (١)  
وكما ان هذا البطل لا يرهب العدد الكبير ، فانه كذلك لا يرهب  
الليل والوحدة والبيداء ووحش الفلاة ... يقول :

كَمْ لَيْلَةٍ مَرَّتْ فِي الْبِيدَاءِ مُنْفَرِدًا وَاللَّيْلُ لِلْغَرْبِ قَدْ مَاتَتْ كَوَاكِبُهُ  
سِيقَى أَنْيْسَى وَرَمَحَى كُلَّمَا نَهَمَتْ أَسَدُ الدُّحَالِ إِلَيْهَا مَالَ جَانِبُهُ  
وَكَمْ غَدِيرٍ مَزَمَتْ الْمَاءَ فِيهِ دَمًا عِنْدَ الصَّبَاحِ وَرَاحَ الْوَحْشُ طَائِبُهُ (٢)

ولعل وصف بعض المارك التي خاضها هذا البطل يساعد على  
استكمال الصورة التي تخيلها له الواضعون حتى انهم جعلوه يخاطب  
سباع الفلا قائلا :

يَا سَبَاعَ الْفَلَا إِذَا اشْتَعَلَ الْحَرُّ بَ انْبِعَيْنِي مِنَ الْقَفَارِ الْخَوَالِي  
انْبِعَيْنِي قَرَى دِمَاءِ الْإِعَادِي سَائِلَاتٍ بَيْنَ الرُّبَا وَالرَّمَالِ  
ثُمَّ عَوْدِي مِنْ بَدْرٍ ذَاوَأَشْكُرِبْنِي وَاذْكُرِي مَا رَأَيْتَهُ مِنْ فِعَالِي  
وَخَذِي مِنْ حَاجِمِ الْقَوْمِ قُوَّتَا لِبْنِيكَ الصَّغَارِ وَالْأَشْبَالِ (٣)

وهكذا نرى ان صورة عنتره في اذهان الواضعين لشعره صورة  
مادية تجسد البطولة في الشكل والخلقة أكثر مما تتصورها معنويات  
كامنة في النفس وقدرات يجيدها الشخص . وهذه الصورة تكاد تكون  
عكسا تاما لما يرسمه شعر عنتره الصحيح من تفسير معنوى للبطولة  
يكاد يطابق تمام المطابقة مفهوم الفروسية انذاك ، ويعتمد على  
المعنويات والخلقيات أكثر من اعتماده على الماديات والشكليات . فعلى  
الرغم من أن حصيلة هذا الشعر المنحول تصل الى ثلاثة اضعاف  
ما جمع من شعر عنتره الصحيح ، فانه لم يرد بيت واحد في كل هذا  
القدر من الشعر الموضوع يذكر شيئا عن خلق عنتره وعن سلوكه وعن  
خصاله بينما رسم لنا شعره الصحيح صورة مشرقة لمكارم الاخلاق

(١) الديوان ص ٢٣٧

(٢) الديوان ص ٩١

(٣) الديوان ص ٢٠٠

وحدد لنا دستور الفضائل وبين هذا الجانب الهام من جوانب البطولة الذي يعتبر جزءا مكملًا لمفهوم الفروسية العربية .

ولم يقتصر هذا الفهم العادي لشخصية عنتره على تصور خلقته . وقياس بطولته بمقياس الدم والقتل ، وإنما انتقل من شخصه وحربه الى حبه ، فغفل — أو تغافل — عن جميع المعنويات التي تكمن في هذه العاطفة الانسانية الرقيقة ، وبعد عن جميع المشاعر والأحاسيس التي يثيرها العشق الصادق ، وراح يصور هذا الحب بصورة المادية كذلك . فعنتره لم يحب عبلة بقلبه وإنما أحبها بعينه :

يَا عَبْلَ لَوْلَا أَنْ أَرَاكِ بِنَاضِرِي مَا كُنْتُ أَتَى كُلَّ صَعبٍ مُنْكَرٍ<sup>(١)</sup>

وعبلة — هي الأخرى — تحب من عنتره فعاله فقط ، أما هو — كشخصية متكاملة — فليس له دور في هذا الحب ، إذ أن المسألة لا تعدو أن تكون صفقة قابلة للمساومة والاستبدال والمزايدة ، فلو أتى من رفع الثمن فاز بها . . . . والثمن هو الضرب والطعن من جانب عنتره في مقابل الحب والوصل من جانب عبلة . ويبدو أن عنتره كان واثقا من نفسه كل الثقة إذ نراه لا يسمح لها بتغيير المشتري إذا مادفع ثمننا أعلى وإنما هو يقبل حتى من يدفع نفس الثمن الذي يدفعه . . . ويعبر لها عن ذلك قائلا :

أَلَا يَا عَبْلَ قَدْ عَايَنْتِ فَعَلِي وَبَانَ لَكَ الضَّلَالُ مِنَ الرِّشَادِ  
وَأَنْ أَبْصَرْتَ مِثْلِي فَاهْجِرِي وَلَا يَلْحَقْكَ عَارٌ مِنْ سِرَادِي<sup>(٢)</sup>

فإذا كان هذا هو مفهوم الحب عنده ، فالحبوبة إذن لا تقاس إلا بالمعيار الجسدي الذي يحكم على الإرداف والخصر والبطن والساق فضلا عن اجادة الممازجة والغنج . وتجتمع كل هذه الصفات في قوله :

فِيَا طَالَمَا مَازَحْتُ فِيهَا عُبَيْلَةً وَمَا زَحْنِي فِيهَا الْغَزَالُ الْمُفْجَعُ  
أَغْنُ مَلْبِغِ الدَّلِّ أَحْوَرِ الْكَلِّ أَزْجُ نَقِيَّ الْخَدِّ أَبْلِغُ أَدْعَجُ  
لَهُ حَاجِبٌ كَالنَّوْنِ فَوْقَ جَفَوْنِهِ وَثَغْرٌ كَزَهْرِ الْأَقْحَوَانِ مُفْلَجُ  
وَرِدْفٌ لَهُ ثَقْلٌ وَخَصْرٌ مَهْمُفٌ وَحَدٌّ بِهِ وَرْدٌ وَسَاقٌ مُخْدَلِجُ

(١) الديوان ص ١٥١

(٢) الديوان ص ١٢٢



وبطن كطى السارية لين أقب لطيف ضامر الكشح مدسج  
لهوت بها والليل أرحى سدوله إلى أن بدا ضوء الصباح المبلج<sup>(١)</sup>

وعلى كثرة ما ورد فى هذا الجزء الموضوع من ديوان عنتره من قصائد مطلعها الغزل بعبلة وأخرى اقتصرت على هذا الغرض وحده ، فإنها جميعا لم تتناول من عشيقه عنتره سوى هذا الجانب المادى ، ولم تخرج بعلاقتها عن اللقاء الجسدى . فعنتره حين يلقاها يقبلها ويضمها و ... يقول :

فضممتها كى ما أقبل ثغرها والدمع من جفنى قد بل الثرى  
وكشفت برقعها فاشرق وجهها حتى أعاد الليل صبحا مسفرا  
عربية يهتز لين قوامها فيخاله العشاق رجا أسرا<sup>(٢)</sup>

وحتى ذكرياته عنها لا تخرج من نطاق الناحية المادية ... يقول :  
كم ليلة عانت فيها غاده يحيا بها عند المنام ضجيعها<sup>(٣)</sup>  
وحين يتذكر مراتع صباه يقول :

أرض الشربة كم فضيت مبهجا فيها مع الغيد والأتراب من وطر<sup>(٤)</sup>

فاذا كان هذا هو الحال بالنسبة لعاطفة رقيقة كالحب ، فليس من المستغرب أن تطفئ هذه المادية التجسيدية على كل معنى من المعانى التى وردت فى ذلك الشعر المنحول الذى وضع على مثال من شعر عنتره الصحيح . فحين يصف الفرس يتناول الجوانب المادية فيه ، بل ويجسد الفرس نفسه ليكلم عنتره داعيا إياه للقتال مرة (٥) ، ومجيبا عليه مرة أخرى اذ نبهه عنتره قائلا : « كن مستيقظا غير ناعس » ...

فجاوبنى مهري الكريم وقال لى أنا من جيا د الخيل كن أنت قارمى<sup>(٦)</sup>  
ولا يقتصر الأمر على الجواد ، فالغربان هى الأخرى تفهم لفته وتورد عليه . (٧)

(١) الديوان ص ١١٠

(٢) الديوان ص ١٥٩

(٣) الديوان ص ١٦٩

(٤) الديوان ص ١٥٠

(٥) الديوان ص ١٠١

(٦) الديوان ص ١٦١

(٧) الديوان ص ٢٢٧

ولن نستطرد في هذا المجال أكثر من ذلك لننتقل الى نقطة أخرى أهم مما سبق وهي أن واضع الشعر على لسان عنتره لم ينظروا الى شخصيته من الناحية الخلقية فحسب ، ولكنهم لم يفهموا حقيقة هذه الشخصية على الاطلاق . فعنتره - في شعره الصحيح - لم يعترف بعبوديته اطلاقا - كما سبق أن بينا - أما واضعو تلك الاشعار فقد اعترفوا بعبوديته اعترافا صريحا ورد في عشر قصائد (١) . وقد عللنا الدوافع التي حدت بعنتره الى انتهاج هذا السبيل ، ولكن احدا من واضعي الشعر على لسانه لم يفتن لهذا ولم يحاول مساندته بشكل أو بآخر ، واندفعوا جميعا وراء مؤلف السيرة الذي أصدر عليه حكمه بالقينية فظلت تلك الوصمة عالقة به عند الجميع .

ويشبه هذا الى حد كبير موضوع النسب . فعنتره لم يأنف من نسبه ولم يعترف في شعره الصحيح بأنه كان مطعنا وجهت اليه منه الطعنات ، وانما هو يشبه ويفتخر به . أما في هذا الجزء من شعره المنحول فالاعتراف صريح بوضاعة النسب . قال في أكثر من موضع لن يعيوا سوادى فهو لى نسب يوم الزال إذا ما قاتنى النسب (٢)

وهكذا خلط الواضعون الامور ، فالعبودية التي تبرأ منها عنتره الحقوها به ، والنسب الذي افتخر به جردوه منه . أما السواد الذي قبله عنتره راضيا فقد حاول هؤلاء الواضعون تبريره بتعللات هزيلة ممنطقة مثلما في قوله :

وإن به برا سوادا قد كسيت به فالدريستره توب من الصدف (٣)

فاذا ما أعجزتهم هذه التبريرات المنطقة الهزيلة نفوا عنه السواد كاية ووصموا من يدعى ذلك بالكذب . قالوا على لسان عنتره :

ومن قال إني أسود ليميني أريه بفعل أنه أكذب الناس (٤)

ثم هم بعد ذلك ألصقوا بعنتره وصمة لم تكن أبدا من شيمته وهي أنه شاعر مداح يخصص قصائد بأكملها للمدح والتزلف . فقالوا على لسانه قصيدتين في مدح ابنة قيس بن زهير (٥) ، بينما نحن لا نجد في شعره الصحيح بيتا واحدا في المدح كما نجد أن الصورة التي يرسمها ذلك الشعر لا يمكن أن تجعل منه شاعرا مادحا .

(١) الديوان صفحات ١٤٦ - ١٤٨ - ١٥١ - ١٦٨ - ١٧١ - ١٧٨ -

١٩٧ - ٢٠٤ - ٢١٩ - ٢٤٠

(٢) الديوان ص ٩٢

(٣) الديوان ص ١٧٢

(٤) الديوان ص ١٦٠

(٥) الديوان ص ٢٢٣ - ٢١٢ - ٢٠٩ - ٢٣٤

وكما لم يفهم الواضعون الشخصية السوية لعنترة ، فانهم  
بالتالى لم يفهموا ذلك الجانب الهام من جوانب بطولته متمثلا فى تلك  
الصورة الناتجة عن التفاعل بين الحب والحرب عنده . فعنترة  
بالنسبة اليهم عاشق عادى يتمثل عشقه فى الجانب الجسدى من  
المرأة وقضاء الوطر منها ، فلا بد له اذن من أن يخضع ويتذل ويريق  
ماء وجهه تحت أقدامها لتنبيله ما يريد . . . انظر اليه وهو يقول لها :

سَأَنْدُبُ حَتَّى يَمَامَ الطَّيْرِ أَنَّى حَزِينٌ ، وَيُرْثَى لِي الْحَمَامُ الْمَفْرَدُ  
وَأَتُمُّ أَرْضاً أَنْتَ فِيهَا مَقِيمَةٌ لَمَلٌ لَهَيْبِي مِنْ تَرَى الْأَرْضَ يَبْرُدُ<sup>(١)</sup>

ويصل هذا الضعف الى منتهاه حينما نجد عنترة ينعى نفسه  
بنفسه قائلا :

أَبَا سَادِحَاتِ الْأَبْكَ إِنْ مِتُّ فَأَنْدُبِي عَلَى تَرْبَتَى بَيْنَ الطَّيُورِ السَّوَاجِعِ  
وَنُوحَى عَلَى مَنْ مَاتَ ظُلُمًا وَلَمْ يَنْلِ سَوَى الْبَعْدِ عَنْ أَحْبَابِهِ وَالْفَجَائِعِ  
وَيَا خَبْلُ قَابِكِي فَارِسًا كَانَ بَلَدُنُكِي صَدُورَ الْمَنَابَا فِي مُغْبَارِ الْمَاعِيعِ<sup>(٢)</sup>

وبعد هذا التذل فى الحب نعجبه اشد العجب حين نجد أن  
الشاعر قد انقلب فجأة الى عدو لدود للمرأة ، ثائر ضدها وحائق  
عليها ، وان هذه الثورة قد انطلقت بحملة يقول فيها :

مُوتِ الْفَتَى فِي عِزِّهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَبِيتَ أَسِيرَ طَرْفٍ أَوْ كَحْلٍ<sup>(٣)</sup>  
أَوْ يَقُولَ عَنْ نَفْسِهِ مَفَاخِرًا :

وَأَنَّى أَعْشَقُ الشُّمَرَ الْمَوَالِي وَغَيْرِي يَعْشَقُ الْبَيْضَ الرَّشَاقَ<sup>(٤)</sup>  
هذا التضارب العاطفى لا نلمحه فقط فى علاقة العاشق بالعشوق ،  
وانما نلمحه كذلك فى علاقته بما يذكره به . فأكثر قصائد هذا الجزء  
من الديوان تبدأ بالوقوف على الاطلال والبكاء على الدمن وسؤال  
الصحاب مشاركتهم فى ذلك . ولكننا لا نلبث أن نفاجأ بثورة «نواسية»  
ترفض كل هذا الهذر وتنادى الصحاب قائلة :

يَا صَاحِبِي لَا تَبْكُ رَبَّمَا قَدْ خَلَا وَدَعِ الْمَنَازِلَ تَشْتَكِي طَوْلَ الْبَلَى

(١) انديوان ص ١٤٢

(٢) الديوان ص ١٦٤

(٣) الديوان ص ١٩٧

(٤) الديوان ص ١٧٨

من أين تَدْرِي الدار أنك عاشقٌ أو عندها خيرٌ بأنك مُبتَلَى (١)

هذه الصورة المهزوزة التي يرسمها شعر عنتره الموضوع تدفعنا إلى إعادة النظر في هذا الشعر لمحاولة الوقوف على سره ومعرفة الدوافع التي دفعت إليه . وسرعان ما نكشف أن السر الكامن وراء وضع هذا الشعر إنما هو السيرة الشعبية . فهذا الشعر جزء مكمل للسيرة ، أو على الأصح هو جزء من التأليف القصصي الذي وضع ليكون رواية طويلة بطلها عنتره .

تبدأ القصة - في الشعر الموضوع - متمشية تماما مع أحداث السيرة ، فيقول عنتره في أول حياته لحبيبتة عبلة :

أنا العبدُ الذي خُبِّرْتُ عنه رَعَيْتُ جِمالَ قومي من فِطامِي  
أروحُ من الصباح إلى مغيبِ وَارَقْدُ بين أطنابِ الخيامِ  
أذلُّ لعبلة من فرط حبي وأجعلها من الدنيا أهْنامِي  
وامتثلُ الأوامرَ من أبيها وقد ملك الهوى مني زمامِي  
وان عايتُ سهوادي فهو نخري لأنى فارس من نسل حام (٢)

ولكن سرعان ما يحصل هذا العبد على حريته في موقعة يتقاعس فيها عن نصره قومه فيستصرخونه النصره نظير استلحاقه ، وينم له ولهم ما أرادوا (٣) ، حينئذ يفرغ لعبلة ، ولكن لا يلبث أن يأتي إليها الربيع بن بدر خاطبها فيقاتله عنتره ويرده عنها (٤) . ويأتي من بعد الربيع مسحل ليخطبها كذلك فيقف منه عنتره نفس الموقف (٥) ويتألب عليه فرسان العرب كل يطالب بعبلة فينازله عنتره في سبيلها (٦) ، بينما يهرب مالك - أبو عبلة - بابنته من ديار عبس (٧) فيدركه عنتره ويقنعه بقبوله بعلا لها فيطلب مالك ألفا من النوق العصافير كمهر لابنته ، ويسرع عنتره إلى ديار المنذر طالبا تلك النوق

(١) الديوان ص ٢٠٥

(٢) الديوان ص ٢١٩

(٣) القصيدة ص ٢٠٣

(٤) الديوان ص ١٥٨

(٥) الديوان ص ١٧٧

(٦) الديوان ص ١١٩

(٧) الديوان ص ١٤٢



العصافير (١) ، ولكن المنذر بن ماء السماء يأسره ويلقى به في غياهب السجن (٢) ويخرج عنتره من سجن المنذر ليلتحق ببلاط كسرى الذى يعجب به ويفدق عليه النعم فيمدحه عنتره (٣) .

وتستمر قصائد هذا الجزء من الديوان تسير مع أحداث السيرة خطوة بخطوة ، ذاكرة كل لقاء لعنتره مع مشاهير فرسان العرب أمثال: بسطام (٤) ومقرى الوحش (٥) وكل موقعة خاضها عنتره سواء في اليمن (٦) ، أو ضد العجم (٧) . وبعد ذلك يتحدث هذا الشعر عن صدور عروة بن الورد وعن ابنه ميسرة (٨) ، كما لا يفوته أن يذكر الغول والجن الذى التقى به عنتره في أسطوره (٩) .

والواقع أن هناك أكثر من دليل على أن هذه الأشعار إنما وضعت لخدمة السيرة . وأول هذه الأدلة هو أن كثيرا من ألفاظ السيرة تردد بشكل ملفت في تلك الأشعار . فعنتره مثلا يناجى عبلة بقوله :

وَحَقُّ هَوَاكَ لَا دَاوَيْتُ قَلْبِي بِغَيْرِ الصَّبْرِ يَا بِنْتَ الْكَرَامِ (١٠)

فنعت عبلة « بينت الكرام » تعبير غير شعري ولكنه كثير الورد في السيرة . ومثله نعت الإعادي « بينى اللثام » الذى تكرر في أكثر من من قصيدة لأنه اصطلاح شائع في السيرة . يضاف الى هذا أن عنتره - عند كاتب السيرة - أصبح رمزا أكثر مما هو شخص ، ولهذا استعمل اسمه كوصف لكثير من الأشياء مثل « الصرخة العنترية » (١١) ، و « الحملة العنترية » (١٢) ، وحتى ذلك المثل - أو الذى أصبح كذلك فيما بعد :

« وَلَا كُلُّ مَنْ خَاضَ الْمَجَاجَةَ عَنْتَرُ » (١٣)

ويلفتنا هنا التركيب « ولا كل » فهو الى المصرية الدارجة أقرب منه الى العربية الفصحى . وسيرة عنتره - كما سنبين فيما بعد - مصرية التأليف ، وأحد أدلتنا على ذلك هو شيوع الألفاظ والتعبيرات

- |                             |                             |
|-----------------------------|-----------------------------|
| (١) الديوان ص ١١٩           | (٢) الديوان ص ١٦٣           |
| (٣) الديوان ص ٢١٢ ، ص ٢٢٣   | (٤) القصيدة بالديوان ص ١٦٥  |
| (٥) القصيدة بالديوان ص ٢٠٥  | (٦) القصيدة بالديوان ص ١٣٩  |
| (٧) القصيدة بالديوان ص ١٨٤  | (٨) القصيدة بالديوان ص ١٣٥  |
| (٩) القصيدة بالديوان ص ٢٠٢  | (١٠) الديوان ص ٢١٩          |
| (١١) القصيدة بالديوان ص ١٥٤ | (١٢) القصيدة بالديوان ص ١٥٤ |
| (١٣) الديوان ص ١٤٧          |                             |

والامثال المصرية فيها . هذه الالفاظ والتعبيرات والتراكيب المصرية نجدها كذلك فى هذا القسم من شعر عنتره . فففيه مثلا ذكر للصعيد فى قوله :

نَأْفِجْهُمَا وَلَكِنْ مَعَ رَجَالِ كَأَنَّ فُلُوبَهَا حَجَرُ الصَّعِيدِ<sup>(١)</sup>

والقبر يذكره باسمه المصرى وهو « التربة » قائلا :

أَيَّاصَادَاتِ الْإِيكَ إِزْمَتْ قَانْدُى عَلَى تَرْبَى بَيْنِ الطَّيُورِ السَّرَاجِمِ<sup>(٢)</sup>

وكذلك « الحنا » اعتادت المصريين أن يخضبهن بها فى الافراح ، يقول عنها عنتره :

وَكَمْ مِنْ سَيِّدٍ أَضْحَى بِسَيْفِي خَضِيبَ الرَّاحِمِينَ بِغَيْرِ حِنَا<sup>(٣)</sup>

كل هذا يدل على أن القسم المنحول من شعر عنتره لم يوضع الا لخدمة غرض واحد هو السيرة ، أو أنه على الاصح وضع كجزء مكمل لها ، ولهذا جاءت الصورة التى حاولنا استشفافها منه لشخصية عنتره قاصرة مهزوزة ومتناقضة .

والسؤال هنا : هل هذه الصورة الهزيلة هى نفس الصورة التى ترسمها السيرة ؟

ونسرع لنقرر أن هذه المقتطفات الشعرية لايمكن أن يكمل بعضها بعضا ، وبالتالي لايمكن استخلاص صورة منسقة متكاملة منها . اما السيرة فأننا سنحاول فى الفصل التالى استكشاف الصورة التى ترسمها لشخصية عنتره لنستطيع بعد ذلك الحكم على ذلك العمل الروائى المصرى القديم الذى يعتبر أقدم الاعمال الروائية العالمية .

---

(١) الديوان ص ١٢١

(٢) الديوان ص ١٦٤

(٣) الديوان ص ٢٣١

# الباب الثاني

سيرة عنزة بن شداد





# الفصل الاول

## مخطوطات السيرة

ذكر الاب لويس شيخو - في كتابه شعراء النصرانية - ان الشيخ يوسف بن اسماعيل « اخذ يكتب قصة عنتره ويوزعها على الناس » . (١) وذكر اسكندر اغا ابيكار يوس - في كتابه منية النفس في اشعار عنتر عبس - في سياق قصته عن الرجل الحمصي الذي كان يتحمس لعنتره ويداوم على حضور حلقة القصاص كل ليلة فلم يتحمل في احدى الليالي ان يقطع القاص الكلام عند أسر كسرى لعنتره، وقصد الى منزل القصاص ورجاه ان يكمل السياق . . « فأخذ القصاص الكتاب وقرا له باقى السياق الى ان اخرج عنتره من السجن . (٢) وذكر ابن ابي أصيبعة - في كتابه عيون الانباء في طبقات الاطباء - ان ابا المؤيد بن الصايغ العنترى . . « كان في أول أمره يكتب أحاديث عنتر عبس فصار مشهورا بنسبته اليه » (٣) .

من هذا يتضح ان قصة عنتره أنشئت - في أول أمرها - مكتوبة ، وتداولت بين الناس - عبر العصور المختلفة - مكتوبة كذلك، خلا غرو أن يكون لها عدد غير قليل من المخطوطات منتشرة في المكتبات العالمية المختلفة . ولكن نظرا لطول هذه السيرة طولا مفرطا فان من العسير العثور على مخطوط كامل لها ، وانما هي في أغلب الاحيان فصل أو عدة فصول قليلة من السيرة التى قسمها صاحبها أساسا الى اثنين وسبعين فصلا .

وقد حصر المستشرق « كارل بروكلمان » مخطوطات سيرة عنتره

فيما يلى :

١ - نص كامل للسيرة بدار الكتب المصرية ويقع في خمسة وثلاثين جزءا .

---

(١) ص ٨٨٢

(٢) ص ٣

(٣) ج ١ ص ٢٩٠

- ٢ - قطعة بمكتبة برلين تحمل رقم ٩١٢٣/٥
- ٣ - قطعتان بالمتحف البريطاني تحت رقم ٦٦٣/٥ و ٣١٩/٢٤
- ٤ - قطعة بمكتبة باريس رقمها ٣٦٨٨
- ٥ - قطعة بمكتبة ميونخ رقمها ٦٢٠
- ٦ - قطعة بمكتبة جوتة برقم ٢٤٣٥/٧٥
- ٧ - قطعة بمكتبة واين رقم ٧٨٢
- ٨ - قطعة بمكتبة ليدن رقم ٥٤١/٢
- ٩ - قطعة بمكتبة بوهار تحت رقم ٣٧/٤٧
- ١٠ - قطعة بمكتبة بانك رقم ٤ - ١١٠٣/١١١٠ (١)

وفي معهد المخطوطات - التابع لجامعة الدول العربية - قطعة هي الجزء الثالث من سيرة عنتر بن شداد مصورة عن مخطوط بمكتبة استامبول كتب عام ٨٤٨ هـ .

والواقع أن الظروف لم تتح لنا فرصة الاطلاع الا على المخطوط الأول ومصور المخطوط الاخير ، ولهذا سوف نقصر الكلام عليهما الى أن تتاح لنا فرص أوفى للاطلاع على بقية المخطوطات أو العشور على مخطوطات آخر تشمل السيرة بأكملها .

\* \* \*

مخطوط سيرة عنتر المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ز ١٣٥٢٥ يقع في خمسة وثلاثين جزءاً كل جزء منها في مجلد يحمل عنواناً يبدأ برقم الجزء ثم عبارة : « الجزء ... ( كذا ) ... من سيرة فارس الطراد الأمير عنتر بن شداد على التمام . » ، وتحت العنوان مختصر لما في الجزء من أحداث ، ففي الجزء الثاني مثلاً يقول هذا الفهرست المختضب : « هذا فيه ظهور عنتر ، وقتل الذيب والاسد ، وقتل المتغرس لما أتى بنى عبس في غيبة زهير ، وقتل بسام عبدالربيع وسبب عداوة شاس والربيع في عنتر لاجل قتل عبيدهم وهما داجي وفاجر ، وعشقه لعبله ، وطلبه الحسب والنسب من أبيه ، وغضبه على بنى عبس لاجل نفور شداد فيه ، ومقابلته بعباض ابن العتب وأخذ الابجر بالغنيمة التي غنموها ، والحاقه بالحسب والنسب من بعد قتل العساف ، وزواج حصن ، ولقيته بالسيف الضامى وهو مدفون لما أن قابل الاثنين الذين كانوا يتقاتلون عليه وقتل عنتر »

(١) تاريخ الادب العربى - ملحق الجزء الثانى ط ١٩٣٨ ص ٧٤

أحدهم ونصر الآخر ، وعودته بالسيف وأخبار مالك بذلك وزواج  
عماره بعبلة ، وسير الملك زهير الى بنى المصطلق ، وسبى عبلة - والله  
أعلم . »

أما فهرست الجزء الثالث فيقول : « ان هذا فيه رواح عنتر  
الى الملك المنذر ، وأسرره ، وأخذ النوق العصافير ، وقتل الاسد وهو  
مقيد ، وقتل الحاجب خصروان وسيره الى كسرى ، واجتماعه بعبلة  
وهى سبية بعد أخذ العطايا من الملك كسرى ، وخلص عبلة من الاعداء  
وذلك بعد قتله البطريق البدرموط عند كسرى ، وملتقاه بعبلة - والله  
أعلم . »

وهكذا نجد ان كل جزء من أجزاء سيرة عنتر في هذا المخطوط.  
تبدأ صفحته الاولى بالعنوان وتحتته مثل هذا المختصر لما يحتوى عليه  
الجزء من الموضوعات ومايجرى فيه من أحداث .

وهذا المخطوط مكتوب بخط معتاد واضح ومنقوط ولكن بأقلام  
مختلفة الامر الذى يدل على اختلاف كاتبه . ولا يحدث هذا الاختلاف  
بين جزء وآخر ، وإنما يحدث كذلك في الجزء الواحد وعند منتصف  
الكلام - أى دون انتظار لانتهاء الصفحة أو حتى الفقرة . فالجزء الاول  
يتقاسمه ثلاثة أقلام مختلفة وبأجزاء غير متناسقة ، فالقلم الاول كتب  
العنوان والمقدمة حتى بداية ذكر تاريخ ابراهيم والنمرود عن رواية  
وهب بن منبه ، ثم كتب القلم الثانى بعد ذلك نصف صفحة فقط  
أكملها القلم الثالث الذى استمر حتى نهاية الفصل . وقد تكررت  
هذه العملية - بغير تواتر - في الفصول التالية حتى نهاية السيرة مما  
يدل على أن هذا المخطوط اشترك في كتابته ثلاثة أشخاص - وربما  
أكثر - كان كل منهم يكتب وقتما تسنح له الفرصة وبالقدر الذى  
يستطيع .

والمخطوط مكتوب بالمداد الاسود عدا العبارات « قال الراوى أو  
قال الاصمعى » أو ماشاكل ذلك فانها مكتوبة بالمداد الاحمر حتى  
الصفحة التاسعة والثلاثين من الجزء الاول حيث تبطل الكتابة بالمداد  
الاحمر ويترك فراغ للعبارة شاغرا دون أى كتابة فيه . وتعاد الكرة  
بالنسبة لجميع الاجزاء اذ تستمر كتابة تلك العبارات بالمداد الاحمر  
لعدة صفحات قليلة يترك بعدها الفراغ شاغرا .

هذه الظاهرة - بالاضافة الى ماسبق ملاحظته من تعدد كتاب  
المخطوط ، ثم عدم اهتمامهم سواء بتحسين الخط أو باستقامة الاسطر  
وحسن تنظيم الصفحة ... كل ذلك يدل على أن هذا المخطوط يفتقر  
الى العناية والتنسيق اللذين كان يكتب بهما المخطوطات للخلفاء

وعلية القوم ليحتفظوا بها في خزائهم . فأغلب الظن - اذن - أن هذا المخطوط كان لاحد القصاص يقرأ منه على الناس في الحلقات التى يعقدها كل ليلة ، يبدو هذا من طريقة كتابته كما يبدو من آثار كثرة التناول على أوراقه وانطماس لون الحبر فى معظم أجزائه ، أما اشتراك اكثر من قلم فى كتابته بالطريقة التى أوضحناها فدل على ان صاحبه القاص ليس هو كاتبه وانما الذى قام بكتابه أناس وربما اشتركوا معا وامتحنوا صناعة نسخ تلك المخطوطات كذلك الطبيب العنترى الذى حدثنا عنه ابن أبى أصيبعة ، ويدل على ذلك أيضا كثرة الاخطاء الهجائية فى المخطوط ، ناهيك بالاططاء النحوية والصرفية والتعبيرية .

وينتهى الجزء الخامس والثلاثون - وهو آخر اجزاء السيرة - بهذه العبارة وكان الفراغ من كتابة هذه السيرة العجيبة ، الفائقة المطربة القريية ، يوم الاثنين المبارك الموافق تسعة وعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٨٩ تسع وثمانين ومائتين بعد الالف من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة واتم السلام والله الموفق للصواب ، واليه المرجع والمآب ، والله أعلم .

وعلى جانبى هذا الكلام الذى كتب على شكل هرم مقلوب ورد اسم مكتوب باحرف افرنجية وباللغة الفرنسية هو « السيد ا . على صادق » Monsiour A Ali Sadic

واذا قارنا بين هذا المخطوط لسيرة عنتره وبين الطبعة التى بين أيدينا منها ( طبعة المطبعة السعيدية ) وجدنا اختلافا ظاهرا فى العنوان حيث تحرص النسخة المطبوعة على ذكر نوع السيرة وذلك بالنص على أنها السيرة الحجازية فيقول العنوان : « سيرة فارس الحجاز ، أبى الفوارس عنتره بن شداد . وهى السيرة الفائقة الحجازية ، المشتملة على الاخبار العجيبة والانباء الجليلة » . وثمة فرق واضح هنا كذلك بين المخطوط والمطبوع هو اسم عنتره الذى ذكر فى عنوان النسخة المطبوعة بالتاء ( أى عنتره ) بينما ذكر فى عنوان المخطوط بدونها ( أى عنتر ) .

والفرق الثالث هو أن كل جزء من اجزاء المخطوط كان يحمل تحت العنوان فهرسا مقتضيا لما احتواه من أحداث ، أما النسخة المطبوعة فقد اخلت محل ذلك نبذة قصيرة عن عنتره نفسه تقول : « وهو الفارس المشهور ، والبطل الجسور ، سيد الشجعان وقاهر الاقران عنتره بن شداد من شعراء الطبقة الاولى . وكان من أحسن الشعراء شيعة وأعلامهم همة وأعزهم نفسا وأقواهم بطشا وفتكا . وكان مع هذه الشجاعة التى ضربت بها الامثال لين العريكة سهل



الاخلاق شديد النخوة رقيق الشعر ، وقد عمر تسعين سنة ومات مقتولا . وفي سيرته من آثار البطولة وآيات الشجاعة مالا يندثر بل يبقى على ممر الايام وتلدوم سيرته مادامت العصور . وفيها يجد القارئ من الوقائع والحروب معارك مسترسلة في ميادين القتال . «

وتتواتر هذه المقدمة - متكررة بنصها - في اول كل مجلد من مجلدات هذه الطبعة من السيرة عدا المجلد الثانى الذى ترد فيه عبارة اخرى تتفق مع السابقة نهجا ومعنى وتختلف معها في اللفظ والاطناب .

فاذا انتقلنا الى صلب السيرة وجدنا أن النسخة المطبوعة تكاد تطابق النسخة المخطوطة انطباق الحافر على الحافر - كما يقول قدامى البلاغيين - فمند « البسمة » التى فى اول كل منهما حتى نهاية السيرة ينطبق النصان عدا تحوير بسيط يبدو فى استبدال لفظ بلفظ أو زيادة عبارة قصيرة فى النسخة المطبوعة عما فى المخطوط هى فى حد ذاتها مرادفات لغيرها بحيث لا تحيل معنى أو تضيف جديدا .

ومع ذلك فان الاثنين لا يتفقان فى التقسيم ، فبينما يشتمل المخطوط على خمسة وثلاثين جزءا كل جزء فى مجلد فان هذه الطبعة من السيرة تشتمل على خمسة وخمسين جزءا فى ثمانى مجلدات ، الامر الذى يجعل نهايات الفصول فى كل منهما غير متحدة مع مافى الآخر . ولكن ليس لهذا الخلاف أهمية كبيرة بالنسبة لسيرة عنتره بالذات لان كاتبها الاول لم يفصل بين فصولها وينتهى بالكلام فى كل فصل عند نهاية يمكن السكوت عندها لبدأ الفصل الجديد بموضوع جديد ، ولكنه « التزم فى آخر كل فصل أن يقطع الكلام عند معظم الامر الذى يشاق القارئ الى الوقوف على تمامه فلا يفتر عن طلب الكتاب الذى يليه ، فاذا وقف عليه انتهى به الى مثل ما انتهى الاول ، وهكذا الى نهاية القصة . » (١) ومعنى هذا أن السيرة متصلة فى الحالين وان هذه الوقفات التى تقسمها الى فصول تأتى فى أى مكان فلا تحدث خلافا طالما أن السياق العام مستمر ومترابط فى القصة بأكملها .

وتتفق النسختان فى المقدمة - لفظا بلفظ - بما فى ذلك تلك العبارة التى تذكر أن من رواة هذه السيرة العالم العلامة عبد الملك ابن قريب الاصمعى ( ناعته اياه بعدة اوصاف ، ومعلقة سبب تسميته بالاصمعى ) ، ومنهم أيضا أبو عبيدة ، وجهينة ، والبلخى ... الخ . أما الخاتمة فان النسختين تختلفان اختلافا بينا وخطيرا ، فالنسخة

---

(١) شعراء النصرانية - لويس شيخو ص ٨٨٢

الخطية أثبتت تاريخ انتهاء كتابتها بعام ١٢٨٩ هـ بينما أثبتته النسخة المطبوعة على أنه عام ٤٧٣ هـ ، ثم أضافت الى ذلك زعمين كبيرين جمعتهما جملة واحدة هي « قال مؤلف هذه السيرة الحجازية - وهو الاصمعي رضى الله عنه - كان الفراغ من تأليفها يوم الجمعة المبارك في أواخر جمادى الثاني سنة ٤٧٣ من الهجرة في أيام الخليفة أمير المؤمنين هرون الرشيد العباسي . »

وليس هنا مجال اثبات أن الاصمعي لم يكتب سيرة عنتره وإنما هو فقط أحد الرواة - أو المصادر - التي استقى منها كاتب السيرة مادته التاريخية ( فقد أثبتنا ذلك في مكان آخر ) ولكن من العسير أن تمر هذه العبارة التي تقرر عام ٤٧٣ هـ بالاصمعي وبالرشيد ، إذ أنه من التواريخ الثابتة وفاة الرشيد عام ١٩٣ هـ ، ومن التواريخ الاحتمالية وفاة الاصمعي عام ٢١٠ هـ ( أو على الأصح بين عامي ٢٠٨ و ٢١٠ ) وعلى ذلك فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون الاصمعي هو الذي كتب هذه النسخة من السيرة وانتهى منها عام ٤٧٣ هـ كما لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون ذلك قد حدث أبان خلافة الرشيد العباسي .

يضاف الى ذلك أن العبارة السابقة تنعت هذه النسخة من السيرة باسم « السيرة الحجازية » ، ونحن نعرف أن هناك ثلاثة أشكال لسيرة عنتره هي السيرة الحجازية ومقرها الاساسي مصر ، والسيرة الشامية ومقرها الشام ، والسيرة العراقية ومقرها العراق . لهذا فإن الاقرب الى التصور أن تكون السيرة التي ينشئها الاصمعي - أكبر رواة الدولة العباسية - وهو في بغداد مقر الخلافة ، وبأمر من الرشيد ... هي السيرة العراقية وليس السيرة الحجازية كما تنص على ذلك الخاتمة .

لكل هذا فإنه يمكننا في بساطة ان نرفض هذا التاريخ الذي ورد في طبعة السيرة وأن نرفض معه اسم الاصمعي كمؤلف لها واسم الرشيد كأمر بالتأليف لنقرر أن هذا الجزء ( وهو الخاتمة ) مدسوس على النص الأصلي بدليل تطابق السيرة المطبوعة مع النسخة المخطوطة التي أنهت السيرة دون تحديد نوعها - أحجازية هي أم عراقية - ودون تحديد اسم مؤلفها ودون ذكر للرشيد فيها ، وعنيت فقط بتحديد تاريخ انتهاء كتابتها وهو يوم الاثنين المبارك الموافق تسعة وعشرين خلت من شهر جماد الآخرة عام تسع وثمانين ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية . أما النص المطبوع فجعله يوم الجمعة المبارك في أواخر جمادى الثاني سنة ٤٧٣ هـ . وهنا يفلتنا التقارب بين النصين والتحريف المتعمد الذي أدخل على النص المطبوع إذ

استبدل يوم الاثنين بيوم الجمعة - يوم العيد الاسبوعى لدى المسلمين - وعم تاريخ اليوم فجعله اواخر جمادى الثانى بدلا من تحديد المخطوط له باليوم التاسع والعشرين من جماد الآخر . أضف الى ذلك ان شهر جماد الآخر معروف منذ أول التاريخ الهجرى بهذا الاسم وان تلقيبه بجمادى الثانى لم يحدث الا فى عصور متأخرة مما يؤكد تأخر تلك التسمية كثيرا عن عام ٧٣ هـ

لكل هذا - وحيث أننا لم نعثر بمصر على نسخة كاملة مخطوطة للسيرة سوى هذه - فاننا نكاد نجزم بأنها هى الاصل الذى أخذت عنه هذه الطبعة الا أن الطابع أراد أن يعزز قيمة بضاعته بنسبتها الى الاصمعى وبتأخير تاريخ كتابتها وبقحام الخليفة هرون الرشيد فيها ، فتخبط بين التواريخ والاسماء والحقائق فانفضح أمره . وعلى ذلك فان هذا المخطوط هو أصل السيرة الحجازية المطبوعة والمنتشرة بمصر .



وفى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية نسخة مصورة ( ميكروفيلم ) لجزء الثالث من سيرة عنتر بن شداد منقولة عن مخطوط موجود بمكتبة أحمد الثالث باستامبول تقع فى ثمانية وثمانين ورقة وكتبت عام ٨٤٨ هـ بقلم تعليق وبدايتها : « الحمد لله سبحانه ، قال الاصمعى : ونزلت عليهم البوائق ، وحقت منهم الحقائق ، وتضاربوا بالسيوف على العواتق فقطعت منهم العلائق ، وتطاعنوا بالرماح فكانوا للدروع خوارق ، وتضاربوا بالسيوف فكانوا كالصواعق فلم يرى الا رمح خارق وسيف بارق وفارس شاهق والخصم لخصمه معانق والشجاع فى الدم غارق ، والقنا عليهم قد مد على الفرسان سراق ، فسبحان العظيم الخالق ، الحاكم بالقنا على الظلايق . قال الراوى : ولم يزالوا كذلك حتى زادت بهم الحرق ، وكثر القلق وعظم الحنق وتراشقوا بالنبال فى الحدق وتناثرت الرؤوس مثل الورق - قال - هذا وعنتر قد مزق الكتائب المتطابقة ، وطعناته كالقضا سابقة ، وقد بحسامه كل درع وطارقة ، ونثر جماجم الابطال المتلاحقة . فلما اتسع المجال ، أظهر الأهوال ، وخطف بحسامه مهج الابطال ، وأبصرت عساكر العساف الأهوال . قال الراوى : بينما هم كذلك وعنتر يهمهم ويضحك وعلى الأعداء يجول ، وقد جندل الابطال عرضا وطول ، اذا بمالك ابن الملك زهير وهو ينادى ، يا أبا الفوارس الحقنى من الهلاك ، وخلصنى من الارتباك » .

فاذا بحثنا عن هذه الفقرة فى النسخة المطبوعة من سيرة عنتر وجدنا أنها ليست بداية الفصل الثالث وانما تتأخر عن ذلك حوالى



أثنتى عشرة صفحة ، وإن نصها هو : « ... وقد حقت الحقائق ، وعمل السيف في المفارق ، وزاد القلق ، وكثر الحنق ، وجرى الدم ، ووسلت السيوف ، وقطعت الرؤوس ، وكان يوما عبوس . هذا وعنتر قد فرق الكتائب ، ونثر الجماجم . واتسع المجال ، ونظرت أهل اليمن شيئا ما كان لها على بال . قال الراوى : وبينما عنتر يجول ، وإذا بصوت مالك وهو ينادى ، يا أبا الفوارس الحقنى قبل الهلاك » (١)

والنظرة الأولى الى هذين النصين تظهرنا على مدى ما بينهما من فروق . فمن حيث الكم نجد أن فقرة المخطوط تربو على ضعف فقرة المطبوع إذ تبلغ الأولى أربعة عشر سطرا بينما لا تزيد الثانية على ستة أسطر . ومن حيث اللغة نجد أن المخطوط قد كتب بلغة فصحي سليمة في معظمها أما لغة الكتاب فقد تحللت كثيرا من قواعد النحو والصرف .

ويلفتنا هنا أمران ، أولهما أن كاتب المخطوط قد أوضح الكلمات بالشكل وعنى عناية خاصة بشكل الكلمة الأخيرة من كل جملة منبها الى الوقوف عندها حتى تتناسق السجعات . ويظهر في صورة المخطوط ( وهو صورة فوتغرافية غير ملونة ) اختلاف بين لون المداد الذى كتبت به حركة الحرف الأخير وبين المداد الذى كتبت به الكلمات وبقيّة الشكل ، وأغلب الظن أن مداد الكلمات من اللون الاسود بينما مداد حركة الحرف الأخير من اللون الاحمر ، والدليل على ذلك أن لون هذا الأخير يشبه لون المداد الذى كتبت به كلمات « قال الاصمعى » و « قال الراوى » وهذه الكلمات تكتب عادة باللون الاحمر مثاماً في المخطوط الكامل الموجود بدار الكتب المصرية . أما النسخة المطبوعة من السيرة ( التى بين أيدينا الآن ) ومثلها نسخة الطبعة الشامية فانها جميعا غير مشكولة الكلمات ، وربما كان سبب ذلك صعوبة اصطناع الشكل في الطباعة لاسيما لتلك الطباعات الشعبية ، ولكن الاهم من ذلك هو أن نسخة المخطوط الذى رجحنا اخذ هذه الطباعات عنه - وهو مخطوط دار الكتب - يخلو تماما من شكل أى كلمة من كلماته .

أما الأمر الثانى الذى يلفتنا الى فروق ما بين النصين فهو أسلوب الكتابة الذى يبدو رصينا لماحا حسن التصوير والترتيب في المخطوط، بينما يظهر التفكك وعدم التناسق والربط في أسلوب الكتاب . فصاحب المخطوط يذكر أنه قد نزلت عليهم البوائق وحقت منهم الحقائق » ، ويفسر لنا ذلك بأنهم « قد تضاربوا بالسيوف وتطاعنوا بالرماح » أما ضرب السيوف فقد نتج عنه تقطع العلائق ، وأما طعن

« (١) السيرة مجلد ١ ص ١٧٣



الرماح فقد خرق الدروع . وأصبح المنظر العام للمعركة هو برق السيوف وخفق الرماح وتعانق الفرسان وسط بحر من الدم وتحت سرادق من ظلمة الغبار وبين رعوس تتناثر مثل الورق . هذه اللوحة المعبرة لصورة المعركة التي رسمها قلم صاحب المخطوط ضاعت معالمها وانطمست خطوطها وبهتت ألوانها عندما صار اختصارها في الكتاب المطبوع الى بضع كلمات مرصوفة هي « جرى الدم وسلت السيوف وقطعت الرعوس » .

ولو أننا سرنا في هذه المقارنة النقدية بين المخطوط والكتاب لوجدنا اطراد ظاهرة الخلاف الواضح بين أساليب التصوير القصصي في كل منهما ولاقتنعنا بأن السيرة التي بين أيدينا مطبوعة ليست هي القصة التي كتبها ذلك الفنان العربي القديم وان ما ادخله عليها النساخ والرواة من تحريف وتصحيف وتغيير قد بعد بها كثيرا - من حيث الأسلوب على الأقل - عن النص الاصل الذي كتبه صاحبه .

وهنا يعن لنا أن نتساءل : هل مست تغييرات الرواة تلك الأحداث والأشخاص مثلما فعلت بالأسلوب والألفاظ ، أم أنها حافظت على المبنى والمعنى واقتصر التصرف على الأسلوب والكم ؟

وللاجابة على هذا التساؤل نستكمل نص المخطوط وهو : « قال ابو عبيدة : وكان مالك قد حمل في قبائل مسعود بن معاد الكلبي . وجرى بينهم قتال شديد ، ماعليه من مزيد ، حتى كلت السواعد عن القتال ، وقد تقهقرت رجال مالك وضاق عليها الحال ، وأدركه مسعود ابن معاد الكلبي ، وكان هذا الفارس جبارا من الجبابرة ، معروفا بين الفرسان بالشجاعة الباهرة ، فقتل من فرسان بني عبس ثلاثة فرسان ، المعروفين بالضرب والطعان ، وضايق على مالك ابن الملك زهير في الميدان ، وأكربه في الجولان ، وقد طلع عليهم الغبار الى الأعناق ، ونظر مالك المنية بعينيه ، فزقق من وسط جنبه ، وصاح لعنتر بذلك الصوت والزعاق ، وقد بلغت روحه الى النواق ، حتى يخلصه من ضيق الخناق . فلما سمعه عنتر عدل اليه وقاربه ، وفرق الفرسان من جوانبه ، وصار يطعن في الصدور ، وينزل الدم من أنابيب النحور ، وقد طلب مسعود بن معاد ، وقفز اليه بالجواد ، وقد أظهر العناد ، وأراد أن يطعن مسعودا بن معاد ، فراه محترزا لنفسه ، فطعن جواده في قلبه ، ووقع مسعود عن مركبه ، ومن حلاوة الروح قام على قدميه ، ولم يحس بثقل الحديد الذي عليه ، وهول بين يديه ، ودخل بين الخيل الذي له وعليه ، وهو لا يصدق بالنجاة من عظم ما بدا له حين كبكبه بطعنته ورماه . »

فالواضح من هذا النص ان الذى كان يحمل على مالك بن زهير هو مسعود بن معاد ، وأن عنتره حين هاجمه لم يقتله وانما ترك له فرصة الفرار من الميدان . اما النص المطبوع فيقول : « وكان مالك قد حمل في مقابلة العساكر فأدركه عنتر ، ولما لحقه رأى عسافا ظافرا على مالك ففاجأه عنتر وحمل عليه ، وأراد عساف أن يجول مع عنتر واذا بأبى الفوارس تأخر عنه وتمطى في رمحه وطعنه » (١)

وواضح من مقارنة النصين أنهما يختلفان في سير الاحداث وفي اصطناع الشخصيات والأسماء اختلافا بينا . فبينما يذكر المخطوط أن مهاجم الامير مالك كان يدعى مسعود بن معاد تذكر النسخة المطبوعة أنه عساف نفسه ، وبينما يرسم المخطوط لوحة لقتال عنتره مع مسعود يصور فيها الكثير من مظاهر الفروسية وفنون القتال ينهى الكتاب المطبوع ما بينهما بطعنة واحدة نجلاء ، وأخيرا فإن المخطوط يترك لمسعود فرصة الهرب ليبنى عليها أحداثا آخر فيما بعد أما الكتاب المطبوع فيسرع بقتل عساف لينهى الواقعة كلها وينصر بنى عبس على بنى مازن .

وهكذا نجد أن فروق ما بين هذا المخطوط القديم وبين الطبقات الحالية للسيرة تشمل - الى جانب الاسلوب - شخصيات الرواية وأحداثها ، الأمر الذى يجعل من الضرورى بذل جهود صادقة لمحاولة العثور على نسخة كاملة من السيرة يكون تاريخ كتابتها أقرب ما يمكن الى تاريخ تأليفها ، حينئذ سوف نجد بين أيدينا احدى روائع التأليف القصصى العربى القديم .

## الفصل الثانى

### طبقات السيرة

ما أن خرجت سيرة عنتره للناس حتى نجحت نجاحا منقطع النظير فى الاستحواذ على أسماع أبناء الشعب جميعا والحصول على تقديرهم لها تقديرا ارتفع فى كثير من الأحيان عن مجرد الإعجاب بها كعمل فنى ممتاز وبلغ درجة جعلت حضور حلقات قاص هذه السيرة كل ليلة فريضة واجبة . فى هذا الوقت الذى لقيت فيه سيرة عنتره ذلك النجاح العريض بين أبناء الشعب ، أعرض عنها الأدباء الرسميون وأغفلها مؤرخو الأدب وأنكرها رجال العلم والدين إذ اعتبرها بعضهم من أعمال السوق بينما عدها آخرون رجسا من عمل الشيطان . (١) ولهذا ظلت المراجع العربية وكتب الأدب والتاريخ غفلا من ذكر عنتره وسيرته .

ولكن الشعب الذى تلقف هذا العمل الفنى المتجاوب مع مشاعره ووجداناته لم يأل جهدا فى تداول هذه السيرة وفى تناقلها عن طريق النسخ . وقد زاد اقبال الناس على مخطوطاتها تلك الى درجة كبيرة دفعت بعض النساخ الى التخصص فى نقل سيرة عنتره وحدها وأصبح امتهانهم لهذا العمل صفة تطلق عليهم أخذت - مع مرور الزمن - قوة اللقب وأضيفت الى اسمائهم مثلما حدث لابن الصايغ الطبيب الذى لقب بالعنترى لانه اشتغل فى أول حياته بنسخ سيرة عنتره ابن شداد . (٢)

وقد انتشرت سيرة عنتره فى جميع أرجاء البلاد العربية على اختلاف بيئاتها وظروفها الاجتماعية والسياسية الأمر الذى دفع نساخ كل اقليم الى اجراء بعض التغييرات فيما ينسخون وذلك بتعديل أو حذف ما يرونه غير ملائم لبيئتهم والاطناب فيما جاء مناسبا لها .

---

(١) ابن كثير ج ٩ ص ٣٣٤

(٢) عيون الأبناء فى طبقات الأطباء - لابن أبى أصيبعة ج ١ ص ٢٩٠

لهذا عندما ما عرفت سيرة عنتره طريقها الى المطبعة جاءت في اشكال ثلاثة يختلف كل منها عن الآخر باختلاف الاقليم الذي طبع فيه ، وان كانت تلك الاختلافات تمس الشكل الخارجى والكم دون ان تصل الى اسس بناء السيرة سواء من حيث الشخصيات او الاحداث او اسلوب العرض القصصى . وكان اوضح مظهر من مظاهر الخلاف هو وجود مقدمة في طبعة وعدم وجودها في الاخرى او بسط بعض التفصيلات في واحدة واجمالها او اغفالها في غيرها . وليست تلك الفسروق. أمرا يستحق عقد مقارنة بين طبعات السيرة المختلفة ، ومع ذلك فلا بد من الإبقاء على ذلك التقسيم الثلاثى لطبعات السيرة حيث اختص كل قسم منها باقليم من اقاليم النهضة الثقافية العربية وحمل اسمه فكانت « السيرة الحجازية » و « السيرة الشامية » و « السيرة العراقية » .

والسيرة العراقية على قلة انتشارها ونُدرة وجودها - تكاد تكون صورة طبق الاصل من السيرة الشامية بحيث يمكن اعتبارهما دون تخرج - اصلا واحدا طبع في مكانين مختلفين (١) ، وفي هذه الحالة نكتفى عند المقارنة بذكر السيرة الشامية لتدل على السيرة العراقية بالتبعية وتقف امام السيرة الحجازية . حينئذ نجد ان هذه الاخرة تمتاز على السيرة الشامية بمقدمة طويلة تناول فيها المؤلف موضوع خلق العالم منذ بدايته حتى قبيلة عبس وملكها زهير بن جذيمة ، بينما تغفل السيرة الشامية كل هذا وتبدأ بزواج الملك زهير مباشرة . وبعد ذلك تتحد السيرتان اللهم الا من زيادات أسلوبية طفيفة نجدها في السيرة الحجازية دون ان يكون لها قرين في السيرة الشامية فاذا ما كانت النهاية وجدنا خاتمة السيرة الحجازية ليس لها مثيل في السيرة الشامية الامر الذى يدفعنا الى القول بان السيرة الشامية ان هي الا مختصر للسيرة الحجازية (١) وانها ليست اصلا وانما مأخوذة عن السيرة الحجازية التى هى الاصل . يعزز هذا الرأى ان ناشر السيرة الشامية يذكر في صدر طبعته انه اخذ السيرة عن اصدق رواياتها وانه قام باختصارها وتهذيبها واسقاط ما لم يتفق مع ذوقه وأهلاؤه ، وجود وحوار ما استطاع حتى تجيء القصة خفيفة باقبال اهل المطالعة والذوق السليم . يضاف الى ذلك أن طبعة بيروت لسيرة عنتره التى ظهرت عام ١٨٦٩/١٨٧١ ثم تلك التى ظهرت عام ١٨٨٣/١٨٨٥ نسبت كل منهما تأليف السيرة الى يوسف بن اسماعيل المحرى (٢) مما يدل على أن سيرة عنتره وضعت في مصر وبذلك تكون

(١) دائرة معارف الاسلام - م هارتمان - مجلد ١ ص ٣٦٢  
(٢) معجم المطبوعات العربية - يوسف سر كيس - ج ٨ ص ١٣٨٧ ط سنة ١٣٤٧ .



السيرة الحجازية هي الاصل الذي اخذت عنه السيرتان والتوامتان الشامية والعراقية .

وقد ظهرت اولى طبعات السيرة الحجازية في القاهرة عام ١٢٨٣ هـ مقسمة على اثنين وثلاثين جزءا ، تلتها طبعة ثانية عام ١٢٨٦ هـ ، اما الثالثة فكانت عام ١٣٠٧/١٣١١ (١) ، بينما كانت الطبعة الرابعة في عام ١٣٣١ هـ (٢) .

والسيرة الشامية ظهرت اولى طبعاتها في بيروت عام ١٨٦٩ ، ١٨٧١ م (٣) ، وكانت مشتملة على مائة واربعة وخمسين كتابا في ستة مجلدات (٤) . وظهرت الطبعة الثانية عام ١٨٨٣/١٨٨٥ (٥) ، بينما ظهرت الطبعة الثالثة عام ١٨٩٣/١٩٠١ .

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على الطبعة القاهرية الحديثة للسيرة الحجازية ( وهي طبعة المكتبة السعيدية ) ، كما اطلعنا على طبعة بيروت عام ١٨٨٥ وذلك عند ائقارنة بين السيرتين الحجازية والشامية .

والا كانت سيرة عنتره تعتبر شعبية التأليف شعبية التداول - ونعنى بالشعبية هنا بعدها عن الادب الرسمى وحرمانها من اهتمامات ادباء الدولة الذين يطلق عليهم المجتمع هذا الاسم ، لذلك فانه لم يكن غريبا على الاطلاق ان تصدر جميع طبعاتها فيما بعد بشكل يمكن ان نطلق عليه كذلك اسم « طبعات شعبية » ونعنى بالشعبية هنا ضعف امكانيات الطباعة ، ثم في المكان الاول عدم توافر اسس التحقيق العلمى لتلك الطبعات ، بالاضافة الى عدم العناية وتحري الدقة في نقل النص او تصحيح الاخطاء . اما نظام الطبع وجودة الورق فليس لهما مكان الى جوار ما سبق .

ومع ذلك ، فليس من شك في ان هذه الطبعات - رغم جميع العيوب التى يمكن ان توصف بها - قد حفظت لنا صلب السيرة العنترية بشكلها العام ، وحمته من الضياع بانقراض الرواة الذين يشتغلون بقصها على الناس ، كما جنبتها الكثير من التضارب

(١) تاريخ الادب العربى - كارل بروكلمان ج ٢ ط سنة ١٩٤٩

(٢) السابق ملحق ج ٢ ط سنة ١٩٣٨

(٣) دائرة المعارف البريطانية مجلد ٢ ص ١٤

(٤) معجم المطبوعات العربية ج ٨ ص ١٣٨٧

(٥) تاريخ الادب العربى - كارل بروكلمان - ملحق الجزء الثانى سنة ١٩٣٨ .

والتعارض الذى قد ينشأ من الاعتماد على ذاكرة هؤلاء الرواة اذا لم يكن هناك نص مطبوع .

وهذا لا يعنى - من ناحية اخرى - ان ما بين ايدينا من طبعات السيرة هو النص الذى كتبه مؤلفها ، فالدراسة المقارنة لمخطوطى دار الكتب وجامعة الدول العربية اظهرتنا على ان الاول - ذا التاريخ المتأخر والذى اعتمدت عليه معظم الطبعات - يختلف عن الثانى اختلافات جوهرية من حيث لغة الكتابة والاسلوب والكم الامر الذى يدل بوضوح على ان السيرة الاصلية قد وجدت فى شكل مغاير - من وجوه كثيرة - لذلك الذى تظهر به طبعاتها الحالية .

لهذا فان اول خطوة يجب ان يرنو اليها القائمون على تخطيط مستقبل حياتنا الثقافية هى محاولة البحث الجدى بغية الحصول على مزيد من المخطوطات الكاملة لتراثنا القديم حتى نستطيع الوقوف على الصورة الحقيقية التى انشئت عليها تلك الاعمال الفنية ، وأن نؤرخ لحياتنا الادبية تأريخاً سليماً . وهذا الجهد لا يستطيعه الافراد بقدر ما تطيقه الهيئات واجهزة الدولة المعنية بامر الثقافة .

## مختصرات السيرة

عادت سيرة عنتره الى الظهور في عصرنا الحديث بصورة جديدة ليست هي اعادة طبع السيرة كاملة ، كما انها ليست اعمالا ادبية مستقلة ومستوحاة من السيرة ، ولكنها شيء بينهما يمكن ان نسميه « اقتباسات من السيرة » او « مختصرات للسيرة » .

وهذا الاعمال نتلقى بثلاثة منها تختلف عن بعضها البعض اختلافات بينة تبعا للفرض الذي وضعت من اجله . اولها - حسب التسلسل الزمني - وضع لفرض تربوي كجزء من القراءات الحرة للمدارس الثانوية ، وقدمه تحت عنوان « عنتره بن شداد » الاساتذة : حسن جوهر ومحمد احمد برانق وامين احمد العطار . وقد قدم المؤلفون لكتابهم بمقدمة عن القصة ، مفهومها ، واقسامها ، وطرق اخراجها ، ومكانتها بين فنون الادب ، ومدى تأثيرها في المتلقى . ثم خصوا قصة عنتره بالحديث على اعتبار انها اطول القصص العربية واعظمها حتى انها لتعتبر اليازة العرب ، وتحدثوا عن تضارب الاقوال في مؤلفها ، ثم عن اقسامها ، وابطالها واهدافها حديثا مختصرا يناسب عقلية الصفار ، ورجحوا انها وضعت بمصر في اواخر القرن الرابع الهجري ( اى حوالى عام ٣٨٠ هـ ) دون ابداء الاسباب .

اما القصة نفسها فقد اخرجوها في ثلاثة عشر جزءا تتضمن حياة عنتره وحده - اى دون المقدمة التى فى السيرة الحجازية ، ودون الامتداد الذى يصور حياة عنتره بعد وفاته - كما انهم حاولوا وضع القصة فى قالب يوائم الفرض التربوى الذى من اجله اقدموا على هذا العمل ، فحافظوا - ما امكنهم ذلك - على الشكل العام للسيرة بأحداثها الكبرى وهيكلها الخارجى مع سقاط كثير من المناظر المتكررة للمعارك والاحداث الخسارقة التى تجافى المنطق ( مثل معارك الجن والسحر ) او تجافى الذوق الرقيق ( مثل انتقام عنتره من قتلة ابنائه وصور ذبحهم وحرقتهم ) . ولكن الاهم من هذا وذاك هو ان المؤلفين اعادوا صياغة القصة اعادة كاملة ليضعوها فى اسلوب عربى سليم بعيد عن الالفاظ العامية والاسلوب المحرف ، وكرد فعل طبيعى ظهر فى اسلوبهم شيء من المغالاة فى تحرى الرصانة واختيار الالفاظ بحيث

أصبح أسلوب السرد أعلى كثيرا من مستوى التلاميذ الذين من أجلهم وضع الكتاب .

وكما اغفل المؤلفون المقدمة (التي تتناول خلق العالم حتى عنصرة)، والامتداد (الذي يتناول حياة أبناء عنصرة خلال الاسلام) ، اغفلوا كذلك جميع الأشعار التي وردت في السيرة ومعها فقرات كثيرة من الحوار ومن تعليق الراوى على الأحداث . ولعل أخطر شيء قاموا به في هذا الصدد هو محاولتهم تحوير بعض المفاهيم والمضامين التي وردت في السيرة لتلائم عقلية التلاميذ الصغار وكى لا تستعصى على فهمهم وذوقهم جميعا فكان عملهم هذا عكس ما ظهر في أسلوبهم . وقد تضافر الاثنان ( تحوير مضامين الأحداث مع التزام التزمّت اللغوى ) على البعد بالقصة عن الغرض المنشود منها ، فأصبحت لا تلائم الصغار كما أنها لا تصلح للكبار لافتقارها الى سلاسة الأسلوب القصصى الذى يسر للمتلقى عملية الاستمتاع بالأحداث وتخيلها والانفعال بها دون ان يحول بينه وبين ذلك لفظ رصين معجمى أو أسلوب متزمت قوى ، لان الأسلوب فى العمل القصصى وسيلة لا غاية بينما هو فى هذا الكتاب المدرسى أصبح غاية أساسية عمد اليها المؤلفون مع استعارة بعض أحداث سيرة عنصرة الأصلية . ولهذا حدث فى عملهم الانفصال بين الشكل والمضمون وأصبحت قصتهم لا هى بالعمل الأدبى المحقق لذاته الفنية المستقلة ، ولا هى بالكتاب المدرسى المحقق لأغراضه التربوية .



يلى هذا العمل المدرسى - فى الترتيب الزمنى - عمل صحفى استغل سيرة عنصرة ليقدم الى جمهور الصحافة رواية من « روائع الفصص العالى » ، أصدرتها دار الهلال تحت عنوان « عنصرة بن شداد - تأليف يوسف بن اسماعيل من ادباء الدولة الفاطمية » . وقد أعدها هذا الأعداد الصحفى الأستاذ طاهر الطناحى واهتم فيه اهتماما خاصا بـ « توضيح بعض المواقف بالرسوم الجميلة ، والعناية بالحوادث الفرامية » (١) ، وجعل الرواية فى ثلاثة أجزاء مستقل كل جزء منها بحوادثه عن الأجزاء الأخرى بحيث يمكن تناوله مفردا ، كما يحمل الجزء الثانى - والجزء الثالث تباعا - ملخصا للجزء الذى سبقه يستغرق صفحة وبعض صفحة . وكل جزء من هذه الأجزاء يبدأ بثبت لاسماء الشخصيات ، كما يحمل كل حدث من الأحداث عنوانا فرعيا مثيرا . والملفت فى هذه الطبعة الصحفية هو أنها أسندت تأليف السيرة الى يوسف بن اسماعيل دون أدنى مناقشة ، وأثبتت ذلك على الغلاف الخارجى بينما قدمت تعريفا مقتضبا بالمؤلف هو أنه « أديب مصرى »

(١) العدد ١٠١ من روايات الهلال ص ١١



في عهد العزيز بالله الفاطمي ، كان واسع الرواية في اخبار العرب كثير الاحاديث والنوادر » . ثم يعترف الناشر بان يوسف بن اسماعيل هذا وضع روايته في ثمانى مجلدات لا يقل كل منها عن ستمائة صفحة بينما قدمها هو في ثلاثة اجزاء كل منها حوالى مائة وخمسين صفحة .

ومن الطبيعى ان يلعب هذا الاختصار الصحفى دوره في اختيار المواقف - او اللقطات - على الاساس الذى وضع لذلك وهو الاهتمام بالمواقف الغرامية ومحاولة جعل كل جزء من الرواية يكاد يستقل بنفسه ويستطيع الوقوف بمفرده . لهذا فقد بدا التفكك واضحا في الرواية بصفة عامة وظهر عدم الترابط لا بين الاجزاء فحسب وانما بين الفصول في الجزء الواحد ، فضلا عن ان جميع هذا العمل الصحفى لم يتناول سوى المرحلة الاولى من مراحل السيرة الاصلية ( ونعنى بها مرحلة التكوين ) - وهى المرحلة التى تتناول حياة عنتره منذ بدئها حتى نجاحه في الزواج من عبلة ، وحتى في هذه المرحلة فقد اهمل كفاحه في سبيل تعليق قصيدته على الكعبة اهمالا تاما .

فالجزء الاول يبدأ بعنوان صحفى مشير هو « الطفل اللثب » ويقتطف من السيرة شيئا عن شداد وزبيبة ومولد عنتره ثم يقفز الى افتتاحه بعبلة ليوصلنا الى عنوان مشير آخر هو « الفارس العاشق » حيث تتركز جميع الاهتمامات حول هذه العملية الغرامية الى ان يعود عنتره من ارض العراق بالنوق العصافير ، الا ان مالكا - ابا عبلة - يهرب بابنته من الديار .

اما الجزء الثانى فانه يتعدد كثيرا عن عنتره وقصته ليركز اضواءه على قصة غرامية اخرى بطلاها النعمان والمتجردة - بنت زهير بن جذيمة مالك عبس - ، اما عنتره فانه لا يزال يسعى وراء عبلة . وينتهى هذا الجزء بمقتل الملك زهير وانتقام عنتره له . (١) ويبدأ الجزء الثالث (٢) بحرب داحس والغبراء ثم بزواج عنتره من عبلة وبعد ذلك يأخذ في تعداد الفرسان الذين لقيهم عنتره بادئا بلريد بن الصمة ثم عمرو بن معد يكرب ، فالسليك بن السلكة ، وفي النهاية ينتقل عنتره الى بلاط قيصر حيث يظهر على جند الروم ويعود الى عروسه عبلة منتصرا .

وهكذا نجد اثر الصحافة واضحا في هذا العمل الذى تناول سيرة عنتره ، فالتحقيق معدوم ، والتدقيق متروك ، والاختصار مغل ، والاعتماد مركز على الاثارة سواء في الموضوع او الرسوم او العناوين ،

---

(١) العدد ١٠٣ من روايات الهلال

(٢) العدد ١٠٥ من روايات الهلال

أما الاختيار ونقل الأحداث فبعيد عن الصدق العلمي - وقد تضافرت كل هذه العوامل لتجعل من الطبعة الصحفية للسيرة مسخاً مشوهاً وعملاً بعيداً كل البعد عن حظيرة الأدب والفن والصدق في النقل والنشر جميعاً .



وأحدث الأعمال التي تتناول سيرة عنتر بن شداد خرجت من بيروت في أعقاب مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد بالكويت عام ١٩٥٩ وناشد الأدباء عامة أن يعملوا على تعزيز البطولة وحفز شباب العرب على التضحية والبذل في سبيل الحرية والخلود ، فاستجاب لهذا النداء الأستاذ عمر أبو النصر وقام بإعداد سيرة عنتر وتنسيق أخبارها تحت عنوان « عنتر .. بطل العرب وفارس الصحراء » .

وقد اختار الأستاذ عمر من السيرة الأصلية الأحداث - واللقطات - التي تتفق مع ما يهدف إليه ، فبدأ بزواج الملك زهير من تماضر ، ثم انتقل إلى شداد وزبيبة وأنجالها لعنتر ، وبعد ذلك قفز إلى حبه لعيلة إذ ظهرت قوته وشجاعته ، ثم ذهابه في طلب النوق العصافير من المنذر ، فأتصله بالفرس ونصرته إياهم بطريق الروم ، وعودته إلى أهله محملاً بالأسلاب والهدايا . ولكن عيلة تصده فيخرج إلى الصحراء هائماً حيث يلتقى بالفرسان فارساً فارساً ثم بقبائل العرب قبيلة قبيلة ثم بأهل فارس فأهل اليمن ، وأهل الشام . وأخيراً يعود ليتزوج من ميلة . وبعد ذلك أجمل المؤلف مبارزاته مع دريد بن الصمة وذو الخمار إلى أن وصل لمقتله على يد الأسد الرهيص .

ويمتاز هذا العمل - على سابقه - بأن كاتبه أعاد صياغة عباراته في لغة سليمة سهلة مع المحافظة على روح النص ومعناه في الأجزاء التي وقع عليها اختياره ولكنه لم يحاول أن يربط بين تلك الأجزاء بل اكتفى بضمها إلى بعضها البعض فجاءت وكأنها مقتطفات من السيرة الأصلية لا تتوافر لها الوحدة الروائية ولا البناء القصصي .



وهكذا نجد أن هذه الأعمال الثلاثة التي حاولت اختصار سيرة عنتر - أو تهذيبها على زعم البعض - بدت جميعاً - رغم اختلاف أهدافها - بعيدة كل البعد عن روح السيرة الأصلية ، غير واعية للبناء القصصي الذي أبدعه المؤلف القديم لها . فالطباعات الحديثة الثلاث سواء تلك التي كان هدفها تربويًا أو التي كان هدفها صحفياً أو التي قصد بها الحماس وتعبئة الشباب ، فإنها جميعاً لم تهتم من السيرة الأصلية إلا بالجزء الأول فقط ( وهو مرحلتا التكوين والفروسية ) ، وهذا الجزء من السيرة - كما يتبين في دراسة شخصية عنتر - يكاد يعتبر مقدمة للقصة ، حاول المؤلف فيها أن يكون طبيعياً

ومنطقيا حين يتناول حياة بطله منذ البداية ثم يأخذ في تطوير شخصيته وتنميتها نماء تدريجيا تحت وقع احداث معينة بحيث يبدو هذا النماء غير شاذ ولا مستبعد . لهذا فان ذلك الجزء من السيرة يعتبر مرحلة تقديم لشخصية البطل فقط بينما تتلوه عدة مراحل تمثل كل مرحلة منها طورا من اطوار حياة البطل ، وهدفا من اهداف السيرة ، كما انها جميعا تتمشى مع اسس التأليف القصصى عند العرب من تجريد وملحمية واسطورية وغيرها ، اما مرحلتا التكوين والفروسية فلا تزيدان عن كونهما فترة ولادة الشخصية وتحديد ملامحها وتبيان سماتها واتجاهات تطورها .

وربما كان السبب الاساسى لذلك هو ان اولئك الذين قاموا باختصار السيرة واعادة طبعها لتحقيق غرضا معيناً ابتغوه وجدوا ان هذا الجزء وحده من السيرة هو الذى يحقق اهدافهم . فأصحاب الطبعة المدرسية اعتبروا ان عقلية التلاميذ اصغر من ان تستوعب المواقف الدرامية والصور الملحمية التى فى المراحل المتقدمة من السيرة واصحاب الطبعة الصحفية سعوا وراء الاثارة وجذب القراء - انصاف المتعلمين - فصوبوا كل سهامهم نحو الاجزاء الغرامية من السيرة باعتبارها اسرع السبل وايسرها الى قلب هؤلاء القراء ، اما صاحب الطبعة الاخيرة فاختر الجزء التاريخى المنطق ، الطبيعى التسلسل ، الواضح الاهداف ليتلافى الارهاصات الاسطورية والتأويلات البعيدة الاحتمال التى ربما تطارضت مع الحقائق التاريخية والمفاهيم المنطقية .

والدليل على ذلك ان جميع من قاموا باختصار السيرة واختاروا لعملهم هذا الجزء الاول منها فقط ، اغفل - ثلاثتهم - فيما تناولوا جانبا هاما كانت السيرة الاصلية قد اولته عناية فائقة واعتبرته الوجه الثانى من اوجه الفروسية واستكمال البطولة ونعنى به جانب التميز الشعري . فعلى الرغم من استناد هذا الجانب الى اسس تاريخية لا تقل ثبوتا عن الحقائق التى استندوا اليها فى رسم حياة عنصرة وتصوير شجاعته ، حيث انه من الثابت تعليق قصيدته على الكعبة ضمن المذهبات ، الا ان الصورة القصصية التى رسمها مؤلف السيرة الاصلية عن هذا الجانب من جوانب الفروسية لم تستقم مع منطق الاحداث بالشكل الذى يساير التفكير الواقعى الحديث ، ولم تقم على تحقيق الاهداف التى هدفوا اليها - رغم اختلافها فى الاعمال الثلاثة ، بالاضافة الى عدم اعتبارهم لطبيعة التأليف القصصى الذى يضحى بحقائق التاريخ ومنطق الاحداث فى سبيل اخراج صور روائية . لذلك فقد آثروا جميعا اغفال هذا الجزء من السيرة الاصلية اغفالا تاما دون حتى محاولة تحويره ليلتقى مع ما هدفوا اليه .



وليس ادل على بعد مختصرى السيرة عن التأليف القصصى واقامة اعمالهم على اسس غير فنية من اغفالهم تلك اللمحات البارعة التى لجأ اليها مؤلف السيرة الاصلية ليقيم عليها شخصية بطله الروائية، وينميها، ويطورها ، ويعدها لمواجهة البناء الفنى لعمله القصصى . فمؤلف السيرة كان على علم بأنه سوف يقدم فى سيرته بطلا لا كالأبطال تتسم الكثير من افعاله باللامعقولية والاغراق فى الخيال ، ولهذا اوضح لنا - منذ اللحظة الاولى - ان بطله تسنده قوة غيبية ليحقق اغراضا سماوية ، ثم استكمل له عدة قتال عجيبة تناسب هذا الغرض وتتمثل فى فرس معم مخول يسابق الظليم دفع فيه عنتره كل ما غنمه آل عيس من اسلاب ، وسلمه سيفاً مصنوعاً من شهاب اسقطته القصصية السماء، هذه اللمحات البارعة التى تدل على توفر المواهب القصصية لدى المؤلف ، اعتبرها مختصرو السيرة تهالويهم بعيدة عن الواقع والمنطق فأغفلوها - كما اغفلوا الكثير من امثالها - الامر الذى جعل بطلهم يبدو شاذاً ويظهر فى صبور مفاجئة لم يمهدها التمهيد الروائى اللازم . ولهذا فقدت اعمالهم احكام البناء الفنى واصبحت مجرد سرد لمقتطفات من تاريخ عنتره .

وهناك لمحات اخرى ناجحة قدمها مؤلف السيرة الاصلية على اساس انها دعائم قصصية قوية . ولكن مختصرى السيرة اغفلوها؛ كذلك ، اما لامتقادهم انها لا تتلاءم مع اهدافهم او لعدم التفاتهم اليها . فمثلاً يوضح مؤلف السيرة الاصلية نقطة التقاء شداد بزييبة مؤكداً امتناعها على غيره من الفرسان المغيرين - بعكس ما كانت تسير عليه . هادات الجاهلية وذلك ليثبت صحة نسب عنتره ، ثم يعود المؤلف ليفيض فى وصف اوجه الشبه بين عنتره الوليد وبين ابيه شداد ، ويعود مرة ثالثة ليصف لنا جلسة حكيم العرب التى اصدر فيها حكمه بالصبي لشداد مستنداً الى ادلة مادية ومنطقية . كل ذلك ليؤكد المؤلف نقطة واحدة هى صحة نسب عنتره ، اما مختصرو السيرة فقد اغفلوا كل هذا رغم لزومه لاقامة البناء القصصى ، ورغم انه مكون هام من مكونات المرحلة التى اختاروها من السيرة .

وغرام عنتره بعبلة لا يقف مستقلاً فى السيرة . وانما هو يمثل جانباً من جوانب كفاح البطل وصراعه من اجل استكمال حريته وبناء شخصيته وبلوغ المكانة التى يصبوا اليها . ويكاد مؤلف السيرة الاصلية ان يفصح معلناً ان هذا الغرام ليس غاية فى حد ذاته وانما هو وسيلة الى غاية ، بدليل ان عنتره نسي غرامه لها حين فاز بفرسه « الابجر » ، وانه ضاجع غيرها من النساء لينجيهن اطفالاً ، ثم هو لم يحتمل منها السخرية به فكان يتركها مغضبا ويذهب ليهيم فى الصحراء



صائدا ومحاربا . أما مختصرو السيرة فقد فصلوا جميعا غرام عنثرة  
يعبلة عن السيرة - التى هى وصف تفصيلى لحياة بطل بكل مكوناتها  
ومقوماتها - وجعلوا مسألة الغرام هذه شيئا قائما بذاته ولذاته دون  
ان تكون له اى علاقة بالتكوين النامى لشخصية عنثرة ، بل ان صاحب  
الطبعة الصحفية جعله الهدف الرئيسى - وربما الوحيد - للقصة  
التى قدمها .

من هذا يمكننا القول بان من قاموا باختصار السيرة حديثا لم  
يوفقوا فى فهم الاسس الروائية التى بنيت عليها، ولم يصلوا الى اللوحات  
الفنية التى فيها ، ولم يقفوا على روح السيرة - كفن من فنون الادب  
العربى - ، كما لم يراعوا تكامل البناء القصصى الذى اصطنعه مؤلف  
السيرة الاصلى ، وربما لم يدرسوا العمل الذى يزعمون اختصاره  
دراسة كافية تعينهم على اخراج قصة مناسبة منه لا تقل - من حيث  
القيمة الفنية - عن العمل نفسه ، وانما كان لا تسرع وبساطة الاخذ ،  
بالاضافة الى الاغراض المستترة والواضحة ، اثر كبير فى تشويه تلك  
الاعمال وظهورها بمظهر يقل كثيرا فى الدرجة والقيمة عن السيرة  
الاصلية .

## ترجمات السيرة

لم تعرف الآداب الغربية فن القصة الا منذ عهد قريب ، اذ كانت نشأة ذلك الفن شرقية وكان مهد القصة الاول هو ارض العرب . يقول المستشرق جوستاف ليبون : « العرب هم الذين ابتدعوا روايات الفروسية .. وترى في روايات العرب - مع قلة اعتنائهم بنفسية الاشخاص - فوائد كثيرة لاشتمالها على ضروب من المغامرات العجيبة . . . وقد جمل العرب بخيالهم الساطع كل شيء لمسوه فهم الذين لا نظير لهم في الفن » . (١)

وعندما انتقلت هذه الثروة الفنية الى اوروبا في ركب الحضارة العربية حظيت بقدر كبير من الاهتمام ، وعمل كثير من المستشرقين على نقلها الى لغتهم . وقد كان لسيرة عنتره نصيب من هذا الاهتمام . بدأه عام ١٨٢٠ الانجليزى تاريك هاملتون Terrik Hamilton فترجم الى لغته الثلث الاول من السيرة ونشره في اربع مجلدات تحت عنوان « عنتره .. قصة حب بدوية » (٢) Antar... A Bedween Romance

وتلى ذلك ترجمة فرنسية لمعظم اجزاء السيرة قام بها المستشرق هامر برجستال Hammer Pirgastall ، ثم اتبع ذلك بتلخيص لسيرة عنتره معتبرا اياها مثالا لقصص الحب والفروسية عند العرب نشره في المجلة الآسيوية عام ١٨٣٨ . (٣)

وقد اثار عمل برجستال هذا انتباه ادباء فرنسا آنذاك ولفتهم الى الفن القصصى الذى لدى العرب ، فأقدم كثير منهم على ترجمة اجزاء - او تلخيصها - من سيرة عنتره بن شداد بما لا يزيد عما فعله هامر ، نذكر منهم : -

١ - كوسين دى برسيغال A. Caussi de Perceval وقد خص عنتره وسيرته بفصل من كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » وذلك في عام ١٨٣٦ . (٤)

(١) حضارة العرب ( مترجم ) ص ٤٤٨

(٢) دائرة المعارف البريطانية مجلد ٢ ص ١٤

(٣) Victor Chauvin : Bibliographie des Ouvrages Arabes, Part. 3 p. 113

٢ - بيرون M. A. Perron  
وقد نشر في المجلة الآسيوية مقالين عن عنتره وسيرته أحدهما  
عام ١٨٤٠ والآخر عام ١٨٥٠ (١)

٣ - أما الشاعر الفرنسي الذائع الصيت «الفونس دي لامرتين»  
A. de Lamartine فقد اطلع على سيرة عنتره أبان زيارته  
للشرق فخصها بفصل في كتابه الذي ألفه عن تلك الرحلة واطلق عليه  
اسم «رحلة الى الشرق» (٢)، ثم دفعه إعجابه بتلك القصة البطولية  
الى إعادة الكتابة عنها في مجلة التمدن La Civilisateur عام ١٨٥٤  
تحت عنوان «عنتر أو التمدن الرعوى»

Antar, au la civilisation pastorale  
وبعد ذلك بحوالى عشر سنوات أعاد نشر هذا المقال منفصلا عام  
١٨٦٤ (٣).

٤ - كتب المستشرق دوفيك L. Marcel Devié ملخصا  
للسيرة نشره تحت عنوان «حوادث عنتره بن شداد» صدر في باريس  
عام ١٨٧٨.

وغنى عن البيان أن جميع تلك الترجمات والتلخيصات لم تعن  
بنص السيرة بحيث تنقلها الى اللغات الأخرى نقلا سليما ملتزما لأسس  
الترجمة الأدبية حيث أن الذي لفتهم اليها واستحوذ على إعجابهم فيها  
هو القصة نفسها - أي الاحداث والوقائع بحكم غرابتها وطرافتها، ثم  
التركيب الهيكلي للقصة والقدرة على الربط بين تلك الاحداث وربط  
روايتها متسلسلا ومقيما لبناء قصصى سليم.

وكان الإعجاب بقصة الحب في السيرة أقوى من الإعجاب بقصة  
الصراع البشرى فيها، ولهذا فقد اختار معظم أولئك المترجمين القسم  
الأول منها فقط، وهو ذلك القسم الذى يحكى غرام عنتره بعبلة  
والجهود التى بذلها فى سبيل الفوز بها واعتبروا أن ما أظهره البطل  
من ضروب الشجاعة والاقدام فى سبيل تحقيق الهدف العاطفى يكفى  
للدلالة على الناحية البطولية فى القصة، ولم يفتن أى منهم - أو لعلمهم  
تفاضوا - عن اعتبارها قصة متكاملة من نوع «السيرة» التى تحكى  
الحياة الكاملة لشخصية البطل بجميع اطوارها ومراحلها ومكوناتها  
ومقوماتها. ولهذا فإن احدا منهم لم يطلق على ما قام بترجمته من  
عنتره اسم النص المترجم وهو «سيرة عنتره»، وإنما اختاروا لها

(١) السابق ص ١١٤

(٢) — Voyage en Orient — Tome 2. P. 471 (Paris 1911)

(٣) — Chauvin, P. 114

اسماء جديدة تعبر عن الناحية العاطفية وحدها وتدل على قصة الحب الذي كان بين عنتره وابنة عمه عيلة .

ولما كان هؤلاء المترجمون قد اختاروا جزءا فقط من السيرة ، ثم قاموا بترجمة أحداثه وحدها دون التزام النص ودون اهتمام بالاسلوب اللغوي للاصل يضاف الى ذلك قيامهم بتحويلات في معظم تلك الترجمات لجعلها تتلاءم مع اللبوق الأوروبي الامر الذي يجعل نسبة التحرر في تلك الاعمال اكثر من نسبة الالتزام . لكل هذا يمكننا في غير قخرج اخراجها من حظيرة الترجمة لنص عربي واعتبارها اما اعمالا ادبية غربية قائمة بذاتها قد استقت فكرتها الاساسية من قصة عنتره ، واما نقلا لطرفة من طرف الشرق الى لغة من لغات الغرب دون ان يكون ذلك ترجمة لنص او لجزء من نص . والواقع ان الناظر في تلك الاعمال سوف يجد ان معظمها ينطبق عليه هذا التعريف الاخير . ومعنى ذلك ان الصلات المباشرة تكاد تكون معدومة بين تلك الاعمال الغربية وبين الاصل العربي اللهم الا تلك الصلة المعنوية التي توحى بالقيمة الفنية للآثر العربي بحيث وقع عليه الاختيار باعتباره الافضل .

من هذا يتضح ان دراسة مثل تلك التراجم بغية الوصول الى معلومات اوفى عن الاصل العربي المنقولة عنه لن توصل الى الفرض المنشود منها وذلك لانها ليست ترجمات كاملة وليست دراسات مستقلة وانما هي نقل لمعنى الاثر العربي الى لغة اجنبية ، مثلها في ذلك مثل تلك الفصول التي كان يكتبها الدكتور طه حسين ملخصا بعض المسرحيات العالمية والروايات الاجنبية واعتاد ان ينشرها تباعا في الجرائد والمجلات او يجمع عددا منها بين دفتي كتاب . فمن المحال الادعاء بأن تلك الفصول تعتبر ترجمة للمسرحية العالمية او الرواية الغربية وتبعه ذلك فانها لا يمكن ان تساعد على دراسة الاصل .

لهذا آثرنا الا نطيل في السعي وراء تلك الترجمات او الملخصات الاجنبية لسيرة عنتره اعتقادا بانها لن تضيف شيئا جديدا ، وحرصا على دراسة النص نفسه في لغته الاصلية التي انشئ بها .



## الفصل الثالث

### تاريخ سيرة عنتر بن شداد

تنتهى الطبعة الحجازية لسيرة عنتر بن شداد بهذه العبارة :  
« قال مؤلف هذه السيرة الحجازية - وهو الاصمعي رضى الله عنه -  
كان الفراغ من تأليفها يوم الجمعة المبارك في اواخر جمادى الثانى  
سنة ٤٧٣ من الهجرة النبوية ، فى ايام الخليفة امير المؤمنين هارون  
الرشيد العباسى . وقد ارشدنى الى تأليفها رغبته فى سماع قولها  
ونشرها ونظمها . وقد جمعت ما عندى من الاوراق مما سمعته عن  
سيرة عنتر بن شداد المشهور فى سائر الافاق ، واضفت اليه ما رأيته  
يعينى . ورتبت القوافى على بعضها بحسن نظام من غير زيادة ولا نقصان ،  
وانتقيتها من زبدة الكلام . وهذه السيرة الحجازية قد رويتها بروايات  
قوية عن الحمزة وعن ابى طالب وعن عمرو بن معد يكرب وعن حاتم  
طى وعن امرىء القيس الكندى وعن حازم الكلى وعن عبيده وعن عامر  
بن الطفيل ، فانه بعد عنتر تداولت افعاله على السن العرب ، فالذى  
رأيته وسمعته صرت اكتبه عندى بالاوراق ، من اشعار ومن افعال ،  
والذى ما رأيته ولا سمعته فهو ترتيب القوافى على بعضها ، والله اعلم  
بالصواب » . (١)

هذه العبارة تكاد تكشف عن نفسها وتكاد تنطق بانها موضوع ، لان  
الاصمعي لا يمكن ان يكون هو مؤلف هذه السيرة باى حال من الاحوال .  
ورغم ورود هذا النص الصريح فى نهاية الطبعة التى بين ايدينا من  
السيرة ، مقرر ان الاصمعي هو مؤلف السيرة ومحددا سبب تأليفها  
والطريقة التى اتبعها المؤلف فى ذلك ثم تاريخ انتهائه منها ، رغم كل ذلك ،  
فان احدا من الباحثين لم يندفع بما جاء فى هذا النص وانما قرر  
الجميع ان هذه العبارة لم توضع الا للتستر وراءها حتى تضى على  
السيرة صبغة الجد ، وتدفع القارئ الى منحها شيئا من الاهتمام  
والقدير يتناسب وشهرة الاصمعي ، ثم ليقل عليها الناس باعتبارها  
عملا من اعمال كبير رواة العصر العباسى سمر الخليفة هارون الرشيد .  
وجميع الباحثين الذين رفضوا هذا النص لاقتناعهم بعدم  
صحته اكتفوا بأن اشاحوا بوجوههم عنه دون أن يحاولوا تبرير رفضهم  
له . فالمستشرق الفرنسى « هيرت » يكتفى بان يقول : « ان اسم الاصمعي

(١) السيرة مجلد ٨ ص ٣٥٢

موضوع للتستر وراءه » . (١) - والاب لويس شيخو لا يرفض النص فحسبه ، وانما يقدم لنا مؤلفا آخر لسيرة عنتره (٢) ، ويتابعه في ذلك باحثوا العربية منذ الزيات وجرجي زيدان حتى الآن . (٣) - اما المستشرق « هامر بيرجستال » فيدعى اكتشاف مؤلف سيرة عنتره - وهو بالطبع غير المؤلفين السابقين - (٤) .

يقول صاحب كتاب الادب القصصى عند العرب : « ان مافى السيرة من اخطاء نحوية وصرفية ، وما فيها من ضعف في الاسلوب يبلغ بها - بعض الاحيان - حد الاسفاف يحمانا على الحكم ان مثل هذا الاسلوب يختلف اختلافا بينا عن اسلوب الاصمعي » (٥) . والواقع ان هذا الدليل الوحيد الذى يستند اليه الاستاذ موسى سليمان يبدو سطحيا وواهنا بحيث لا يمكن الاعتماد عليه في تقرير مثل هذا الراى العظيم الخطر ، ولكننا اذا ما بحثنا قليلا عثرنا على اكثر من دليل قوى يكاد يجزم بان الاصمعي ليس هو مؤلف سيرة عنتره بن شداد .

وأول أدلتنا ان كاتب هذا التذييل في نهاية السيرة نسي ان اسم الاصمعي ذكر قبل ذلك مرات عديدة - في سياق القصة - على اعتبار انه مصدر رواية حدث واحد من احداثها ، والى جانب اسم الاصمعي ذكرت اسماء رواة عديدين كمصدر لاحداث آخر . فكاتب السيرة يذكر مثلا ان مقدمة السيرة مأخوذة عن وهب بن منبه (٦) . وفعلا نجد ان هذه الرواية ذكرت بصورة مشابهة في كتب : التيجان ، وعبيد ، والسيرة وهى الكتب الثلاثة التى رواها ابن هشام عن وهب بن منبه .

ومؤلف سيرة عنتره قد لا يرجع الحادثة الواحدة الى راوية بعينه ، وانما ينسبها الى اثنين او ثلاثة ربما كان الاصمعي واحدا منهم ، كأن يقول : « قال الاصمعي وأبو عبيدة » (٧) . وقد ينسب تأليف السيرة نفسه الى غير الاصمعي حيث نجد مثل هذه العبارة : « قال نجد مؤلف تلك العبارات » . (٨) او يرجع الرواية - أى رواية

---

(٢) شعراء النصرانية ج ١ ص ٨٨٢

(٣) أصول الادب للزيات ص ٢٤١ والهلل مجلدة ص ٧٣٠ وفارس بنى عيسى للقرشى ص ٦٨ ثم روايات الهلال العدد ١٠١

(٤) الجريدة الاسيوية سنة ١٨٣٨ ص ٣٨٦

(٥) موسى سليمان ص ٩٥

(٦) السيرة مجلد ١ ص ٥

(٧) السيرة مجلد ١ صفحات ١١٩ ، ١٤٩ ، ٢٢٤ وغيرها

(٨) السيرة مجلد ١ ص ١٢٠

للحادثة - الى نص معروف من نصوص الاصمعي مثل : « قال الاصمعي في تاريخ العرف والمورود » . (١) - ثم هو بعد كل هذا - أو على الاصح قبل كل هذا - قد بدأ السيرة يسرد اسماء الرواة الذين اخذ عنهم فقال : « أن من رواة هذه السيرة العجيبة ، المطربة الفاتكة الغريبة ، فصيح ذلك الزمان ، المتكلم على ما مضى من احاديث العربان الاولين في ذلك الزمان ، العالم العلامة « عبد الملك بن قريب الاصمعي » رحمه الله تعالى ، الذي كان من المعمرين ، والذي عاش عمرا طويلا ، جاهلية واسلاما الى ان ادرك الخلفاء والاموية وغيرهم . ومما ذكروا انه ما سمى بالاصمعي الا لانه ليس له شحمتا آذان ، غير ان رأسه كانت صومعة وآذانه خرقين في الصدغين لا غير وكان فصيح ذلك الزمان وعالما في دين الاسلام ، وهو من جملة من روى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول : « سمعت رسول الله يقول كذا وكذا » . ومن جملة من روى هذه السيرة العجيبة ايضا ابو عبيده ، وجهينة بن المثني اليمنى ، والبلخي ، وحماد ، وسيار بن قحطبة الفزازي ، والكاهن الفسائي الثقفي ، وابن خدّاش النبھاني ، وكل منهم روى ما شهد وما سمع ممن يوثق به ممن حضر وقائع العريان » . (٢)

فكانت سيرة عنتره يذكرها هنا - صراحة - ان الاصمعي ليس الا واحدا من الرواة العديدين الذين اخذ عنهم احداث قصته . فتأليفها اذن ليس للاصمعي لان وضعه فيها مثل وضع ابي عبيدة وجهينة والبلخي وسيار وغيرهم .

يلفتنا هذا النص كذلك الى ان السيرة كتبت بعد وفاة الاصمعي . فالكاتب يطلب له الرحمة من الله ، ثم هو ينساق وراء هذا الشعور أو يستمر يطلب له الرحمة كلما ورد ذكره في السياق (٣) بولا يدل النص على أن السيرة كتبت بعد وفاة الاصمعي تقلا عما ذكروه عنه ، ثم يدعى أنه عاصر الجاهلية والاسلام فالامويين ، وهو بعد ذلك يذكر تلك العصور بشكل يوحى بوجود فرق زمني بعيد بينه وبينها .

وهكذا نجد ان ما جاء في اول سيرة عنتره يهدم ما جاء في آخرها ويثبت - بما لا يدع مجالا للشك - ان الاصمعي ليس هو مؤلفها . وفضلا عن ذلك فان الاصمعي من اشهر اديباء القرن الثاني للهجرة ،

---

(١) السيرة مجلد ٧ ص ٣٣٤

(٢) السيرة مجلد ١ ص ٤

(٣) السيرة مجلد ١ ص ٤

وابعد الرواة صيتا واغزهم مادة ، ثم هو بعد كل هذا من خاصة  
الرشيد واقرب فرد في حاشيته الادبية اليه ، فلو أنه كان حقا مؤلف هذه  
السيرة ، ولو أنه وضعها بناء على تكليف من الخليفة الرشيد ، لذاع  
هذا الامر وانتشر وللأت اخباره جميع كتب التاريخ والادب . ولكن  
لم يذكر واحد من المؤرخين - قدماء ومحدثين - ان الاصمعي الف سيرة  
عنتر بن شداد .

ليس هذا فحسب ، بل ان النظرة الاولى الى ثبت الكتب التي  
نسبت الى الاصمعي - او التي روى عنه اجزاء منها - تدل دلالة قاطعة  
على ان صاحبها بعيد كل البعد عن التأليف القصصي بالمعنى الدقيق  
لهذا الفن من فنون الادب ، في الوقت الذي تدل السيرة وما فيها من  
بناء فني سليم على انها من صنع رجل متمرس في هذا الفن ، طويل  
الباع ، له تجارب متعددة سابقة - وربطاً لاحقه - من الاعمال  
القصصية . فمؤلفات الاصمعي التي ذكرت في كتب مثل «وفيات الاعيان  
لابن خلكان والفهرست لابن النديم» والتي رتبها الدكتور عبد الجبار  
جومرد في ثبت طويل بحيث اربت على الخمسين مؤلفاً (١) تدل اسماؤها  
جميعاً على بعد موضوعاتها عن التأليف القصصي - او حتى السردى  
- فهي تدور حول الاجناس والخراج والخيال والشاة والفرق بين  
الانسان والحيوان والوحوش والنبات والشجر والنخيل والكروم  
والابل وخلق الانسان . فهي - بصفة عامة - كتب لغة اكثر من اى  
شئ آخر . وحتى كتابه «النوادر» الذي يدل اسمه على قربيه من  
التأليف القصصي - او السردى - يقول الانباري انه ليس كذلك ولكنه  
كتاب في اللغة (٢) . اما القسم الادبي من تأليف الاصمعي فمعظمه  
الشعر مثل الاصمعيات والقصائد الست ورجز العجاج وشرح عدد  
من الدواوين الشعرية القديمة .

والنظرة العابرة في الموجود من كتب الاصمعي تدل دلالة قاطعة  
على ان صاحبها كاتب وليس قصاصاً ، وأنه يتمسك بالواقع العلمى  
والتاريخى ويبعد كل البعد عن التخيل والتصور والتأليف الروائى . .  
وليس ادل على ذلك من انكاره وجود مجنون ليلى «قيس ابن الملوح»  
ثم التعقيب على قصته بقوله : «في بنى عامر عدة مجانين في الحب  
صنعتهم أخيلة الرواة والشعراء منهم قيس بن الملوح (٣) وهذا

---

(١) الاصمعي ص ٢١٧

(٢) نزهة الالباء ص ١٠٥

(٣) نزهة الالباء ص ١٣٧



النص لا يدل على بعد صاحبه عن التأليف القصصى فحسب ، بل انه يكاد ينطق بمقتته لهذا اللون من التأليف وعدم الاعتراف به . وسيرة عنثرة مؤلف قصصى يلعب الخيال فيه دورا كبيرا مما يجعل مجرد القول باحتمال نسبتها الى الاصمعى امرا بعيدا عن الحقيقة وعن العلم بطبائع الاشياء .

لكل هذا فاننا نجزم بأن سيرة عنثرة ليست من وضع الاصمعى وانما هى من تأليف شخص آخر سواه . وقد سبقنا كثيرون الى هذا الاعتقاد كان آخرهم الدكتور عبد الجبار جومرد (١) ، غير أن احدا منهم كما سبق أن ذكرنا - لم يحاول تبرير رأيه أو تدعيمه بالادلة والاسانيد

ومع ذلك فاننا لا نستطيع ان ننكر انه كان للاصمعى دور كبير فى سيرة عنثرة بن شداد - او بمعنى ادق - فى تقديم المادة العلمية والتاريخية التى استخدمها كاتب السيرة . ففى زمن الاصمعى ( الذى ولد عام ١٢٣ هـ وتوفى عام ٢١٧ هـ ) كانت الاخبار تعتبر مرحلة من مراحل نشوء علم التاريخ ، فكان مما جمعه الاصمعى من الرويات والافكار ما يصلح ان يكون مادة تاريخية مثل ذكر الوقائع الحربية والمغامرات والاحلاف ثم الغزوات والفتوح ، ومنها ما يدخل فى سير الملوك والولاة والقواد وغيرهم من الشخصيات الرسمية والشهيرة ، ومنها ما يعتبر جزءا من حياة الشعراء والادباء واحوالهم كما انه روى بين هذا وذاك اخبار كثيرة تكشف عن جوانب من اخلاق القبائل والمجتمعات العربية (٢) ، فهو مثلا يحكى عن حرب البسوس بين بكر وتغلب ، وعن داحس والفراء بين عبس وذبيان ، وعن ابطال بنى عبس أمثال زهير بن جديمة وقيس ابن زهير وعنثرة بن شداد . وتحدث عن فارس بنى جشم - دريد ابن الصمة - وعن عشقه للشاعرة الخنساء بنت عمرو (٣) ، وعن ربيعة ابن المكرم وعامر بن الطفيل (٤) ، ونقل اخبار العدائين الصعاليك أمثال هروة بن الورد والسليك بن السليكة ، ثم روى اخبار حاتم الطائى ونقل مناقشته للنابغة الذبياني (٥) ، كما روى بعض المعلقات - ان لم يكن كلها - واهتم اهتماما خاصا بشعر عنثرة فروى معظم ما قاله فى

---

(١) الاحمض ص ٣٢٥

(٢) وفيات الاعيان - لابن خلكان ج ٢ ص ٣٤٩

(٣) الاغانى ج ٩ ص ١٢

(٤) الاغانى ج ١٥ ص ١٤٦

(٥) الامالى للسقالي ج ٣ ص ١٥٢

المغازي والحروب حتى أصبح اسم الاصمعي مقرونا بأشعار هذا  
البطل العبسي ، وأخبار غزواته . (١)

من هذه المادة التاريخية الخصبة التي خلفها الاصمعي استقى  
مؤلف سيرة عنترة موضوع قصته وعناصرها وأحداثها وأسماء  
شخصياتها ، ثم صاغ كل ذلك في قالب روائي فيه خيال وفيه تفنن  
وفيه بناء قصصي سليم . وبذلك يمكننا القول بأن المادة العلمية  
والتاريخية في سيرة عنترة ويرجع الفضل فيها - أول ما يرجع - الى  
الاصمعي ، أما الصورة الروائية للسيرة فانها - دون أدنى شك -  
ليست للاصمعي وانما هي لشخص متأخر عنه زمنيا اطلع على تراث  
الاصمعي واستغله في صياغة روايته القصصية .

فاذا كان الاصمعي ليس هو مؤلف سيرة عنترة بن شداد ، فمن  
يكون مؤلفها اذن ؟ .

يجيب على هذا السؤال المستشرق «هامر بيرجستال» في المجلة  
الآسيوية (٢) قائلا : « ان واضعها هو أحد أطباء وشعراء العراق  
المشهورين المسمى بأبي المؤيد ابن الصايغ والملقب بالعنتري » . ويسوق  
هامر دليله على ذلك من قول عابر جاء على لسان ابن أبي أصيبعة  
«صاحب كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء» هو ان العنتري كان في  
أول أمره يكتب أحاديث عنترة العبسي فصار مشهورا بنسبته اليه (٣)  
ويعتقد بيرجستال أن هذا الذي وصل اليه يعتبر كشفا أدبيا عظيما  
حتى أنه ليفاخر به مفاخرة عريضة - أو بمعنى آخر - يعتبر أن هذا  
الدليل الذي ساقه دليلا قاطعا لا يقبل المناقشة أو الجدل .

وعلى الرغم من أنه لا يمكن إيجاد صلة ربط بين « أحاديث  
عنترة » وبين « سيرة عنترة » لما بين اللفظين من اختلاف واضح في  
المضمون والمفهوم ، فإن أبا المؤيد هذا طبيب عراقي عاش في القرن  
السادس الهجري وهو زمن متأخر جدا بحيث يصدر فيه كتاب  
لا يعرف صاحبه ولا ينشر في حينه منسوبا لكاتبه . أضف الى ذلك  
أن أحداث السيرة وطريقة معالجتها - لا سيما فيما يتعلق منها  
بالعراق - تدل دلالة قاطعة على أن كاتبها لا يمكن أن يكون عراقيا ، بل  
- على العكس من ذلك - شخص يشعر نحو العراقيين بشيء من  
النفور وعدم التقدير . ولهذا فليس من المستطاع أن يكون كاتب  
السيرة عراقيا ولا أن يكون منبت السيرة هو أرض العراق .

---

(١) الاغانى ج ٣ ص ١٨٩

(٢) سنة ١٨٣٨ ص ٣٨٦

(٣) عيون الانباء لابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٢٩٠

والنص السابق يذكر أن العنتري كان في أول أمره يكتب أحاديث  
عنتره ، أى أنه كان في بدء حياته الثقافية - والسيرة - كما سبق أن  
أشرنا - عمل فنى متكامل لا يخرج الا على يدى كاتب قدير متمرس  
وليس عن حدث في أول عمره لم يلبث أن ترك الأدب الى مهنة أخرى  
هى الطب .

وربما كان الاقرب الى التصور هو استيحاء هذا النص في اتجاه  
آخر مؤداه أن سيرة عنتره كانت قد وجدت فعلا في عصر أبى المؤيد ،  
وانها كانت تذايع في الناس على شكل كتيبات أو صحائف مسلسلية ،  
وأن الناشئين من النساخ كانوا يتكسبون بكتابة تلك الصحائف وكان  
من بينهم ابن الصايغ هذا . ثم ان هؤلاء النساخ كانوا لا ينقلون النص  
الاصلى للقصة وانما كانوا يغيرون فيه بعض الشئ لاعتبارات اقليمية  
وسياسية وغيرها وعلى ذلك فان تلك الصحائف يمكن أن تكون هى  
الاصل الاول الذى تجمع بعد ذلك تحت اسم « السيرة العراقية » في  
مقابل الصحائف التى كانت بمصر وبالحجاز على أساس انها « السيرة  
الحجازية » . فاذا ما اعتبرنا هذا الرأى أرجعنا اليه الخلافات الطفيفة  
التى نجدها بين السيرتين الشامية (ومثلها العراقية) وبين الحجازية .  
ومهما يكن من أمر فان أبا المؤيد بن الصائغ الملقب بالعنتري  
لا يمكن أن يكون هو مؤلف سيرة عنتره بن شداد كذلك ، وان هذا  
الكشف الذى ادعاه المستشرق برجستال ليس له ما يؤيده وان كان  
النص الذى أورده لابن أبى أصيبعة يفيد في استنتاج أمور هامة منها :  
١ - ان سيرة عنتره بن شداد ظهرت في الوجود قبل القرن  
السادس الهجرى .

٢ - ان السيرة كانت تذايع في الناس كتابة ( في صحائف ) ولم  
يكن أمرها قاصرا على سماع الرواة .  
٣ - ان سيرة عنتره في هذا الوقت كانت موجودة في العراق  
كما كانت موجودة في مصر والحجاز .

٤ - ان نسخ السيرة كان عملا مربحا يفى بنفقات دراسة الطب  
الباهظة وهذا دليل على سعة انتشارها وعلى اقبال الناس عليها .  
أما الاب لويس شيخو فيذكر في كتابه « شعراء النصرانية »  
شخصا آخر باعتباره واضعا للنقصة اذ يقول : « نشأ بمصر من أفاضل  
الرواة الشيخ يوسف بن اسماعيل كان يتصل بباب العزيز في القاهرة ،  
فاتفق أن حدثت ربة في دار العزيز لهجت الناس بها في المنازل  
والاسواق ، فسأه العزيز ذلك ، وأشار الى الشيخ يوسف أن يطرف  
الناس بما عساه أن يشغلهم عن هذا الحديث . وكان الشيخ يوسف  
واسع الرواية في اخبار العرب ، كثير النوادر والأحاديث ، وكان قد  
أخذ روايات شتى عن أبى عبيدة ونجد بن هشام وجهينة اليماني



الملقب بجهينة الاخبار وعبد الملك بن قريب المعروف بالاصمعي وغيرهم  
فأخذ يكتب قصة عنتره ويوزعها على الناس ، فأعجبوا بها واشتغلوا  
عما سواها . ومن تلمظه في الحيلة انه قسمها الى ٧٢ كتابا ، والتزم في  
آخر كل كتاب أن يقطع الكلام عند معظم الامر الذي يشتهق القارئ  
الى الوقوف على تمامه فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليه ، فاذا وقف  
عليه انتهى به الى مثل ما انتهى الاول ، وهكذا الى نهاية القصة . وقد  
اثبت في هذه الكتب ما ورد من اشعار العرب المذكورين فيها ، غير انه  
لكثرة تداول الناسخين لها فسدت روايتها بما وقع فيها من الاغلاط  
المكررة بتكرار النسخ (١)

ورغم ان الاب لويس شيخو لم يقدم بين دعواه هذه اى دليل ،  
فانها مع ذلك تكاد تكون اقرب الروايات الى الصحة اذا ما نظرنا اليها  
بعين فاحصة تحكم بالمنطق وبطبيعة الاشياء ، وتعتمد على دراسة  
النص نفسه وملابساته المختلفة . ولسنا نعنى بذلك القصة التى رواها  
الاب لويس بتمامها وتفصيلها ، وانما نعنى مجملها وما تحمله من معان  
اولها : ان كاتب السيرة فرد واحد . فنحن نقر هذا الراى على اساس  
انه عين الصواب وليس يهمنى ان كان هذا الشخص هو يوسف بن  
اسماعيل او غير يوسف بن اسماعيل ، وانما المهم هنا هو ان كاتب  
السيرة شخص واحد وليس عدة اشخاص كما يذهب كثير من  
الباحثين سواء منهم من اعتبر ان اول مظهر من مظاهر الادب الشعبى  
ان يكون قد نشأ على الزمن كالتأج مشترك لكثير من الاشخاص وربما  
في كثير من الاجيال ، وبما ان سيرة عنتره من الادب الشعبى فيجب ان  
يصدق عليها هذا الاعتبار ويتحتم ان يكون قد اسهم في انشائها اكثر  
من شخص . او من اعتمد منهم على ضخامتها وعلى ما فيها من اطناب  
ومن اخطاء ليستدل على ان سبب ذلك هو اشتراك افراد عديدين في  
وضعها

والذى نود ان نؤكدده هو ان كاتب سيرة عنتره فرد واحد ولا يمكن  
ان يكون اكثر من فرد باى حال من الاحوال . والدليل على ذلك يكمن  
اولا في البناء القصصى الممتاز الذى نلاحظه في السيرة ( والذى افردنا له  
فصلا كاملا ) ، ففيها تسلسل الاحداث تسلسلا سليما من اول فصولها  
حتى الفصل الأخير ، ثم الاحالات التى يلجأ اليها الكاتب ، ففي الفصل  
الاول مثلا يقدم لنا زبيبة - أم عنتره - ويبرر عدم انقيادها لبقية  
الفرسان الذين أسروها مع شسداد بقوله : « وقد أنكرت منهم تلك  
الاحوال لانها من تسلسل قوم كرام ، وسوف نذكرها في تأصيل نسبتها ،  
ونذكر سبب غربتها وفرقتها . ولكن نذكر كل شئ في مكانه - بعون

(١) شعراء نجد والحجاز والعراق القسم السادس ص ٨٨٢



الله وسلطانه - اذا ما وصلنا اليه . » (١) ويستمر في كتابة سيرته الفصل تلو الفصل حتى يصل الى الفصل الرابع والثلاثين حيث ينتقل بفارسه الى بلاد الاحباش ليقوم بسلسلة من مغامراته هناك فيفي المؤلف بوعده ويذكر لنا نسب زبيبة وأصلها وسبب غربتها قائلا : « وكانت أم عنتره - زبيبة - بنت النجاشي ملك الحبشان ، وكان ملك الحبشان قد زوج أمها بالملك بسام ، وهو أبو الملك همام ، وإن الملك النجاشي هو جد زبيبة من الابوين ، ونسبهم الى حام بن نوح عليه السلام ، وقد غدر بزبيبة الزمان وحكم عيها القادر أن تقع في يد العربان ، وأرسلها الى بنى عيسى وعدنان ، وأخذها شداد وأمت منه بعثتر ، وجرت هذه القصة بأمر مكون الاكوان ، الذي هو كل يوم في شأن » (٢) .

فالقصة التي يرتبط فيها الفصل الأول بالفصل الرابع والثلاثين، والتي يجيء في مجلدها الأول إشارة لما سوف يرد في مجلدها الخامس ، هذه القصة لا يمكن إلا أن تكون قائمة على أساس بنائي سليم ومتكامل ، ولا يمكن إلا أن تكون لكاتب واحد يكتبها وفق فكرة موضوعة وأصل منهجي . فهذه الاحالة والربط بين الاحداث ظاهرة نلمحها في سيرة عنتره من اولها الى آخرها وبشكل متكرر متواتر يقطع بأنها عمل قصصي سليم البناء وصادر عن كاتب واحد واع لما يصنع . ويلفتنا هنا أن معظم السير الشعبية الاخرى لم يذكر لها مؤلف سواء في صلب السيرة أو في الروايات التي أثرت عنها الامر الذي ربما أشار من بعيد الى الاعتراف بأن تلك السير ألقت على يد أكثر من كاتب وفي أوقات متفاوتة بحيث يمكن أن نطلق عليها اسم « الأدب الشعبي » طبقا لذلك المفهوم . أما سيرة عنتره فقد اتفق الجميع على وحدة مؤلفها سواء في نص السيرة أو في الروايات التي دارت حولها ، ولم يتناول الخلاف سوى شخصية هذا المؤلف ، حيث يدعى نص السيرة انه الأصمعي بينما يرشح الرواة لذلك يوسف بن اسماعيل أو أبا المؤيد . فالجميع متفقون على وحدة المؤلف ولم يعترض الاب لويى شيخو الا على النسخ الذين اقحموا خيالاتهم ورغباتهم للتزويد والتظرف والحصول على رضى العامة (٣) . وهذا الاعتراض سليم ومقبول ، يثبتته قصة ابن الصايغ سالفة الذكر ، كما يثبتته اختلاف نصوص السيرة ما بين حجازية وشامية وعراقية ، وتثبتته اخيرا سعة انتشار سيرة عنتره ومدى الف الناس لها في جميع الامصار وتعلقهم بها .

١ - السيرة مجلد ١ ص ٧٦

٢ - السيرة مجلد ٥ ص ٤٠٢

٣ - شعراء النصرانية ج ١ ص ٨٨٢

ومهما يكن من أمر فإن سيرة عنتره كانت قصة متكاملة مكتوبة يقوم النساخ بنقلها كما يقوم القصاص بقراءتها من تلك الصحائف التي نقلها القصاص عن الاصل الذي دفع به اليهم مؤلفها . وهذا يؤيد - الى حد ما - نص الاب لويس شيخو عن أن يوسف بن اسماعيل كان يكتب فصول قصة عنتره ويوزعها على الناس ، وأن الناس شغفوا بمطالعتها ولم يفتروا عن طلبها مما دفع النساخ الى اتخاذ نسخها مهنة مربحة وحتى تخصص بعض النساخ فيها ولقبوا باسمها .

وفي الطبعة البيروتية للسيرة الشامية نص للمؤلف يقول فيه : « أما السبب في تأليف هذه السيرة العجيبة : والقصة الفريدة الغريبة ، فهو أنى رأيت الناس قد أكثروا في تليفق الروايات السقيمة ، واشتغلوا بالغيبة والثلب والنميمة ، فأحببت أن أجمع الأحاديث الصحيحة ، واشغل بها الناس عن سوء العشرة القبيحة » (١) .

وهذا النص لا نريد منه الآن سوى التدليل على فردية كاتب السيرة الذي يذكر صراحة أنه هو وحده مؤلفها ، بمعنى أنه كتبها طبقاً لخطة قصصية موضوعة وأنه استقأها من أحاديث صحيحة حدد لنا في السياق روايتها مع ذكر اسم كل منهم قرين الخبر المأخوذ عنه ، فإذا كان الخبر مروياً عن أكثر من واحد ذكرهم المؤلف جميعاً . أما إذا أراد أن يربط بين روايات الرواة بأحداث مؤلفة نص على ذلك صراحة بعبارة : « قال المؤلف » (٢)

كل هذا يجعلنا نقطع بأن سيرة عنتره بن شداد ليست - كما يدعى البعض - اشتاتاً من اقاصيص وروايات متفرقة تداولتها اللسان على مر العصور ثم جمعت في كتاب على أساس واحد هو أنها جميعاً تدور حول عنتره بن شداد ، وإنما هي قصة متكاملة حاوية لجميع معالم القصة العربية ، بل وكثير من مفاهيم القصة في النقد الحديث من وحدة الموضوع وسلامة البناء ونماء الشخصيات والحبكة والمضامين الدرامية وغيرها . وليس هذا قاصراً على سيرة عنتره وحدها ولكنه يكاد يتواتر في جميع قصصنا الشعبي اذ نلمحه في سيرة الظاهر بيبرس وسيرة سيف بن ذي يزن والاميرة ذات الهمة وغيرها .

فإذا حاولنا ان نستشف شخصية كاتب سيرة عنتره من خلال عمله القصصى وجدنا ان هذا الشخص تتوفر له خصال اربع هي : -  
١ - خبرة واسعة باخبار العرب وايامهم وحروبهم ووقائعهم ونواديرهم واحداثهم وتاريخهم وعاداتهم وطباعهم . ثم هو خير كذلك باشعارهم واقوالهم ، مما يدل على ان هذا الشخص كان واسع الثقافة

١ - طبعة المطبعة الادبية سنة ١٩٠٢ ص ٤

٢ - السيرة مجلد ١ صفحات ٨٥ - ١٠٨ - ١٢٨ وغيرها

غزير القراءة ، له نظرة عميقة مدققة في تراث المكتبة العربية آنذاك ، كما ان له معرفة جيدة بالشعر والقوافي .

٢ - تدل معالجة كاتب السيرة لتاريخ البلاد غير العربية من فرس وروم وسودان واحباش وغيرهم على خبرة واسعة باحوال تلك الانم وتاريخها وعادات اهلها وربما لغاتها كذلك ، كما تدل معالجته للاديان المختلفة من مسيحية ويهودية وبوذية وغيرها على انه خبير كذلك بذلك الاديان عليم بموقف الاسلام منها ، فنحن مثلاً نجد انه لا يمنع بطله ( عنتره ) من دخول الكنائس بينما هو يمتنع عن ادخاله بيوت النار . وهذا يدل على خبرة بالثقافات الاجنبية - الى جانب الثقافة العربية - وعلى معرفة بتعاليم الاديان المختلفة ، كما يدل على معرفة بموقف الاسلام من تلك الاديان وموقف العرب من تلك الشعوب .

٣ - سبق ان اوضحنا خبرة هذا المؤلف بالنفس البشرية ومعرفته باحوال جمهور المتلقين الذين دفع اليهم بعمله القصصى فلقى اعظم النجاح مما يدل على عمق دراسات هذا الكاتب وحسن تفرسه واتساع دائرة تجاربه وخبرته بالنفس البشرية .

٤ - عملية بناء مثل هذا العمل الادبي تحتاج ولاشك الى كاتب متفنن له حاسة قصصية وموهبة روائية وتمرس طويل في هذا الفن من فنون الانشاء الادبي وتجارب عديدة في مثل هذا العمل .

هذه الخصال الاربع التي تتوفر لكاتب سيرة عنتره تحدد شخصيته الفنية ، اما اسلوبه فيكاد يحدد مكان كتابة السيرة - او على الاصح - اصل كاتبها والاقليم الذي ينتسب اليه ، فالالفاظ المصرية والاصطلاحات التي كانت منتشرة في مصر آنذاك تنتشر لا في السيرة الحجازية ( المطبوعة في القاهرة ) وحدها ، وانما في السيرة الشامية كذلك ثم في السيرة العراقية ، الامر الذي جعل الدكتور فؤاد حسنين يقول : « ان وطن السيرة هو مصر » (١) . وهذه التعبيرات المصرية لم تنتشر في السيرة فحسب وانما وجدت كذلك في الشعر المنحول على عنتره (كما سبق ان بينا ) مما يعزز نص الاب لويس شيخو الذي ذكر فيه ان مؤلف السيرة هو الشيخ يوسف بن اسماعيل المصري الذي كان يتصل بباب العزيز بالله الفاطمي الذي حكم بين عامي ٣٦٥ و ٣٨٦ هـ ، وهو ثاني الخلفاء الفاطميين بعد المعز لدين الله الذي فتح مصر وانشأ فيها الدولة الشيعية .



ولكن كتب الادب والتاريخ لا تذكر لنا شيئاً عن يوسف بن اسماعيل هذا ، ولا تدرجه ضمن كتاب العزيز او تورد ما يؤيد علاقته به . فاذا تقدمنا مع نص الاب لويس شيخو وجدناه يقول بان سبب تأليف السيرة هو وقوع ريبة في قصر العزيز لهج الناس بها في المنازل والاسواق فشاء العزيز ان يشغلهم عنها فأشار على الشيخ يوسف ان يطرفهم بكتابة هذه القصة .

ولكن كتب التاريخ كذلك لا تحدثنا عن ريب حدثت في قصر العزيز ، بل انها على العكس من ذلك تصور لنا العزيز بالله باعتبار انه المدعم الحقيقي للدولة الفاطمية وان عصره كان قمة حكمهم ، فقبل ذلك كان ابوه - المعز لدين الله - يسعى لانشاء الدولة الفاطمية ويجاهد في ارساء دعائمها، وبعده جاء ابنه الحاكم بأمر الله الذي بدأ يميل بحكم الفاطميين نحو النهاية ، وهكذا كان عصر العزيز هو عصر القمة للدولة الفاطمية . يضاف الى هذا ان العزيز لم يكن من الخلفاء سكان القصور وطلاب المتع وانما قضى معظم سنى حياة حكمه في توسيع رقعة دولته وفي قمع حركات المناهضين له . ففي تلك الفترة التى لم تزد على العشرين عاما ضم العزيز بالله الى ملكه كلا من حمص وحماه وشيراز وحلب والموصل واليمن . (١) ، وفيها ايضا واجه ثورة القرامطة ثم ثورة افتكين التركى الذى كان قد استقل ببلاد الشام ، ومات العزيز وهو في حربه مع القرامطة (٢) . فاحتمال وقوع الريب في قصر مثل هذا الرجل احتمال بعيد بعض الشيء .

وسيرة عنتره ، لو انها وضعت حقا بأمر الخليفة لحظيت برعايته ولاحتفى بها الفاطميون ودعاتهم ولاخذوها وسيلة من سائل نشر مذهبهم وبسط سلطانهم وتأثيرهم على العامة

يقول الدكتور محمد كامل حسين : ان فن السير - وهو ذلك الفن الذى يعد من فنون التاريخ - كان له شأن كبير في الحياة الفكرية لمصر الاسلامية ، فابن الداية كتب سيرة احمد بن طولون وسيرة ابنه ابي الجيش ، وابن زولاق كتب سيرة الاخشيدي وسيرة ابنه وسيرة كافور وسيرة المعز لدين الله وسيرة العزيز . ثم حدثنا الدكتور محمد كامل حسين بعد ذلك عن سيرة جوهر الصقلى وسيرة المؤيد الشيرازى (٣) وجميع اصحاب هذه السير - كما نلمح من اسمائهم - ليسوا بمصريين، بل وربما ليسوا بعرب كذلك، ولكن وجود سيرهم يدل على ان عمل السير امر لم تكن تمنعه التعاليم الشيعية ولا يقف امامه الخلفاء

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى لحسن ابراهيم حسن ج ٣ ص ٢٥٧

(٢) السابق ج ٣ ص ٢٥٩

(٣) فى أدب مصر الفاطمية ص ١٢٣



الفاطيون وانما كان على العكس من ذلك وسيلة من وسائل تعريف الشعب بخلفائه الجدد وبكبار رجال دولته ، كما كان لونا من الوان دعايتهم المذهبية . فنحن نجد ابن النديم في كتابه الفهرست يعدد لابن مسعود العياشي — احد فقهاء الشعية — ما يقرب من المائتى كتاب ثم يضيف قائلا : «ومما صنفه من رواية العامة كتاب سيرة ابي بكر ، وسيرة عمر ، وكتاب سيرة عثمان ، وكتاب سيرة معاوية » (١) .

اذن فهذا هو المجال الذى يستطيع المصريون ان يفروا اليه هربا من وطأة الشيعيين وتضييقهم الخناق على تعاليمهم السنية ، وتعويضها عما يلقونه من عنت الفاطميين الذين اتوا اليهم من بلاد المغرب . فعلى منوال سير الخلفاء الاعاجم ورجال دولتهم الاجانب ، راح المؤلف المصرى المتفنن يضع سيرة من طرازها تحمل نفس المضامين التاريخية وتتفق معها فى المنهج البنائى العام وفى طريقة العرض ، وفيما عدا ذلك فانها تتجه اولا الى المشرق لتختار بطلها من هناك — ذلك البطل الذى هزم المغاربة وفتح بلاد شمال افريقيا ، وهو بعد ذلك ليس بملك ولا ابن ملك — ثم خلفاء الفاطميين الذين الهوا انفسهم واعتبروا سواد الشعب عبدا — وانما هو عبد حقيقى حطم قيود عبوديته وسار ليلذل بشجاعته اعلى ملوك الارض من فرس وروم واحباش وهنود .

وبسواء قصد مؤلف سيرة عنتره الى هذه الاهداف التعويضية التى حملها لها ضد الحاكم المستبد ، ام انها ظهرت دون قصد منه ، فالذى لاشك فيه هو ان السيرة كانت تحمل الراحة النفسية والرضى الوجدانى لذلك الشعب المفلوب على امره مما دفعه الى الاقبال عليها بحب وشفق . تغفل فى اعماق النفوس وتوائه الافراد جيلا بعد جيل حتى العصر الحديث » .

لهذا فاثنا نعتقد ان سيرة عنتره بن شداد كانت من اوائل السير الشعبية ، وانها وضعت فعلا فى اوائل العصر الفاطمى ، وربما ألفها يوسف بن اسماعيل — او غير يوسف بن اسماعيل — ولكن ليس بأمر الخليفة العزيز ولا لخدمة الفاطميين .

واختيار عنتره بطلا لهذه القصة الشعبية لم يكن مجرد اختيار عابر ، وانما كان اختيارا له اسبابه واهدافه ، وطبقا لاغراض سياسية واجتماعية ونفسية . ويضيف الدكتور فؤاد حسنين — الى ما سبق — سببا آخر اعم وهو ان هذه السير الشعبية « اريد من تأليفها تثقيف الشعب وتعليمه تاريخه القومى ليتبصر فى ثقافته ويتعصب لقوميته » (٢) .

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٧٧ .

(٢) قصصنا الشعبى ص ٤٤ .

وهذا القول لا يتعارض مع ما سبق أن ذهبنا إليه ولكنه أعم منه  
أذ يقصد به السير الشعبية على وجه العموم ومن بينها سيرة عنتره ،  
وهو بالنسبة لهذه السيرة أوضح مما في السير الأخرى .

لكل هذا فإننا نعتقد أن سيرة عنتره بن شداد قد وضعت فعلا  
بمصر في تلك الفترة من تاريخها التي وقعت فيها تحت سيطرة حكام  
من غير أهلها وفرضت عليها تعاليم ومذاهب تختلف عن تعاليمهم  
ومذاهبهم . وقد لقيت هذه السيرة كل الرواج لدى الشعب المتلقى في  
الوقت الذي لقيت فيه كل اعتراض وإهمال من المؤرخين والدارسين  
المرتبطين بالسلطات الحاكمة .

ولا يهمنا بعد ذلك أن كان مؤلفها هو الشيخ يوسف بن اسماعيل  
أو غير الشيخ يوسف ، وإنما الذي يهمنا هو تأكيد وحدة مؤلفها ، وأنها  
عمل روائي متكامل لكاتب متفنن وضعه تحت الحاجات انفعالات وجدانية  
معينة ولتحقيق أهداف بذاتها وطبقا لخطة منهجية موضوعة وسليمة  
من حيث البناء القصصي .

## الفصل الرابع

### مقدمة السيرة الحجازية

تفرد السيرة الحجازية بفصل طويل يصل الى حوالي السبعين صفحة ، وهذا الفصل يضم تمهيدا روائيا للقصة ، وهو تمهيد تبدو اصالته وأهميته بما يحمل من سمات عرفت عن الروايات العربية ، ذلك انه يحدد موقف بطل القصة - أو صاحب السيرة - من التيارات التي تتحكم في بيئته وعصره ودوره في هذه التيارات مما يخلق للبطل رسالة معينة لها سمة دينية وتبدو تفسيراً طبيعياً يقدمه مؤلف السيرة بين يدي هذه الرواية. ذلك انه يذكر ان المحدثين والمخبرين ذكروا امر العرب الشجعان في الجاهلية وما عكفوا عليه من عبادة للأصنام وتقديس للأوثان ، وما كرسوا حياتهم له من منافسة على الشهرة والنفوذ . . . « وكان كل منهم يريد أن يكون ما مثله أحد على وجه الأرض ، ويقهر شجعانها بالطول والمرض ، وكانوا لا يخافون الله ولا يراقبونه ولا يخشونه ولا يحترمونه » (١)

فهذا هو المهاد البيئي والاجتماعي الذي ظهر فيه عنصرة شجاعا لا يقل عن أي منهم شجاعة ان لم يزد ، يتحرك في اطار اسطوري يجعله سيفاً مسلطاً على أعناق هؤلاء الفرسان جميعاً ، وكأنها يتعمد الكاتب ان يخلق المواقف القصصية التي تجعله يلتقى بأشهر أبطال الجاهلية واعتاهم متجاوزاً في هذا كثيراً عن الترتيب الزمني والحققائق التاريخية ، وعنصرة دائماً منتصر ، وهو دائماً قاتل لخصمه .

وهنا يبدو بوضوح أهمية هذا المهاد الذي رسمه المؤلف لأته يحدد الهدف الذي من أجله يعيش عنصرة ، وينتصر عنصرة . يقول : « ولما أراد الله سبحانه وتعالى اهلاك أهل تجبروا وتكبروا أذلهم الله تعالى وقهرهم بأقل الأشياء عليه وأحقهم لديه ، وكان ذلك غير مسير عليه . وذلك بالعبد الموصوف بأنه حية بطن الواد ، الذكي الغواد ، الطيب الميلاد ، عنصرة بن شداد . الذي كان في زمانه شرارة خرجت من زناد ، فقمع الله به الجابرة في زمن الجاهلية ، حتى مهد الأرض قبل ظهور سيدنا محمد خير البرية . » (٢)

فعنصرة اذن فارس له دور بين أبطال الاسلام ، وهو فارس يضرب

(١) السيرة ص ٤

(٢) السيرة ص ٤ - ٥

بسياف الايمان ويحارب أعداء الله الكفار الذين افسدوا الجزيرة قبل الاسلام واصبح من المحتم أن يزولوا حتى لا يقفوا امام محمد عليه السلام حجر عثرة دون نشر الدعوة الاسلامية ، وفتح القلوب امام الدين الجديد .

وعنصرة بهذا فارس - وان كان جاهلى المولد والحياة - الا انه يمت بسبب كبير الى الاسلام . وحسبك من سبب أن يكون هو السيف الذى يمهّد الأرض قبل ظهور الدين الجديد .  
البطل فى هذه الرواية يتفق اذن مع أبطال العرب جميعا فى رواياتهم التى دونت فى العصور الاسلامية من ناحية الهدف . وهذه السمة لا بد أن تتوفر فى كل بطل اسلامى . ففى السير التى تشابه سيرة عنصرة نجد سيف بن ذى يزن مثلا يخرج من اليمن وقبل ظهور المرحلة التاريخية التى عاش فيها عنصرة بزمان طويل ليدافع عن الاسلام بمعناه المطلق ، وهو المعنى العربى الذى يربطه بدين ابراهيم الخليل بالحنيفية ذاتها . وكاتب سيرة سيف يوضح هذا بصراحة . فسيف يقتل كل مشرك وكافر يعترض طريقه ، ويعيد الناس بالسيف الى الاسلام . والظاهر بيبرس فى سيرة الظاهر يحارب الصليبيين وينصر دين الاسلام - وهو هنا دين الاسلام بمعناه الخاص - على الكفرة الذين يريدون بأرضه الشر .

بل اننا نلمح هذا فى السير التى عرفت من العرب قبل الاسلام ودونت فى عصور متأخرة . ولعل اوضحها فى هذا المعنى ما نراه فى الحكايات التى يرويها وهب بن منبه مثلا فى كتابه « التيجان » عن الصعب بن ذى مراد ذى القرنين الذى خرج ليقتل الكفار فى شرق الأرض ومغربها ، والذى اجتاح العالم بأسره بجيوشه حتى وصل الى أرض الشياطين وأرض الملائكة ، يقتل كل من كفر ، ويعيد الى الايمان بالله كل من صادف من بشر . يقول وهب : « فسارا ( أى ذو القرنين والخضر ) يريدان مطلع الشمس يدعوان الى الايمان ، ولا يأتیان على أمة الا آمنته أو هلكت ، حتى بلغا المحيط من عجز الأرض تحت بنات نعش ، فأصابا فيها أمما من بنى يافث بن حام وأوشابا من بنى سام ، فلم يزل يحملهم على الايمان ، فمن آمن نجا ، ومن صرف عن الحق حمّله على السيف » (١)

وتتكرر هذه الظاهرة فى جميع الشخصيات البطولية التى يعرفها الادب العربى . فلا بد أن يكون البطل دائما مدافعا عن حق ، وان يكون هذا الحق على علاقة بالدين وعنصرة ليس ملكا من ملوك الجاهلية الاولى

---

(١) التيجان ص ٩٧ ط حيدر اباد



حتى نقول انه كان يدافع عن دين الدولة ، كما أن عنتره ليس من قوم يصح أن يكونوا على علاقة بدين من أديان الجزيرة المعروفة حتى يرتبط اسمه بهذا الدين ، بل أن عنتره كان يعيش في الفترة التي سبقت الاسلام . وهي فترة برزت فيها صور الالحاد وعدم التمسك بالتقاليد الدينية الاولى والانصراف الى عبادة الأصنام مما يجعل من عنتره بطلا وثيقا لولا هذا الهدف الواضح الذي شاء مؤلف السيرة أن يربط به عنتره ربطا واضحا ليساير التقليد العام في الأبطال الأسطوريين من ناحية ، والعرف العربي العام الذي يريد من البطل دائما أن ينصر حقا ويهزم باطلا من ناحية أخرى ، بل وليساير الروح الاسلامية التي تملأ قلوب من يروى لهم هذه السيرة ويربط بين بطله وبين نفوسهم وقلوبهم برابط من التعاطف والود ، اذ يجعل من بطله مقدمة قوية لظهور الاسلام للبطولات التي تمت بعد ذلك وظهرت في الاسلام .

ومؤلف السيرة - بهذا التحديد - قد نفى عن بطله شبهة القسوة التي لا مبرر لها ، وشبهة العنف التي قد تجعله بغيضا الى قلوب المتلقين ، كما غطى بلباقة تلك العورة التي يحسها كل مسلم في بطل غير مسلم وهي أنه لم يعرف الاسلام . وصل المؤلف الى كل ذلك بأن وضع لبطله هدفا يساير جميع تلك العوامل ويتجاوب معها فتجد الأحداث بعد ذلك تجاوبا في قلوب الناس . ثم هو أيضا قد وجد لنفسه ما يبرر به الأعمال الخارقة التي كان عنتره يأتي بها ، ذلك أنه مؤيد بقوة خفية تفتح أمامه الطريق وتنصره في وقت اشتداد الازمة وتعيد اليه قوته الداهية اذا ما اشتدت المعركة ، وترمي بهيبته في قلوب أعدائه . تلك القوة الخفية الخارقة هي التي كرسته لهذه الغاية وجعلت منه « أقل الأشياء » التي قهر الله بها الكافرين وقمع الجبابرة في زمن الجاهلية « حتى مهد الأرض قبل ظهور سيدنا محمد خير البرية . »

وعنتره هنا يكتسب صفة ثانية من صفات البطل الأسطوري العربي وهي مساندة القوى الخفية . فمن الواضح أن أبطال العرب الأسطوريين امتازوا دائما - الى جوار مالهم من قوة بدنية - بمساندة قوى خيرة غير محدودة بما للقوى البشرية من حدود . فنحن نرى ذا القرنين تأتية الاخبار في أحلامه بما يفتح له آفاق الغد فيعلم منا يجب عليه أن يقوم به من أعمال ، وهو أيضا تقف الى جواره شخصية خالدة هي شخصية « الخضر » عليه السلام تشرح له ما غمض عليه من أمور وتؤيده بعلم غيبى يفهم كل شيء ويحيط بكل شيء . وسليمان الحكيم كذلك تؤيده - حسب رواية القرآن الكريم نفسه - قوى الجن والرياح وتسخر له الجمادات والحيوانات ، ويخضع له كل مخلوق - ظاهر ومستتر - على ظهر الأرض أو في باطنها . ونرى في قصة سيف بن ذي يزن صراعا بين قوى

الخير وقوى الشر يمتد - لايين بنى الانسان فحسب - بل بين الجن والخير والجن الشرير ، وبين اصحاب السحر والسكھانة من خيرين وشريرين . والخيرون بالطبع - فى كل هذه القوى - يؤيدون سيفا . اما بطلنا عنتره فالقوة التى تؤيده ليست بهذا الاغراق فى الغيبية، وانما هى قوى تتركز فى ظاهرة واحدة هى قدرته العجيبة على الاستمرار فى الحرب ليل نهار دون ماكلال أو ملال . فإذا أحس الكاتب أن المتلقى بدأ يعجب من صمود عنتره الطويل هذا قال - وكأنما هو يهمس فى أذنه - « وكان عنتره يتميز بهذه الظاهرة ، أيده بها الله سبحانه وتعالى ، وهى أنه كلما أوغل فى الحرب ازداد نشاطا وقوة بقدرة على مواصلة الحرب ، وكأنما هو لم يبذل فيها جهدا قبل هذا » . فعنتره إذن مؤيد بقوة غيبية تساعده وتساعده على تحقيق الغايات التى كرسه الله من أجلها وهى القضاء على الكافرين .

الا ان كاتب سيرة عنتره يصر على التمهيد لظهور بطله والحديث عن أهله وقبيلته قائلا : « ولكننا لا نذكرهم حتى نذكر حديث سيدنا ابراهيم عليه افضل الصلاة والتسليم ، وبعد ذلك نذكر الأصل والفرع ، ونصلى نحن وأنتم على صاحب السنة والشرع ، وما جرى له مع النمرود ابن كنعان لعنة الله وغضبه عليه ، وكيف أراد أن يلقي خليل الرحمن فى النار ، كيف جعلها الله عليه بردا وسلاما ، وكيف أهلك الله النمرود بأضعف الأشياء عليه . ونذكر حديث سيدنا اسماعيل ، على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام وأنتم الرضوان من الملك المنان . ونذكر من يتفرع من أهل العرب الشجعان ، وما تفرع غيرها من قبائل العرب . وبعد ذلك نذكر كل قبيلة وعربها وفرسانها وشجعانها وماتم لهم فى زمن الجاهلية من القيل والقال » . (١)

ومؤلف السيرة فى هذا إنما يرفع نسب بطله الى ابراهيم ، ويشير إشارة ضمنية الى أن مايجرى لعنتره من أحداث إنما هو امتداد لما جرى لابراهيم ، وهو يختار من حياة ابراهيم موقفا بذاته يقف عنده وقفة طويلة ذلك هو موقفه من النمرود بن كنعان كأنما ليجسد موقف الأبطال من قوى الشر والكفر . وهو أيضا يربط - من حيث النسب - بين عنتره والقبائل التى سبقتة الى اسماعيل ثم الى ابراهيم . وتحديد النسب للبطل عامل من أخطر العوامل بالنسبة للبطل الاسطورى العربى ومؤلف سيرة عنتره يذكر نسب بنى عيسى بذكره لنسب ملكها فيقول : « وكان اسمه زهير بن جديمة بن رواحة بن يعقوب بن عيسى بن ذبيان بن قيس بن خزاعة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . » وشداد أبو عنتره

واحد من هذه القبيلة . وهذه القبيلة التي تنتهى بنسبها عند عدنان واحدة من قبائل العرب التي ترتبط بهذا النسب ثم ترفعه الى اسماعيل ومنه الى ابراهيم فعنتره بهذا اذن عربى يتصل نسبه بأبى العرب اسماعيل وبالنبي العربى الاول ابراهيم .

واذا كان من سمات البطل العربى الأسطورى أن يدافع عن رسالة ويرفع شعله حق ، واذا كان من سمات البطل العربى أن تؤيده قوة خفية — وهى لابد أن تكون قوة خيرة — ، فإن من سمات البطل العربى كذلك أن يكون عربى النسب واضح الأبوة أبا عن أب حتى ابراهيم . وربما كان ذلك لان العرب شغفوا بتحديد أنسابهم وأقاموا علما كاملا يحفظ لهم ذلك هو علم الانساب الذى كان من اوائل العلوم التى ظهرت فى بداية الاهتمام بالرواية فى صدر الاسلام ، ومن أشهر من ألف فيه زياد بن أبيه والنسابة البكرى . ومؤلف السيرة يحس منذ البداية بأن بطله المهجن الام ، الاسود الوجه ، يقف عند هذه النقطة موقفا ضعيفا . ولهذا نراه يحاول منذ اللحظة الأولى أن يعالج هذه المشكلة بل انه يجعلها لا تغيب عن باله فى كل فصل من فصول روايته الطويلة .

ففى مطلع السيرة نراه يدمج نسب عنتره فى نسب قبيلته ، ثم يدمج نسب قبيلته فى نسب ملكها ، ثم يرفع هذا النسب فى سلسلة تصل به الى غايته . فاذا ماكانت أحداث الفصول الأولى احسننا مدى الجهد الذى يبذله المؤلف ليبرز هذا الجانب من الصراع فى شخصية عنتره ، ولا يقدمه لنا بطلا أسطوريا خارق الافعال الا بعد أن ينتهى روائيا من اقرار هذه النقطة والوصول بها الى الحل المنشود . فعنتره فى الأجزاء الأولى من السيرة يصارع صراعا مريرا فى سبيل اتصال نسبه بأبيه . وهو — حتى يحقق هذه الغاية — ليس الا فارسا عاثر الحظ يحاول أن يتغلب على ما يواجهه من مشكلات النسب ومشكلات اللون فهو فى هذه المرحلة ذاتى الصراع . فاذا ماتغلب على تلك المشكلات وحظى بصحة النسب ، استطاع الكاتب بعد ذلك أن يبدأ فى تقديمه لنا بطلا أسطوريا يحقق لقبيلته ولقومه وللعرب جميعا انتصارات باهرة ، ويخرج ليؤدى النهاية التى رسمها له المؤلف وهى أن يزيل الجبابرة والكفار من طريق الرسالة المحمدية .

عنتره اذن عربى النسب ، ونسبه يرتفع فى وضوح الى جد العرب جميعا ابراهيم وقد يكون فى هذا شرف يكفى البطل ، ولكن المؤلف يحس بأن هناك نقطة تحتاج هى الأخرى الى حل قبل أن يصل ببطله الى المكانة الأسطورية . تلك النقطة هى أمه زبيبة الجارية الحبشية . ويرجى المؤلف الحديث عن هذه النقطة ، ويظل منها على وجل ، حتى ينتهز فرصة المعارك بين عنتره والاحباش ليكشف لنا عن مفاجاته الكبرى



وهى أن زبيبة كانت ابنة ملك الاحباش . وبذلك يتصل نسب عنتره الى حام كما اتصل من قبل حتى سام ، ويصبح عنتره شريف النسب عالياً من ناحية أبيه الذى يتصل نسبه واضحا الى ابراهيم ومنه الى آدم ، وشريف النسب عالياً من ناحية امه كذلك وهى التى كانت مطعنا يوجه اليه - بعد أن أوصلها المؤلف فى حذق بأعلى رأس فى السود - فلن يضير عنتره أن يكون سبطا لملك الاحباش كما كان يضيره أن يكون ابن أمة سوداء مجهولة النسب .

بهذا تغلب مؤلف السيرة على كل ما قد يقف حائلا دون اكمال الشرط الثالث من سمات البطل الروائى العربى وهو شرط اتصال النسب ورفعته . وبعد ذلك يستطيع أن يقدم لنا فارسه - الذى تحققت له سمات البطل العربى الأصيل - ويجعل منه نموذجا للفارس العربى .

والواقع أن ما تكلفه المؤلف فى هذه المقدمة التى تنفرد بها الطبعة الحجازية من السيرة إنما يحقق للبطل كل هذه السمات ، ويمهد لظهوره تمهيدا طبيعيا من الناحية الروائية . فيبدأ بذكر معارك الايمان ضد مظاهر العسف والكفر والطغيان منذ آدم ، ويحكى لنا قصة ابراهيم مع النمرود بن كنعان بادئا بذكر آباء النمرود الذى هو من اولاد « كوش ابن حام » الذين تتمثل فيهم صفات التجبر والطغيان . فاخو كوش - زاغور - جبار لا يطيعه أحد ، وكوش نفسه أشد قوة وتجبرا ، يسىء ويخرب ويقتل وينهب بل انه ليخادع كذلك .

وهذه السمات لا توضع هكذا عبثا ، وإنما يحدد بها المؤلف - بطريقة تقريرية مرة ، وخلال أحداث روائية مرة أخرى - مواقف الامم حول العرب وسماتهم ليبين فضل العرب عليهم وهو الفضل الذى يؤكد عنتره بحروب الكثرة التى يهزم فيها الاحباش مرة والفرس مرة والروم مرة ، ويجعل من سمات الفارس العربى سمات لا مثيل لها ، هى جماع الفضائل ، وهى فى الوقت ذاته المثل الأعلى ... يقول مؤلف السيرة : « وكان الملك فى اولاد سام ، والتجبر فى اولاد حام ، والفتوة والنبوة فى اولاد يافث . » (١) ويقسم الكتاب بعد ذلك الامم الى أماكنهم محددا بهذا قيمة العرب ومكانهم ، كما يحدد لهم أيضا موقفا نفسيا معيناً من الامم الاخرى يجعلنا نتقبل انتصارات عنتره بتجاوب نفسى قد مهد له المؤلف بما أثبتته فى هذه المقدمة من سمات للعرب لا يجاريهم فيها غيرهم من الامم .

والمؤلف يقص علينا قصة ابراهيم والنمرود كاملة . فبعد أن أفرد



تصلا كاملا عن بعثة ابراهيم وماجرى له من أحداث ، قدم لنا صورة روائية رائعة لحكايته مع النمرود ، ولتلك الحروب التي ثارت بين جيوشهما ، وكيف صنع ابليس المنجنيق للنمرود ، وكيف قطع الله نسل البغال لأنها كانت تحمل الحطب للنار التي أوقدوها لحرق ابراهيم ، ثم يمضى المؤلف مع ابراهيم في رحلته الى الشام ثم الى مصر ثم الى الحجاز ، ويروى كيف تزوج ابراهيم من هاجر القبطية - ولعله يقصد المصرية - ثم يحكى لنا قصة هاجر وابنها اسماعيل في أرض الحجاز ، وكيف أيد أهل اليمن اسماعيل حتى غدا أبا العرب ، ثم قصة ذبح اسماعيل وكيف افتداه الله ، ويذكر بعد ذلك زواج اسماعيل وتملكه على تلك البلاد ... وكان من أولاد اسماعيل « قيدار » فيحكى المؤلف ماجرى له مع يعقوب بن اسحق - وهو ابن عمه - ثم يحكى كيف تزوج قيدار وظل يتعاقب نسله الى زمان معد بن عدنان ، ورزق معد ولدا فسماه نزار ، ورزق نزار أربعة أولاد فكانوا أبادا وربيعة ومضر وانمار .

والجزء الاول من هذه القصة - وهو مايتعلق بموقف ابراهيم والنمرود ثم بحكاية ابراهيم مع هاجر - يغلب عليه سمة المصادر اليهودية . فاذا تقدمنا قليلا فان تلك الأجزاء من حكاية اسماعيل وفدائه تكاد تكون تفسيرا لآى من القرآن الكريم . وعندما ينتقل الى الحديث عن الجزيرة العربية نراه يميل الى نصفة اليمينيين ، ثم هو يفرق في أولاد اسماعيل بين اسحق - والد يعقوب ومن تلاه من بنى اسرائيل - وبين قيدار وولده نزار جد النبی عليه الصلاة والسلام .

هذه الرغبة الملحة في القصص عن الأنبياء وعن الجزيرة العربية قبل الوصول الى سيرة بطل الرواية انما هي تحديد لاماكن الابطال الذين سيأتى ذكرهم بعد ، وهى أيضا تمهيد لظهور الاسلام الذى يريد المؤلف أن يجعل من عنتره حاميا من حماته وممهدا لظهوره وليس من عجب أن تروى هذه الأجزاء كلها عن « وهب بن منبه » . فمعروف أن وهب

يعتبر من أقدم رواة سير الأنبياء في الجزيرة العربية كما يعتبر من أمهر رواة القصص . وهب من أصل يهودى ، وهو أيضا يمنى ، ومن هنا جاءت التأثيرات اليهودية كما جاءت التأثيرات اليمنية . وهب من رواة المغازى بعد الاسلام ، فهو اذن اسلامى الثقافة الى حد ما ، ومن هنا بدت بعض اجزاء روايته وكأنها تفسير لآى القرآن حول هاجر والبيت الحرام وقصة الفداء.

وليس من شك في أن التفسيرات الاسطورية التى يقدمها الكتاب لهذه القصة - قصة ابراهيم - تحمل من الخصب والاصالة مايجعلنا نشك في ان كاتب السيرة قد نقلها نقلا عن وهب من بعض كتبه التى لم تصل

الينا ، خاصة وانه يردد بين فقرة واخرى الاحبار ، وكعب الاحبار من اشهر رواة القصص الجاهلي .

مؤلف السيرة فرق اذن بين اولاد نوح ووضع لكل منهم سمة من السمات ، ثم استمر بعد ذلك حتى فرق بين اولاد ابراهيم بن سام فجعل قيذار من ناحية وجعل اسحق في ناحية . ثم استمر بعد ذلك ايضا ليفرق بين اولاد قيذار حينما يصل منهم الى نزار فيجعل اولاد نزار اربعة هم : اياد وربيعة ومضر وانمار وكلهم اولاد نزار بن معد ابن عدنان .

والمؤلف في هذه الوقفة يحاول أن يقسم الاصول العربية التي تكون الشعب العربي الى سمات اربع . فحين تأتي الوفاة نزارا يجمع اولاده ويوصيهم بأن يفضوا رقعة معينة تحوى وصيته بعد موته وان يعملوا بما جاء فيها ، فاذا ما اختلفوا فليقض بينهم الملك الافعى بن الجرهمي . فلما مات وفتحوا الرقعة وجدوا مكتوبا فيها أن الخيل والسيوف والرماح وآلة الحرب والكفاح لا ياد ، أما الغنم والجمال والابقار فهي لانمار ، والخيل الشقر والغباب الحمر اربعة ، بينما النعم والعبيد والاماء فلمضر . واختلفوا فقصدوا الى الأفعى ليحكم بينهم ، واذا بهم في الطريق يقفون موقفا قصصيا يريد منه المؤلف أن يكشف لنا عن سمات أخرى تفرقهم . . . يكشف عنها هذه المرة ببيان ملكاتهم . أما الحادثة فهي أنهم وجدوا اثر بعير كأنه شارد والى ناحية الماء الذي بين أيديهم وارد (١) فقال ربيعة : ان الجمل أهوج . وقال مضر : وأنا أقول أنه أعور . فقال انمار : وأنا أقول انه أزور . وقال اياد : وأنا أقول انه أبطر . وحين يصل اليهم صاحب البعير يحكون له صفاته فيتهمهم بسرقة ، ويسرون جميعا الى الأفعى الجرهمي ليحكم بينهم .

فاذا منا وصل اولاد نزار بن معد الى الملك الأفعى ادخلهم الى دار الضيافة وأحضر لهم الطعام خروفا مشويا وخبزا أبيض وخمرا وبعد أن اكلوا ودارت الخمر برءوسهم قال ربيعة : ما أطيب لحم هذا الخروف لولا أنه رضع من كلبة . وقال مضر : ما أطيب هذا الخمر لولا أن كرمه مفروس بجانب جيانة . وقال اياد : ما أطيب هذا الخبز لولا أن عاجنته كانت حائضا . وقال انمار : ان صاحب هذا الزاد ينسب الى غير أبيه .

وسمعت جارية مادار بينهم من حديث ونقلته الى الملك فغضب وأحضرهم ومعهم صاحب الجمل . وحكى له الاعرابي قصة جملة الذي تاه وعرفه بصفاته هؤلاء الاخوة ، وحين سألهم كيف عرفوه برروا له هذا الذي وصفوه تبريرا يكشف عن مواهب كل منهم . أما من قال عنه أنه أعور فقد لاحظ أن البعير أكل النبات من جهة واحدة ، ومن قال أنه

(١) السيرة مجلد ١ ص ٥٤

أزور أى مخلوع الحنك — فقد لاحظ أن مكان أكله متعفش ، أما من قال عنه أنه أهوج فقد لاحظ أن مشيه ليس مستقيماً ، أما من قال أنه أبتز فقد لاحظ أن روثه كتل والجمل ذو الذنب يفرق روثه بذيبه . . وهكذا انتهت القصة الأولى وخرج الرجل صاحب الجمل بينما بدأ الأفعى يسألهم عما قالوه عن طعامه . وقد أثبتت إجاباتهم جميعاً دقة ملاحظتهم وعرف الملك الأفعى أنهم صدقوه في استنتاجاتهم وحكم بينهم بأن يرضوا بما قسم أبوهم . وبهذا أكد المؤلف ما أراد أن يؤكد من سمات للعرب جميعاً وهى سمات الذكاء ودقة الملاحظة وسرعة البديهة ، كما أوضح ما بين هذه الأصول العربية من فروق .

ثم أفرد المؤلف بعد ذلك الحديث عن مضر ، وخص بالذكر ربعة ومنها ذلك الحى الذى منه عبس وهو غطفان — أكبر أحياء ربعة . وخص من أولاد مضر بنى عبس ، فبدأ يذكر ملكهم الأكبر جديمة وما استطاع أن يحققه من مال وقوة وبأس ، وراح يرسم لنا صورة قصصية لمصر ذلك الملك وما امتلأ به من حروب أدت في نهاية الأمر الى مصرعه على يد الملك الرباب . ثم تولى من بعده ابنه عمرو ، فابنه زهير . وكأنما يحكى المؤلف سلسلة تاريخ بنى عبس متبعا في هذا التاريخ أخبار ملوكهم من خلال أخطر الحوادث التى مرت بحياتهم ورأسما في نفس الوقت صورة كاملة لما تحلى به ملوك عبس من شجاعة وقوة ، وما اتصف به فرسانهم من جلد على القتال ومهارة فيه . فإذا ما وقف المؤلف عند زهير فهو يشير الى ماوصل اليه من عز وسؤدد وذلك بمحاولته أن يبنى بيتا الى جوار الكعبة ، ومانهاه الناس عن ذلك الا لخوفهم ان يلقى جزاء بغيه اذ ينافس بيت الله الحرام .

والمؤلف بهذه الإشارة يدل على ما كان لزهير من مكانة كبيرة في الجزيرة العربية . ثم يمضى يرسم لنا حياة زهير وما امتلأت به من مظاهر القوة والدهاء ذاكرة قصته مع زوجته تماضر التى امتلأت هى الأخرى بفنون المكر والخداع والحيل ، وكأنه هو يريد أن يضيف الى أمجاد زهير الحربية أمجادا أخرى في أصالة الراى وحسن التدبير .

ويذكر المؤلف أصول هذه القبيلة وهم : بنو عبس ، بنو زهير ، وبنو قراد ، وبنو زياد . وهو يعنى بالأصول هنا أكثر من عنايته ببطون القبيلة . فإذا ما ركز اهتماماته بعد ذلك على بنى عبس ويرسم لنا صورة كاملة لها ولسماتها ، ركز الحديث على بنى قراد ومنهم شداد وأخوه مالك وأخوه زخمة الجواد ، وما ذلك الا لأن الأمير شداد هو أبو فارسه وبطل روايته عنتره .

فالتسلسل الروائى اذن عند الكاتب سليم ومنطقتى ومعقول ، وهو لا يبدأ بحديثه عن عنتره قبل أن يربط فارسه بسلسلة كاملة من الامجاد



الحربية تبدأ بأبيه شداد بن قراد وتشمل بنى عيس وتتصل بمضر وإنزار ومنه إلى قيذار ثم إلى اسماعيل فأبراهيم . وهو لا يكتفى بمجرد التقرير ، وإنما يرسم صورة قصصية كاملة تحمل السمات الاجتماعية والذاتية للمكان والناس جميعاً ، والكاتب لا يغفل في حديثه عن أولاد نزار التقسيم الجغرافي أيضاً ، فمضر له مكان أبيه ، وربيعه له أرض العراق ، وأباد له ملك اليمن ، أما أنمار فله أرض الشام . . . » وسميت عرب ربيعة الفرس لأجل حسن حالهم وملبوسهم ، وعرب أباد قحطان ، وعرب الشام بنى غسلان ، وعرب الحجاز بنى عدنان (١) فكان عرب الحجاز - وهم المضريون - هم الذين خصوا باسم بنى عدنان الذي هو جد أبيهم نزار . ومن مصر هؤلاء - لا من غيرهم - كان بنو عيس .

وإذا كانت السيرة الشامية - ومثلها السيرة العراقية - لا تعنى بهذا الجزء ، إذ أنها تبدأ بتسليط الضوء على شداد مباشرة ، فكان السيرة الحجازية بذكرها له قد حققت - من الناحية الروائية - عدة أهداف هي :

١ - رفع نسب صاحب السيرة إلى الجد الأكبر للعرب .

٢ - ربط كفاح صاحب السيرة - من حيث الهدف والغاية - بأشرف ما يذكر من كفاح أجداده الذين لا يذكرون في كتب السيرة والأخبار إلا بكفاح له علاقة بالدين ، وبذلك فهو يحقق لهذه السيرة الهدف الديني المنشود .

٣ - استطاع الكاتب أن يرسم لنا صورة قبيلة بطله في إطار يبين مكانها من العالم العربي آنذاك ، بل ومكانها من العالم المعروف حول الجزيرة العربية ، بما يحمل هذا المكان من علاقات هي الود حيناً ، وهي العداة أحياناً ، وهي صلات النسب والقربى للجد الأعلى في حالة ، وهي صلات العداة والقطيعة منذ التاريخ الأول في بعض الأحيان .

من كل ذلك يمكننا القول بأن هذا الجزء الأول من السيرة ليس إضافة وإنما هو أصل أغفل من السيرة الشامية لسبب أو لآخر ، ولكنه يغير شك موجود في العمل الأصلي لأنه أقرب إلى طبيعة الروايات العربية التي تحب دائماً أن تبدأ كل سيرة بخلق العالم - إن أمكن - أو بأقرب الأحداث ارتباطاً بها إن تعذر البدء منذ خلق العالم .

وقد جمعت هذه المقدمة كل السمات المميزة للرواية العربية مما يدل على أن لكاتبها المامة واضحة بهذا الفن وبتاريخ الكتابة الروائية العربية ، وإن له صلة وثيقة بتلك الروايات - قديمها واسلامها -

(١) السيرة مجلد ١ ص ٤



ومعاصرها - ، فرجوعه الى وهب بن منبه ، ورجوعه الى كعب الاحبار  
والى عبد الله بن عباس ، بل ونسبته الكتاب الى الاصمعي ، كل ذلك  
فيه من الدلالات ما يجعلنا نقطع بانه قد اطلع على اعمال وهب وعلى  
اعمال ابن اسحق واعمال غيرهم من الروائيين العرب .

وهب يبدأ كتابه « التيجان » ( وهو الكتاب الوحيد المحقق  
والمطبوع له ) بداية مشابهة ، فهو يبدأ منذ خلق العالم وخلق الارض  
والسماء ثم خلق آدم . وعن وهب - وعلى منواله - سارت فئة كبيرة  
من الكتاب مثل الثعلبي ( صاحب كتاب قصص الانبياء المسمى بالعرائس )  
اذ يبدأ ايضا بخلق الارض من الماء معتمدا في رواياته على وهب بن منبه  
وعلى غيره . اما ابن اسحق فيبدأ السيرة النبوية من مكان شبيه وقريب  
من هذا ، اذ يبدأ بذكر النسب ابتداء من آدم ، ويتسلسل في هذا النسب  
حتى يصل الى النسب القريب ، ثم يبدأ بعد ذلك في الحديث عن  
عدنان وما تفرق من القبائل من ولده .

وهذا الافراق في الابتعاد ببدء القصة او السيرة تقليد اخذه  
مؤلف سيرة عنترة عن الكتاب القدماء امثال وهب بن منبه وابن اسحق  
 وغيرهم . وربما اغفلت السيرة الشامية هذا الجزء من الكتاب لانه  
تكرر - ويتكرر - في كثير من الاعمال المشابهة . وربما دخل عامل  
الحذف فحسب عند النقل ، او ربما كان لهذا اسباب اخرى تتعلق  
اما بالنسخ واما بعقلية المتلقين ، او ضاعهم الاجتماعية ، الا انه من  
المؤكد ان هذا الجزء يدخل في صميم السيرة وليس مضافا اليها  
ولا هو فضول وزيادات .



# الباب الثالث

حول الشيرة العنصرية





# الفصل الاول

## مكان السيرة العنترية

كلمة سيرة تطلق في تراثنا على اعمال كثيرة تتفاوت من حيث دلالاتها الاجتماعية ، كما تتفاوت من حيث لفتها التي تصل الى العربية الفصيحة مرة ، والى العامية مرات ، ثم هي مزيج منهما في كثير من الاحيان . غير انها جميعا تتفق في مظهر هام يعكس قيمتها كعمل فنى . هذا الالتقاء هو شعبية التلقى الذى جعل من تلك الاعمال - التى سميت سيرا - متعة شعبية يحظى بها غير القارئ من طريق المنشد او الشاعر ، كما يحظى بها القارئون عن طريق نسخها المختلفة التى تدون وتطبع أكثر من مكان .

وبالتعريف العلمى المعاصر لكلمة « سيرة » يحدد مكانها بين التاريخ والادب . فهى تاريخ من حيث تناولها لحياة فرد له اهميته كدوره للاحداث فى عصره ، او جملة لعبت فى تاريخ الشعب او الانسانية ذورا ذا اثر . وهى ادب من حيث كونها تحمل انطباعات مؤلفها وتتلون بثقافته ووضع الاجتماعى وموقفه من الحياة . اى انها ليست عملا علميا تاريخيا يعتمد على الوثائق الثابتة القيمة المحققة الوجود ، ثم ينهج الى مناقشتها ومقابلتها ببعضها لاستخلاص الحقائق المجردة التى لا تهم من الناس الا اصحاب العلم والدراسة العاملين فى نفس الميدان ، بل هى قد لا تعنى على الاطلاق بهذا التمهيج والمناقشة ، وقد تختار اضعف الاقوال بما يتفق دن غيره مع موقف المؤلف ووجهة نظره وهذا يؤكد ذاتية السيرة كعمل ، وليست الذاتية من العلم فى شئ وانما هى الى الادب اقرب وبه الصق .

وحين نحدد السيرة بهذا المفهوم نجد اننا لا نبتعد كثيرا عما تحت ايدينا من سير اسميناها « السيرة الشعبية » وتقف على قيمتها سيرة عنترية . ويمكننا بالتالى ان نقول ان شاعرنا الشعبى ومتلقينا الشعبى وقد اسميا هذه الاعمال بالسيرة لم يخطئا فى كثير او قليل .

فسيرة عنترية بن شداد ليست ثبنا تاريخيا لاحداث حياة الفارس

الشاعر العربي عنتره بن شداد وليست تتبعنا لمراحل حياته المختلفة ذلك التتبع المبني على الوثائق التاريخية ولا الاحداث التي ثبتت صحتها فحسب ، كما ان هذه السيرة ليست تتبعنا لحياة بنى عبس - قبيلة عنتره - وحدها وبنفس الطريقة التي يهمها تحديد المنازل التي نزلت بها جغرافيا ، وتحديد الشخصيات التي لمعت فيها تاريخيا . وعنتره بن شداد - شاعر المعلقة - لم يلعب في تاريخ الجزيرة العربية ولا في تاريخ الامة العربية ذات الدور الهام الخطير الذي يجعله اجدر من غيره من اصحاب السيف او اصحاب القصيد الذين عاصروه او الذين تشابهوا معه في الظروف التاريخية بحيث ينفرد وحده بهذه السيرة بينما لا يحظى الآخرون الا بمنتف من الاخبار متناثرة في كتب الادب والتاريخ ، وكذلك قبيلة عبس ليست هي الاخرى بدعا بين القبائل ، وليست اهم مثلا من قبيلة قريش التي شع منها نور النبوة ، لتنفرد اوحدها بمثل هذه السيرة .

فسيرة عنتره اذن - وربما مثيلاتها من السير - ليست اعمالا تاريخية يقصد منها وجه التاريخ وحده ، وانما هي سير بالمدلول العلمي المعاصر . هذا ما تثبته النظرة الاولى . ولكن .. اصحيح ان سيرة عنتره - او سيرة الظاهر بيبرس ، او سيرة سيف بن ذي يزن او سيرة ذات الهمة تشابهه من حيث المنهج وطريقة التأليف تلك الاعمال التي اطلق النقاد المعاصرون عليها اسم « السيرة » ؟

حقيقة الامر ان هناك نقاط التقاء وهناك مجالات للفرقة . ويوم اطلق كاتبو هذه السيرة الشعبية - ومتلقوها - اسم السيرة عليها لم يكونوا يعرفون المفهوم العلمي الحديث لهذا المصطلح ، بل ان اصحاب هذا التفسير العلمي الحديث لم يكن ادبهم قد بدأ بعد ، ومع هذا فنحن نناقش هذه القضية على الرغم مما قد يبدو فيها من اعتساف اذ ان تطبيق المدلول المعاصر على اعمال لها ظروفها التاريخية، ولها تنقائيتها الفنية ، امر لا شك فيه من القصر والتعسف قدر كبير .

بيد ان سيرنا الشعبية هذه تتفق مع المصطلح الحديث في انها تحوى حديثا عن شخص او عن جماعة عرفهم التاريخ فعلا وقاموا فيه بدور ما - ان لم يكن ظاهرا عند المؤرخ صاحب النظرة العلمية ، فهو واضح تمام الوضوح عند منشيء السيرة الذي ربما كرس حياته من اجلها ، وعند متلقى السيرة الذي احتفى بها كل الاحتفاء - كما ان العنصر الذاتي فيها واضح تمام الوضوح فنحن نلمح كاتبها يختارون مما عرف من احداث التاريخ ما يعضد القضية التي يتبنونها دون النظر او المفاضلة او المناقشة . فالاختيار هنا اختيار المتفنن لا اختيار الدارس

من هنا كان اللقاء ، وبعد ذلك يأتى الخلاف . فالسير الشعبية لا تكتفى بالاحداث التاريخية كاساس للحديث عن صاحب السيرة وقومه بل هى تتجاوز الحقائق التاريخية الى خلق المواقف والاحداث وتخيل مجالات الحركة لصاحب السيرة ودفعه فيها ليؤثر التأثير المطلوب الذى قد لا تنتجه الاحداث التاريخية الثابتة .

وهناك ما هو اكثر من هذا .. اذ قد يدخل كاتب السيرة من الشخصيات ما لم يعرفه التاريخ ويجعل لها من الادوار ذات الاهمية ما يؤثر فى سير الاحداث . وهو فى بعض السير لا يكتفى بالشخصيات البشرية التى تسير تصرفاتها ضمن الاطار الانسانى المعقول ، بل جعل لشخصياته مظهرا لقوة ما فوق البشرية بحيث يرسم صورة الانسان الاعلى الذى لم يتحقق فى التاريخ حتى الآن والذى تتسم تصرفاته واعماله باللامعقولية والمبالغة والافراط فى الخيال . وقد يتجاوز المؤلف ذلك الى رسم شخصيات لا تمت الى البشرية بصلة كأصحاب الخوارق فى سيرة الظاهر بيبرس ، وملوك الجان اصحاب القدرة على الحركة والتشكل وايمان الخوارق فى سيرة سيف بن ذى يزن ، ثم الكهان اصحاب السحر والغيلان من المزيج المشوه والمسح بين البشرية وخوارق الطبيعة كما فى سيرة عنتره .

هذا كله يجعل السير الشعبية تخرج عن المعنى العلمى الاصطلاحي المعروف لكلمة « سيرة » الى ما يقترب تدريجيا نحو اصطلاح حديث آخر هو اصطلاح « الرواية » . فالرواية عمل يجمع بين ذاتية الفنان وبين موضوعية التناول اكثر مما يجمع اى عامل آخر من الاعمال الفنية ، والرواية تقدم على احداث وشخصيات لها امتداداتها فى التاريخ سواء أعاصر او بعد ، ولها فى نفس الوقت حرية الذات المنشئة فى الاختيار مما عرف من احداث تاريخية ، وفى رسم الشخصيات لا لتطابق التاريخ وانما لتطابق مفهوم الروائي واراداته ، كما انها تخضع خضوعا تاما لرغبة صاحبها فى ربط الاحداث بالشخصيات ربطا يتمشى مع منطق الحياة البشرية ان شاء ، او يفوق هذا المنطق ويخرج عليه ان اراد .

فمن ناحية الشكل اذن تصبح هذه الاعمال اقرب الى الروايات منها الى السير اذا ما حاولنا ان نطبق المضامين العصرية لهذه الاصطلاحات . والادب المعاصر قد عرف العمل الروائى وقسمه الى ثلاثة اقسام هى : رواية تاريخية - ورواية خرافية - ورواية واقعية .  
أفالأولى هى الرواية التى تستمد احداثها من شخصيات تاريخية دون التزام ما بالتاريخ نفسه . والثانية روايات تستمد وجودها من افتراضات يتخيلها المؤلف كرحلة الى القمر ومواقف من اهل هذا



العمر او وصف بيئته ، او لرحله الى باطن الارض مع حيوانات خرافية يتخيلها الكاتب . او هي ان لم تفرط هذا الافراط فانها تتحدث عن انسان بشرى يأتى بالخوارق فى المناطق البدائية من العالم ويحقق فكرة الانسان الاعلى . اما الثالثة فهي تلك الروايات التى تستمد احداثها من المعقولية والمطابقة لمنطق الحياة والتعرض لمجتمع الكاتب نفسه بالنقد والمناقشة والوصف والتحليل .

وان كانت سيرة كسيرة الظاهر بيبرس تجمع بين النوعين الثانى والثالث من هذه الروايات ، كما تعيش سيرة كسيرة سيف بن ذى يزن فى اطار النوع الثانى وحده ، فان سيرة عنتره بن شداد تجمع بين النوع الاول والنوع الثانى معا .

ونحن نلمح ان النوع الثانى من هذه الروايات - اى الرواية الخيالية ذات الاحداث الخارقة - يكاد يكون هو القاسم المشترك الاعظم فى جميع انواع هذه السير ، الامر الذى يدفعنا الى مناقشة هذه السير من وجهة النظر الروائية طبقا لاصطلاحها الحديث .

الذين يخرجون هذه السير من اطار الرواية يعتمدون على مفهوم ضيق لمعنى الرواية ويضعون امامهم نماذج معينة للاعمال الروائية الكبيرة ويطلبون تطبيقها على ما هم بصدد تطبيقها حرفيا . فحين يفعلون ذلك تخرج السير الشعبية من خضوعها لهذا المصطلح - كما يخرج معها كثير من الاعمال الادبية الاخرى - فهم يشترطون فى الرواية التاريخية شروطا تتجاوزها هذه السير ، اذ نلاحظ دائما انها لا تتجاوز التاريخ فحسب وانما تعتمد اعتمادا كبيرا على الخيال المفرق . ولهذا السبب ابعدها عن حظيرة الرواية .

وقد فضل البعض تسميتها باسم « الاسطورة » ، كما اطلق عليها البعض الآخر اسم « ملاحم » . فهل هذه السير الشعبية اساطير ، او هي ملاحم ؟

يقول العلامة « جريميه » : « ان قصصنا الشعبى عبارة - فى الواقع - عن بقايا الاساطير والملاحم التى سادت فى العصور القديمة جدا ، وان كانت قد اهملتها الطبقات الخاصة الا ان العامة احتفظت بها بعد ان كيفتها ببيئتها الجديدة ... »

ولكن هذا الكلام يجب الا يؤخذ بنصه على تلك السير التى تحت ايدينا لانها ليست بقايا واشتات متفرقة تعيش فى اذهان الناس وينقلونها محرفة البطل احيانا ، ومحرفة الاحداث احيانا ، ومحرفة المدلول احيانا اخرى - كما نشهد فى حكايات جحا واشعب مثلا - وانما



هى اعمال متكاملة نستطيع ان نقول انها اعتمدت على القصص الشعبى بعض الاعتماد واقامت عليه اعمالا روائية كبيرة تخرج من حيز الاساطير الى حيز آخر نحاول ان نحدده .

والواقع ان الاساطير تحقق ذلك الارتباط بين البطل الاسطورى وبين الالهة والكائنات ذات القوة الخارقة . . « فنحن نجد بطل الاساطير يتعامل مع كائنات غريبة هى مزيج من الالهية والانسانية والحيوانية فى وقت واحد ، بل نجده يتعامل مع قوى الطبيعة التى تصور هى ايضا تصويرا حيويا ، فالبحار والانهار والاشجار العظيمة ليست مجرد اشكال من المادة ، بل ان لها ارواحا ، وهذه الارواح هى على الأرجح ما سميت بعد بالالهة . الانسان الذى يموت لا ينفصل تماما عن هذا العالم ، بل يعيش فى عالم الموتى الذى هو امتداد لعالم الاحياء ، وربما عاد الى عالم الاحياء فى صورة احد احفاده او فى صورة حيوان او نبات او حتى جماد تقده القبيلة وتنسب اليه » (١) .

ولعلنا نلمح بهذا تشابها كبيرا بين سيرة عنتره وبين الاسطورة . فعنتره يتعامل مع الجن ومع القوى الغيبية شأنه فى ذلك شأن اى بطل من ابطال السير الشعبية . وعنتره حين يموت يظل ممتدا على هيئة اولاده واحفاده وتنسب اليه القبيلة وتنصر بسيفه حتى بعد ان يوارى فى قبره ، بل ان كاتب سيرة عنتره شاء ان يجعل فى اختياره لاسم ابنته « عنيتره » رمزا واضحا لهذا . الا ان ذلك لا يعنى سوى مجرد التشابه الذى يدل على احتفاظ هذه السير بالكثير من خصائص الاسطورة تماما كما احتفظت التراجيديات اليونانية باصول من الاساطير اليونانية . دون ان يعتبر احد ان هذه التراجيديات هى اساطير .

ويعتبر ( فريزر ) ان عصر السحر - اى عصر الانسان البدائى ، او عصر الاسطورة - شبيه بعصر العلم ، أو هو على الاصح يعد عصر العلم عودا الى عصر السحر ، اذ ان كليهما يقوم على الايمان بما فى الظواهر الطبيعية من نظام دقيق . . فمثلا الطقوس تؤدي الى سقوط المطر كما ان الحرارة تحول السائل الى بخار (٢) .

ولهذا قامت عدة نظريات تبحث فى الاسطورة . فأتباع هوميروس اليونانى يعتبرون الاسطورة تاريخا متنكرا ، بينما يعتبرها فرويد نوعا من المرض العقلى او النفسى ولذلك فانه يطبق على تفكير الانسان البدائى - صاحب الاسطورة - نفس القوانين التى وجدها فى الاحلام والامراض العصبية . الا ان كل هذه التفسيرات تقوم على استبعاد

---

(١) البطل فى الادب والاساطير - الدكتور شكرى عياد ص ٧٤-٧٥

(٢) James G. Frazer. — The Golden Bough, p. 824

الاسطورة من المنطق العقلى . ونحن فى الفن لا يهمنى المنطق العقلى فى شىء كما لا يهمنى الصدق الواقعى ولا مطابقة الاحداث لقانون السبب والمسبب . فعلى الرغم من ان الاسطورة تقترب من العلم من حيث ربط السبب بالمسبب ، الا انها لا تخو من قسط كبير من البدائية فى التفكير والبدائية فى التعبير ، فهى قد نشأت معاصرة للسحر ومن هنا جاء تعريف الاسطورة بأنها « الجزء القولى المصاحب للطقوس البدائية » (١)

فهذا التعريف يربط بين الاسطورة وبين افعال السحر المرتبطة بالدين عند الشعوب البدائية . او بمعنى آخر يربط الفن هنا بالعمل . ويشايح هذا القول كثير من باحثى الانثروبولوجى والدراسات القديمة حتى ليقول فريزر : « لعلنا لا نخطئ اذا افترضنا ان كثيرا من الاساطير التى لا نعرفها الان الا على انها اساطير كان لها فى وقت ما جانب فى السحر ، او بعبارة اخرى انها كانت تمثل كوسيلة للايجاد الفعلى للاحداث التى تصفها بلغة فعلية . وكثيرا ما تموت الاحتفالات بينما تظل الاساطير حية فيبقى علينا ان نستنتج الاحتفال الميت من الاسطورة الحية . » (٢)

والدراسات الانثروبولوجية ما زالت تعتمد على الطقوس فى تفسير موضوعية الاساطير ومنطقها . اما السير العربية التى تحت ايدينا - وخاصة سيرة عنتره - فليس لها ارتباط ما بالطقوس ولا بالسحر . فالسحر عنصر يعتمد عليه الروائى للاثارة وليس سببا غيبيا للاحداث . وانما هو مظهر من مظاهر القوى الخفية التى يصارعها البطل فى سبيل اقرار الخير (٣) . وطول سيرة عنتره - التى تقع فى ثمانى مجلدات كبيرة - تنفى عنها صفة الاسطورة ، كما ان تطور الاحداث فيها حسب منطق خاص يعرفه المؤلف ، وظهور هذا المؤلف فى اكثر من مكان ظهورا سافرا او مستترا ، الى جوار الاعتماد على احداث تاريخية ثابتة وشخصيات معروفة ، كل ذلك يخرج بعنتره - كما يخرج بغيرها من السير . عن اندراجها تحت اصطلاح الاسطورة . فكاتب سيرة عنتره حين كتبها لم يكن يعيش فى عصر حياة العرب البدائية وانما كان يكتبها والحضارة العربية المتشابكة المكونات فى قمتها ، ولهذا فنحن نرجح الراى الذى سبق ان قلناه فى بداية بحثنا هذا حول الاساطير من ان هذه السير استمدت بعض مادتها مما تبقى من اساطير ولكنها ليست هى نفسها اسطورة من الاساطير .

---

(١) البطل فى الادب فى الاساطير الدكتور شكرى عياد ص ٨٥

(٢) المصدر السابق

(٣) الهلالية فى التاريخ والادب الشعبى

فأصحاب تسمية الاسطورة اذن - الذين حاولوا ان يطلقوها على هذه السيرة لما شاهدوا من اعتمادها على الخيال الذى يصل الى حد الاغراق احيانا - ليسوا على صواب .

ويفضل الدكتور عبدالحميد يونس تسمية هذه السير باسم « الملاحم » (١) والواقع ان هذه التسمية تكاد تكون - من حيث النظرة الاولى - اقرب التسميات الى هذه السير . فشعراء الملاحم قد اغترفوا من معين الاساطير واستباحوا التغيير فيما اخلنوه منها الا انهم وضعوا لانفسهم حدودا وقواعد جعلت من الملاحم فنا مقرر الاصول والانواع . فعناصر الملحمة معروفة وهى تقوم على الخرافة ، وشخصية البطل ، والدور الذى يقوم به البطل الالهة - او الالهة الابطال - ففى الالياذة مثلا يتدخل الالهة بقدرات خارقة لينصروا فريقا على فريق ، او ليعجزوا فريقا عن الحرب ويمكنوا منه الفريق الآخر . كما تنصر الالهة اثينا لاوديسيوس ضد بوسيدون رب البحر . وكما يتحيز زوس كبير الالهة للاكيان ضد الطرواديين وارادة البطل غالبا ما تتفق مع ارادة الالهة . فاخيل عند هوميروس تتفق ارادته مع ارادة الالهة وتشترك الالهة معه فى اثبات فضله . وهكذا نجد ان البطل الملحمى اقرب الناس شيها بابطال سيرنا الشعبية . فعنترة بن شداد فى السيرة العنترية - كما يصرح كاتبها - مؤيد بقوة خارقة خفية تجعله لا يتعب من كثرة الصدام بل انه يزداد قوة على الحرب كلما طال به الوقت فى حومة الميدان . وحين يموت ابنه الغضبان على يد الجن يمدده الجن الخير بجيوش وابطال يحارب بها عدوه من الجن الشرير الذى قتل ولده ، كما انهم يعطونه سيفا مطلسما يفعل فى الجن فعل السيوف الحديد فى البشر ، ثم نحن نراه يحمل تميمة بذاتها تجعله يقاوم السحر ويبطل مكائد السحرة . وارادة عنترة تتفق مع ارادة الالهة التى تريد ان تمهد الارض لظهور محمد برسالة السماوية ، فجعلت من سيف عنترة اداة مسخرة للقضاء على كل الجبابرة الذين يعيشون فى الجزيرة ويمكن ان يعيقوا الرسالة المحمدية .

وفى هذا يقول الدكتور فؤاد حسنين : « اساطيرنا - بالرغم من تنوعها - تدور حول فكرة واحدة هى امكان السمو بالانسان وابلاغه مرتبة الالاهة ، فيحيا الحياة الابدية بعد ان كتب عليه الموت وحرمت نعمة الخلود . ولذلك كانت بطولة اساطيرنا وملاحمتنا غير قاصرة على الالهة ، اذ شاركهم فيها نفر من بنى البشر الذين بلغوا - او كادوا يبلغون -



مرتبة الالهة ، فانتقلوا من الحياة الفانية الى الحياة الباقية حيث يحيون حياة الاطهار في جزيرة الابرار » (١) .

الا ان الملاحم اليونانية - وهى اقدم الملاحم واكثرها تكاملا . تختلف مع السير في هذه الزاوية . فابطالها يقفون في بعض الاحيان امام ارادة الالهة ، ويتغلبون على قوتها الخارقة احيانا ، ويدخلون معها في معارك احيانا اخرى . ويكاد هذا ان يكون هو الفرق الاساسى بين الملاحم والسير الشعبية ، فبطل السيرة لا يقف اطلاقا امام الارادة الالهية بل ان هذه الارادة تنفذ وتتم وان تعارضت مع ارادة البطل ، والبطل امامها عاجز مشلول . ولعل بيت الاحزان الذى قضى فيه عنتره جزءا من عمره حزنا على من ماتوا من ابنائه واخوته هو الدليل على مجز البطل في السيرة امام قدرة الالهة .

وهناك ظاهرة اخرى لها اهميتها وهى ان سيرة كسيرة عنتره ابن شداد لا تحمل مضمون الالهة الجاهلية . فالهة العرب القدماء ( كالثلاث ، العزى - ومناه ، وهبل ) لا تكاد تبين على الاطلاق لا بشخصها ولا باثارها ، وانما مضمون الالهة هنا مضمون اسلامى يجعل من الالهة شيئا واحدا هو الله الذى لا يستطيع ان يجسده في السيرة وانما هو يرينا فقط مظاهر ارادته . . فالبطل منصور ان شاءت ان هذه الارادة تنفذ وتتم وان تعارضت مع ارادة البطل ، والبطل حدده الله من قبل في اللوح المستور ولن يغير شيء ، ولن تغير ارادة ، هذا الذى سطر في مبدا الكون . ولهذا فان بطل السيرة لا يمكن ان يرقى - من ناحية القدرة - الى البطل الملحمى اللهم الا في سيرة واحدة هى سيرة سيف بن ذى يزن الذى استعاض عن شخصيات الالهة في الملاحم اليونانية بشخصيات خارقة القدرة كالجن واولياء الله ، كما نلمح شبهها بهذا في سيرة الظاهر پيرس . الا انهم جميعا يتحركون في دائرة محدودة تقع ضمن دائرة اوسع تتحكم فيها ارادة اعلى مما يجعل هذه الظاهرة في سيرة سيف اشبه ما تكون بالقصة الخرافية التى تستعين في تسيير حوادثها بالخوارق منها باللمحة التى يتصارع فيها الالهة مع الابطال او الابطال مع الالهة .

وهذا في الواقع فرق جوهري ، لان العمل الفنى ليس شكلا فحسب ، ولذا لا يكفى مجرد ظهور القوى فوق البشرية لمساعدة ابطال السيرة حتى نضمها الى حظيرة الملحمة . فالمضمون الملحمى مهم في تسمية



اي عمل من الاعمال باسم الملحمة . وقد رأينا ان هذا المضمون لا يتوافر في سيرنا الشعبية ، وبالاخص في سيرة عنتره ، التي تقتلص فيها هذه القوى الغيبية فلا تكاد تؤدي دورا حقيقيا في الصراع الدائر في السيرة

والمحمة عمل شعري يعتمد على الانشاد ، ولعل ما وجدته الدكتور عبد الحميد يونس في سيرة كتغريية بنى هلال مثلا من اعتماد كبير على الشاعر المنشد في الرواية - اي في سرد الاحداث - وفي المواقف - اي في الحوار ما ايد عنده التقارب بين الملحمة وبين السيرة ، الا ان يلقى السير تكاد تختفى فيها هذه الظاهرة . وسيرة عنتره بالذات تتم روايتها نثرا ، ولا يكاد الشعر يدخل فيها الا في مواضع محددة هي الترجم عند الحرب وعند الحب وفي المسامرة . وقد يكون الشعر رفيق طريق او عزاء حزين او طبول حرب ولكنه على اية حال ليس اساسا في السيرة ، ولو انه حذف منها كلية ما نقصت شيئا .

وهذه الملاحظة تحدد لنا اشياء كثيرة . فهي تحدد اولا ان الملحمة شكل شعري يقف امام الشعر الغنائي مثلا او الشعر المسرحي ، ولكنها لا تقارن بعمل نثري مثل السيرة فهذا ميدان وذاك ميدان . واطلاق اسم الملحمة على عمل نثري تجوز كبير لا نقره فليس معنى ان الباحثين في الادب العربي لم يصلوا بعد الى صور من الملاحم الشعرية التي عرفها الادب الغربي ان نسمى الاعمال النثرية بهذا الاسم الوافد علينا وان ننقله من ميدان الشعر الى ميدان النثر . وانما الاقرب - وقد لاحظنا تلك الخلافات الواضحة بين الملحمة من ناحية المضمون ومن ناحية الشكل وبين سيرنا الشعبية - ان نجنب انفسنا هذا الخطا فنضع ما للشعر وما للمحمة ونقرر في بساطة ان السيرة الشعبية فن آخر يختلف عن الملحمة في المضمون وفي الشكل .

ونحن في تحليلنا لشخصية عنتره وجدنا انه مر بعدة مراحل . فهو يقترب من البطل الاسطوري في مرحلة ، ويشابه البطل الملحمي في مرحلة اخرى ، ويكاد في بعض المراحل يقترب من بطل التراجيديا عند اليونان ، ولكنه في آخر الامر جماع هذا كله مما لا يمكن معه ان نطلق عليه سوى تسمية واحدة هي « بطل السيرة » .

ليست السيرة اذن - وليست عنتره على وجه التمثيل - سيرة بمعناها الاصطلاحي الحديث ، كما انها ليست اسطورة يفهمها عند الانثروبولوجيين ، ثم هي ليست ملحمة يفهمها عند اليونان ، ولكنها كما لاحظنا تقترب كثيرا من الرواية . فهي مرة شبيهة بالرواية التاريخية ، وهي مرة قريبة الشبه من الرواية الخيالية ، وهي في مرة

ثالثة قريبة من الرواية الواقعية . وقد قلنا عن سيرة عنتره بالذات انها تجمع بين النوعين الاول والثانى ، فهى تاريخية لانها تتحدث عن شخصيات بعد العهد بينهم وبين تاريخ كتابة السيرة ، وتستمد احداثها - كما هو واضح - من كتب التاريخ . وهى خيالية لانها لاتحترم منطق التاريخ ولا منطق الاحداث . ونستطيع ان نلمح هذا فى عنتره عند مشهد تعليق القصيدة على الكعبة اذ يجمع المؤلف شعراء العلاقات جميعا دون ما اعتبار للفروق الزمانية ولا للظروف المكانية ، ولا لمنطق الحدث نفسه من تعذر وقوع مثل هذا اللقاء حتى لو توافر الشرطان السابقان . كما يبدو هذا ايضا فى عدم احترام الحقائق الجغرافية فعنتره يسير من الحجاز الى اليمن الى الحبشة دون ما عائق من بحر ، او ان جيش الهند يصل الى الجزيرة برا وعلى ظهور الخيل وذلك من طريق جنوب الجزيرة العربية .

هذا الى جوار المظاهر الخارقة مثل قدرة عنتره الغربية ، وبراعة شيبوب المدهنة وسرعته الفسائقة مما لا يستقيم مع منطق الطبيعة البشرية . واذا كان من الجائز فى الرواية التاريخية عدم الخضوع لمنطق التاريخ ، فان باقى التحليلات التى استباحها المؤلف لنفسه لا تتفق اطلاقا مع الرواية التاريخية ، الا ان السيرة تسير مع الرواية التاريخية فى تسلسل الحدث ونماء الشخصيات واستقلال كل شخصية عن الاخرى ، وارتباط هذه الشخصيات والاحداث جميعا بمضمون واحد يحقق هدفا بذاته عند الكاتب كما يتفق معه فى محاولات تحليل وتعليل الاحداث والوقوف عند البيئة ووصفها ، ثم فى الاعتماد على المشاعر الانسانية فى تسير الاحداث واظهار قوى الشر فى تصارعها فى قطاعات متعاقبة نامية تصل الى القمة فى ان يضع المؤلف حلها بين يدي القارئ .

هذا هو وجه الشبه ، وقد كان ذاك هو وجه الخلاف . ولهذا فاننا نفترض ان السيرة اقرب الى الرواية التاريخية من حيث الاداة التى هى النثر ومن حيث الشكل وهو القص ، ومن حيث المضمون وهو الصراع ، الا انها تختلف آخر الامر فيما بينا من فروق

ولما كانت السيرة اسبق فى الظهور من الرواية ، لهذا فاننا نعتبر السيرة اصلا للرواية فى شتى صورها وبشتى انواعها ، ونستطيع - ما دامت السيرة هى الاسبق - ان نجعلها رواية لا تاريخية ولا خيالية ولا واقعية ( وهى الاسماء التى عرفت عندما تقادم العهد بالرواية وتطورت وتخصصت ) انما يمكننا ان نسميها « الرواية الام » او « الرواية السيرة » . وتصبح عنتره اذن رواية من نوع السيرة يغلب عليها الطابع التاريخي .

## الفصل الثانى

### شخصية عنتره فى السيرة

سيرة عنتره تعتمد اعتمادا كليا على شخصية اساسية تعتبر مركز الصراع فى الرواية والبؤرة التى تتجمع عندها خيوطها . والمؤلف يتناول احداث الحياة فى الجزيرة العربية - وفى غير الجزيرة العربية - بما له علاقة بهذه الشخصية ، فهو يذكر من الاحداث المعروفة تاريخيا ما له ارتباط بعنتره - اما مباشرة واما بطريق غير مباشر - كأن تكون مرتبطة بالاطراف المكونة لحياة عنتره كقبيلته وامته واصدقائه وحلفائه ، وهو يؤلف من الاحداث ما لم يورده التاريخ اذا كان فى هذه الاحداث ما يكشف صفحات من بطولة عنتره وشخصيته ودوره .

فاذا استهوت المؤلف حادثة تاريخية او شخصية من شخصيات التاريخ ولم يكن لها صلة مباشرة او غير مباشرة بعنتره اللهم الا الصلة المكانية ( اى الوجود فى الجزيرة العربية ) فان المؤلف لا يتردد فى تطوير هذه الاحداث روائيا ليخلق فيها مكانا لعنتره وليضعه بين الابطال التاريخيين المعروفين الذين اسهموا فى تلك الاحداث ، وكأنما يريد ابطله ان يشترك فى كل حدث جدى يتفق وطابع الفروسية الذى وسعه به ، والا يفوت عليه مجدا من الامجاد التى حصل عليها العرب وان افتات فى ذلك على الحقيقة التاريخية مرة وعلى الترتيب الزمنى مرة بل وعلى التعذر الجنسى والمكانى مرات .

فشخصية عنتره اذن هى المحور الاساسى الذى تدور حوله السيرة . والواقع ان اختيار هذه الشخصية لم يكن عبثا من المؤلف فان فى الاسس الاولى لمكونات هذه الشخصية من الناحية التاريخية - التى تواترت صفاتها على السنة الرواة - ما يصلح تماما كأساس يعتمد عليه المؤلف فى بناء الشخصية النموذجية التى يريد منها ان تحقق له عدة اهداف تتصل بالفنية الروائية من ناحية وتتصل بنفسية الجمهور المتلقى من ناحية اخرى ، كما تتصل بفهم عام للحياة العربية والتقاليد العربية . ولسنا نستطيع ان نعرف ما اذا كان المؤلف قد حقق هذه الاهداف التى رعى اليها ، ولا ان نكتشف حقيقة هذه الاهداف الا اذا درسنا تلك الشخصية - اى شخصية عنتره - من واقع عمل المؤلف الروائى نفسه - اعنى من خلال السيرة . فالشخصية التى ينقلها اليها تاريخ الادب بمصدره : الاخبار والشعر : لا تعطينا الا جزءا من الصورة



التي نجدها في السيرة : هذا الجزء هو الاساس الاول الذي بنيت عليه الشخصية الروائية ، والواقع أن معرفتنا بهذا الجزء يضع ايدينا على اول الخيط ويجعلنا نستطيع ونحن نعرف من اين بدأ المؤلف - ان نسايره في عمله وهو بنى الشخصية ويطورها معتمدا على الاساس الاول الذي نعرفه .

القراءة النقدية الفاحصة للسيرة تجعلنا نطمئن مبدئيا إلى ان شخصية عنتره قد تطورت في يد المؤلف على عدة مراحل تمثل كل مرحلة منها هدفا من اهداف التأليف كما تمثل تمثلا للشخصية ناميا مع نمو فكرة للمؤلف وتطورها ، الا أننا نلاحظ ان كل مرحلة من هذه المراحل لا يمكن ان يصل اليها المؤلف الا بعد المرور بالمرحلة السابقة حيث ان كلا منها وليد التطور الذي يحدث فيما سبقها من مراحل .

ونحب ان نشير هنا - قبل تحديد هذه المراحل وبدء الحديث عنها - الى مقدمة السيرة - التي تنفرد بها الطبعة الحجازية - حيث ان هذه المقدمة التي تسبق ميلاد عنتره بازمان طويلة هي في واقع الامر المدخل الطبيعي للحديث عنه . فالمؤلف يحاول ان يكون طبيعيا ومنطقيا حين يتحدث عن بطله ، والشخصية في يده لاتنمو جزافا وانما هي تنمو تحت واقع احداث معينة بحيث يبدو هذا النمو طبيعيا متوقعا وغير شاذ . لهذا كانت تلك المقدمة الطويلة التي بدأت منذ اقدم الجذود لعنتره وظلت تنحدر تدريجيا حتى تصل الى ابيه وتقف بنا عند حادثة اللقاء ابيه بامه . فالمؤلف قبل ان يركز الاضواء على هذا يملؤنا احساسا بما يمكن ان ينتظر المولود الذي سيكون نتيجة لهذا اللقاء من مصير ومن حياة . وهذه الطريقة الطبيعية في السرد وفي التأليف هي التي جعلت من عنتره - رغم اسطورية شخصية التي تبدو بعد قليل من احداث السيرة ، بالاضافة الى ما اعتمد عليه المؤلف من شخصيات عرفها التاريخ ، ومن احداث اشتهرت في كتب الاخبار - وكل هذا كان المهاد الطبيعي للمراحل التي مرت بها شخصية عنتره والتي نحددها في خمس مراحل هي : -

- ١ - مرحلة التكوين
- ٢ - مرحلة الفروسية ، او المرحلة الدائبة
- ٣ - المرحلة الاسطورية
- ٤ - المرحلة الماحمية .
- ٥ - المرحلة التجريدية ، او مرحلة الامتداد .



## ١ - مرحلة التكوين

نستطيع ان نقول ان هذه المرحلة هي فترة ولادة الشخصية بكل ملامحها وسماتها وانها مرحلة تقديم هذه الشخصية للمتلقى ، ففيها تكمن الجذور الاولى لكل ما سنلمح من سمات تبدو واضحة فيما بعد . فنحن نحس - منذ اللحظة الاولى - ان بنى عبس ليسوا قبيلة كالبائيل ، وانما هم قوم غزو وارباب سيف وفاتكو صحراء ، وهم كرام يكثر الطارقون عليهم ، ثم هم يقرون هؤلاء الضيفان بالغزو والغارة على اموال العربان كما هي العادة في الجزيرة العربية كلها وكما هي العادة عند فرسان هذه القبيلة بالذات . نلمح هذا كله متمثلا في تلك الغارة التي خرج فيها عشرة فرسان من بنى عبس - على رأسهم شداد - ليسوقوا امامهم الف ناقة ترعاها أمة سوداء لقبيلة بنى جديلة . فاذا ما ساقوا النياق وتلك الأمة وولديها ، طلع عليهم أبطال بنى جديلة ودارت المعركة بين قبيلة بنى جديلة باكملها وبين هؤلاء الفرسان العشرة . وتنتهى المعركة نهاية لها ما بعدها اذ ينتصر فرسان بنى عبس العشرة على القبيلة التي هاجموها في عقر دارها واخذوا الفا من نياقها .

ويصل بنا المؤلف بعد ذلك الى لقاء بين تلك الأمة - التي هي زبيبة - وبين الامير شداد بن قراد وسط الصحراء وقد انتصر على حمايتها وملك الأمة واولادها . ويقف المؤلف لحظات عند مقاومة هذه الأمة لباقي الفرسان الذين ارادوا ان يثألوا منها ما نال شداد فيقول : « فأرادوا أن يفعلوا مثل فعله ، واتبعوه في أمره ، فلم ترض تلك الأمة لهؤلاء الرجال ، ولم تطعمهم على ذلك الفعل والاعمال ، بل هربت من بين أيديهم في الرمال ، وقد أنكرت منهم تلك الاحوال ، لانها من نسل قوم كرام - وسوف نذكرها في تأصيل نسبتهما ونذكر سبب غربتها وفرقتها ، ولكن نذكر كل شيء في مكانه بعون الله وسلطانه » (١) .

هذا الموقف الذى اطلال فيه المؤلف لم يأت عبثا ، ففيه خيوط كثيرة نجسد لها امتداداتها على طول السيرة ، كما ان لها اهميتها في تحديد شخصية الوليد الذى سيأتى نتيجة لهذه الحادثة . فالأمة

السوداء تخالف العرف الذى تواضع عليه العرب فى معاملاتهم للاماء ، وهى تأتى من التصرفات ملا هو خليق بالكرائم والنساء الحرات، اذ هى أسيرة فى يد أمير يعدها بالزواج ، وهى امام بطل مشتتة رأت بلاءه وشدة بأسه ، وامام كل هذه العوامل تخضع له خضوع المرأة ان يملكها بعد سيفه ، وخضوع المرأة امام مظاهر الفتوة والباس .

الى هنا وكل شىء يسير سيرة الطبيعى كما لو كانت العادات والتقاليد العربية ، ولكن الذى لم يكن طبيعيا هو ان تنكر تلك الامة شىء وهى وحيدة أسيرة - على باقى الفرسان ان يقربوها . كما ان الذى ليس طبيعيا كذلك هو ان يؤيدها شداد ويطلب من باقى زملائه ان يعتبروها من نصيبه ، فيحفظ بذلك المؤلف للمواد صحة نسبه الى ابيه ، ويحفظ له كرامة أمه التى اشار الى اصالة نسبها . وكانما يريد المؤلف ان ينبهنا الى ان الاب رجل غير عادى وان الام امرأة غير عادية وأن هذا اللقاء بين الاثنين لقاء غير عادى كذلك وبالتالي فالمولود الذى هو حصيلة هذا كله لن يكون وليدا عاديا .

وتحمل زبيبة ، ثم يأتى حين ولادتها - « فلما كان تلك الليلة اخذها الطلق كما يشاء خالق الخلق ، فما زالت من أول الليل تصرخ الى وقت السحر ، فولدت مولودا ذكر وهو اسود ادغم مثل الفيل ، معبس الوجه مفلفل الشعر كبير الاشداق مكدر المنافس متسع الظهر صلب الدغائم والعظام كبير الرأس ، الا ان اعطافه ومناكبه شداد ، وخلقه تشبه خلقة ابيه شداد » . (١)

وبهذه اللمحة الناجحة يقدم لنا المؤلف الوليد الجديد الذى يفتقد عليه من الصفات ما ينبىء بوليد غريب ليس ككل وليد . فاذا ما خرج الى العالم فانه يهمهم ويدمدم ويزوم اذا ما منع عنه الرضاع ، ويقطع كل يوم قماطا جديدا حتى ولو كان من حديد ، ويقلع اوتاد الخيام ولما يبلغ من العمر عامين ، ويعاقر مع الكلاب فيقتل صغارها ، ويضرب الصبيان صغارهم وكبارهم . حتى اذا ما بلغ ثلاث سنوات ندم باقى الفرسان العشرة على انهم تركوا مثل هذا الوليد لشداد وزعموا ان أمه كانت به حاملا حين لقوها فضمه الى نصيب شداد ظلما لأن الذى وقع فى نصيب شداد هو الام وابناؤها الكبريان فقط . ودار القتال بين الفرسان حتى وصل امره الى سمع الملك زهير فاستدعى الطفل ليشهده . وهنا يقدم المؤلف ارهاضا جديدا لهذه الشخصية حين يرمى له الملك قطعة لحم فيسبقه اليها كلب فيجربى الطفل الصغير الذى لم يبلغ الرابعة من عمره ويستزع قطعة من اللحم من

فم الكلب ثم يقبض على شذقيه ويشقهما شقا ويعود الى الملك واصحابه . وهو يأكل قطعة اللحم فيوصي الملك بأن يحتكم الفرسان الى قاضي العرب الذي يحكم به لشداد لما بينه وبين الصبي من شبهة في الخلقة .

كل هذه المقدمات ترسم لنا ما ينتظر هذا الطفل من غد ، كما ترسم لنا امرا له خطورته ودلالته في القصة اذ يعتز به ابوه ويقاوم باقي الفرسان من اجل نسبه اليه ، ويصل الامر الى الاحتكام للملك مرة . والى قاضي العرب مرة ، وكأنها يريد المؤلف بهذا الاصرار ان يؤكد لنا - منذ اللحظة الاولى - حق عنتر في النسب ، وكأنما هو ايضا يشير الى كل ما كان له دور في تكوين شخصية عنتر كسواد لونه وقبح خلقته وتوحشه وقوته الخارقة

فإذا ما تقدمنا قليلا شاهدا عنتر الصبي يقتل ذئبا ويعود برأسه الى أبيه ، وفي نفس الوقت يأسر شيبوب - اخو عنتر من أمه زبيبة - ثعبا ويسوقه امامه وسط الخرفان فيقول شداد لزبيبة : « اعلمي ان اولادك شياطين ، فلا تفارقيهم اجمعين خصوصا عنتر فلا تبعدى عنه ليلا ولا نهارا » . ( ١ )

ويظل المؤلف ينقل لنا صورا متتالية لمحاولة عنتر قلع الفروسية وطعن الرمح ، والتحكم في الخيل ، ويقدم لنا في نفس الوقت صورا لشيبوب وهو يخلق من الاحداث ما يستر به افعال أخيه مبعدا في الحيلة والخداع . ثم لا يلبث المؤلف ان يقدم لنا موقفا قصصيا يحدد شخصية عنتر وخلقته حينما يواجه « داجي » عبد « شاس بن زهير » وهو عبد ضخيم كبير يمنع النساء من ورود الماء قبل مال شاس ، ويهين الكبريات منهن . فيستفز هذا عنتر ويجعله يقف امام العبد فيلطمه العبد لطمة تغيبه عن الصواب ( اذ كان طفلا صغيرا ) ، فلما افاق عنتر هجم على العبد وقتله بيديه ، فهاجت عليه العبيد وتجمعوا حوله . ويجذب عنتر عصا من احدهم ويخلع عباءته فيلفها على يده ليستتر بها من الضرب ويواجههم وحده فلا يقدررون عليه . ويشهده في هذا المنظر الامير مالك بن زهير فيعجبه امره ويخلصه من العبيد ، ولما عرف حكايته مع عبد شاس اعجب به واجاره .

وهكذا يكشف لنا المؤلف عن شهامة عنتر ونجدته ودفاعه عن الحق ، كما يكشف لنا عن قوته وشدة مراسه في الحرب ، ثم هو يغلي ذلك يحدد لنا مكان اعدائه ومكان اصدقائه منذ البداية . فهو قد قتل عبد شاس وحظى باجارة مالك . ويصل المؤلف بالامر الى ذروته

حين يغيب زهير الملك بما فعل عنترة ، وحين تقبل عليه ابنة عمه عبلة  
لتشهد أمره وتسمع حكايته .

وتدخل قصة الغرام في هذه المرحلة لتكمل الصورة التي ترسم  
صراع عنترة وممراته مع الحياة . فهو عاشق محب ، ومن يهواها هي  
ابنة عمه التي تربت في خيام أبيه يخدمها هو كعبد من العبيد المكلفين  
بأمر تلك الخيام وساكنيها ، والفتاة بعد مرموقة مطلوبة ، لها واحد  
من أكرم رجالات بني عبس يحبها ويروم زواجها هو الربيع بن زياد  
الذي يحب قلبه العاشق بما بينها وبين عنترة من حب ينمو مع  
الزمن . ويعقد المؤلف الموقف حين يدس عبد من عبيد الربيع لعنترة  
عند أبيه الذي يضربه ويشد وثاقه ، وحين يتخلص عنترة من قيوده  
يبحث عن هذا العبد ويقتله ثم يقصده الى صديقه مالك بن زهير  
ليجيره فيجيره مرة أخرى ، ومن هنا يبدأ العداء سافرا بين عنترة  
والربيع وتؤكد مكانة عنترة وسط العبيد فيخافونه ويخشون بأسه ،  
كما تؤكد مكانته عند الأمير مالك الذي يحبه الحب كله .

ويتأمر شداد مع بقية أعمام عنترة على قتله فيطعنون عليه في  
البزبة وهو وحيدا ، الا أنهم ما ان يقتربوا منه حتى يجدوه في صراع  
مع أسد مهول . ويحسبون أن نهاية عنترة قد قربت الا أن عنترة  
يرمي بسيفه بعيدا ويلقى الأسد عارى اليدين فيقتله ، ثم يوقد النار  
ويسلخ الأسد ويأكل لحمه كله بينما أعمامه ينظرون . فيقول عمه  
زخمة الجواد : « والله من يكون له مثل هذا ويفرط فيه فلا يكون  
عائلا » (١) .

ويعود شداد وأخوته ليخرجوا مع رجال الحي في غزوة من  
غزواتهم بينما يظل العبيد - ومنهم عنترة - مع النساء . وفجأة يهجم  
على ديار بني عبس فرسان من بني غطفان فيتصدى لهم الصبي  
عنترة - ذو الأربعة عشر ربيعا - فيقاتلهم ويهزمهم ويسترد الأسلاب  
ويخلص النساء .

من هنا تتمكن محبة عنترة من قلب عبلة ، ويتأكد اطمئنان نساء  
القبيلة الى حماية الصبي الأسود . وحين تعود القبيلة من غزوها  
ويعرفون ما حدث يتأكد مكان عنترة بين فرسان بني عبس ، كما  
يتأكد مكانته كشاعر اذ تحفظ امرأة شداد ما قاله من شعر حين لقي  
الفرسان ويصل امر هذا الشعر الى الملك زهير فيستنشده ما قال  
ويطرب له هو والحاضرون .



وتتكرر المعارك التي يظهر فيها فضل عنتره وقدرته ، بينما حبه يتمكن يوما بعد يوم من قلوب أصدقائه ، وبغضه والحسد له يتمكنان يوما بعد يوم من قلوب أعدائه ، فيرتب الأمير شاس والربيع بن زياد كميناً لقتل عنتره ، ويلتقى هذا الكمين بفرسان اتوا لياخذوا ثارا لهم عند عنتره فيتحذون جميعاً ضده ، ويهاجمونه وهو في طريقه على رأس موكب نساء بنى عبس ، وتعهده أم عبلة بأن تحقق له الزواج من ابنتها إذا ما هو أنقذهم من المغيرين ، فيلقهم وحده ويهزمهم ويولوا الأديار هاربين

وهكذا يقدم لنا المؤلف صورة جديدة لعنتره المدافع عن النساء المستضعفات ، والذي يواجه المؤامرات والحروب بقلب ثابت وجنان هادئ وبقدرة الفارس الصنديد ، وهو يقدم لنا أيضاً صوراً من تلك المؤامرات وقد تكاثرت على عنتره من أعدائه وحاسديه ، كما يقدم لنا أيضاً عدة صور من حيرة عنتره بين حبه لابنة عمه وبين وضعه القلق كعبد من العبيد ليس له حق في التمتع بما يتمتع به الأحرار من زواج بما يحبون وتقدير لما يقدمون من أعمال ويظهرون من فروسية . ويعرض لنا المؤلف صور المعارك يحمي فيها عنتره الدمار ويصون الأعراض والمال ، وهو قبل كل معركة منها يحصل على وعند تحرره والاعتراف به ولدا لشداد ولكن عندما تنتهي المعركة وتكشف الغمة بفضل سيفه وقوته يخلفون وعدهم ويتحللون من تعهداتهم .

والمؤلف هنا ينجح نجاحاً كبيراً في تحسيد الموقف تحديداً واضحاً . فعنتره يحصل في كل يوم على ما يؤكد مركزه ، إلا أنه في تقدمه هذا يحصل أيضاً في كل يوم على مزيد من بغضاء فرسان القبيلة وحقدهم وحسدهم . وشداد لا يستطيع الاعتراف به لأن القبيصة لا تشاء على الإطلاق إلا أن تضع عنتره في مكان العبيد رغم كل ما يقدمه لها من حماية ورفعة شأن . وعبلة تحب عنتره حباً أكيدا واضحاً ولكنها تقف منه موقف الفتاة العربية التي لا تملك إلا أن تأتمر بأمر أهلها ، وأهلها يعدون حين الحاجة وينسون بعد انقضاء هذه الحاجة . وعنتره يقف أمام هذا كله حائراً غاضباً متألماً .

فالموقف إذن قد تعقد تماماً وتبلورت كل دوافعه وظهرت جميع أطراف الصراع فيه . وكان لابد للمؤلف أن ينتقل بالموقف كله إلى وبشخصية بطله . ثقله أخرى بعد أن دخل الأمر بين عنتره وبين أبيه في نوع من النجاش الذي يتأكد عنتره من أنه ابن شداد ، فيذهب إلى أبيه مطالباً أباه أن يلحقه بنسبة مطالبة غلنية وهو سكران سكر

بينما . فيثور شداد بل وتصل به الثورة الى حد الرغبة في قتل عنتره  
لولا تدخل امرائه .

. ويترك عنتره ايبسات ابيه هائجا هائما على وجهه في الصحراء  
فيلقى عياض بن ناشد في كوكبة من الفرسان يريدون الغزو . ويريد  
عنتره الانضمام اليهم ، وهنا ثور مسألة النسب مرة اخرى وبطريقة  
اكثر مساسا بقروسيته ، ذلك ان العرب كانوا يعطون العبيد الذين  
يشاركون في المعركة ربع سهم من الأنصبه ، و اراد عياض ان يكرم  
عنتره فاقترح اعطائه نصف سهم لما له من شجاعة وبطولة ، ولكن  
عنتره اصر على اخذ سهم كامل فقال له عياض : « لقد انصفت في  
مقالك ، وانت تستأهل أكثر من ذلك ، لاجل حسن فعالك . وانما نحن  
نخاف من معيرة العرب ، من بعد منها ومن اقرب ، اذا نحن قسمنا  
لابن الامة مثل ابن الحرة . » (١) فيتنازل عنتره عن طلبه موافقا  
على اخذ نصف سهم ويرحل مع عياض في هجوم على احدي قبائل  
بنى قحطان ، وهناك يهزم عنتره الفرسان ، ويلتقى بالحارث بن عبادة  
اليشكري الذي يركب مهرة مشهورة يقع عشيقها في قلب عنتره  
فيحاول اللحاق بالفارس ولكنه يعجز . ويكلف الفرسان عنتره ان  
يسوق الغنيمة - احتقارا له - فيسير بها وهو غضبان وهم من ورائه .  
على بعد كبير ، ويلتقى في سيره بالفارس والفرس مرة اخرى فيحاول  
عنتره ان يستهدي الحارث اليشكري جواده « الابجر بن النعامة »  
وتتم المساومة بينهما على ان يسترد الحارث أسرى بنى قحطان وما لهم  
من اموال على ان يأخذ عنتره الابجر . ويلتقى فرسان بنى عبس  
بعبسدهم وقد راحت من يده الغنيمة التي غنموها ، فيهجم عياض  
وفرسانه على فنترة الذي سرعان ما ركب الابجر وواجههم ، ويخاف  
منه الفرسان فيلاينونه ويصالحونه ويعودون خاسرين .

. وبينما هم في طريقهم يلقون عروسا في هودجها يحميها رجال ملك  
كبير من ملوك اليمن ، وهرب الحراس - بعد موقعة لم يشترك فيها  
عنتره - وقصدوا في فريقين الى ابى العروس والى زوجها . اما عنتره  
فقد اقترب من بنى عبس - وكانما ليسقيهم الكأس حتى الثمالة -  
وطالبهم بنصيبه من هذه الغنيمة الجديدة ، ورفض بنو عبس وشرعوا  
رماحهم لحربة واذا بأبى العروس يحضر بعد ان ابلاغه الفرسان الهاربون  
بما حدث ، فيلجأ بنو عبس الى عنتره ليحميهم ، ويرد عنهم عنتره  
شر أبى الجارية الذي يولى أمه مدحورا ، ولكنهم ما ان ساروا قليلا  
وقد اطمأنوا حتى يهجم عليهم زوجها - وهو فارس مشهور - الا ان  
عنتره يقتله كذلك مسجلا لنفسه نصرا كبيرا على فارس كبير .

(١) السيرة مجلد ١ ص ١٣٥

وَتَتَكَرَّرُ الْأَحْدَاثُ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَدْ أَخَذَتْ جَمِيعُهَا طَائِعًا وَاحِدًا  
هُوَ أَنَّ بَنِي عَبَسَ يَقْعُونَ دَائِمًا فِي مَآزِقٍ لَا يَجْسِدِي فِيهَا حَسَامُهُمْ  
وَلَا رِمَاحُهُمْ فَيَتَقَدَّمُ عَنْتَرَةُ وَيَنْقُلُهُمْ مِنْهَا . فَمَرَّةً نَرَاهُ يَفْكَ أَسْرَ أَبِيهِ  
وَأَعْمَامَهُ جَمِيعًا بَعْدَ أَنْ وَقَعُوا فِي يَدِ قَبِيلَةٍ كَانَتْ تَطْلُبُ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ ،  
وَمَرَّةً يَدْخُلُ فِي مَغَامِرَةٍ دَامِيَةٍ مِنْ أَجْلِ صَدِيقِهِ مَالِكِ بْنِ زَهْرٍ ، وَمَرَّةً  
يَنْصُرُ أَخَا مَالِكٍ هَذَا فِي الرِّضَاعِ لِأَنَّهُ كَانَ يَحِبُّ فَتْلَةَ وَجَاءَ لِيَتَزَوَّجَهَا  
فَارَسَ مَشْهُورٌ مِنْ بَنِي مَازِنَ لَيْسَ مِثْلَهُ فَارَسَ ، فَيَنْتَصِرُ عَنْتَرَةَ لِقِصَّةِ  
الْحُبِّ انْتِصَارًا لَا دَافِعَ لَهُ سِوَى مَا يَحْسِبُهُ هُوَ نَفْسَهُ مِنْ حُبِّ  
وَحَرَمَانٍ .

وَيَتَقَدَّمُ الْمُؤَلِّفُ بَعْدَ ذَلِكَ لِيَدْخُلَ عِمَارَةَ - أَخَا الرِّبِيعِ - فِي  
الْقِصَّةِ . فَعِمَارَةُ يَرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَ عَبْلَةَ ، وَمَالِكُ أَبِيهَا مُوَافِقٌ عَلَى ذَلِكَ  
رَفْعَ كَثْرَةِ الْوَعُودِ الَّتِي أَزْجَاهَا إِلَى عَنْتَرَةَ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْقِفٍ ، وَهُوَ  
يَرِيدُ مِنْ هَذَا الزَّوْاجِ الْمُدْبِرَ أَنْ يَنْهِيَ تَنَكُّرَ الْعِلَاقَةِ الَّتِي بَيْنَ ابْنَتِهِ وَبَيْنَ  
عَبْدِ أَخِيهِ . وَتَقِفُ عَبُودِيَّةُ عَنْتَرَةَ دُونَهُ فِي الْوُقُوفِ أَمَامَ عِمَارَةَ . وَهُوَ  
صَاحِبُ مَكَانَةٍ كَبِيرَةٍ فِي الْقَبِيلَةِ حَتَّى أَنَّ مَالِكًا - أَبَا عَبْلَةَ - يَلْطَمُ عَنْتَرَةَ  
حِينَ يَعْتَرِضُ طَرِيقَ عِمَارَةَ ، وَمَا أَنْ يَرَى الْعَبِيدَ هَذِهِ الْبَادِرَةَ مِنْ مَالِكٍ  
حَتَّى يَهْجُمُوا عَلَى عَنْتَرَةَ وَلَا يَنْقُلُهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ سِوَى قُدُومِ مَالِكِ بْنِ  
زَهْرٍ . هَكَذَا يَدْبُ الْخِلَافُ فِي الْقَبِيلَةِ وَتَحْدُثُ الْفِتْنَةُ الْكَبِيرَى الَّتِي  
يَتَدَخَّلُ فِيهَا الْمَلِكُ ، وَتَتَشَابِكُ الْقَضِيَّةُ حِينَ يَهِينُ شِدَادُ عَبْدِهِ ، فَيُخْلَعُ  
عَنْتَرَةَ ثِيَابُ الْفَرَسَانِ وَيَعُودُ إِلَى رَعَى الْأَغْنَامِ بَعْدَ أَنْ هَزَمَ فِي هَذِهِ  
الْجَوْلَةِ هَزِيمَةً مَنكَرَةً .

فَدَعَا عَنْتَرَةَ أَذْنَ الَّتِي أَرَادَ أَنْ يَنَالَ بِهَا نَسَبَهُ وَمَكَانَهُ بَيْنَ  
الْفَرَسَانِ قَدْ فَشِلَتْ ، فَلَا هُوَ نَالُ حَرِيَّتِهِ ، وَلَا هُوَ نَالُ حَبِيبَتِهِ ، وَلَا هُوَ  
حَقِيقُ مَكَانَتِهِ مِنَ الْقَبِيلَةِ ، وَإِنَّمَا غَدَا الْمَذْمُومُ الْمَذْهُورُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ .  
وَتُصَلُّ عَقْدَةُ النِّسْبِ هُنَا إِلَى قِمَتِهَا بَعْدَ أَنْ عَجَزَتْ أَمَامَهَا جَمِيعُ  
الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، فَيَقِفُ عَنْتَرَةُ مُسْتَسْلِمًا يَقُولُ لِأَبِيهِ : « يَا مَوْلَايَ . .  
أَفْعَلْ بِي مَا تَرِيدُ ، وَاحْكَمْ عَلَى حَكْمِ الْمَوَالِي عَلَى الْعَبِيدِ ، وَالْعَبْدُ مَا لَهُ  
غَيْرُ مَوْلَاهُ ، أَنْ أَبْعُدَهُ أَوْ أَدْنَاهُ ، وَأَنَا أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي أَنِّي مِنَ الْيَوْمِ  
فَصَاعِلًا قَدْ امْتَثَلْتُ أَمْرَكَ ، وَلَا أَقْصِرُ عَنْ خِدْمَتِكَ ، وَلَا أَفَارِقُ رَعَى  
الْجَمَالِ ، وَأَكُونُ عَلَى خِفْظِ أَمْوَالِكَ وَاعْيَا ، وَلَا أُرْكَبُ جَوَادًا وَلَا أَجْرِدُ  
حَسَامًا مَعَ الْإِبْطَالِ ، وَلَا أَنْطَلِقُ بِالشَّعْرِ أَبَدًا وَلَوْ شَرِبْتُ كَاسَاتِ الرَّدَى  
مَعَ الْإِنْدَالِ » . (١)

وَتُصَلُّ الْقِصَّةُ إِلَى قِمَّةٍ مِنْ قِمَمِهَا ، وَالْإِلَى نَقْطَةٍ يَتَحَوَّلُ عِنْدَهَا



عجراها حين تخرج القبيضة في غزوة من غزواتها تاركه بعض  
فرسانها لحماية الحي ، فيهاجمهم عدد كبير من الفرسان لا طاقة لهم  
به ويهزمهم هزيمة لا يجذون لهم خلاصا منها الا في غنطرة الذي كان  
يقف بعيدا بين العبيد حيث ارادوا هم ان يقف . ويأبى غنطرة ان يترك  
مكانه الا بعد ان يستلحقوه ويشهروا نسبة بآبيه ، ويظهر منهم الدل  
والتقصير فيجيبونه الى ما طلب ويشهدون الناس على انه من ولد  
شداد ، حينئذ يسرع غنطرة فيكشف عنهم الغمة وتنتهي المعركة وقد  
فدا غنطرة فارسا من فرسان بني عيس وابنا معترفا به لشداد بينما  
مالك - في حمى القتال - قد وافق على زواجه من ابنته عبلة .

وهنا ينتهي الصراع من اجل النسب ، ويبدأ صراع جديد من  
اجل تثبيت حقوق غنطرة التي حصل عليها . وذلك لان أعداءه اخذوا  
يلجئون الى الحيلة والفدر بعد ان أعجزتهم القوة . فعمارة الوهاب  
يكتري فرقة من الصعاليك يقودها عروة بن الورد لقتل غنطرة ، الا ان  
هذه المكيدة تنتهي بتثبيت مكان غنطرة بين الفرسان اذ ينضم اليه  
عروة وفرسانه ويصبحون من أعوانه وأجناده .

ويقع عمارة اخوه في اسر ذليل ومعهم الامير شابس الذي ناصب  
غنطرة العداء منذ اليوم الاول ، ولا ينجيهم من هذا الدل سوى ذل  
اكبر منه وهو ان يكون مخلصهم غنطرة . ويصانعه الكل بعد ان الحسوا  
بان سلاح الفدر لن يصلح معه كذلك .

ويلجأ مالك - ابو عبلة - الى حيلة اخرى ليعمد بها غنطرة ،  
تلك هي ان يطلب منه مهرا لعبلة ألفا من النوق العصافير التي لا توجد  
الا عند الملك النعمان وهو ملك كبير لن يقدر غنطرة - كما قدروا -  
على هزيمة جنده . الا ان هذه المسألة انما تعتبر خطوة جديدة نحو  
تثبيت الانجاد التي حصل عليها غنطرة ، بفرصة له وقد أصبح حرا  
بين الأحرار وقائدا لعروة وفرسانه ، ان يصبح كذلك ذا مال وذا مركز  
حين يحارب جند النعمان وحين يلقي الفرسان في بلاط كسرى وحين  
يرد هزيمة النعمان الى نصر وحين ينقذ اموال كسرى ، فيسير ذكره  
وتتحقق له من معالم الفروسية ما لم يكن من الممكن ان يتحقق بغير هذه  
الرحلة الخطيرة التي خرج فيها باحثا عن مهر عبلة من النوق العصافير  
فعاد بالنوق والشهرة والمجد واعتبراف العالم كله بنمنا له من مكانة  
بين الفرسان .

والمؤلف في هذه المغامرة يربط لنا بين الجزيرة العربية وبين  
ما حولها من أمم ربطا واعيا ، فهو حينما وضع غنطرة - البندوي  
الجلف - وسط بلاط كسرى صور لنا معالم تلك الحضارة المتربة



حين يحارب جنود النعمان وحين يلتقى الفرسان في بلاط كسرى. وحين  
من غدر ملوك الفرس بالملك المنذر ، ملك الحيرة ، كما يعرض لنا صورا  
من معارك عنبرة ضد فرسان « فارس » اربابا بما سبناه من  
معارك لعنبرة مع اشد فرسان الامم واقواهم .

وفي هذه الرحلة يتعرف عنبرة بعمر بن نفيلة وزير المنذر -  
« وهو من جلة العمرين المنتظرين لظهور سيدنا محمد صلى الله عليه  
وسلم لانه قد عاش خمسمائة عام » . (١) كما يظهر في القصة ايضا  
عبد المطلب - جد النبي - وتسبح الفرصة لعنبرة فيلتقى بفرسان  
الروم كما التقى بفرسان العجم ، ويرد عنبرة على كسرى ماله او تصبح  
قصة حبه لعبلة هي حديث البلاطين ، ويقول له كسرى : « وجق  
النار يا عيسى لو اعطيتك ملكي لكان اقل قليل في مقابلة فطك  
الجحيم ، فان عطاءنا ينقد ومديحك لنا يبقى ، فتان واطلب مايكفيك  
فلعلنا على بعض فعالك تكافيك » . (٢)

وفي هذه الرحلة ايضا يجمع المؤلف بين فارس العرب  
- عنبرة - وبين فارس اسطوري له كيان بوقيمة في الاساطير الفارسية  
ذلك هو رستم . ويتم بين البطلين الاسطوريين مصارعة تنتهي  
بهزيمة رستم واقاراره بالفضل لعنبرة فارس العرب .

وبينما عنبرة طائد الى دياره ، اذا به يلتقى بعبلة لقاء رائيا  
وسط الصحراء حيث يجدها تبكي وتنوح لان اباها واخاها قد  
اسرهما فاوس من بني كنانة وغرض ان يطلق سراحهما نظير زواجه  
من عبلة فوافقاه وحملها معها في طريقهما اليه ، فيلقاهم عبد من  
بني الريان يامر البنات ويتمتع بهن ثلاثة ايام ثم يسلمهن للموئيد  
الذين معه فاذا ما شبعوا منهم يدبحونهن ويشوونهن ويأكلونهن .  
ويلتقى الفارس الكناني - الذي دام زواج عبلة - بهذا العبد من بني  
الريان لقاء مخيفا فيقتله العبد ويأسر مالكا وابنه اللذين حاولا الهرب  
منه ولحقا بقافلة لعمارة الوهاب ولكن العبد ادركهم واسرهم جميعا .  
هذا اللقاء الروائي بين عنبرة وعبلة الذي جسده فيه المؤلف  
كل ما يمكن ان يلحق بها وبأهلها - بل وبينى عيسى جميعا - من ذل  
وهوان اذا ما تخلى عنهم عنبرة يمثل القمة في المرحلة الاولى من  
مراحل حياة البطل . فعنبرة الذي خرج ذليلا حقيرا غاد فارسا  
شهيرا ، وبنو عيسى ومعهم عبلة الذين غادرهم عنبرة اسيادا يعود  
ليجدهم في موقف لا يحسدون عليه بعد ان انتقلوا من ذل الى ذل

(١) السيرة مجلد ١ ص ٢٥٨

(٢) السيرة مجلد ص ٢٨٧

وأصبحوا يسامون على حياتهم بنسائهم . وينهد هذا الموقف لنصر جديد يحوزه عنتره على كل أعداء عبيلة ، ويقضى على ذلك العبد الباقي فيقتله هو ومن معه من عبيد .

الا أن المؤلف لا يختم هذه المرحلة الختام السعيد قبل أن يقيم الحجة على أعداء عنتره من بنى عبس كما أقامها على عبلة وأبيها وأهلها ، فيدفع بعمارة الى محاولة جريئة لاختطاف عبيلة الا انها تنتهى نهاية مريرة اذ يقع هو وهى معا فى الأسر ولا يخلصهم منه الا عنتره بعد أن حاول الربيع - أخو عمسارة - انقاذ أخيه فوقع هو الآخر فى الأسر ولم ينقدهم من هذا الدل سوى عنتره الذى هزم الفارس وعاد بعبلة وأهلها الى خيامهم .

رغم هذا كله ، ورغم ما حقق عنتره من نصر تلو نصر ، ورغم ما أصاب بنى عبس من ذل اثر ذل ، الا أن المؤلف اخذ يطيل فى هذا الجزء من روايته اطالة تبدو متعمدة وكأنما هو يريد أن يبنى فوز عنتره بعبيلة على أسس متينة لا مجال للشك فيها . فالمناوؤون لعنتره يجتمعون عليه ويرفضون حقه فى ابنة عمه ، ويخرج عنتره من ديار عبس مقررا الا يعود وفى الطريق يلتقى بمغامرة لها مابعداها اذ ينقل امرأة وبناتها من الأسر بعد أن يقتل الباغى الذى أسرهن ويعود بهن الى ديار بنى الحارث - حيث كانوا يقطنون - رافضا أن يأخذ على جميله اجرا .

أما بنو عبس فيفرحون لهجرة عنتره ، ويستعد مالكا - أبو عبلة - لزفاف ابنته الى عمارة وكأنما لا عهد هناك بينه وبين عنتره ، يؤيده فى ذلك الأمير شاس ، غير أن الملك زهير يقف من الامر موقفا آخر اذ يغصب من ذلك غضبا شديدا ويأمر مالكا أن يرد الى شداد مال ابنه الذى جاء به مهرا لعبلة كما يأمر بعمارة فيجلد أمام الجميع بينما يفقد شاس فى احدى الغزوات ويقع أسيرا بين يدي واحد من بنى الحارث .

وفى الأسر يضطر شاس - حين يفتخر عليه بنو كندة بامبريء القيس بن حجر - أن يذكر لهم امر عنتره مفاخرا به ويشعره . ويتصادف أن تكون المرأة التى افتخرت عليه من بنى كندة هى نفس المرأة التى انقلدها عنتره - وبناتها - من الأسر ، فترسل سرا رسولا الى عنتره يخبره بوقوع ابن ملكه أسيرا وتعمل على تخليص شاس من الأسر . حينئذ يقول شاس لنفسه : « هذه فعال عنتره معى ومع سائر الناس وهو ابن الأمة ، فكيف تفعل أنت بضده يا شاس وانت ابن حرة مكرمة » (١) ويصل عنتره الى شاس فى الوقت المناسب لينقذه من الموت .

هذا الجانب من جوانب الكفاح والصراع الذي يقدمه المؤلف في الجزء الأول من روايته يبين بجلاء أزمة العبودية التي حاول عنترة أن يخلص منها مقدما في سبيل ذلك كل جهد ، كما يبين أن عبلة كانت تسبب له من مجالات الصراع الشيء الكثير . فقد سمع بها فارس من فرسان العرب يدعى « روضة » فأراد أن يغير على بنى عيس ليأسرها ويتزوجها ولكن عنترة يلتقى به ويأسره . ويقف بنا المؤلف عند هذا الموقف ليقدّم لنا جانبا آخر من جوانب شخصية عنترة ، ويرينا مقدار ما يمتلئ به قلبه من رحمة وحنان إذ يضعف — بعد أن أسر روضة — أمام أمة وأخوته الثلاث حينما طلبن منه أن يفك أسره فلان قلبه يوافق سراحه .

ويعود عنترة بشاس وهو على شفا الموت الى بنى عيس ويصبح من اللازم على مالك أن يزوجه من عبلة ، ولكن مالكا كانت لا تزال في جعبته أشياء فهو يطلب من عنترة أن يأتيه بفارسة شهيرة هي « الجيداء الينة زاهر » لتقود ناقدة عبلة عند الزفاف وكأنما أراد أن يرميه في مهلكة أخرى إذن أن الجيداء كانت ابنة عم خالد بن محارب وهو من أكبر بيت في بنى زبيد و « كان أبوه محارب بن جيشان يقرب الى معديكرب فارس بنى زيد أبى سيدنا عمرو صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١) .

فالمؤلف يجمع في هذه المغامرة الجديدة بين فارس عربى مشهور كمعديكرب وبين عنترة ، كما ينتهز هذه الفرصة ليحكى لنا قصة الحب التى بين خالد بن محارب وابنة عمه الجيداء .

ويأسر عنترة الجيداء بعد أن كان خالد قد أسر عبلة . وبعد فترة تقع عبلة في أسرى بسطام فارس بنى شيبان فيأسره عنترة ويسير به الى ديار بنى شيبان لتخليص عبلة الا أنه يجد بنى شيبان وقد وقعوا في أسر فارس جبار فيتحالف هو وبسطام ويخلصون عبلة وأخت بسطام من أسره .

وخطوة بعد خطوة تزداد قيمة عنترة كفارس وتزداد شهرته في أرجاء الجزيرة العربية التى يقطعها من شمالها الى جنوبها في مغامرات لا نهاية لها سعيًا وراء تخليص عبلة . فمالك أبوها يتهرب من عنترة باستمرار وهو بهذا يوقع نفسه وابنته في الشدائد التى لا يخلصهم منها الا عنترة الذى يزداد فرسانه واتباعه باطراد ، أما عمارة وأخوه الربيع فيصل بهما التآمر الى حد رشوة أحد القتل المحترفين ليقتل عبلة بعد أن أعجزهم قتل عنترة . وتنتقل المغامرات مرة أخرى الى أرض النعمان



ابن المنذر حيث يستطرد الكاتب في سرد قصة النعمان مع المتجردة ابنة الملك زهير حينما هرب الزبيع الى أرض النعمان وأخذ يعريه بها :

ويتجمع أصحاب المؤامرات على عنتره من كل ناحية ( بنو زياد وبنو فزارة ) الا أن عنتره يتمكن من اقامة الحجة عليهم ويثبت ختلهم ومكرهم ويدور القتال بالفعل بين بنى عيس وبنى فزارة ( الذين استاجر الربيع عبدهم بشارة ليقتل عبلة ) ، ويأسر عنتره الربيع وأخاه عمارة ويحملهم الى الملك زهير ولكن الفتنة تقع بين بطون عيس فتفرق بينهم . وكحل لهذه الفتنة يفصل بنو قراد ويخرجون من مضارب بنى عيس ، بينما يرسل الملك النعمان أخاه « الملك الاسود » ليقتل عنتره ويأسر قبيلة بنى عيس الا أن عنتره هو الذى يأسر الملك الاسود ويقضى على جيشه كما يأسر الفارس العربى معد يكرب الذى يعمل للنعمان مما يضطر الملك النعمان الى أن يفدى أخاه وقارسه بعبلة التى كان قد هرب بها اليه بنو زياد . ويتخرج موقف النعمان بعد أن تصل الى كسرى اخبار عجزه عن ملاقة عنتره وقتله فيرسل اليه بقائده « خدوا » الذى عزله ووضع مكانه أخاه الملك الاسود .

وكما اثبت المؤلف دالة عنتره على بنى عيس اجمعين فانه يحاول كذلك أن يثبت له هذه المكانة على جميع فرسان العرب المشهورين ، ثم على اكبر ملوك العرب فى تلك الفترة وهو النعمان . وبعد أن مهد عنتره لنفسه الجزيرة العربية بتغلبه على أشهر فرسانهم من أمثال معد يكرب وذى الخمار - الذى كان يقارن بألف فارس - ودريد بن الصمة شيخ العرب ، تجتمع جيوش العجم ومعهم جيش العراق بقيادة الملك الاسود لمهاجمة عنتره وبذلك تصبح المعركة هى معركة العرب ضد العجم لاسيما وأن دريد ابن الصمة قد انضم الى عنتره واتحد معهم كبار فرسان الجزيرة مما سهل عليهم هزيمة جيش العجم وتمكنوا من اعادة النعمان الى ملكه .

ويعود عنتره من أرض العراق منتصرا محققا ما أراد من اقرار فرسان العرب له بالاولوية والبطولة ليجد أن قبيلته كلها - كما فيها الملك زهير - قد أسرت فيخلصهم عنتره . ويموت الملك زهير فيتولى مكانه ابنه قيس بن زهير الذى تربطه صلة النسب بالربيع وبنى زياد .

وتنتقل القصة الى بلاد اليمن لينصر عنتره محبا وقفت الاحداث بينه وبين حبيبته، ويثبت عنتره فى هذه الرحلة مكانته فى الجنوب كما اثبتتها من قبل فى الشمال ، وفى هذه المرحلة من القصة يوضح المؤلف مكان عنتره عند ملك بنى عيس الجديد ، كما يذكر انتصاره على بنى زياد وبنى حذيفة الذين تمادوا فى عداوته ، ثم يلتقى عنتره بالفارس



القبلى « مقرى الوحش » فيأسره عنثرة ويصبح هذا الفارس الكبير أحد أعوانه . وتدور الدائرة على بنى فزارة بعد قتلهم للامير مالك ابن زهير - صديق عنثرة وأخى قيس ملك عبس الجديد - ليقتضى عليهم بنو عبس .

وتستقر الأمور لعنثرة بعد أن أذل جميع أعدائه وتبوا مكان الصدارة فى الفروسية غير منازع ، إلا أنه لازال فى قلبه من عبلة حرقه ، وهنا يقول الملك قيس لعنثرة فى وليمة نصره : « وحق البيت والكعبة الفراء ، وأبى قبيس وحراء ، لا أقبل كلام انسان ، حتى تدخل عبلة على جامية عبس وغدنان » (١) وبدأت القبيلة تستعد لزواج عنثرة وفى هذا الزواج يتم تتويج عنثرة ملكا على الفرسان اذ يقدم عليه جميع المشهورين من فرسان العرب بالهدايا وبالشعر يمدحونه فيه ويقررون بفضله .

وقد شئنا أن نتبع تطور شخصية عنثرة فى هذه المرحلة بخطوة خطوة حتى نحس بذلك المجهود الذى استطاع المؤلف بواسطته أن يجعل من اللقاء السعيد قمة يقف عندها عنثرة وقد تمهدت الأرض تحت اقدامه مرشحة اياه للمهمة التى أعلن عنها المؤلف فى صدر كلامه وهى تطهير الأرض من الجبابرة الكافرين أمام الرسالة المحمدية . والواقع أن عنثرة ما أن يصل الى هذه القمة الا وقد انعقدت له الوية النصر فى مجتمعه الخاص وفى مجتمعه العام بعد أن قتل من المحاربين كل من وقف فى طريقه ، وبعد أن اكتسب من الحروب التى خاضها فى شمال الجزيرة وجنوبها خبرة صقلته وجعلته صالحا للمرحلة الثانية من مراحل حياته فى تسلسل روائى طبيعى بعيد عن التصفى والتضارب بحيث نستطيع بعده أن نتقبل عنثرة على أساس أنه المثل الحى لنموذج الفارس العربى الكامل ، فقد مر علينا فى سيرة حياته وفى أحداث كفاحه ما يجعلنا نطمئن الى كل مأسوف يأتى من أفعال بعد ذلك . وقد استطاع عنثرة أن يتغلب على عقدة النسب اذ أرغم بشجاعته وقوته جميع الناس على الاقرار باصالته وبفضله ، كما أرغم أباه وقبيلته أن تفخر بنسبته اليهم وتوج كل هذا النصر بزواجه من إحدى حرائر بنى عبس ، وبين الاعتراف الاعتراف بينوته لشداد وبين زواجه من عبلة مرحلة كان لابد للمؤلف أن يقطعها على حذر ذلك أنه لا يريد لبطله أن يحصل على حقه افتئاتا وعن كره من الناس وإنما شاء أن يجعل حقه هذا عن رضى كامل وباقرار واعتراف من الجميع .

وبطلنا فى هذه المرحلة ( مرحلة التكوين ) بطل ذاتى ، بمعنى أنه

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٢٣١

يعبر - كفرد - عن مشكلات خاصة به ويصارع في سبيل التغلب على صعوبات يتعرض لطريقه ، هذه الصعوبات هي وليدة نظام اجتماعي سبىء يعيش فيه العرب ويسبب للكثيرين من أفراده التفسخات والعقد النفسية نتيجة لما فيه من طبقة وارشتراطية تقسم الناس الى ألوان وأجناس ، وتجعل للصفات الجسدية ( كاللون والشكل ) ومن الصفات الوراثية ( كوضع الأم الاجتماعى ) أهمية تفوق تلك التى الخصائص الذاتية التى تؤهل الفرد فى المجتمع السوى للحصول على ما يريد .

هذه المرحلة ذاتية كذلك لان قصة الحب فيها تشغل الجانب الأكبر من اهتمام المؤلف كما تشغل الجانب الأكبر من اهتمام البطل حيث تصبح هى مدار اهتمامه وشغله الشاغل الذى يملأ حياته بكل ألوان الجهاد والكفاح .

هناك دافعان اذن يتحكما فى شخصية بطل هذه المرحلة ، أحدهما دافع ينبع من وضعه الاجتماعى والثانى دافع ينبع من علاقة الحب ، والدافعان معا يشبان ذاتية البطل كما يشبان مافيهما من ضيق أفق الهدف بحيث نستطيع القول بأن عنصرة فى هذه المرحلة عربى عادى يسعى وراء هدف ذاتى حين يحققه تنتهى القصة . ولكن هذه المرحلة فى السيرة تعتبر مرحلة ولادة للبطل الاسطورى الذى يواجه أشياء فوق الاحداث وأقوى من العقبات وأبعد من مواصفات اللون والجنس والتقاليد واحد من كل قيد يربط البطل بمشكلات ذاتية تحدد معاله . أى أن عنصرة بحصوله على الكانة الاجتماعية والزوجة العربية قد انفلت من قيود ضيقة كانت تحد من حركته وتجعلها تسير فى نطاق ضيق ليبدأ فى المرحلة الجديدة شيئاً جديداً سوف نراه فيما بعد .

وهذه المرحلة الذاتية من حياة عنصرة تعتمد الى حد كبير على ما نقلته كتب الاخبار وكتب الادب مع ما عرف عن حياة عنصرة - الشاعر العيسى - من معالم رئيسية تحدد معالم شخصيته وتروى قصة كفاحه ، الا أننا نحس أن هذا الجزء الذى يربط بالتاريخ قد تناولته يد تعرف هدفها فخلقت حوله من الاحداث والمواقف ما يبلور الحقيقة التاريخية تدريجاً لتكون تمهيداً لظهور بطل اسطورى أشبه ببطل الملاحم وأقرب الى شكله العام من حيث أهدافه ودوافعه .

وليس من عجب أن اختار المؤلف هذه الشخصية بالذات من بين مئات الشخصيات التى تذخر بها كتب التاريخ والادب ، إذ أن الأهداف التى يسعى إليها عنصرة ليتحرر تكاد ترمز - الى حد كبير - الى أهداف المجتمع العربى فى التحرر من ربة التقاليد الخاطئة والنظم التى تحد

من انطلاقه وتطوره . والذاتية التي يعيشها البطل في هذه المرحلة تكاد تمتزج امتزاجا بموضوعية واضحة المعالم هي صراع المجتمع العربى كله ، وهذا المزج يأتى طبيعيا وبلا تعسف بحيث لا تكاد نحس به اطلاقا فضلا عن انه يحقق لهذه المرحلة من الرواية سعة الافق ورجاحة الميدان .

ويضبط المؤلف في حذق وبراعة على تحديد معالم المجتمع العربى من خلال شخصية بطله محللا الدوافع والاسباب التي ترسم حركته سواء في علاقته الداخلية - بين أفرادها هو - أو في علاقته الخارجية مع الامم المجاورة سواء ما هو عربى الاصل منها وما هو اجنبى عنها تماما . وحين ينتهى المؤلف من هذه المرحلة يكون قد رسم لنا اطار المجتمع العربى رسما دقيقا وحدد العلاقات الحقيقية فيه مبررة بواقع البيئة مرة وبواقع التاريخ مرة وبواقع مايجيش في هذه الجزيرة آنذاك من محاولة للتجمع واحتلال مكان مناسب على خريطة العالم .

ورغم احداث الرواية المتشابكة في هذه المرحلة الا اننا لا نخطئ خلالها صورة دقيقة للمجتمع العربى قبل الاسلام ، كما لا نخطئ خلالها صورة لما كان في الجزيرة العربية آنذاك من ارهاصات بظهور دعوة توحد قبائلها وتواجه الامم المجاورة . ونحسب أن شخصية عنتره كانت هي المهاد الطبيعى الذى اعطى المؤلف فرصة تحديد العلاقات بين العرب والناذرة وبينهم وبين الفساسنة ثم بينهم وبين اليمنيين من ناحية ، كما اعطاه الفرصة ليحدد العلاقة بين الجزيرة العربية وبين امبراطوريتى الفرس والروم المتاخمتين لها .

وقد اطلقنا على هذه المرحلة اسم « مرحلة التكوين » . لانه فيها تكونت شخصية البطل ، وفيها تكونت معالم البيئة ، كما أن فيها تحددت العلاقات بين جميع الأطراف المكونة للرواية .

ولسنا نريد أن نترك هذه المرحلة قبل أن نشير الى النماء التدريجى الذى عمد اليه المؤلف . فهو يقدم من الحوادث ما يبرر كل تطور جديد في شخصية بطله ، بل هو يعقد الأحداث ويجعلها تتشابه حتى يجعل من نصر بطله قيمة حقيقية في تطوره . كما أن مزجه لقصة الحب بقصة المجد يدل على براعة روائية اذ قد أمكنه أن يعكس كل تطور جديد في شخصية البطل على قصة الحب ، وأن يحدد معالم معينة في شخصية

هذا الفارس تصبح بعد ذلك سمات ملازمة له ، فقلبه العامر بالحب هو الذى دفعه الى رفع سيفه دفاعا عن كل قصة حب وأن يتخذ موقفا معينا أمام النساء المستضعفات فيدافع عنهن وينصرهن ويساعدهن دون تمن أو غاية .

وهكذا تسلمنا هذه المرحلة - فى طبيعية ويسر - للمرحلة التالية لها وقد تبلورت فى أذهاننا شخصية عنتره كمثال للفارس العربى فى خلقه وفى تصرفاته وفى دوافعه .



## مرحلة الفروسية أو المرحلة الذاتية

لسنا نقصد حينما نسمى هذه المرحلة من مراحل تطور شخصية عنتره باسم « مرحلة الفروسية » أن نجرد المرحلة السابقة لها من هذه الصفة ، ولكننا نقصد أن شخصية عنتره في هذه المرحلة قد تبلورت بعد أن تخلص من جميع الدوافع الذاتية التي كانت تتحكم فيه من قبل لتحل محلها دوافع أخرى تحدد تقاليد الفروسية العربية . فهذه المرحلة تعتبر تصويرا لسمات الفارس العربي في الجزيرة العربية بكل مقوماتها ، كما أن البطل فيها مؤيد بقوة غيبية حددها الكاتب قائلا : « أن الله عز وجل أسكن في عنتره بن شداد سرا خفيا لا يعلمه إلا الله اللطيف الخبير ، وكان من عادته أنه يقاتل الفارس إلى أن يحل به التعب ، فإذا انفصل منه وتأخر قليلا - قدر باع أو ذراع - رد الله عز وجل عليه قوته وضاعفها فيرجع إلى خصمه ويأخذه من الميدان أسيرا أو يتركه قتيلا » . (١)

ويحدد المؤلف في هذه المرحلة الفرسان الذين التقى بهم عنتره فأبسرهم أو قتلهم بسبعين جبارا من جبابرة الفرسان مثل ذي الخمار - فارس بنى حمير - وصهره دريد بن الصمة ، ومثل زيد الخيل ، وعامر ابن الطفيل ، ومعديكرب الزبيدي وعمه خالد بن محارب ، ومثل عمرو بن العامري الذي كان يعتبر في ذلك الزمان « فارس من كفر » ، ومثل جبار بن صخر وعمرو بن ضمرة الفسائي وعمرو بن العقاب فارس بنى كندة ، ومثل معاوية بن النزال ومسعود بن مضاد ، ومثل عقريب السواحل فارس جزائر البحار ، ومثل حجار بن عامر وسليكة بن سلعة وإياس بن قبيضة وأنس بن مدركة الخثعمي ومسحل بن طراقي ولبنى الأشبال وطود الأطواد وعبد زنجير وعبد هياف . وهؤلاء الفرسان لا يوجد مثلهم في مشارق الأرض ومغاربها ، فكان عنتره بن شداد يأبسرهم أو يقتلهم أو يجز نواصيهم . ومثل هذا فعله مع الملك الأسود بوجسون والرميم المسعود وفاز القضاء ، وقيصر ملوك الأفرنج ، وصافات صاحب بلاد الظلمات ، وكسرى ، ومثل ملوك أرض خراسان وبيوت النار الحمية والملكة الفارسية . وقد أسر عنتره ورد شاه وظالم وعروة والحارث بن ظالم واللقيط بن زرارة . . . » قال الراوى : بإسادة -

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٢٥٠

لو شرحت ذلك وذكرت قصة كل منهم لسكت الكتاب ، وكل اللسان عن الجواب . وكانت صفة عنتره في ذلك الزمان كزناد خرج منه نار فمهد الله سبحانه به الارض ، فسبحان من خلقه وسواه وأعطاه . (١)

اكتملت للفارس العربى عدة الجلاذ ومميزات الفروسية مما يذكرنا بسمات الفارس المعروف في القرون الوسطى في الادب الاوروبى . فله سيف عزيز عليه يقطع كل شيء ولا يتلم حده شيء ذلك هو «الضامى» الذى صنع من قطعة من شهاب سقط من السماء ، وله فرس لا يدركها فرس تسابق الريح وتفهم مواقف الحرب والنزال وتالف صاحبها أشد الألف ، يتحير من رشاققتها وسرعتها ومهارتها الفرسان تلك هى «الابجر» وله رفيق اتقن الحيلة وبلغ من الذكاء الغاية ووصل القمة بين السلاطين ، أسرع من الريح اذا جرى وأمهر من الشيطان اذا تنكر ذلك هو أخوه «شيبوب» . وله رفقة سلاح يلازمونه في معاركه ويحاربون تحت رايته مثل عروة بن الورد وصعاليكه ومثل صديقه الفارس الكبير مقرى الوحش . وله عزوة ينتسب اليها وقبيلة يعرف بها تنتصر له وينتصر لها تلك هى قبيلة عبس . وله حبيبة يناديها حين يخلو به الطريق في الصحراء وينطق باسمها عند موطن النزال ويحارب من أجلها في سبيل اشرف المثل وارفع الغايات تلك هى عبلة زوجته وابنة عمه .

ماضيه اذن ملئ بقصص البطولات والانتصارات ، وحاضره يحمل كل مميزات الفروسية التى عرفتها المدنية في فترة من الفترات كظاهرة اجتماعية لها أهميتها ، واسمه أصبح رمزا للكمال حتى انه غدا مقصدا لكل طالب شهرة يريد ان يصيب من لقاء عنتره ذيوعا في الاسم ورفعة في القدر . ونحن نلمح تلك الظاهرة في بداية هذه المرحلة حين يفاجئه في ليلة عرسه فارس عنيد اسمه «العقاب» فيقتله عنتره .

ويبدأ عنتره أولى رحلاته بعد الزواج على شرف الفروسية اذ يخرج هو ورجاله ليعيدوا الى صديقه مقرى الوحش حبيبته مسيكة من بلاد الشام . كان مقرى الوحش قد خرج يبحث - مثل عنتره - عن الف من النوق العصافير هى المهر الذى طلبه ابوها ، الا انه اثناء غيابه احبها غدير بن الملك الغسانى وخطبها من ايها الذى رفض فقر غدير ان يخرج في خمسمائة فارس ليسبى الفتاة . وهنا يصل عنتره ومقرى الوحش وتدور المعركة بين فرسان غسان وفرسان الحجاز الذين قتلوهم ونكسوا اعلامهم وعاد عنتره بصديقه وحبيبته الى ديار بني عبس . ولكنهم ما ان يصابوا الى بني عبس حتى يجدوا الديار خالية .

فقد عرف النعمان بهلاك بنى فزارة فارس ل جيشه ليقضى على بنى عبس .  
اما قيس وقبيلته فقد هربوا يحتمون بالجبال ولحقهم عنثرة . واخذ  
النعمان يؤلب القبائل على عبس بينما اخذ الشر يقغ تدريجيا بين بنى  
عبس وبين القبائل التى تجاورهم فى الجبال حتى اذا ما حاول احد  
فرسان تلك القبائل اغتصاب فتاة عبسية قتله مكرى الوحش ، بينما  
قتل عنثرة فارس بنى حذيفة لغدرهم بعبس التى بدأت تتحرك نحو  
اليمن .

وهنا نجد مظاهرتين متتاليتين لا هدف لهما الا اقرار الحق ونصرة  
المظلوم والانتقام من الغادرين . ونلاحظ انه فى حالة مكرى الوحش  
يجابه عنثرة ابن الحارث ذاته ويقتله دون خوف من منزلته ولا منزلة  
أبيه ، وفى حالة الفتاة العبسية يجابه عنثرة بنى ريبال كلهم حفظه  
لشرف فتاة عبسية .

ويستمر بنو عبس فى هروبهم من وجه النعمان الى ان يجاوروا  
قبيلة بنى سعد وكان لبنى سعد فارس مشهور هو معاوية بن النزال الذى  
يرسل جاسوسة تستطلع اخبار بنى عبس فترى عبلة وتنقل للفارس  
اوصاف حسننها وجمالها فيهم بها ويحتال لخطفها بعد اسر الملك قيس  
وبعض اشراف بنى عبس بواسطة الغدر والخيانة فتسور الحرب بين بنى  
سعد وبنى عبس حتى يهرب الفارس اليمنى ورجاله . هكذا نجد ان  
المعارك تدور هنا لا بين عنثرة ومعاوية وانما بين الشماليين والجنوبيين  
لا سيما بعد ان اتصل معاوية بملوك بنى تميم وحاول ان يعقد حلفا  
ضد بنى عبس ، ولكن المعركة تنتهى بهزيمة فرسان بنى تميم ومصرع  
معاوية . وتجتمع القبائل اليمنية كلها ضد بنى عبس ولكن النصر  
يستمر حليفهم على ملوك اليمن وفرسانها .

يحاول المؤلف بهذه القصة ان يؤكد فضل فرسان الحجاز على  
فرسان اليمن ، فهم — رغم قلتهم — ينتقلون من نصر الى نصر بفضل  
عنثرة الذى يحقق للشماليين نصرا كبيرا على الجنوبيين . ويستمر  
زحف بنى عبس حتى يصلوا الى نهاية بلاد اليمن ويواجهوا بلاد  
السودان .

والواقع ان رحلة بنى عبس هذه تذكرنا برحلات كثيرة فى قصصنا  
الشعبى تحقق للقبيلة المهاجرة نصرا تلو نصر وكان فارسها يجوب الافاق  
بحثا عن المغامرات وذيوع الصيت واقرار الامم له بالفضل والغلبة .

وتتكرر القصة مرة اخرى . . قصة غرام ملك جديد بعبلة ، وغدر  
جديد يقغ على بنى عبس من جراء هذا الغرام ، وهزيمة جديدة تصيب  
القبيلة : الغادرة . وكأنما يريد المؤلف ان يجعل من عنثرة فارسا كبيرا



لا يشق له غبار في رد الغدر الذي يتمثل في ملوك القبائل ورؤسائها  
ومتترفها ، كما اراد ان يجعل من عبلة رمزا للجمال تذل اعناق ارجال  
يحسنها كما اذلهم زوجها بشجاعته .

وهنا تظهر اولى صور السجر ، الا انها تتكسر عند اقدام عنتره  
الذي تحميه قوة اسطورية منه . ويتجمع الملوك في شبه حلف ضد  
بنى عبس الا ان عنتره يقتلهم ملكا في اثر ملك . وحين يصل الموقف  
الى تأزمه بين بنى عبس وبين قبائل اليمن الذين تجمعوا واتحدوا عليهم  
يظهر الملك عمرو بن هند - اخو النعمان - في جيش لجب يفصل بين  
المتحاربين ذلك ان الملكة المتجردة - زوجة النعمان واخت الملك قيس  
ملك عبس - اقنعت زوجها النعمان برد غربة عبس فيوفد اخاه لاعادتهم  
ويرحل الجميع عائدين بعد ان يكون عنتره قد حقق في بلاد اليمن  
نصرا كبيرا للشماليين .

وفي طريق العودة يتعرض لهم الفارس الشهير « ذو الخمار »  
اثناء غياب عنتره ولكنه يهزم امام عددهم الكبير ، كما يتعرض لهم قبيلة  
بنى عامر ولكن هذا اللقاء يسفر عن مؤاخاة فارسهم عامر بن الطفيل  
لعنتره بعد ان اقر بفضلهم وقال لمن يحاجه في امره : « قد رايت من كرم  
نفسه وطيب أصله وشجاعته ما لم ار مثله من بشر مع ما رايت انت من  
شجاعتى التى لا يحتاج معها الى خبر . وان كنت تقول له نسب فان  
نسبه حسن فعله وأدبه » (١) .

ويرحل عنتره واهله الى ارض عامر بن طفيل حيث يلتقى بفارس  
آخر هو عمرو بن ود العامرى ويستمر القتال بينهما يوما وليلة وينتهى  
بالحلف كذلك اذ يقول هذا الفارس : « قد بشرنى الكهان انى أعيش الى  
زمن النبى العدنانى المبعوث بأشرف الأديان ، احارب فارسه المشهرا لايمان  
وقد كفانا ما لقينا من الحرب وتحررت من افعالنا الشجعان ، ولا بيننا  
ثار ولا كشف عار . وانا مقرر لك بالفروسية والشجاعة والحمية وغرضى  
ان اتخذك صاحبا رفيقا وركنا وثيقا عند نوائب الزمان وطوارق  
الحدثان لانك اوجد الزمان ، وقد يكفيك قولى بين هذه الفرسان  
ما عدت اركب حصانا ولا اضرب بحسام ما دمت انت فى العصر والوان  
الى ان يظهر النبى العدنان الذى دينه ينسخ الاديان ويكسر الاصنام » .

ويلتقى عنتره بالحطيئة - الشاعر المشهور - الذى يخبره بان  
أخاه عامرا قد وقع فى أسر فارس شديد البأس هو زيد الخيل بن المهلهل  
النبهاني ، فى الوقت الذى تتجمع فيه نساء بنى عبس باكيات بين يدي  
عنتره بعد ان غادر ديار عبس مغاضبا - شاكيات من شدة وطأة دريد

---

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٤٣٦



بن الصمة واهله من هوازن على فرسان عبس حتى كادوا ان يفنؤهم  
فيسرع عنتره بملاقاة دريد واسره ثم يشنى بزيد الخيل الذى يفتدى نفسه  
مقسما بانه لن يعود الى حمل السيف فى بوجه عنتره .

وهكذا لم يعد امام عنتره من الفرسان المشهورين احد الا لاقاه ،  
وهو يصطنع الكرم مرة والشهامة مرة والحزم مرة ، ولم يبق امامه  
سوى « ذو الخمار » الذى عاد فى تلك الاثناء لانقاذ دريد بن الصمة .  
ويلتقى الفارسان فى موقعة رهيبة انتهت بأسر ذى الخمار . وكان  
يشرف على هذه الموقعة الملك عمرو بن هند - اخو النعمان - الذى حضر  
على رأس موكب المتجردة - زوجة النعمان لزيارة قومها العبسيين .  
فيصلح عمرو بن عبس وهوازن الا ان ذو الخمار يصر على مبارزة عنتره  
قبل الصلح ويبرر طلبه قائلا : « ما قلت كلامى هذا على سبيل البغى ،  
ولكن انا ابين لك قصدى بهذا الكلام وهو اننى فى هذا العام كنت معولا  
على الحج الى بيت الله الحرام واعتلق لى قصيدة من شعرى حتى تسجد  
لها ملوك الافطار ويعلمو بها قدرى عند سادات العرب . والان فقد  
اصبحت مأسورا وما بقيت اعتمد على امر من الامور الا ان قهرت هذا  
الجبار وتشهد لى العرب بعلو المرتبة والاقتدار » .

وهكذا نشهد مبارزة - مثل مبارزات القرون الوسطى - تدور  
بين فارسين فى حفل رهيى يحضره عمرو بن هند وفرسان القبيلتين.  
الذين يقضون ليلتهم فى سهر وشرب ومنادمة الا ان هذه المبارزة لا تتم  
فى حينها بسبب مرض ذى الخمار ، كاذما اراد المؤلف أن يطيل من امد  
ذلك الصراع الذى يقوم به عنتره فى الجزيرة العربية ليصبح فارسها  
الاول ، وليترك فى نفس عنتره هدفا كبيرا جديدا يقول عنه لبنى عمه :  
يا بنى عمى : ما ذو الخمار الا فارس همام لا يوجد مثله فى الانام ، وما سار  
الا وقد ترك فى قلبى نارا وكلاما . فقال له مقرى الوحش : يا ابا الفوارس  
ما هذه النار والكلام ؟ ابدية لنا ولا تخفيه . فقال ذو الخمار لما كان  
بحضرة اخى الملك النعمان والملك قيس والفرسان قال لهم انه قبل  
اسرى له فى ذلك العام كان اراد ان يعلق له قصيدة على البيت الحرام  
ويترك سادات العرب يسجدون لها فزعا من رمحه والحسام ، وها انا  
اقدر منه عليها ولا ند لى ، أما ابذل روى فيها واترك لبنى عبس شرقا  
يبقى من بعدى « (٢) . ويهول له مقرى الوحش هذا الامر الذى يريد  
أن يقدم عليه الا أن عنتره يصر على هذا الغرض الذى جعله هدفا له  
فى حياته الجديدة .

والواقع ان هذه الحياة - كما راينا حتى الآن - ترسم لنا شخصية

للفارس لا هم له الا حيازة قصب السبق في مضمار الشرف كما يفهمه العربي . فهو كحامل سلاح يلقي في حومة النزال اشهر الفرسان وينتصر عليهم . فمغامرات عنتره في هذه المرحلة من حياته تذكرنا بمغامرات الفرسان في القرون الوسطى في القصص الانجلىزى والفرنسى معا . ومجموعة التقاليد التى تقدمها هذه المرحلة تشبه كذلك تلك التقاليد التى نراها في قصص « سير والتر سكوت » وغيره من الروائيين ، اذ يعيش البطل على حصانه متنقلا في البحث عن المغامرات التى ترفع من شأنه ، وفى السعى وراء الابطال لمنازلتهم والتغلب عليهم . واذ يقيم الامراء والملوك حلبات المصارعة ومجالات المنازلة بين الفرسان يشهدوا جمع كبير من الناس ليحكموا اى الفرسان افضل . واذ يعيش الفارس على ذكر اسم محبوبته - او سيدته - التى يخوض المخاطر فى شرفها . وفى نفس الوقت يرسم لنا هؤلاء المؤلفون مجموعة من التقاليد الخلقية عن الفارس تجتمع فيها الشهامة والنجدة واغاثة الملهوف وقتل المعتدين والغاصبين مهما علت مكانتهم وسمت منزلتهم ، والدفاع عن النساء المستضعفات والاخذ بايديهن ونصرهن دون طمع فى اجر او مثوبة .

الا ان مؤلفنا يقدم لفارسه شيئا جديدا هو الصق المظاهر بمعنى الشرف ورفعة الشأن عند العربى ، ذلك الشئ هو التفوق فى عالم الشعر والوصول الى قمة ما يطمح اليه شاعر من مجد ورفعة ، ذلك ان الشعر كان سمة من سمات العرب يفخرون به قدر فخرهم بالشجاعة ويعتزون به قدر عزهم بالنسب واصالة الاباء والجدود .

وقد قدم لنا المؤلف بطله شاعرا منذ اللحظة الاولى ، الا انه ما ان ينتهى من رسم صورته فارسا مشهورا لا يخضع الا لمقتضيات الفروسية ، حتى يبدأ فى وضع هدف جديد فى حياته هو تعليق قصيدة على الكعبة ليركع عندما سادات العرب ويصل صاحبها - وقبيلته - الى ما لم يصل اليه الا القليلون من الفرسان الشعراء ، ويصبح ذكر حبيبته على كل لسان فى الجزيرة العربية وفى غيرها من البلاد التى يقصد ابناءؤها الى الكعبة للدين أو للتجارة أو لهما معا .

والمؤلف هنا يستند الى حقيقة تاريخية لا شك فيها وهى ان عنتره العيسى واحد من اصحاب المملكات ، والواقع ان هذه هى الحقيقة الوحيدة التى تقف وسط خضم الاحداث الروائية التى يقدمها المؤلف بين يدي هذا المجد الذى يحاول عنتره ان يصل اليه فنحن ما نلبث ان نجد امامنا صورة جديدة للون من الوان الحياة العربية لم يعن المؤلف من قبل بتقديمها وابرازها ، تلك هى صور الجلسات الادبية الحافلة بالمناظرات الشعر والمعارضات القولية . فنشهد جلسة للربيع بن زياد

ينشد فيها قصيدة يتحدى بها عنتره وغير عنتره ، فيقول عنتره على السليقة : « هذه القصيدة التي لا يقدر احد يعفل منها بيتا او بيتين ولا ينظر شكلها ، ولكن اسمع منى على البنادية ما سمح به الخاطر وما تبديه السرائر ، وما كنت به الضمائر ، في وقتنا هذا الحاضر ، قصيدة مثلها اصحاب القصائد بالعلقة على البيت الحرام ، ولا ينال احد غيرى هذه الطبقة من سائر الانام . ثم ان عنتر ترنم وجعل ينشد ويقول .. » (١) - ويورد المؤلف قصيدة يعارض فيها عنتره قصيدة الربيع ، ويدخل عامر بن طفيل فينشد هو الآخر قصيدة يعارض بها الربيع ، وينشد عروة بن الورد قصيدة رابعة ، ويدخل مقرى الوحش بقصيدة خامسة ، ويختتم عنتره المجلس بقصيدة اخرى فيقر له الجميع بالفصاحة والبيان ، حينئذ يقول عنتره مخاطبا عروة : « يا ابا الايض : فمن يكون هذا المقال مقالته ، وهذا القتال قتاله ، ما يصح ان يعاق له قصيدة على البيت الحرام ، ويفتخر بها على الخاص والعام » (٢) .

ولا يقوم عنتره من مجلسه هذا حتى يقبل عليهم رجل يجرى ويخبرهم بانه جاء من البيت الحرام ، وانه سمع عبد المطلب يعظ اهل مكة ويخبرهم ان زمان النبي قد اهل ، ثم يذكر لهم انه قد اشتعل قلبه بهذا الذي سمع فرأى حين نام رؤيا يقول فيها : « كأنني واقف قدام هبل ، وهو الصنم الاكبر الذي على الركن اليماني ، وكأني سألته عن هذا الرجل الروحاني ، وقلت له : يا مولاي متى يكن ظهوره ؟ وفي اي مكان ينتظم سروره ؟ فقال لي : اذا اينعت نخلة يثرب ، ووقع الجوع والفلاء في بلاد المغرب ، وانشق ايوان كسرى وخرب ، ووقعت الوقعة العظمى ، وعلق قصيدته فارس بنى عبس الادهم ، وأجل سفك الدماء في الحرم وذلت له رقاب الفرسان من العرب والعجم ، وأتته الهدايا من ملوك اليمن » (٣)

ويظل المؤلف واقفا عند هذا المشهد ليصور لنا ما دار فيه من كلام ، وكيف غشى على عنتره ، وقوى امله في تعليق القصيدة ، فيطرب هذا الرجل منه ان يصحبه معه هذا العام ليحقق ما رأى في المنام . ثم يصف لنا المؤلف موقف اعداء عنتره وموقف اصدقائه من هذا الذي اعتزمه .

ويترك المؤلف هذه الجلسة الادبية التي طالعت ليعود الى وصف حياة عنتره الفارس الذي يخوض معارك كثيرة لينقلد فرسه « الابجر » الذي سرقة السلال « المختلس بن ناهب » وهنا يقف المؤلف ليرينا

(١) السيرة مجلد ٤ ص ١٠

(٢) السيرة مجلد ٤ ص ١٥

(٣) السيرة مجلد ٤ ص ١٧



تطورا جديدا حدث في شخصية عنتره ، فبعد ان كانت عبلة هي المدار الاول لاحداث حياته نجده في هذه المرحلة يساويها بسيفه وحصانه كما يجب ان يفعل الفارس . يقول عنه مؤلف السيرة . . « وما نام تلك الليلة ، ولا التفت الى عبلة ، لانه كان يحب جواده اكثر من حب عبلة ، وقد ذكروا ان عبلة عنده اعز من روحه التي بين جنبيه » (١) .

ويرسل الحارس بن الوهاب - ملك الشام - بجنود ليقتصوا من عنتره الذي قتل ابنه ، فيجتمع بنو عبس وينضم اليهم بنو غطفان وتبدأ المعارك بين العرب والنصارى كما رأيناها من قبل بين العرب والمجوسيين . وعلى الرغم من قتل رئيس الفساسنة « كافر بن فاجر » الا ان جيشه العظيم العدد يتمكن من اسر فرسان عبس جميعا - بما فيهم عنتره - . واخيرا ينتصر بنو عبس بحيلة من ملكهم قيس الذي اشتهر باسم « قيس الراى » لمهارته وحذقه .

ويأتى لقاء آخر بفارس آخر ذلك هو عمرو بن معديكرب الزبيدي - وهو من فرسان الاسلام المعروفين - فيقف بنا المؤلف عند هذا الفارس ليحكى لنا تاريخ حياته بقصة غرامه بلميس التي يحبها فارس عنتره عروة بن الورد . كما يلتقى كذلك بسليك بن سلكه الذي كانت تسميه العرب « غول البر » . ويتوالى لقاء عنتره بالفرسان بينما ذو الخمار لا يزال يسعى لعقد مبارزة بينه وبين عنتره الا ان الظروف كانت تحول بينهما دائما . وهنا تظهر « غمرة » وهي فارسة سوداء اشتهر امرها وتمكنت من اسر ذى الخمار والعباس فارس قبيلة دريد بن الصمة صديق عنتره . ويقف المؤلف من هذه المعركة عند صورة مهمة في تاريخ الفروسية العربية اذ يصور لنا اصرار غمرة - وقد اسر رجالها ذى الخمار بالتكاثر والعدد الكبير - على ان تأسره في مبارزة متعادلة القوى حتى تثبت فروسيته ويشيع اسمها ، فكانت تطلق سراحه كل صباح وتعطيه خيلا وعدة جلاد وتقضى النهار معه في مبارزة طويلة ، وتؤدي هذه المعركة الفردية بين الفارس والفارسة الى غرام ينشأ بين الاثنين فيعودان الى ديار ابيها ، ويقول لها ذو الخمار : « بحق من افنى عاد دعينى اتفرج على قتالك مع عنتره ، فان اسرتيه فاحكمى فى رقبته ، وان وقعت فى يده خرجت اليه وقضيت شهوتى من برازه . واذا بانث طبقتي من طبقته وعرفت ذلك فانا امر صهرى دريد باطلاقك واطلاق من معك من الاسارى وعدنا من درياكم بسلام » (١) . ويتوافق غمرة على هذا الاتفاق وتسير على رأس جيشها للقضاء على فرسان بنى عبس . فاذا ما كان الليل وتحارس الجيشان خرجت غمرة تدور بالخيام - لتحرس قومها - ، وخرج عنتره يحرس فرسانه فيلتقى



الاثنان مصادفة وبأخذان في الحرب دون ان يعرف احدهما الآخر .  
ويستمر القتال بينهما طوال الليل والنهار الذى يليه ثم يتحاجزان فترة  
ليستريحا فتخفف غمرة ثيابها حينئذ يعرفها عنتره ويشغل بجمالها  
فاذا ما التقيا بعد ذلك اسرها بينما هو مأسور بجمالها .

وهنا يعود بنا المؤلف الى تقاليد الفروسية العربية ونشهد قصة  
شداد وزبيبة تتكرر من جديد ، الا ان غمرة لا تمكن عنتره منها الا اذا  
قدم لها صداقا هو سيفه واطلاقها من الاسر . ولكن غمرة ما ان تعود  
الى جيشها حتى تحاول الغدر بعنتره ، وينقذه اخوه شيبوب من هذه  
الهجمة الفادرة بحيلة من حيله فتسرع غمرة بالهرب .

وهكذا تنتهى هذه المغامرة بتغير كبير في شخصية عنتره الذى نراه  
يترك وراءه جنينا في احشاء غمرة وقد عاد الى طبيعة الفارس المغامر  
الذى لا يعرف ارتباطا قدر ارتباط الساعة ، اما قصة عبلة فتنزوى  
لتترك مكانا لمغامرات مشابهة تجعل من عنتره غازيا للرجال والنساء معا .  
والمؤلف لا ينتهى من هذه المغامرة حتى يدخل عنتره في مغامرة  
جديدة ، ذلك ان الفساسنة ارسلوا جيوشهم الى الجزيرة العربية  
لجعلها مسيحية تدين بدينهم ، بينما تحالف بنو عبس مع بنى فزارة -  
اعداء عنتره - وانضموا الى جيوش الفساسنة للقضاء على عنتره .  
وهنا نلمح تغييرا آخر في موقف عنتره الذى يحارب قومه - عبس -  
لاول مرة بعد ان حالفوا كل اعدائه واستجلبوا جندا من خارج الجزيرة  
لقتاله . وهذا التحول معناه ببساطة ان فارسنا قد تحرر - الى حد ما -  
من قيود القبيلة واصبح يخضع اول ما يخضع لحكم اللحظة الراهنة  
فياخذ مكانه بين من يظاهرونه مهما كانوا ، كما يأخذ مكانه ضد من  
يعادونه من اى قبيلة كانوا .

ويناصر شيخ العرب دريد بن الصمة عنتره في جهاده ضد النعمان  
الذى يحكم بامر كسرى ، ويصف لنا المؤلف لقاء الجيشين بوصفا  
تفصيليا بما في ذلك من بطولات وخدع قتال وغدر وخيانة من بعض  
العرب انفسهم ( يمثلهم سنان ) الذين استدعوا جيش الحارث بن  
المسدر ملك النصرانية ووعدوه بالنصر وبالثار لولده بدر الذى قتله  
مقرى الوحش . ويلتقى جيش العراق بجيش الشام ، وفي اللحظة  
الحرجة ينادى بنو فزارة بالصليب ويغدون بعبس وجيش العراق  
منضمين الى جيش الحارث النصراني فينتصر ويتقدم في الجزيرة  
مستوليا على القبيلة اثر القبيلة مما يجعل عنتره يقول : « وحق ذمة  
العرب الكرام ، ان قعدنا عن عبدة الصلبان تملكوا البيت الحرام ،  
وحرموا على العرب المسير اليه ، اورموا الاصنام من عليه ، ويتغير مانحن

عليه من الاحكام ، وربما يطلبون منا الخراج والعداد ، ويستخدمون الرجال والاولاد » (١) .

لم تعد المعركة اذن بين عنبرة والفرسان كل يريد لنفسه رفعة الشأن ، وانما اصبحت المعركة بين النعمان والحارث ، او بين العراق والشام . وهى صدى للمعركة بين كسرى وقيصر ، او بين الفرس والروم . عنبرة فى هذه المعركة يمثل دور الجزيرة العربية التى هى هدف كل هذا الصدام ، والتى تريد ان تخرج من المعركة محافظة على كيانها واستقلالها . فعساكر العراق جاءوا ليهزموا عنبرة ودريد . ودريد هذا هو العمر الذى تجتمع عنده كل الصفات التى تؤهله لان يكون رمزا للعرب وقيادتهم ، ووقوفه الى جانب عنبرة انما ليثبت الحق الذى يدافع عنه عنبرة ضد جيوش العراق ومن حالفوهم من الاعراب ، ويأتى جيش الشام لنشر النصرانية فيحطم جيش العراق ويسير متوغلا فى الجزيرة العربية . بينما يستعد عنبرة ودريد ومن انضم اليهم من الفرسان للوقوف امام هذا الطوفان النصرانى .

ويترك المؤلف عنبرة فى جزيرته العربية ليحكى لنا معركة بين كسرى وقيصر اجتمع فيها الافرنج والروم بقيادة قيصر وحاصروا كسرى وحليفه النعمان ومن معهم من فرسان العرب امثال ذى الخمار ( الذى قُصد الى ديار النعمان بعد ان يُس من زواج غمرة اذ استخفت عن الانظار حينما بدأ الحمل بين عليهما ) وحجار بن عامر وعمرو بن معد يكرب اللذين حينما شلأهد ملك الشام قتالهما قال : « وحق الملك الجبار ، ان فرسان هذه الارض لم يقع عليها عيار ، ولو ان معى عشرة منهم ينصرون دين المسيح لكنت فتحت بهر سائر الامصار » .

ويصف لنا المؤلف معركة الايام التالية وكيف أسر ذو الخمسار وعمرو بن معد يكرب ، بينما ذهب كسرى الى بيت النار ليقدم لها العبادة ويطلب منها النصر . وفى هذه الاثناء كان عنبرة قد تمكن من الظهور على جيش النصارى وتعقبهم الى بلاد الشام حيث خلص الاسارى وهدم الكنائس مما اضطر الملك الحارث الى طلب الصلح من كسرى ليسرع الى بلاد الشام ويواجه غزو عنبرة لها . ولكن عنبرة يهزم جيش الروم هزيمة منكرة ويخلص اخا الملك النعمان من الاسر ويأخذ الرهائن من الروم .

ويحتفى كسرى بدريد وعنبرة وبعد هذا النصر الذى احرزه له ، فيصلح بين عنبرة وذى الخمار ويخلع عليهم ويقيم لهم مجالس السمر وحلبات السباق والبراز التى استمرت اياما التقى فيها ذو الخمسار

يجميع الفرسان فهزمهم ، واخيرا وقف امام عنتره و اشار اليه برمحه طالبا منازلته امام كسرى ومن معه من ملوك . ويظهر عنتره على ذى الخمار ، ولكن سرعان ما يعلم أن الحارث قد عاد بجيوشه فيسير بنو عبس للاقبته تاركين عنتره في بلاط كسرى حيث يسمع بأمر حاتم الطائي .

وهكذا نرى ان المؤلف يمهّد لشيء جديد في حياة عنتره ، فهو بعد أن أثبت فضل الفرسان العرب على جميع الفرسان الآخرين ، وبعد أن هزم جيوش النعمان مرة ، وجيوش الروم والافرنج مرة ، وبعد أن أثبت فروسيته التي لا تقارن وذلك بهزيمته لذي الخمار ، نرى المؤلف يحاول أن يدخل في حياته عنصرا جديدا بهذا الذي سمعه عن حاتم الطائي وقصة كرمه وحيلاته مع الجارية المشهورة التي جمعت بينه وبين زهير بن أبى سلمى والنابعة الذبياني وعبيد بن الابرص وظلت تختبرهم واحدا اثر آخر الى أن وقع اختيارها على حاتم وعزمت على الزواج منه .

ثم يحكى لنا المؤلف بعد ذلك قصة أسر حاتم جاريته مارية على يد فارس عربى يدعى عتبة ، ويلقاهما عنتره فيخلصهما من ذلك الفارس الذى ما ان يعرف انه يواجه عنتره الفارس الذى شاع ذكره حتى يلقي سلاحه . ويعجب حاتم بعنتره فيستضيفه لحضور عرس اخته ويصحبه الى ديار بنى طى ، وهكذا يتم اللقاء بين اشهر كرماء العرب واشهر فرسانهم .

فالمؤلف - كما نرى - يحاول ان يجمع بين ابطال التاريخ العربى المعروفين وبين فارسه وان يجعل له افضالا عندهم تزيد من قدره وترفع من ذكره وتؤكد مكانه بين مشهورى الجزيرة العربية . كما يحاول المؤلف ان يخلق فى القصة امتدادات يقدم لنا فيها جيلا آخر من فرسان العرب يرعاهم عنتره ويقودهم ، ذلك ان شيبوب يكتشف أخا لعنتره يدعى « مازن » وهو فارس كبير يعيش مع أمه مجهول النسب ، كما يكتشف قيس بن زهير ابنا مجهولا لآخيه مالك يدعى « مجيد » ، اما زوجة مقرى الوحش فتضع ابنهما « سبيع اليمن » . ثم يحكى لنا المؤلف قصة حب « مجيد باسماء » والدور الذى لعبه عنتره فيها واسره ليسرة - ذلك الفارس الذى وقف فى طريقهما - حتى قال له الملك النعمان حين علم بالقصة : « يا ابا الفوارس ، وانت مرامك ما تزال واقفا على حوائج العشاق وجمع شمل الحبايب بعد الفراق » (١) .

---

(١) السيرة مجلد ٤ ص ٣٨٨



ويذهب النعمان الى مكة ليفسر مناما رآه على سطيح الكاهن ،  
وهناك يلتقى بعبد المطلب الذي يريد ان يفسر مناما رآه هو الآخر .  
اما منام عبدالمطلب بن هشام فتأويله ظهور محمد عليه السلام ، وتأويل  
منام النعمان كان تحذيرا من غزو يقوم به العجم على ارض العرب .  
ويقص عنثرة مناما رآه قبل منازلة « ميسرة » ذلك الفارس الذي  
تعرض لمجيد وحبيته اسماء ، فكان تأويل المنام ان ميسرة هذا هو ابن  
عنثرة من امرأة مجهولة من اولئك اللاتي اعتاد ان يقع عليهن في غزواته .

يموت كسرى ويتولى بعده ابنه « خداوند » الذي تغريه حاشيته  
بالمجردة زوجة النعمان وبابنته الرباب فيسير بجيشه قاصدا الحيرة  
لاخذهما ، وحين يطبق عسكريه على النعمان وجنده يظهر فارس لينقذهم  
هو « هانيء بن مسعود الشيباني » بطل موقعة ذي قار المعروفة وذلك  
بعد ان التقى بعنثرة فتبارزا ولكن اثناء قتالهما عرف بقصة النعمان  
فأسرع لنجده .

ويظل المؤلف يحكى لنا قصة المعركة بتفاصيلها واحداثها وما دار  
فيها من مبارزات وشد وجذب حتى تنتهى بهزيمة جيش خداوند ،  
ويسير هانيء مع الملك النعمان الى ذي قار حيث تجتمع قبائل العرب  
مع النعمان استعدادا للجولة الثانية - ان شاء خداوند - بينما جمع  
ابن كسرى الجيوش من كل البلاد الخاضعة له وارسلهم بقيادة اخيه  
« شيرسان » حيث تدور موقعة ذي قار الشهيرة ، وعلى الرؤوس  
تلوح نبوءة لسطيح الكاهن تقول ان العرب سينتصرون على الفرس حين  
ينادون في المعركة قائلين « يا آل محمد » فقد آن ظهور النبي العربي .  
وينتصر العرب بفضل بلاء هانيء بن مسعود ويفضل صيحتهم  
« يا آل محمد » اما عنثرة فلم يشهد هذه الموقعة لانه كان قد خرج  
مفضبا من قبيلته بعد خلاف بينه وبين ملكها قيس ، وبينما هو  
في الطريق اذا بكمين أعدده له بنو فزارة بالاشتراك مع عدوه اللدود  
الربيع بن زياد فيقع اسيرا هو ورجاله .

ويترك المؤلف عنثرة في الاسر ليحكى لنا كيف ان شهرة هانيء  
في موقعة ذي قار حفزت ذا الخمار على مبارزته ، وتساوت كفة الفارسين  
كما تساوت جراحهما ، الا ان اصحاب ذي الخمار اخدوهما الى كسرى  
الذي احتال على هانيء ووسطه في الصلح مع النعمان وارسل معه وزيرا  
من وزرائه بخلعة للنعمان . وتنطلي الخدعة على النعمان الذي ما ان  
يحضر لكسرى حتى يسلط عليه فيلا يصصره فيسرع هانيء الى الحيرة  
ليحمل اهل النعمان على الهرب من وجه كسرى ، فترحل زوجته -  
المتجردة - الى ديار عبس محتمية باخيها الملك قيس بن زهير .



اما عنتره فيستمر في شرب كأس الدل في اسر بنى فزاره الى ان  
تهاجم جيوش كسرى وحلفاؤه مدينة دمشق فتطلق ابنة الحارث سراح  
عنتره ورفاقه وسرعان ما يخلص عنتره دمشق من الغازين ، وبذلك  
يعود الى الحارث ملكه على يد اسيره الذى يعترف هو وبنو فزاره  
بفضله وفروسيته ورياسته .

وتأتى الاخبار باستعداد كسرى للسير بنفسه الى بلاد العرب  
للقضاء على فرسانهم فيهرع الجميع الى مكة ليتشاوروا مع الشيخ  
عبد المطلب ويتفق الجميع على البعث الى كل فرسان العرب ليجتمعوا  
يدا واحدة ضد الفرس . وهنا يقف بنا المؤلف وقفة شعرية طويلة  
ياقى فيها الفرسان جميعا - ومنهم عنتره - بأشعارهم بوقصائدهم .

وتبدأ المعركة بين جيش الفرس وقد انضم اليه ذو الخمار وبين  
جيش العرب بقيادة عنتره . وتكاد هذه المعركة ان تكون قمة المصارك  
التي خاضها فارسنا اذ تمثل موقفه مدافعا عن العرب ضد الفرس .  
يقع ذو الخمار اسيرا في يد عبدالمطلب وذلك ببركة الكعبة والرب الذى  
يحميها بينما يصاب عنتره بكثير من الحراب ويقع فى الاسر كما وقعت  
عبلة من قبل ، وينقلان مع بقية الاسرى الى عاصمة كسرى وهناك  
تستحوذ عبلة على عقل « اردشير بن كسرى » فيظل يحتال عليها الى  
ان تقتله بعد ان خدعته واوهمته انها قبلت ان تكون له ، الا ان الملك  
قبار - اخا اردشير - يحميها من الانتقام طمعا فى ملك ابيه فيطلق سراح  
عنتره ورجاله الذين يسرعون الى ميدان المعركة ويهجمون على كسرى  
ويتمكن هانىء من قتله وبذلك تنتهى هذه المعركة بين الفرس والعرب .

وتبدأ مغامرة جديدة لعنتره مع فارس اسود مجهول اسمه  
« غصوب » كان يأسر النساء اثناء عودتهن من اسر كسرى مع شيبوب .  
ويفر هذا الفارس من وجه عنتره الا ان قلب عنتره شعر بشيء من  
الحيرة والبلبله تجاه هذا الفارس .

هذا الموقف يكاد يكون قمة من القمم التى يصل اليها عنتره  
فى حياته ، فهو يزيل ملكا ويقيم ملكا آخر . الا ان قصة المعلقة تعود  
مرة أخرى لتصبح حديث المجالس فى بنى عبس . ويترك عنتره لعبلة  
اختيار القصيدة التى يعلقها بينما يكتبها عروة بالفضة والذهب .  
ويسرع الجميع الى مكة لعرض الامر على الشيخ عبد المطلب الذى  
يعدمهم بالنصر . وعندما ينتهى الحج يجمع الشيخ عبدالمطلب الحجاج  
ويقبل عنتره بن فرسانه كما يقبل ملوك العرب واليمن ثم شعراء  
المعلقات .

ويقف المؤلف طويلا عند هذا المجلس يصفه بدقة وعناية اذ يعرض  
عبدالمطلب ما يريده عنتره من تعليق قصيدته على الكعبة ، فيعرض

اليمنيون ويشور بنو عيسى على اعتراضهم فيحمل الجميع السلاح وتوشك المسألة ان تنل بالحرب الا ان عنتره يتصدر المجلس وقدر كبح حصانه وسمل سيفه ، وطلب منهم ان يصلولوه في ميدان القتال . ويلتقي عنتره بالفرسان فارسا فارسا فيقتلهم واحدا اثر الآخر ، بينما يصف لنا المؤلف لقاءه بكل منهم في دقة وعناية . ويخشى شعراء المعلقات على الفرسان من القتل فيتقدم طرفة بن العبد قائلا : « يا أبا الفوارس ، ما انت الا قد كملت بالشجاعة ، ولكن قد بلغنى انك رجل معلول النسب ، ولولا ذلك كنا قبلناك وسمعنا ما قلته من شعرك ، وفي فصاحتنا ادخلناك ، ولكن انت تعرف سنة العرب . . انها ما تدخل تحت امر حتى تغلب » (١) . ويقرأ طرفة بن العبد معلقته لعنتره ثم يشتبكان في معركة قوامها السيوف فيأسره عنتره . وتكرر نفس القصة مع جميع اصحاب المعلقات . . كل منهم يقرأ معلقته على عنتره ثم يدور بينهما براز ينتهى بأسره ، وبذلك اجتمع عند عنتره كل اصحاب المعلقات مصفدين في الاسر .

ويثور الامر بين اليمنيين والشماليين في معركة طاحنة يظهر فيها بين فرسان اليمن ذلك الغلام الاسود « غصوب » الذى يأسر كل فرسان الحجاز فيخرج اليه عنتره وهنا يكشف لنا المؤلف القناع عن هذا الفارس فاذا به ابن عنتره من غمرة ، فيقول عنتره : « وحق من ادار الفلك الدوار ، خالق الليل والنهار ، لو اردت قتل هذا الفارس الكرار ما كان ثبت في يدى ساعة من نهار ، وانا قد خطر في قلبى خواطر فطلبت اسره ولم اطلب قتله » (٢) .

ويعتبر المؤلف هذا الحدث مهما غاية الاهمية اذ يجعل لعنتره امتدادا زمنيا . وتتطور المسائل بين عنتره وهانىء بن مسعود فيلتقيان في مبارزة كبيرة امام المجتمعين ، وهما تارة يتبادلان الشعر وتارة يتبادلان القتال ، وتنتهى المعركة باقرار كل منهما لاختيه بالفروسية فيتعانقان في ود ويقول هانىء بن مسعود بطل موقعة ذى قار للشيخ عبد المطلب امام كل الفرسان المجتمعين : « يا ايها السيد عبدالمطلب ، وافضل من ضرب فى البيد وتدد ، ومد طنب ، اشهد على انى قد اقسمت بالرب العظيم ، وزمزم والحطيم ، ان عنتر فارس الزمان ، واثبت منى جنان ، واخبر بمدارة الفرسان . ولقد عفا عنى مرارا كما تعف الرجال عن النسوان » (٣) .

(١) السيرة مجلد ٥ ص ١٤٨

(٢) السيرة مجلد ٥ ص ١٨٩

(٣) السيرة مجلد ٥ ص ٢٠٨

وهكذا يصل عنتره الى قمة الفروسية ، ويقر له اشهر الفرسان المعروفين بالغلبة وعلو الشأن ، ويرتفع نسبه اذ يظهر له ولد من اكبر الفرسان هو غصوب بينما يستعد للنصر الادبي الكبير وهو تعليق قصيدته على الكعبة . فيسرع عنتره بفك أسر الشعراء أصحاب المعلقات ، يقف امامهم موقف الامتحان حيث يجعلون من انفسهم لجنة تسأل عنتره في امر اللغة والشعر والمعارف العربية ، وتنتهي هذه اللجنة الى صلاحية عنتره ادبيا وحيازته على قمة الثقافة العربية - آنذاك - وبذلك تعلق قصيدة على البيت الحرام ويصل الى قمة ما يطمح اليه فارس عربي .

وقد كانت هذه الحادثة تستطيع ان تكون نهاية جيدة لقصة ترسم حياة فارس من فرسان العرب ، الا ان المؤلف لا يريد ان ينهي قصته عند هذا الحد ، ولهذا فاننا نعتبرها نهاية مرحلة من مراحل حياة عنتره ، ونقطة تحول في شخصيته .

هذه المرحلة من مراحل تطور شخصية عنتره تمثل - في واقع الامر - تحقيق مجموعة من الخصال والسمات لبطلنا العربي تكاد ان تجعله ملكا على الفرسان . وقد مهد له المؤلف لقاء مع مشاهير الفرسان في تاريخ الجزيرة العربية ليدلل لنا على مكانة عنتره الجديدة التي استطاع فيها بفضل سيفه وبفضل فصاحته ان يحصل على ما لم يحصل عليه غيره من مجد وشهرة ، كما هيا له المؤلف لقاء مع دولتين كبيرتين هما دولتا الفرس والروم فكان عنتره في هذا اللقاء يمثل الجانب العربي دائما ويعلى من شأن الجزيرة العربية وملوكها ويثبت عاداتها وتقاليدها ويهزم اعداءها سواء كانوا من العراق والشام او من الفرس والروم .

وعنتره - في هذه المرحلة - يمثل الفارس العربي اذ تكتمل له مكونات الفارس خصائصه . فهو يبارز من اجل الشرف ومن اجل الكرامة ومن اجل النجدة والمروءة وهو يخوض المغامرة تلو المغامرة ليربط قلوب المحبين بعضها ببعض وقد وجد في ذلك شرفا له ومتعة . كما ان المؤلف يجعله يلتقي باليمنيين - الجنوبيين - في معارك لسانية واخرى حربية وكأنما ليثبت تفوق اهل الشمال على اهل الجنوب .

والمؤلف في هذه المرحلة يعتمد على التاريخ الى حد كبير ، ولكنه لا يعتمد على تاريخ عنتره نفسه - كما رأينا في المرحلة السابقة - وانما يعتمد على تاريخ الجزيرة العربية بأحداثها . فبينما كانت المرحلة الاولى صياغة روائية مبنية على الاحداث التاريخية لعنتره نجد ان هذه المرحلة رواية اسطورية لحياة العرب في الجاهلية وما اضطربوا فيه

من أحداث وما كان بينهم وبين الأمم المحيطة بهم من مواقف ، ثم ذلك الخلاف الذى كان بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وكذا مكانة الكعبة وقريش بين قبائل العرب ، وما دار بين اللخمين أهل الحيرة والفسانيين أهل الشام من معارك وخلافات ، كما أنها أيضا تصور مجالس الشعر عند العرب وأهمية هذا الفن فى رفعة شأن قائله وقبيلته وقومه .

هذه المرحلة اذن تعتبر قصة عنصرة فارس العرب بينما كانت المرحلة الأولى تعتبر قصة عنصرة فارس عربى . فهو أن حقق فى المرحلة الأولى نصرا على أعدائه الذين يقفون أمام رغباته الذاتية من اعتراف بالنسب وزواج من عبلة ، فإنه فى هذه المرحلة يتغلب على أعداء الجزيرة ويحقق نصرا للعرب على العجم وعلى الروم كما يحقق للشماليين نصرا على أهل الجنوب .

وحين تنتهى هذه المرحلة يكون عنصرة قد اشرف على قمة من القمم ، ثم يبدأ مرحلة جديدة من مراحل تطوّر شخصيته تكاد المراحل أن تكون تمهيدا لها .



### ٣ - المرحلة الاسطورية

تبدأ هذه المرحلة بعد أن وقف المؤلف عند نهاية سعيدة تصلح ختاماً لقصة ففي الوقت الذي وصل فيه عنتره الى قمة المجد وحقق جميع غاياته من صحة النسب والزواج بعبلة واقرار الفرسان له بالرياسة ثم تعليق معلقته على الكعبة . في هذا الوقت بالذات يهرب عدوه القديم ذو الخمار من الأسر ويهاجم فرسان عنتره ويضرب هانيء بن مسعود ضربة مميته مما يوقع الخلاف بين عنتره وصديقه دريد بن الصمة - نسيب ذى الخمار - فينفصل عنتره عن شيخ العرب الذي كان يجتمع حوله الفرسان ويجعلون من سيفه رمزا لقوة الجزيرة العربية .

وفي نفس الوقت يدس الربيع بن زياد عند عبلة فتجمع صويحباتها في ليلة ويسكرون عنتره حتى يفقد صوابه ، عندئذ تحاول عبلة اظهار دالتها عند عنتره فتطلب منه ان يقبل قدمها امام الجميع ، ويحسر عنتره بما في هذا الطلب من مذلة وتحقير فينصرف غاضبا ويترك الديار هو وشيبوب وحدهما .

وهكذا يفقد عنتره الصلة التي تربطه بعبلة - كما فقد من قبل الصلة التي تربطه بدريد بن الصمة . وبهذه الاحداث المتوالية يمهد المؤلف للمرحلة الجديدة في تاريخ عنتره وللتطور الجديد الذي يصيب شخصيته ، اذ سرعان ما يهاجم في الصحراء هودجا فيه فتاة وحوله عشرة فرسان فيقتلهم ويأسر الفتاة ويتزوجها عسبا ثم يتركها ويترك معها شيبوبا الذي احب جارتها .

وفي الطريق يلتقى بنادبات بنى عبس يندبن ولديه ميسره غصوب وكذا سبيع اليمن الذين هاجمهم ذو الخمار مع صديق جديد له هو « جبار بن صخر الاسرائيلي » فارس حصن خيبر ، فاسرهم وعاد بهم الى الحصن . وكان ذو الخمار قد انطلق قوة للشر يحدوه الحسد ويعتمل في قلبه الحنق على عنتره وأولاده

وينطلق عنتره الى الكعبة ليحكى للشيخ عبد المطلب ماجرى من غدر ذى الخمار وفي طريق العودة يلتقى بيهودى يخلصه من الأسر فيعده

اليهودى بالمساعدة لتخليص أولاده من حصن خيبر ويسبقه اليه حيث يتفق مع قائد الحصن على مكيدة يوقعون بها عنصرة في الاسر .

هذه - في الواقع - هي المرة الأولى التى يجمع فيها المؤلف بين بطله وبين اليهود . ونحن نرى أنه يسمي معركته معهم - منذ أولها بالصفة التى عرفها العرب عن اليهود وهى القدر .

وتحضر غمرة وتستولى على الحصن وتخلص ابنها غصوب بينما كان عنصرة قد نقل خارج الحصن فظل في أسر اليهود الذين حاولوا مرارا الاستيلاء على الحصن من غمرة ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك سواء بالحرب أو بالخديعة ، وحينما علم قيصر بأسر عنصرة سارع بإرسال جيش ليساعد « ميشا » قائد اليهود على استرداد الحصن ، ويشتد الأمر على غمرة ورجالها المحصورين في الداخل ، ولكن عنصرة يستطيع التخلص من الأسر بفضل غصوب فيسرع هو وأولاده ومعهم عروة وشداد وابنه مازن ويتسللون الى الحصن متخفين وراء أشجار انتزعوها من شعب الجبل الذى كانوا مأسورين فيه ، ويأسر عنصرة من الحصن ثم يحرقه بما فيه ويخرج في الظلام لمهاجمة الجيوش المتجمعة فيهمزهم وبذلك يكون قد انتصر على كل من اليهود والنصارى مجتمعين . .

ويعود شيبوب ليخبر عنصرة بأن زوجته وعنصرة التى أسرها في الصحراء قد تاهتا منه . وفجأة يصل ذو الخمار بوصديقه اليهودى « جبار » بعد أن هاجما بنى عبس وأسرا رجالهم وأحضروهم الى الحصن . ويلتقى الفريقان فيقتل جبار اليهودى شدادا - أبا عنصرة - بينما ينكسر ذو الخمار ويولى الادبار . فيقتل عنصرة جبارا اليهودى ويخلص عبلة وأسارى بنى عبس ، أما غمرة وغصوب فيسرعان خلف ذى الخمار ويأسرانه .

ويقيم عنصرة ماتما لآبيه شداد الذى يتبادل الجميع الاشعار عند قبره ، وتقف سمية - زوجة شداد - على رأس القبر تذبح الأسارى اليهود واحدا اثر واحد ، بينما تعتذر عبلة لعنصرة عما بدر منها ، ويرسل عنصرة الى دريد بن الصمة يخبره بما بدر من ذى الخمار كما يخبره بأسره .

أما « سروة » زوجة عنصرة التى تاهت من شيبوب مع جاريتها التى تزوجها هو فتصل الى ديارها وقد بدا عليها الحمل كما بدا على جاريتها ، وتضسمان معا ، وتحاولان التخلص من الأمر فتنسبان الوليدى الى الجارية - زوجة شيبوب - حتى لا ينكشف أمر القبيلة أمام الناس .

وتطلب غمرة - أم غصوب - من عنتره أن يذهب معها إلى بلاد السودان لتخلص أموالها . وفي هذه الرحلة يمرون بمغامرات كثيرة رهيبة فائقة الروعة - من الناحية القصصية ومليئة بأحداث الفروسية والشجاعة التي يتبارى فيها عنتره وإبنه غصوب وميسره وأخوه مازن وسبيع اليمن بن مقرى الوحش ، كما تمتلئ هذه المغامرات بسلسلة من الحيل التي يبدىها شيبوب . ويستمررون في تقدمهم يقتلون الملوك ملكا اثر ملك حتى تصل غمرة إلى بلدها .

هذا اللقاء بين عنتره وبين السودان لقاء جديد في نوعه بالنسبة لمغامرات عنتره السابقة . أو هو بمعنى آخر لقاء بين الساميين والهاميين ، يصبح عنتره فيه قائد جيش عربى يغزو بلاد السودان . ويأسر عنتره ملكهم « لون الظلام » وينتهى الأمر بينهما على المصالحة ، ويقتل عنتره أعداء هذا الملك ويفرض سلطانه على باقى بلاد السودان . وفي هذه المغامرة أكثر من قصة حب يلعب فيها عنتره دور الفارس الذى يوفق بين الأحبة ، ويقضى على كل من يقف في طريقهم ، كما أن المؤلف يستعمل فيها كثيرا من الالفاظ السودانية بحذق ولباقة .

ويلتقى عنتره بشخصية خرافية هي « الشيطانة داهية صاحبة حصن الغمام » وهذه الشيطانة من الجان وتحكم حصنا من عهد حام ابن نوح . وتدور بين عنتره وبين هذه الشخصية الخرافية معركة عنيفة تنتهى بأن يدمر عنتره حصنها بويقتلها هي وإبنها .

ويستمر عنتره في توغله حتى يصل إلى بلاد الحبشة ، وهناك يلتقى بأخواله كما يلتقى شيبوب بأهله فاذا به ابن الملك « غوار » أحد ملوك الأحباش ، فيتم الصلح بين عنتره والملك غوار بويظل بينهما القتال . وكان ملوك السودان يدفعون الخراج لملك اسمه « الدهمار » ، ويأتى رسوله يطلب الجزية من أصحاب عنتره فيقتله عنتره وتقع الحرب بينه وبين الملك الدهمار ، فيأسره عنتره ويذهب إبنه غصوب ليقتله فيكتشف فيه علامة من الخرز يسأله عن مرها فيخبره غصوب أن أمه غمرة قد أعطته إياها ، وينتهى الأمر باكتشاف أن الملك الدهمار هو خال غمرة - أم غصوب - ويتم الصلح بين عنتره والملك الدهمار

وهنا نلاحظ أن المؤلف يؤكد علاقة العرب بالسودان والأحباش تلك العلاقة التي تقوم على النسب واختلاط الدم . إلا أن مغامرات عنتره في هذا الجزء من العالم لا تنتهى عند هذا الحد إذ أن الملك الدهمار كان يعطى الخراج للملك النجاشى ، وهكذا كان لابد من لقاء بين عنتره والنجاشى . « وكان الملك النجاشى وهؤلاء الملوك كلهم أولاد

عم . وكانت أم عنتره - زبيبة بنت النجاشي ملك الحبشان ، وكان ملك الحبشان قد زوج أمها بالملك بسام وهو أبو الملك همام ، وأن الملك النجاشي هو جد زبيبة من الأبوين ونسبهم إلى حام بن نوح عليه السلام ، وقد غدر بزبيبة الزمان وحكم عليها القدر أن تقع في يد العربان ، وأرسلها إلى بني عبس وعدنان ، وأخذها شداد وأتم منه بعنتر . (١)

وبذلك يثبت المؤلف نسب عنتره من أبيه وأمه ، ويؤكد علو شأنه إذ أن جده لامه هو النجاشي ، فهو وإن كان عبداً في اللون إلا أنه ليس عبداً في النسب . ويعود عنتره من هذه الرحلة وقد حصل على مغنم شخصي كبير هو صحة نسبه ، والعلاقة التي تربطه بملوك الأحباش الذين وضعهم هو على عروشهم ، ثم بتحقيق فروسيته على كل فرسان السودان والحبشة لا سيما بعد قتله لفارسهم الأكبر « العبد زنجير » في مبارزة دامت سبعة أيام كاملة .

والواقع أن هذه الرحلة لها أهميتها الكبرى في رسم التطور الجديد الذي طرأ على شخصية عنتره ، فهو هنا أصبح رمزاً لعلو شأن العرب وارتفاع أمرهم ، وما هذه الرحلة في بلاد السودان وفي بلاد الأحباش إلا دلالة على ما للعرب من قيمة كبيرة تجعل لهم السيادة على غيرهم من الأمم . والحقيقة أن الجزيرة العربية - في علاقتها مع الحبشة - كانت دائماً هدفاً للفزوة من جانب الأحباش الذين فتحوا اليمن أكثر من مرة وحاولوا غزو الحجاز ذات مرة . والمؤلف هنا يربط في النسب بين العرب وبين الأحباش ، وهو في مغامرات عنتره معهم لا يحط من قدرهم كفرسان وإن كان ينهي المسألة دائماً بغلبة عنتره العربي عليهم

ويرجع عنتره من رحلته محملاً بالغنائم والأسلاب ، ولكنه ما أن يعود إلى أهله حتى يكون قد ظهر في الجزيرة فارس مهول من بني كنانة يدعى « ربيعة بن المكدم » . وقد تمكن هذا الفارس من أسر عمرو بن معديكرب وهزيمة ملوك اليمن والاستيلاء على مدنها ، كما تمكن من زواج هند بنت الملك قيس وهي الفارسة التي قتلت كل من تقدم لها إذ كانت تشترط منازلهم فهزمها ربيعة وتزوجها . ويستمر المؤلف في تصوير رفعة شأن ربيعة هذا وازدياد خطره في الجزيرة إلى أن يأسر دريد بن الصمة ثم يطلق سراحه لمقامه بين العرب ويفترقان على صلح وإخاء ، وقد تقدم ربيعة بين الفرسان درجات .



ويلتقى عنتره بهذا الفارس لقاء رهيبا يقف عنده المؤلف طويلا ليصف لنا ما لاقاه كلا الفارسين من أخيه كما يصف لنا ما أبداه كل واحد من فنون الحرب والقتال ، ثم يعرض لنا موقفا لعنتره اذ ينكسر سيف ربيعة فلا يقتله وانما يعطيه سيفاً آخر ليستمر في القتال فيقع هذا الأمر من ربيعة موقعا كبيرا ويتصالح مع عنتره مقرا له بالفروسية والشهامة ، ويطلق سراح عمرو بن معديكرب . بينما يطلق عنتره سراح ذى الخمار لانه وعد دريد بن الصمة بذلك . وهكذا يعود عنتره الى التربع على عرش الفروسية العربية .

ويغدر بربيعة فارس اسمه « نبيشة » فيقتله . وتلجأ أم ربيعة وزوجته الى عنتره الذي يطارده نبيشة ويقضى على كل قبيلة تجيره حتى يتمكن منه ويأسره . ويعود عنتره بأسيره الى قبر ربيعة حيث نشهد صورة غريبة للانتقام والأخذ بالثأر . فالأسير مكبل بالحديد يقف عند رأس القبر ، ونساء بنى كنانة يقبلن ضاربات بالدفوف والمزاهر وفي مقدمتهن أم ربيعة التي ما أن تقترب من عنتره حتى تضمخه بالزعفران ، ويتقدم عنتره من الأسير فيمدده فوق القبر ويذبحه ، ثم يقدم له شيبوب باقى الاسارى فيذبحهم بنفس الطريقة واحدا اثر الآخر ، ويقيم على قبر ربيعة عشرة ايام في حزن وبكاء . ويحكى المؤلف ان أمه وزوجته وإخوته بقين على القبر يبكين بعد رحيل عنتره الى ان متن جميعا ودفن في القبر ولم تبق مئنه سوى احدى اخواته التي تزوجها عنتره .

وتبدو في هذه الصورة مدى القسوة التي أصبح عنتره يجابه بها خصومه ، ومدى العنف الذي أصبح يطلب به الانتقام . كما تبدو فيها ظاهرة أخرى وهي ان عنتره قد زایلته طبيعة العبد الخائف المتردد الذي يخشى ان يقدم على أمر دون الرجوع الى أصحاب الشأن فيه وأصبح يقضى في كل أمر بنفسه دون وجل أو تردد .

وينتقل المؤلف بقصته بعد ذلك الى بلاد فارس ، حيث أرسل كسرى يستدعى عنتره وابنه غصوب ، ويقضى الضيفان أياما سعيدة في بلاط كسرى الى ان تأتيه الاخبار بأن الجزية التي يدفعها له قيصر قد اعترض طريقها فارس أسود يدعى « الغضببان » بعد ان قتل فرسان الروم . فيخرج اليه غصوب ولكن الغضببان يأسره . ويظل المؤلف يرسم لنا صورا من بطولة الغضببان واعتماده على عبيد معه اسمه « الخدروف » الى ان يلتقى بعنتره ، فيتبادلان الشعر أولا ثم يستمر القتال بينهما عدة أيام اذ تنكسر في أيديهما السيوف والرماح فيتصارعان بالأيدي ، بينما تتم في نفس الوقت معركة أخرى بين شيبوب وبين الخدروف — عبد ذلك الفارس — وأخيرا يتمكن عنتره

من أسر الغضببان ويهرب عبده الخذروف الذي لا يلبث أن يعود ومعه أم الغضببان لتكشف عن سره فاذا به ابن عنتره من سروة تلك الفتاة التي أسرها في الصحراء وتزوجها ، واذا بالخذروف بن شيبوب من جارية سروة التي تزوجها هو الآخر .

وهكذا يصبح لعنترة من الاولاد ثلاثة : الغضببان ، وغصوب وميسرة ، وهؤلاء يمثلون الجيل الجديد من الفرسان الذين يقتدون بالمثل الأعلى عنتره ، كما يمثل الخذروف امتداد شيبوب ، وبذلك أصبح لعنترة فرسان من صلبه ، يرافقونه في معاركه ويدودون عنه في فخر واعتزاز بأبوتهم ، ويتزعم الغضببان اخوته ويصبح الخليفة الطبيعي لعنترة .

ويعود المؤلف هنا الى حروب طويلة يشترك فيها أبناء عنتره ليصف قدرتهم وفروسياتهم وتغلبهم على الملوك والفرسان ، محققين — تحت قيادة عنتره — النصر على قبائل الجزيرة مرة وعلى ملوك اليمن مرة وعلى شداد الفرسان أمثال عفريت السواحل وسليك بن سلكة ، وعنتره في كل ذلك يجير من يستجير به ويحمي الطريق لقوافل العربان .

وينتقل المؤلف بقصته نقلة أخرى اذ يقع العداء بين أبناء عنتره وبين فارس اسمه « عبد هياف » ، فيستنجد هذا الفارس بصديقه الملك الاخضر ملك الهند والسند الذي يسير بجنوده نحو الجزيرة العربية . ومرة أخرى يجتمع العرب عند عنتره ليقاوموا هذا الغزو الأجنبي ، فيكونون جيشا كبيرا على رأسه دريد بن الصمة — شيخ العرب — وقائده عنتره بن شداد فارس العرب .

ويلتقى الجيشان ، وتدور المعارك جماعية مرة وفردية مرة ، وأخيرا يقع عنتره في أسر عبد هياف ويشاع في جيش العرب أنه قتل ، فينكسر بنو عبس ، ويسير عبد هياف الى كسرى وقد حسب أنه انتهى من أمر العرب . ويتحصن كسرى وراء أسواره بينما يسير الغضببان وراء جيش عبد هياف كالمجنون يريد أخذ ثأر أبيه . وسرعان ما يعيد العرب جمع صفوفهم ويذهبون لقتال جيش الهنود ، ويلتقى الغضببان بالملك الاخضر الذي يكاد أن يظهر عليه لولا تدخل فارس أسود يفصل بينهما ويقتل الملك الاخضر ، واذا بهذا الفارس هو عنتره الذي كان قد أصيب بجراح وطعنات ذهبت بلبه فتركوه بين القتلى ، ولكن بعض العربان أخلوه وطببوه ووجد عندهم شابين مال اليهما وسألهما عن نسبهما ، فقالا له : انهما ولدا عنتره من أخت ربيعة بن المكدم ، فأخذهما وسارا بهما لنصرة العرب على جنود الهند . وهنا يقول المؤلف : « ولما

بلغ صاحب الرسالة عن عنتره وشجاعته وما فعل وما فتك في الجاهلية قال : « والذي بعثني بالحق نبيا لو كان عاش عنتره. وأتى الى واسلم على يدي لسددت به ركننا في الاسلام . » (١)

فاللدور الذي يقوم به عنتره هنا هو سد ركن في كرامة العرب وهيبتهم ، اذ يلتقى عنتره بعبد هياف لقاء يفيض المؤلف في وصفه وينهيه بالمصالحة بين القارسين بعد أن عرف كل منهما قدر صاحبه - فيعترف عبد هياف لعنتره بالفروسية ويخلع عليه ، ثم يسحب جيوشه ويعود الى بلده ، ويخلع كسرى على عنتره كذلك لما أحرزه من نصر .

هذه المعركة الجديدة في حياة عنتره ترسم لنا لون العلاقة التي كانت تجمع العرب بالهنود ، فهي تحمل التوقير والاحترام من جانب العرب لحضارة الهند ، كما تبين في نفس الوقت اعتداد العرب بأنفسهم وشجاعتهم ومقدرتهم على أن يتساوا مع تلك الحضارة العريقة . فعنتره هنا يمثل الشعب العربي كله في اصراره وعزمه وشجاعته وبأسه ، فالنصر الذي يحرزه هو نصر صلح يحمل معنى الاقرار للعرب بالبطولة والمساواة .

وما أن تنتهى معركة عنتره مع الهنود حتى نشهد جيشا آخر يزحف على بلاد العرب قوامه الاحباش والسودان قاصدين الأخذ بالثأر . ويصف لنا المؤلف هذه المعارك الجديدة التي تتم طبقا « لتكتيك » حربي خاص ، يقوم على الحصار وحفر الخنادق وترتيب الكمائن وارسل دوريات الاستكشاف . وتنتهى هذه الغزوة بهزيمة الملك « يكسوم » ملك الاحباش . ويسير عنتره على رأس بنى عبس وراء قلول جيش يكسوم الى بلاد الحبشة حيث يدكون الحصون ويقتلون الفرسان . وفي بلاد الحبشة يصطدم عنتره بملك آخر يدعى « طود الاطواد » الذي يستنجد بأمه وهى فارسة شجاعة تقول عنها القصة . . ان أمها كانت جنية وأبها أنسى ، فتسير بجيشها في البر والبحر الى أن تلتقى بعنتره الذي يهزمها ويقتل ابنها طود الاطواد . ويستمر عنتره في سيره قاصدا بلاد الجزائر حيث ولداه في الأسر ، فيفك أسرهما بينما يقع عروة بن الورد في غرام فتاة يتزوجها فاذا بها « ودعه » أخت طود الاطواد التي قبلت هذا الزواج لتهرب من زواج لا تريده كان أخوها يريد أن يتممه ليخطب واد ماردا مارق اسمه « سمور » . وتقبل أم طود الاطواد وتلجأ الى السحر فتسلط منه على جيش عنتره ألوانا تحيرهم ، ولكن زوجة عروة - وهى ابنة هذه

(١) السيرة - مجلد ٦ ص ٢٥٢

الساحرة وتعلم علمها - تبطل سحر أمها . وينتصر جيش عنتره بعد قتل أم طود الاطواد ويعود الجميع الى أرض بنى عبس مرة أخرى .

وما أن يصل عنتره الى الحجاز حتى يعلم أن « المستوعر بن ربيعة البارقي » قد أنزل قصيدته من مكانها في الكعبة متحديا بذلك عنتره فيسير عنتره اليه ويقتله هو ومن تناصره من فرسان اليمن ويعيد القصيدة الى مكانها في حفل رهيب دعا اليه جميع قبائل العرب ، وأقام لهم الولائم والافراح .

وتكاد هذه أن تكون نهاية أخرى للسيرة ، فعنتره قد أصبح على رأس الجزيرة كلها يرد عنها الأعداء ويحمي أرضها وكرامتها ويمنع عنها الغزاة ، غلاريا سواء جاء من الهند أو جاء من الحبشة أو جاء من بلاد الفرس أو بلاد الروم . وعنتره - تلك الشخصية التي تصل في مثل هذه المرحلة الى حد الرمز - يمثل في مغامراته قمة الفروسية العربية من حيث السمات الشخصية ، ومن حيث السمات العامة . وهو كذلك يقضى على كل من يعارضه بمنتهى البطش والعنف . فاذا ما أعاد قصيدته الى مكانها على الكعبة ، فانما يعنى ذلك تتويجها له على فرسان الجزيرة وشعرائها يكمل التتويج الأول الذي انتهت به المرحلة السابقة .

وهكذا تنتهى هذه المرحلة من مراحل تطور شخصية عنتره بسماتها وخصائصها ، التي تجعل من شخصية عنتره رمزا أسطوريا بالمعنى الكامل ، وتجعل من أهداف عنتره أهدافا موضوعية لا ذاتية . والواقع أن عنتره في هذه المرحلة - حتى من ناحية السن - يصل الى درجة النضج الكامل ، ويأخذ مكان المربي والمشرف على فرسان جدد هم أولاده الذين يعتبرون امتدادا طبيعيا لشخصيته وفروسيته .

وما تكاد هذه المرحلة تنتهى حتى نحس بأن عنتره قد وقف عند القمة فعلا ، وأن الطريق الوحيد أمامه في الحياة هو الانحدار مرة ثانية من السفح الآخر للقمة ، وهذا ما سوف نتبينه بوضوح في المراحل التالية من حياة عنتره .



## ٤ — المرحلة الملاحمية

تبدأ هذه المرحلة بشيء جديد في حياة عنتره ذلك هو قتل ابنه الغضبان على يد بعض فرسان الجان . بينما يهرب عنتره وجنوده من الوادى المسحور الذى يحميه هؤلاء الفرسان . وتبدأ مرحلة من الأحزان والرثاء والشعر الباكي على ابنه ، ويعيش عنتره في بيت خاص أسماه « بيت الانحزان » حيث يقصده الأصدقاء معزين في ولده . ويخرج عنتره بجيش مهول من بنى عبس ليبحث عن قاتل الغضبان بين الفرسان ، فيدور على القبائل قبيلة قبيلة ، وكلهم ينضمون اليه في البحث عن قاتل ولده ، ويتأكد عنتره ان قاتل ابنه ليس من العرب .

وهنا أيضا تلتقى القصة بفارس بنى نبهان « وزر بن جابر » الملقب بالأسد الرهيص ، — وهو الذى سوف يقتل عنتره في النهاية — فيحكى لنا المؤلف حياة وزر ومغامراته وطفليانه الى الحد الذى دفعه — بعد أن هزم جميع الفرسان — أن يجعل من كبش له رسولا منه عند القبائل يدفعون له الجزية ، كما أنه سبى أخت عمرو بن معديكرب وتزوجها .

ويعلم عنتره بأمر الكبش الذى يذل العرب جميعنا ، ويدس الربيع — كالمعتاد — عند عبلة فتهدد عنتره بالمقاطعة ما لم يقتل الكبش ويأسر الأسد الرهيص . وتجمع الظروف بين عنتره ووزر فيأسره عنتره هو وقومه ولكنه يطلق سراح زوجته اكراما ل أخيها عمرو بن معديكرب فتسرع « ربحانة » الى أخيها عمرو وتوسطه عند صديقه عنتره فيطلق سراح زوجها اكراما لصديقه كذلك . ويسير وزر وفي قلبه حقد أسود ، جعله يضمر الشر . ويؤلب القبائل على عنتره . وما أن يخرج عنتره لاحدى غزواته حتى يهجم الاسد الرهيص على ديار عبس فيستولى عليهم ويأسر فرسانهم ويسبى نساءهم .

اما عنتره فقد ساقته المغامرات الى أرض اليمن مرة أخرى ، فيصول ويجول ، ويرسل أخاه شبيب ليستطلع أمر بنى عبس في الغياهب ، فيعلمه بما حل بهم على يد الاسد الرهيص فيسرع عنتره عائدا ليغزو بنى النبهان فيهزمهم ويأسر الاسد الرهيص مرة ثانية . وتسرع

ريحانة - زوجة الاسد الرهيص - الى اخيها عمرو بن معديكرب .  
وحين ينصب عنتره لوزر بن جابر خشبة ليصلبه عليها بعد أن أشفى  
نفسه بتعذيبه أشد العذاب ، يصل عمرو ليتوسط في الاسد الرهيص  
مرة أخرى فيطلق عنتره أسيره اكراما لصديقه .

ويعرض الاسد الرهيص بعد ذلك لأحد أبناء عنتره الفرسان  
ثم يتبعه بأسر شيبوب - أخى عنتره - ويخشى بنو نبهان - قوم وزر -  
سطوة عنتره فيطردونه من بينهم ، فيخرج الاسد الرهيص ليجمع كل  
القبائل المطادية لعنتره ، ولكنه مايلبث عند اللقاء أن يأسره عنتره مرة  
ثالثة . وحينما يهزم عنتره بقتل الاسد الرهيص يصل عمرو بن  
معديكرب متشفعا كالعادة . فيقرر عنتره أن يطلق سراح أسيره ولكن  
بشمن رهيب . وهو أن يسلبه نور عينيه ، وبالفعل يكحل عنتره عيني  
الاسد الرهيص برمح محمى ، ثم يطلق سراحه بعد أن يقرر له راتباً  
سنوياً يغنيه عن التكسب . فيسير الاسد الرهيص وقد اشتعل قلبه  
حقداً على عنتره

ويغدر بنو فزارة بغصوب - ابن عنتره - فيقتلونه ويسرعون  
بالهرب محاولين أن يستجروا بقبيلة من القبائل إلا أن الجميع  
يخذلونهم . وما يلبث عنتره أن يلحق بهم ، ويأسر منهم عدداً كبيراً  
ينحره على قبر ابنه غصوب ويعود الى بيت الاحزان مرة أخرى .  
ويهرب من بقى من بنى فزارة الى الملك الاسود - الذى تربطه  
بهم ضالة نسب - فيرسل خطاباً الى الملك قيس بن زهير يأمره فيه  
بارسال عنتره وولده ميسرة مأسورين اليه ، ويدبر قيس مؤامرة لاسر  
عنتره إلا أن عنتره يكشف أمرها فيقتل المتآمرين ويرحل عن ديار  
قيس مغضباً . وينضم قيس - بقبيلته - الى الملك الاسود الذى  
ينصبه ملكاً على الحجاز واليمن ويتزوج من اخته المتجردة - زوجة  
النعمان سابقاً - فيسرع عنتره بمهاجمة قيس متخفياً ويستولى على  
أمواله . ثم يتقدم الى أرض العراق للانتقام من الملك الاسود ، بينما  
يضطرب الملك قيس الى مصالحة عنتره ، ويسير معه لحرب الملك الاسود  
فيغضب الملك الاسود ، ويأمر بخنق المتجردة ، ويستدعى ذا الخمار  
استعداداً لمواجهة عنتره وتدور المعركة رهيبة قوية حاسمة ، يقف  
المؤلف عندها طويلاً ليصف أطوارها وفصولها وليذكر قصة الربيع بن  
زياد الذى خان عنتره وأخذ يتجسس عليه لحساب الملك الاسود وأخذ  
يداريه ويتملقه وعنتره لا يظهر له أنه قد عرف بأمر خيانتة . كما يقف  
المؤلف وقفة طويلة عند لقاء عنتره بذي الخمار مرة أخرى ، ثم مايلبث  
عنتره أن يأسره .

وأخيراً تحل الموقعة الفاصلة التى يخرج فيها الملك الاسود بنفسه

ومعه الملك هامان أحد ملوك الفرس . ويتمكن الملك هامان من أسر عنترة وصديقه عروة بن الورد ويرسلهما الى الملك الاسود ، ولكن عنترة يستطيع التخلص من الاسر بفضل الوزير عمرو بن نفيل - وزير الحيرة وأحد محبى عنترة - وبفضل حيل شيبوب ، فيعود الى المعركة فى الوقت المناسب ، ويقتل الملك هامان ، ويهزم جيش الملك الاسود الذى يسرع الى كسرى مستنجدا ، فيجيش له كسرى جيشا بقيادة المرزبان بينما يتصالح عنترة مع ذى الخمار ، ويخوضان المعركة معه فيهزمان جيش الملك الاسود مرة ثانية .

ويحل بكسرى فى ذلك الوقت بلاء داهم ذلك أن عامله « شروين » قد امتنع عن دفع الخراج وأخذ يستقطع لنفسه الولايات ، فيشير وزير كسرى عليه بأن يصالح عنترة حتى يقضى له على شروين . ويتم لهم ما أرادوا ، اذ يذهب عنترة الى شروين - الطامع فى ملك كسرى - فيأسره ويعود به فيخلع عليه كسرى ويكرمه ويصلح بينه وبين الملك الاسود .

هذه المعركة فى بلاد الفرس معركة لها دلالتها ، اذ تليدو بوكانما هى بداية النهاية ، فقد وصل الامر بعنترة فيها الى حشد اقامة ملك كسرى ، بعد أن أوشك على الانهيار . كما يضع المؤلف فيها بذورا لعوامل الشيخوخة التى تدخل حياة عنترة ، ولعوامل تحطيم تلك الشخصية . فبعد أن فقد عنترة ولدين من أولاده لايليث صديقه بسطام أن يقتله فارس من بنى رميمش ، فيسرع عنترة بأخذ ثأر صديقه فيقتل الملك الهيلقان - ملك بنى رميمش - ويأسر الكثير من فرسانهم ليذبحوا قرابين على قبر القتيل ، بينما أخذ عنترة وهائىء وغيرهما من الفرسان يتبادلون القصائد فى رثاء بسطام .

ويتبع ذلك نكبة جديدة تحل بعنترة اذ يقتل صديقه عروة بن الورد على يد حسان بن ثابت فى ثأر له ، فيعود عنترة الى أجزانه ويسرع الى ديار حسان - فى بنى ضبيان ليخوض معركة ثأرية يأسر فيها ستمائة أسير يذبحهم على قبر صديقه ، وبعد ذلك لحق بحسان فقتله وعاد بالاسلاب ، ولكن بعد أن مات مازن فى هذه الموقعة . . . » ولملا حضر ( عنترة ) الى الاوطان ، قام اليه الملك قيس وبالتقاء ، وفى اخيه مازن بوصديقه عروة عراه ، فشكره عنترة وأثنى عليه ، ومن شدة غيظه عنترة قطع الركوب والمنادمة ولزم بيت الاحزان على فقد عروة ومازن وما كان له من غصوب والغضبان ، فاستقام على ذلك مدة من الزمان (١) . وكان لعود عنترة فى بيت الاحزان اثره على القبيلة ، اذ قل

(١) السيرة - مجلد ٧ ص ٣٠٩



مالها ، مما اضطر ميسرة الى الخروج على رأس فرسان عبس للغزو والسلب ، فيقومون على عروس من بنى طى كانت تزف الى فارس من بنى كنده ، فيخاف الملك قيس أن تجتمع عليه القبيلتان ، ويطلب من سنتره اعادة الاسيرة واسلابها ، ولكن سنتره يرفض ويخوض الحرب ضد القبيلتين . والملك قيس قد امتلأ رعبا وفزعا . وما أن ينتصر سنتره حتى يقرر الرحيل نهائيا ، لما بدا له من خوف الملك قيس وماعاناؤه من دسائس الربيع وأخيه عمارة . فيدعو سنتره عمه مالكه ، ويسلمه أموال عبلة وأمواله ويخرج بمفرده قاصدا دمشق عند الحارث بن وهاب سيد بنى غسان .

سر أعداء سنتره برحيله ، ولكنه لما أن وصل حتى وجد معالم الحزن تسيطر على دمشق ، ذلك أن الحارث قد قتل ، فيحضر سنتره تنويع عمرو بن الحارث على ملك أبيه ، ويحظى عنده بمكانة كبيرة . وفي هذه الاثناء يتآمر الملك الاسود مع كسرى على غزو دمشق ، إلا أنهم ما يعلمون بوجود سنتره في بلاط عمرو بن الحارث ، حتى يتراجعوا عن عزيمتهم .

وفي هذا الوقت ، يطمع أحد الخارجين على قيصر - وهو فارس مشهور اسمه «هابيل» في ملك عمرو بن الحارث ، استصغارا منه لشأنه وجهلا بمكانة سنتره . فيخرج اليه سنتره ويقتله ويجلس الحارث على ملكه . ويصل خبر ذلك الى قيصر الذى يستدعى سنتره ، فيذهب اليه بمصاحبة عمرو بن الوهاب ومعهما شيبوب والخدروف .

ويصف المؤلف موكب سنتره في عاصمة قيصر ، كما يصف تصرفات سنتره في هذه المدينة التى تعتبر مركزا حضاريا جديدا بالنسبة لسنتره ، ويقف كذلك عندما دار بين سنتره وقيصر من حوار . . يقول سنتره لقيصر حين يسأله عن نسبه : « من بنى عبس الكرام الضارين بالحسام ، المسمين بين الأنام بفرسان المنايا والموت الزوام . وأمى بنت الملك النجاشي سلطان الحبش ، والسودان ، وأبى سيد من بنى عبس بوعدنان . وأنى أخذت بنت عمى عبلة وملكته بالحسام المشطب ، وأدخلت روحى فى الحسب والنسب ، وتزوجت بابنة عمى ، ولكن ما تزوجت بها حتى قتلت خلقا كثيرا من أجلها ، والآن جميع الملوك والفرسان إذا سمعوا ذكرى يفرعون من شجاعتى ويخشون سطوتى . » (١) - ثم يصف المؤلف بعد ذلك حلبات السباق التى أقيمت ليظهر فيها سنتره مقدرة وفروسيته أمام قيصر . كما يصف أفعال شيبوب والخدروف .

ويرسل قيصر الى سنتره جارية رومية من سرارى الملك الخواص

(١) السيرة - مجلد ٧ ص ٣٣٦



فيقبل عليها عنثرة في سكره ولكنه حين يفيق يغضب لانه لا يريد من نسله احدا في بلاد الروم . وفي اليوم التالي تختفى هذه الفتاة ، اذ يخطفها فارس اسمه « كوبرت » ويبحر بها الى دياره .

ويصل الى قيصر رسول من الملك « الليمان » ملك البحر والجزاير يطلب منه ان يرسل عنثرة مقبوضا عليه ، ليأخذ منه ثأره والافهو يهدد بفتح القسطنطينية . فيعلن قيصر رفضه للتهديد ويجهز خمسمائة مركب حربية يقودها عنثرة ومعه ولى عهد قيصر « الملك هرقل » بينما يسير الملك الليمان باسطوله لفتح القسطنطينية . ويلتقى الاسطولان في البحر وتبدور بينهما أول معركة بحرية في السيرة يصفها المؤلف وصفا دقيقا . وتنجلي المعركة عن هزيمة الليمان ، بينما يستمر عنثرة وهرقل في طريقهما حتى ينزلا الى البر . وتبدأ معارك عنثرة في بلاد الجزائر ، والافرنج ينهزمون امامه حتى يقتل ملكهم .

ويلتقى عنثرة بجيش « سرجوان » ابن الملك الليمان فيقتله ويهزم جيشه ويأسر قائده « كوبرت » . وذات مساء يخرج عنثرة مع شيبوب فيلمخان ضوعا يتجهان اليه فيسمعان حوارا بين امرأتين موضوعه عنثرة وأسر كوبرت ، ويجد عنثرة في إحدى المراتين « مريم » الجارية التي كان قيصر قد أهداها له ، فيقضي معها أياما سعيدة بينما يقع هرقل في غرام الملكة « ميرمان » ابنة الملك الليمان ويتزوجها . وبعد ذلك يرضى كوبرت بالصلح ويدعوهم الى قصره حيث يلتقى عنثرة بتمثال لفارس ضخم يركب فرسا كبيرا ، وهو موضوع بحيث يحمى المكان . . . . » فهو صورة من النحاس الاصفر قد احكمته حكماء اليونان ، من قبل هذا الزمان . « (١) - فيقف عنثرة مذهولا امام تلك القطعة الفنية يتعلم كيف تعمل .

وفي بلاد الجزائر يلتقى عنثرة بجيش الملك الصافات فيقتله ، الا انه يجابه ظاهرة غريبة عليه ، ذلك ان ماء يظهر ليحمى انسحاب جيوش الملك الصافات هو الماء المثلسم ، ولكن راهبا في دير الصنم - الذي هو اقدم الاديرة ، وراهبه اقدم الرهبان - يكتشف في وجود عنثرة - الفارس العربي - في بلاد الجزائر مصداقا لما عنده في الكتب عن أحداث ستتم آخرها عند ظهور محمد عليه السلام . فيعلم ان لوان هذا الماء المثلسم قد انتهى ، ويخبر هرقل بكيفية ازالته ، فيكسرون المثلسم ويعبرون الماء ويستولون على البلاد ويضمونها الى ملك قيصر .

وفي قصر الملك الصافات يلتقى عنثرة بفارس غريب الشكل ، مايكاد يقترب منه . وقد انتوى ان يركبه حتى يخاطبه الفرس ويخبره انه واقف

(١) السيرة مجلد ٨ ص ٣٤

في هذا المكان منذ زمن طويل في انتظار عنتره . ذلك أن هذا الفرس أن هو الا ملك من ملوك الجان، فيخلصه عنتره من قيده بعد أن يعده بمساعدته في أخذ ثاره من الجان الذين قتلوا ولده الغضبان . وتبدأ المعركة بين عنتره والجان بعد أن يزوده صديقه الجنى بسيف مطلسم يقطع في الجان مثلما يقطع السيف العادي في البشر ، ويأسر له الفرسان الثلاثة - من الجان - الذين قتلوا ولده الغضبان فيقتلهم عنتره بذلك السيف المطلسم .

ويقود عنتره جيوشه « الى اقصى بلاد فلسطين والجزائر القبلية والبحرية والشرقية والغربية والمصرى . » (١) - الى أن يلتقى بملك الاندلس « جنطيايل » الذي يمارس الحرب راكبا على ظهر فيل ، فيقتله عنتره يفتح بلاد الاندلس . ويقف المؤلف وقفة طويلة ، يصف لنا فيها حياة عنتره في بلاد الاندلس ، كما سبق أن وصف حياته في بلاط قيصر وفي قصرى كوبرت والصفات .

ومن الاندلس يرسل هرقل كتبه الى الملوك والحكام يأمرهم بالدخول في طاعة قيصر « فلم تكن الا مدة من زمان حتى أجاب صاحب برقة وصاحب تونس والقبروان ، كذلك هرمس صاحب الاسكندرية والديار المصرية . » (٢) - ويسير عنتره الى هذه البلاد حتى يصل الاسكندرية ، وهنا يقف المؤلف وقفة طويلة، ليصف موكب عنتره فيها . « وهم يشقون الاسواق والحارات ، وأهل البلد قد علت منهم الزعقات ، وأكثروا من الصياح والضججات والناس صاروا من أعالي الاسطحة يتفرجون على شجيع عبس وعدنان . » (٣) - بينما سار « المقوقس » ابن الملك هرمس ملك الاسكندرية في ركاب عنتره .

ولكن ملوك مصر لم يقبلوا الخضوع لعنتره ، فسار اليهم وقتل الملك « هندراس » صاحب اهناس ، والملك « تدرس » صاحب دهشور، والملك « سونحال » صاحب اشمون والملك « قراقيس » صاحب اخميم، والملك « كردوس » صاحب أسوان ، وكذلك ملك النوبة ومن تحت يده من السودان . وتنتهى المسألة بالصلح . . . « وقد اختلطت الجيوش المصرية والسودان والافرنج وسائر البلدان . » (٤)

ويعود عنتره - عن طريق البحر - الى قيصر حيث يفاجأ بانه قد امر بصنع تمثال له بولاخيه شيبوب وابنه الخذروف تكريما لهم

(١) السيرة - مجلد ٨ ص ٦٨

(٢) السيرة - مجلد ٨ ص ٨٧

(٣) السيرة - مجلد ٨ ص ٩٠

(٤) السيرة - مجلد ٨ ص ١٠٥

وتعظيما . وبعد ذلك يعود عنتره الى بلاد الشام ، حيث يجد عبلة في انتظاره .

وأفعال عنتره في هذه المرحلة تكاد تعكس - في واقع الامر - شيئين هامين . الشيء الاول هو الفتوح الاسلامية من فتح لمصر باجزائها المختلفة ثم منها الى طرابلس وتونس ومراكش فالاندلس ، وهي الفتوحات التي وصفها المؤلف على انها معارك يخوضها عنتره تحت لواء قيصر ملك الروم وفي هذه المعارك نلمح نوعا من التعاطف بين الفارس وبين الملتقين به من ابناء هذه البلاد ، اذ يحاول المؤلف ان يربطهم ببطله عنتره ، وذلك عن طريق خلق دور له في بلادهم . والشيء الثاني الذي تعكسه هذه المرحلة هو مكانة الفارس العربى في هذه الحضارات والمدنيات الكبيرة ، فمن قبل وصف المؤلف لقاء عنتره بحضارة الفرس ثم بحضارة الهند ، ويكمل ذلك بحضارة الروم . وفي هذه المرحلة يدفع المؤلف ببطله في رحلة طويلة هدفها تثبيت ملك قيصر كما سبق له ان ثبت ملك كسرى . ومعنى ذلك ببساطة - في رأى المؤلف ان سطوة هاتين الامبراطوريتين لم تكن قائمة على مهارة كسرى بوقيصر ، وانما كان الفضل الاول فيها لفارس عربى . أضف الى ذلك انه بهذه الرحلات يثبت تفوق فرسان الجزيرة العربية على جميع فرسان العالم المعروف آنذاك .

وندهش في الواقع ، حين نجد المؤلف يدخل في قصته لونا جديدا من البطولة لم يذكره لفارسه من قبل وهو اللون الاسطوري الفائق الخيال الذى يجعله يتغلب على الارصاد والطلاسم وينتصر في معاركه ضد الجان ، والذى يجمع فيه بين ابي الفوارس وكبار الكهان ممن لديهم علم الغيب ، كما يجعل هناك ارسادا موقوفة على اسم عنتره وهيائه . هذا اللون من البطولة الملحمية ، وارد في كثير من السير العربية الاخرى مثل سيرة سيف ابن ذى يزن ، الا انه في تلك السير يظهر هذا الطابع من اهل فضل فيها ، اما سيرة عنتره فانه لا يظهر فيها الا في هذا المكان المتأخر جدا - وقد اوشكت السيرة على الانتهاء - وكأنما عنتره هنا قد تحول الى بطل اسطورى كامل تؤيده قوى غيبية وتحرسه قدرات علوية تجعل من سيفه القدر الذى يزيل الممالك ويقيمها ، وتجعل منه خرافة تنسب على جواد من القسطنطينية الى اليونان الى بلاد الاندلس فشمال إفريقيا حتى مصر وهو يحارب في البر وفي البحر جميعا .

شيء آخر - نذكره على حذر - ذلك اننا نحس في هذه المرحلة من السيرة ، اصدقاء من العلاقات بين العالم العربى وبين الصليبيين ونخماة الكنيسة . وقد يكون في الامر انعكاس للحروب الصليبية - في امتدادها الواسع - وما كان بين الروم والمسلمين من معارك منذ العصر العباسي ،



يفهم ذلك من إصرار المؤلف علي أن يخوض ببطله كل بلد من البلاد التي تدين بالمسيحية ، واتصل بها المسلمون في ذلك الحين . أو قد يكون المؤلف أراد أن يدل ببطولة فارسه العربي على المسيحيين والاقباط من أهل البلاد فجعل لقاء بينه وبين فرسانهم المشهورين دون أن يمس شعورهم إذ أن فارسه يسير تحت علم قيصر حاميا ملكه ودينه ضد أعدائه والخارجين عليه .

قد يكون هذا كله ، وقد يكون غيره ، إلا أن الشيء المؤكد هو أن شخصية عنتر بن شداد في هذه المرحلة تختلف اختلافا كبيرا عن شخصية عنتر بطل الجزيرة العربية . ويعود عنتر إلى دياره مكللا بفار فوق غار ليجد أن بني هوازن قد قتلوا الحارث - أخا الملك قيس - هو وزوجته . فيسرع عنتر للثأر وأخذ الأسرى ، ويتكرر مشهد ضرب رموسهم فوق قبر القتيل . ولكن في هذه الأثناء يموت ميسرة - ابن عنتر - فيدخل بيت الأحزان من جديد . ويقتل أيضا أخوه شيبوب علي يد سلال من بني ضهبة فيبيدهم عنتر .

أما الربيع بن زياد وأخوه غمارة فيدبران مكيدة للإيقاع بعنتر إلا أنه ينجو منها بفضل صديق له هو « عمر ذو الكلب » ، فيقتلها . ويهول الأمر على قيس وبني عبس فيهجروهم عنتر ، ويذهب مع صديقه متجها نحو العراق إلى أن يصل إلى « بحر الفرات مقابل مدينة عانة (١) - ويتزوج عنتر من أخت عمرو ذي الكلب ويكاد ينسى بني عبس الذين ما أن تعلم القبائل بأمر خلافهم مع عنتر ورحيله عنهم حتى يتكاثروا عليهم رغبة في افنائهم ، ولكن حينما يصل هذا الأمر إلى عنتر لا يستطيع إلا أن يسرع لانتقاذ قبيلته ثم يعود بعد أن يهزم أعداءهم ويؤمن إقامتهم .

ويرسل قيصر في طلب عنتر ليعينه على خارج من أعدائه فيفعل وفي بلاد الروم تنتظره مغامرة غرامية إذ يستولى على قلب أخت ملك من ملوك الروم فيتزوجها ثم يتركها عائدا إلى بلاده . وفي طريق العودة تؤذن القصة على النهاية . . . . . فهناك ينتظره القدر على شكل الأسد الرهيص الذي يقدم وفي قلبه الحقد المرير وفي ضميره عزم أكيد على الأخذ بالثأر ، فيسكن لعنتر بجوار بعض الغدران ، فإذا ما أقبل عنتر إلى الغدير - في حاجة له - صوب وزر سهمه إليه - بعد أن كان قد أمضى تلك الفترة الطويلة في المران على إطلاق السهم بإرشاد السمع لا البصر فيطلق سهمه عليه ليصيب منه مقتلا ، ويموت الأسد الرهيص بعد إطلاق السهم مباشرة . أما عنتر فقد عرف أن هذه هي النهاية وأقبل عليه أهله ليكون فيوصي عبلة قائلا : « يا ابنة العم ، اقصدى أحد الرجلين أما ابن

(١) السيرة - مجلد ٨ ص ١٤٦



الطفيل واما الامير زيد الخيل ، فان احدهم يحميك ويؤد عنك الاعداء  
ويقيك ، فكوني لاحدهم اهلا ويكون لك بعلا . « (١) »

ويحمل فرسان عنتره رجالهم ويستوقون اموالهم متجهين الى ديار  
بنى عبس ، وقد ركبت عبلة فرسه وارتدت رداءه وتقلدت سيفه فكان  
اذا ماطلع عليهم اعراب في الطريق ، خافوا منها على اعتبار انها عنتره  
الا انهم بعد لاي يكشفون الحقيقة ويهجمون عليها ، فتسرع الى عنتره  
الذي يصرخ صرخته المعروفة ، فيهرب العرب الذين ارادوا الهجوم  
عليهم ، خوفا من عنتره ومهاية منه . ويلجأ عنتره الى ترتيب آخر ،  
فيتحمل آلامه الاخذه في الازدياد ، ويركب حصانه ويتقلد سيفه ويطلب  
من عبلة ومن معها من فرسان أن يسرعوا هم الى ديار عبس ، بينما  
يقف هو يغالب سكرات الموت - ليحميهم حتى لا يتعرض لهم احد .  
ويسرع الركب الخائف الى دياره ، بينما يظل عنتره فوق جواده وقد  
فارق الحياة ، اما المهاجمون فيقفون امامه من بعيد ، لا يجسر احدهم  
على الاقتراب منه . وبعد فترة يتحرك الجواد فيسقط عنتره عنه  
ويعرف المهاجمون انه قد مات فيدفنونه احتراماً له . وتبجيلا بعد أن  
حمت عبلة وقيلتها حيا وميتا .

وهكذا تنتهي حياة عنتره ، وتنتهي معها هذه المرحلة التي برسم  
لنا صورة اسطورية لفارس الطراد وحية بطن الوادي الامير عنتره بن شداد .  
وهذه النهاية التي ترسمها يد القدر تبدو كأنها غير طبيعية ، رغم أن  
عنتره لم يصل اليها ، الا بعد أن حقق في حياته كل ما يريد من مجد  
ورفعة شأن وذيوع صيت ، في بلاده وفي غير بلاده ، والا بعد أن شهد  
نهايات كثيرة لاكثر من قصة حياة ، واكثر من قصة بطولة ، منها مايمت  
اليه بنسب كأولاده ، ومنها ما لا يمت اليه بنسب ، كالفرسان من اصدقائه  
وأعدائه . وحين يأتي الموت بعد هذا كله لا يبدو غريبا ولا مستهجنا  
اذ الموت هو النهاية الطبيعية لكل شيء ، وهو اكثر طبيعية عندما يحقق  
الانسان كل الغايات من الحياة . ولكن المؤلف يريد أن يجعل من نهاية  
عنتره شيئا مفاجئا لا يقل في غرابته عن مولده وعن حياته فيحيط به  
اجواء اسطورية لا تقل في غرابتها عما أحاط حياته .

ويمكننا أن نسمى نهاية عنتره نهاية درامية ، لان عنتره يموت فيها  
من خلال ضعف من ذلك النوع ، الذي يحب كتاب الدراما أن يخلقوه  
لأبطالهم ، او من خلال « الهامارشيا » كما يسميها أرسطو ويشرحها  
الدكتور شكري عياد بأنها الافراط في خلة من الخلال افراطا يفوق الطاقة

البشرية فتؤدي الى مصرع البطل (١) ، والخلة هنا هي الشهامة ، فعنترة قد أسر الأسد الرهيص ثلاث مرات ، وفي كل مرة كان يطلق سراح أسيره - رغم انه المتزايد - حين يتوسط فيه صديقه عمرو بن معد يكرب ، وهكذا تؤدي هذه الشهامة المفرطة ، الى وضع البذرة الدرامية لمصير عنترة ، او تكون هي « الهامارشيلا » او سقطة البطل بالنسبة لعنترة . ونحن نلاحظ ان عنترة - وان كان يصلح بطلا دراميا في بعض أطوار حياته - أي في الجزء الذاتي من السيرة - الا انه يغدو بطلا أسطوريا في المرحلة التي بعد ذلك ، أما في المرحلة التي نحن بصدددها الآن فيكاد يصبح بطلا ملحيميا .

ونهاية عنترة يمكننا ان نسميها نهاية أسطورية كذلك ، فعنترة يموت في الوقت الذي تصل فيه بطولته الى القمة . وعلى الرغم من أن هذه النهاية تأتي وعنترة في طور الشيخوخة - لا الشباب - الا أنه كان - في الواقع - في عنفوان نمائه ، وبعد أن يترك وراءه امتدادات جديدة تظهر فيما بعد في أبنائه ، وولادة البطل في الاساطير يسببها موت البطل . فالاساطير - التي هي وليدة طقوس وعبادات معينة عرفت بها الشعوب البدائية ، حين عرفت عبادة البطل - كانت تقضي بموت البطل القديم قبل ظهور البطل الجديد ، وهذا الموت في الاسطورة لا يأتي طبيعيا ، وانما لابد أن يكون قتلا . فعلى هذه الاسس يمكننا أن نسمى نهاية عنترة ، نهاية أسطورية .

ونحن نلمح في هذه المرحلة نوعا من التطور في شخصية البطل الذي أخذ الشكل التراجيدي أول الامر ، ثم تحول الى الشكل الاسطوري بعد ذلك . هذا التطور يجعل من شخصية عنترة ، رمزا للإمة العربية في كفاحها وانتصاراتها وعلاقاتها بالامم من حولها ، كما يجعل من حياة عنترة أنشودة جب ، ولحنا صاخبا لكفاح طويل الامد في كل مكان من العالم المعروف آنذاك ولقاء منتصرا بأبطال جميع الامم . وهذا يجعلنا نقول ، ان نهاية عنترة ، هي مزيج بين التراجيدية والاسطورية ، فاذا ما قارناها بالمراحل السابقة ، فان هذه النهاية تبدو وكأنها نهاية ملحمية . وسيؤكد هذا الذي ذهبنا اليه ، ما سنراه في المرحلة التالية ، وهي المرحلة التي تبدأ بوفاته .

---

(١) البطل في الادب والاساطير .

## ٥ - المرحلة التجريدية او مرحلة الاهداد

حين ينتهى عنثرة ، تنتهى الى جواره الخيوط التى تربط مجتمعها الخاص ومجتمعها العام ، فتتفكك كلها وتتهالوى بعد موت البطل الذى كان يربط بينها ، وبذلك تنتهى زوجته كما تنتهى قبيلته . فعبلة تتزوج - كما نصحتها عنثرة - من عامر بن الطفيل ، ولكنها تكثر من المقارنة بينه وبين عنثرة بحيث يبدو صغيرا ضعيفا تافها ، فيقتلها ليتخلص من هذه المقارنات ، وحينما يذهب أبوها وأخوها للمطالبة بثأرها يقتلها كذلك ومعهم أمها ويقول المؤلف : « ومضت عبلة وأمها وأبوها وأخوها كامس . مضى ، ومابقى لهم ذكر بين الرجال ، فسبحان الله العزيز المتعال . » (١)

أما قبيلة عبس ، فان حصن بن حذيفة وسنان بن حارثة يؤلبان عليهم القبائل ويهاجمانهم . وعلى الرغم من أن قيس بن زهير يتمكن من قتل حصن وسنان ، الا أن قبيلة عبس تفنى عن آخرها ويهرب قيس . ابن زهير ليفقد وحيدا تائها في الجزيرة العربية ، يرمز الى ماحل بنى عبس لا يشهد فرسانهم فحسب ، وانما هي تخلع ديارهم وتخفى آثارهم . يقول زهير بن منبه في كتابه « التيجان » عند حديثه عن الحارث بن مضاض الذى تغرب ثلثمائة عام « ولقد كثرت فيه الأمثال ، وسبب غريته الصوت ، حتى ذكره حبيب بن أوس الطائي في الاسلام فقال :

غربة تنفخى بقرية قيس : بن زهير والحارث بن مضاض  
والفتى من تفرقة الليالى فى الفياق كالحيمة الفضااض  
صلتان : أعداؤه حيث كانوا فى حديث من ذكره مضاض (٢)

والحارث بن مضاض تغرب وتاه فى الجزيرة العربية اثر اللعنة التى حلت بنى جرهم فزالوا عن الوجود واصبح الجراهمة من الامم البائدة . وهذا الشعر الذى جمع بين قيس بن زهير فى غريته ، وبين الحارث الجرهمى انما كان يشير الى ما وقر فى نفوس الناس من شبه بين نهاية القبيلتين . أما القلائل الذين نجوا من بنى عبس فقد ذهبوا الى مكة يحتمون بالبيت الحرام .

(١) السيرة - مجلد ٨ ص ١٨٧

(٢) ص ١٨٠ - ط حيدر آباد



وهكذا حين يموت البطل وينهار كل شيء ، وكأنما كان بقاء الجراهمة موقوفا على بقائه ، فلما ذهب ذهبت كلها . ويكاد هذا - في واقع الأمر - أن يكون بمثابة اسداد الستار على القصة بحوادثها ومغامراتها ووقائعها ، فعبلة وآل قراد قد ماتوا ، وبنو عيس تشتتوا وضاعوا وملكهم تائه في الجزيرة كالروح الهائمة . ولكن شخصية عنتره كانت قد وصلت معنا في المرحلة السابقة الى الشكل الملحمي ، وفي الملحمة يعيش البطل مرتبطا بتاريخ الامة كجزء من مكوناته ، ورغم كل ما فعله عنتره في هذه الرواية الطويلة فإنه - بعد - لم يشترك في الحدث الكبير الخطير الذي تم في الجزيرة العربية ، الا وهو ظهور الرسول عليه السلام وانتشار الدين الجديد . فكان لابد للمؤلف - كي يكمل الشخصية الملحمية لعنتره - ان يربط بينه وبين أحداث الرسالة فيما بعد . وهكذا تكون البداية بعد النهاية ، فيبدأ من جديد - بعد ان أرغمه الواقع التاريخي على ذكر مصرع عنتره قبل ظهور محمد عليه السلام - بمحاولة خلق امتداد لبطله يربطه بما حدث في الجزيرة العربية من أحداث جسام .

ولما كان المتبع في الاساطير ان موت البطل يمهد لظهور البطل ، فان المؤلف يستغل هذا المخطط ، ليقدّم لنا مرحلة جديدة بطلها أيضا عنتره وان كان قد مات ، ويربط بين الأحداث التاريخية للجزيرة العربية وبين بطله ممثلا في شخص ابنائه الجدد الذين سيظهرون بعد ذلك ويلتقون بصاحب الرسالة . ولهذا فنحن نعتبر ان عنتره - رغم عدم وجوده الجسدي في الرواية - موجود بالضرورة الروائية الملحمية وان الامتدادات التي نجدها بعد ، انما تمثل انعكاسا لشخصيته التي تتحقق فيها بأكثر من صورة وأكثر من شكل .

فالهيفاء - أخت عمرو ذي الكلب ، التي تزوجها عنتره قبل ان يموت - تلد فتاة تطلق عليها اسم « عنيترة » وتنشأ هذه الفتاة نشأة أشبه ماتكون بنشأة أبيها . وتظن عنيترة أن أباه هو عمرو ذو الكلب ، فتظل تتفرس وتسطو على الفرسان ، وتأتي من ضروب الشجاعة والاقدام ما يذكرنا بأفعال عنتره ، فهي تلتقي ببني حمير وبفرسان اليمن وتأسر الزرقاء . عمة ذي الخمار ، الذي أصبح بعد موت عنتره فارس الجزيرة العربية دون منازع ، ثم تلتقي بذى الخمار نفسه وتأسره ، وأخيرا يجهز المنذر جيشا كبيرا للهجوم على بني قضاة - حيث كانت تعيش عنيترة - فتلتقي به مع خالها ذي الكلب وتهزمهم وتأسر الملك المنذر .

وكان أربعة عشر نفرا من بني عيس قد فروا الى المنذر ومعهم زهير ابن قيس ملكهم الجديد بعد قيس ، فلما شهدوا هذه المعركة ، ذهب زهير ابن قيس الى عمرو ذي الكلب ، يسأله في المنذر ، لما يعرف من صداقة



عمرو بعنتره في حياته . فيرحب به عمرو ، ويتذكرون عنتره فيكون  
ويترحمون ، وعنتره لا تدري من الامر شيئاً . فيجد عمرو الفرصة  
سانحة ، ليخبر عنتره بحقيقة نسبها ، حينئذ يعجب زهير أشد العجب  
ويقول : الحمد لله الذي أخلف علينا عنتره بن شداد حتى نرد كلبنا  
من الاحياء والبلاد . « (١) - فتطلق عنتره سراح الاسرى جميعا  
وتنضم الى اهلها من بنى عبس ، ثم تجمع من حولها الفرسان ، وتسير  
بهم طالبة ثأر أبيها عنتره .

وتتجه عنتره أولا الى ديار بنى عامر - حيث ماتت أمها - وفي  
الطريق يلتقون بجريز بن عنتره والخدروف بن شيبوب ، كما يرسل اليها  
دريد بن الصمة فرسانه ، ويعود الحال الى ماكان عليه في حياة عنتره ،  
فتأسر عنتره عامر بن طفيل وفرسانه وتحطم دياره وتستعيد أموال  
عيلة وعنتره ، ثم تعود الى ديار بنى عبس القديمة فتقيمها وتحييها  
ويحضر كبار الفرسان ومشهورهم للتهنئة ، ثم يسألونها في عامر بن  
طفيل فتستجيب لهم وتطلق سراحه .

وكان زمن الرسالة قد أظلم الجزيرة ، فما ان يخرج عامر بن طفيل  
من الاسر ، حتى يسرع على رأس فرسانه الى مكة يريد قتل الرسول .  
وينزل مختفيا في بيت أخت عبد الله بن سلول المنافق ، بينما ينزل الوحي  
على الرسول يخبره بالامر ، فيستدعى عبد الله بن سلول ، ويذكر له امر  
الفرسان الذين في بيت أخته ، فيسرع هذا خائفا ويخرجهم من البيت  
وسلم أن الاعتداء من عامر بن طفيل من مكة . . . . . وعلم رسول الله صلى  
الله عليه وسلم أن الاعتداء من عامر بن طفيل ، فدعا عليه وابتلاه الله  
بغداة كفدة البعير فطلع له في رقبتة شيء يسمى الخرائيق حتى صار  
كالطبل العظيم ، ولم يزل حتى هلك ، قلعة الله عليه . « (٢)

ويعود بنا الحديث الى عنتره وما يدور في بنى عبس من أحداث  
فنشهد زيد بن عروة بن الورد وقد انضم الى عنتره في الوقت الذي  
أحب فيه الرباب بنت الأمير عمرو ذى كلب وتزوجها . ويرسل المنذر  
الى عنتره يستنجد بها ضد فارس اسمه « الغضنفر » وأمه هي مريم  
بنت أخ ملك الروم . « كان أسمر اللون وله سواعد شداد مثل العمود ،  
وكان الملك قيصر كلما رآه مال قلبه اليه وأحبه ولكن كان في بعض الأحيان  
طبعه ينفر منه لاجل سواد لونه دون الروم . ولما دخل في قلبه الشك  
من لجل ذلك اللون الذي صار فيه قدمه على خمسة آلاف فارس من  
الروم - وهو دون البلوغ - وأرسله هو وأمه بجميع أموالهما وذخائرها  
الى قلعة « برقعيد » وكانت هذه القلعة حدة ملك قيصر من ملك الفرس ،

(١) السيرة - مجلد ٨ ص ٢٢٣

(٢) السيرة - مجلد ٨ ص ٢٤٣

وكان قيصر مراده أن يجعله في تلك القلعة ليكون في وجه العدو . . » (١)

ويحكى المؤلف صنورا من حياة الغضنفر وبطولته وشجاعته الى أن يصل للقائه بعنيترة ، التي هبت لنصرة المنذر فيصف لنا مآدبا بينهما وبين جيشيهما من حروب مهولة انتهت بأسر عنيترة له . فلما علمت أمه مريم بذلك ذهبت الى عنيترة وكشفت لها عن حقيقة الغضنفر ، فاذا به ابن عنترة من مريم الجارية التي تزوجها في بلاط قيصر ، فالتقى الاخوان اللذان فرق بينهما الزمن ، ويسرون جميعا الى ديار عيس . وفي الطريق يلتقى الراكب بفارسين ، أحدهما أسمر والثاني أبيض فاذا بهما ياسر بن مسرة بن عنترة ، وليث الميدان بن مازن أخى عنترة وينضم اليهم كذلك زحمة الجواد - عم عنترة - وسبيع اليمن بن مقرى الوحش وأسيد بن غصوب والديال بن الغضبان - ولدى عنترة - وبذلك يعود الى بنى عيس غابر مجدهم .

وتسير عنيترة الى الشام ، لترد عنها جيشا غازيا جاء بقيادة « الجوفران » ابن الملك كوبرت ، وتدور بين الجيشين معركة يصفها المؤلف ، ويعكس لنا في كل حلادة منها موقفا من مواقف عنترة القديمة . بينما يحمل القتال في كل يوم ابنا جديدا من أبناء عنترة ينضم الى الركب . ويبارز الجوفران جميع فرسان بنى عيس فيأبسرهم ، بما في ذلك عنيترة وأخوتها والخذروف ومن معه ويجمعهم في ساحة القصر ليمثل بهم ، فتشاهددهم أمه ، وتكفه عنهم كاشفة سرها الكبير وهو أن الجوفران ليس ابن كوبرت كما يعتقد ، ولكنه في الحقيقة ابن عنترة الذي التقى بها في بلاط قيصر قبل أن يتزوجها كوبرت . فيفرح الجوفران بهذا النسب ويقيم الافراح وينضم الى أخوته مقسما أن يثار لايه عنترة .

ويذهبون جميعا قاصدين ديار بنى نبهان ، وفي الطريق يلتقون بجيش من السودان على رأسه الملك صفوان بن معدان - خال عنترة - فينضم اليهم . وهناك يخرج لهم فارس هو جابن بن وزر ( ابن الأسد الرهيص الذي قتل عنترة ) فتبارزه عنيترة وتقتله ويقضون على قبيلة بنى نبهان برمتها يأخذون أموالها . وتستمر هذه الحملة التأديبية متحركة من قبيلة الى قبيلة وقد جعل بنو عيس عظام عنترة على جمال يسوقه الخذروف وجريز في مقدمة الجيش ، وكأتما ليشبهوه على ثأرهم . . . » هذا كله يجرى والجمال الذي عليه عظام عنترة واقف في الميدان ، وكلما قتلوا قبيلة تأتي عنيترة وأخوتها الغضنفر والجوفران وينادون له : يا أبانا ، هاقد أفينا العربان وأبدنا الفرسان ، يكفي ماترى

يازين الشجعان والاسود ، فلم ينطق بلسان ، لانه عظام بالية من سنين  
وأزمان . فيقولون ان ابانا لم يزل غضبان ، سيروا بنا حتى نفنى بقية  
العربان . « (١)

وبعد أن يخضعوا جميع القبائل يعودون الى ديارهم ويرسلون  
الرسل الى كل القبائل يطلبون حضور حفل دفن عنتره من جديد ، ويجلس  
اولاد عنتره ، يتلقون العزاء وتنحر الابل على قبر عنتره الذي اجتمع  
عليه ابن كسرى وابن هرقل ، حيث قدم كل منهما بحمل العزاء في عنتره  
بينما الفرسان يقولون الشعر في رثائه .

ويحج عمرو مع عمه جرير الى البيت الحرام ، فيعلمون بظهور النبي  
صلى الله عليه وسلم ويعودون الى ديارهم ليقصوا لقاءهم بالرسول  
وكيف سألهم عن عنتره ، فأخبراه بما تم من أمره ، وانهم جاءوا يحملون  
رسالة الاسلام الى بنى عبس . فيدخل الجميع في الدين الجديد  
ويقيمون الى جوار النبي ويصبح جرير رسوله الى القبائل يدعوهم الى  
الاسلام ، ويرغب المخدروف في الزواج من عنتره فيزوجهما الرسول  
عليه السلام ، وتظل عنتره تقاتل في صفوف النبي عليه السلام الى انه  
قتلت في غزوة الاحزاب . « وماتت شهيدة على السنة والكتاب ،  
وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحزن عليها وقال زملوها على  
ثيابها لتأقي الله وهو راض عنها يوم القيامة . » (٢) - ويتأمر بعدها  
على بنى عبس عمرو بن أمية الصخري ، يقود جيوش قومه تحت راية  
الاسلام ، ويموت أمراء بنى عبس وفرسانهم جميعا في غزوات الرسول .  
أما الملك زهير بن قيس فقد ولد له ابن اسمه ياسر ، قتل في غزوة من  
الغزوات فحكم بنى عبس من بعده ابنه عمار بن ياسر ، وهو الصبحاني  
المشهور « اوكل من كان من بنى عبس من زمن الجاهلية فانه اتبع الاسلام ،  
وتركوا ماكانوا عليه من ضلال وشرب مدام ، ثم تقلبت الدهور والايام  
حتى شربوا كأس الحمام ، بعد أن نالوا مانالوا من العز والمجد والرفعة (٣).

وتنتهى هذه المرحلة ، وبانتهائها تنتهى السيرة . وعنتره - في  
هذه المرحلة ايضا - هو الذى يحمل علم البطولة ويظهر في اكثر من  
شكل وصورة . يظهر في صورة عنتره وفي صورة الغضنفر وفي صورة  
الجوفران ، وكأنما غدا رمزا ينعكس في تجسيد يمثله ابناؤه ، ونشهد  
كالشبح ، وقد صارت عظامه محملة على جمل تتبع جيش بنى عبس ، وتحمل  
النقمة على كل من انتهز فرصة موته ليتطاول على قومه ، وسيوف ابناؤه  
امام الجمل - تضرب باسم عنتره وبقوة عنتره وبأس عنتره .

(١) السيرة - مجلد ٨ ص ٢١٦

(٢) السيرة - مجلد ٨ ص ٣٥٠

(٣) السيرة - مجلد ٨ ص ٣٥١



## الفصل الثالث

### البناء القصصى فى سيرة عذرة

الفن القصصى ليس مجرد سرد حكاية او قص حادثة ، فكل انسان يستطيع ان يفعل ذلك لان اسلوب الحديث - الذى هو خاصة انسانية عامة ومشتركة بين جميع البشر - يعتمد اعتمادا كبيرا على السر والقص ولكن هذا الذى يتداول على السنة المتحدثين فى كل مكان وفى كل حين ، لا يعتبر قصصا من الوان الادب - والقصصى لا يستوى حتى تتوافر له عناصر بذاتها هى الاسس التى يقام عليها بناؤه الفنى .

واول هذه العناصر هو الموضوع الذى سوف يتخذه الكاتب مادة لقصته . فالناس جميعا - ومن بينهم كاتب القصة - يصادفون فى حياتهم عددا لا حصر له من الاحداث والشخصيات - التى توحى بموضوعات قصصية - سواء بالالتقاء المباشر او عن طريق المشاهدة او القراءة او السماع . ولكن هذه الموضوعات لا تصالح جميعا كمادة للعمل القصصى ، وانما على الكاتب ان يختار من بينها موضوعا معيناً تتوافر له صفة الاهمية . ولا نعنى بالاهمية هنا اهمية الموضوع نفسه او اهميته التاريخية او الاجتماعية او ما شاكل ذلك لان الموضوع فى حد ذاته مهما كانت اهميته الخاصة ، لا يكفى لخراج عمل قصصى فنى ، والا كان من السهل على كل انسان ان يختار الموضوعات الكبرى ، ليتخذ منها مادة قصصية . ومن ناحية اخرى نجد انه لا يمكن ان تكون لجميع القصص التى تتناول الموضوعات الكبرى قيمة ادبية ، اذ ان القيمة لا تأتى من الموضوع نفسه وانما تأتى من ان الكاتب قد تعمق هذا الموضوع ونظر جوانبه المتعددة وبذلك اكسبه قيمة انسانية خاصة . لهذا فان الموضوع قد يكون فى اصله بسيطا وصغيرا ولكن القصص ينظر اليه من وجهة نظر معينة يرى فيه اهمية تجعله يتفوق عنده على كثير من الموضوعات الاخرى التى لها قيمة ذاتية كبيرة .

وهنا تبدو بوضوح اهمية عامل الاختيار الذى يقوم به القصص فى انتقائه لحادثة معينة او لشخص معين يتخذه موضوعا لقصته . وذلك لان هذه الحادثة - او الشخصية - كان لها وقع معين على وجدانه جعله يقف منها موقفا معيناً ويفلسفها فلسفة معينة ويتخيلها تخيلاً له كيان ومعنى .

ولا يلزم ان يكون القصص قد التقى بهذه الحادثة - او الشخصية - التقاء مباشرا او عاناها معاناة ذاتية ، فنحن لانستمد خبراتنا فى الحياة



من هذا المعين وحده ، وانما نحن نستفيد من تجارب الآخرين اكثر مما نستفيد من تجاربنا الذاتية . فمن القراءة والاطلاع مثلا نحصل قدرا من الخبرة ، يعتبر اضعافا مضاعفة لما نحصل عليه بأنفسنا من خبرتنا الشخصية ، لأن حياة الانسان محدودة بالزمان الذي يعيش فيه ومحدودة بالمكان الذي يتحرك في نطاقه ومحدودة بالعوامل والظروف التي يمكنه أن يحصل عليها ، ولهذا فإن خبرته الذاتية تكون محدودة ضيقة ، أما الخبرة التي يمكنه أن يحصل عليها من خلال تجارب الآخرين فانها تكاد لا تحدّها حدود . وكما تلفت الكاتب القصصى اشياء بعينها في الحياة التي يعيشها فيتخذ منها موقفا بذاته ويفلسفها فلسفة خاصة فكذلك تلفته اشياء بذاتها من ذلك الذي يقرأ عنه او يروى له فيتخذ منها موقفا بذاته ويفلسفها فلسفة خاصة ويجعلها مادة لعمله القصصى .

والانسان بوصفه كائنا حيا متفاعلا مع الحياة لا يستطيع ان يخلص نفسه تخلصا تاما من قيود حاضره ، ولهذا فان عملية اختياره لموضوع قديم لا تخلو من تأثير واقعة على هذا الاختيار ، اذ لابد ان يكون هناك هامل أو أكثر يربط بين ما فيه الفنان حاليا وبين ما قراه أو سمعه من قديم الاخبار فيمتزج الماضى بالحاضر مزجا شعوريا في نفسيته المتفتنة ويشيران - معا - الانفعال الذي يقوده الى لحظة الابداع .

ومؤلف سيرة عنتره بن شداد قرا تاريخ عنتره فلفته فيه أمور ، وقرا شعر عنتره فلفته فيه أمور كذلك ، ثم سمع ما قيل عن عنتره من احاديث وروايات فامتزج كل ذلك في نفسه واثار مشاعره وجعله يقف منه موقفا بذاته وبفلسفته فلسفة خاصة ثم يتخذ موضوعا لعمله الفنى الذى هو السيرة .

وربما التقى ما قراه الكاتب عن عنتره باشتات من الواقع مستقاة من الظروف البيئية التي يعيشها ، فساعد ذلك على سرعة انفعاله بما قرا وعاونه على أن يتخذ منه ذلك الموقف المعين وأن يفلسفه تلك الفلسفة المعينة . فعنتره يصور حلقات كثيرة متداخلة في سلسلة الكفاح الفردى والجماعى ثم الجنسى . فهو كشخص فرد يرسم أقوى صورة من صور الفردية ، اذ أن كفاح ذلك العبد واجتهاده أوصلاه الى قمة المجد . وكفاحه في ذلك ليس كفاح عمل فحسب ، وانما هو كفاح تواكبه الاخلاق القوية والخصال الحميدة .

وتاريخ كتابة هذه السيرة ، هو أواخر القرن الرابع الهجرى ، وفى هذا الوقت كان العالم الاسلامى يعيش في فترة التقاء بالحضارات الأجنبية وبالدول الأوروبية التي بدأت تحاول أن تتخذ لها متنفسا

في ثروات الشرق ، كما ان القوى العاملة في العالم - آنذاك - كانت قد بدأت تتبلور بعد الهزة العنيفة التي زلزلت الارض تحت اقدامها ، اثر الهجرة العربية الكبرى ، التي تمت في الفتوح الاسلامية . وقد كان لهذا تأثير مباشر في ظهور دعاوى الشعوبية من الداخل وغزوات الروم والعجم من الخارج ، كما ان العالم العربي في ذلك الوقت كان قد وقع تحت سيطرة اجناس دخلت الاسلام من غير ابناء الجزيرة العربية وبدأت تلعب دورها في الحياة العربية حاکمة وموجهة .

لهذا كله فان اختيار المؤلف لشخصية عنتره بالذات كان يتواءم وظروف البيئة السياسية والاجتماعية التي كان يعيش فيها العالم العربي آنذاك . فعنتره عربي من الجزيرة العربية ، والانتصار له انتصار لفضائل الشخصية العربية التي بدأت العصبية الاخرى تبعدها عن مجالات التفوق ، كما ان وضع عنتره كبطل امام الروم مرة وامام الفرس مرة بل وامام الهنود والاحباش والسودان انما هو محاولة لاثبات قدرة الشعب العربي على الوقوف امام كل اعدائه المعروفين في تلك الحقبة الزمنية التي كتبت فيها السيرة ، وذلك عن طريق اثبات تفوق الجنس العربي على غيره من الاجناس . ويبدو ان كاتب السيرة كان عربيا ، ويبدو انه كان ايضا من عرب الشمال ، ولهذا نراه في السيرة ينتصر لفضائل بني عدنان على القحطانيين .

ففي سيرة عنتره بن شداد تظهر كل العصبية التي كانت تتناحر على السلطة آنذاك ، حيث تعكس لنا - انعكاسا تاما - موقف العدنانيين من القطحانيين ، وموقف الحجازيين من اليمنيين ، وموقف العرب من الفرس والروم وغيرهم من الأمم ، بل اننا لا نعدو الحقيقة اذا ما قلنا بالفرس والروم وغيرهم من الامم ، بل اننا لا نعدو الحقيقة اذا ما قلنا ان العصبية الصغيرة من قبائل الشماليين ، كانت هي الاخرى واضحة ومنعكسة تماما في سيرة عنتره .

لهذا يمكننا القول ان اختيار المؤلف لشخصية عنتره ، كموضوع لسيرته الشعبية ، لم يأت عبثا وانما كان الاختيار نتاجا طبيعيا لمقتضيات العصر والبيئة ،



والقيمة الفنية لسيرة عنتره تكمن في ان المؤلف حاول ان يستغل هذه الشخصية اكبر قدر من الاستغلال مع عدم تجريدها من سماتها البيئية والتاريخية المعروفة . ولهذا فقد كان جل اعتماده على حقائق التاريخ ، التي جاءت في كتب الادب ، وكتب التاريخ ، مما يتعلق ببطله.

وبالشخصيات التي عاشت معه وأثرت فيه ، والاحداث الكبيرة التي شاهدها الجزيرة العربية ، ويمكن أن يفترض لبطله دورا فيها .

والمتتبع لاحداث السيرة يحس احساسا كبيرا ، ان المؤلف قد قرأ الادب الجاهلي كله من شعر وخطب واسجاع كهان ، كما انه اطلع على كتب القصص التي عرفها العرب ، ووضع يده على كثير من الاساطير التي تناقلوها شفاهيا او دونوها وجمعوها في كتب . وليس عبثا ان ينسب المؤلف سيرته الى الاصمعي ، كما انه ليس عبثا ان ينسب الجزء الاول منها ( وهو مقدمة السيرة الحجازية التي تتحدث عن خلق العالم ومكان الجزيرة العربية ونسب بنى عيس ) الى وهب بن منبه ، كما ان المؤلف ، تعتمد ان يدخل في صلب سيرته شعر عنتره الحقيقي وكثيرا من الشعر الجاهلي الصحيح ، مثل المعلقات السبع وشعر عروة ابن الورد والحطيئة وغيرهما .

وقد استغل مؤلف السيرة الكثير مما قرأ استغلالا كبيرا . .

١ - ففي الاحداث استغل دقائق حياة عنتره ، التي أثرت في تاريخ الادب من حبه لعبلة وموقف عمه مالك من هذا الحب ، وكذلك الشك في نسب عنتره ، وموقف أبيه شداد من هذا الموضوع ، ثم المغامرات التي عرفها التاريخ لعنتره في جريه وراء النوق العصافير .

٢ - ويستغل المؤلف ايضا احداثا كبيرة عامة - الى جانب استغلاله للاحداث الخاصة - كموقعة ذي قار التي حاول ان يخلق بين بطله وبين بطلها التاريخي ( هانيء بن مسعود ) نوعا من الصداقة القائمة على الاحترام المتبادل ، وذلك ليكسب شخصية بطله قيمة روائية كبيرة .

٣ - وقد استغل المؤلف الشخصيات التاريخية المعروفة دون النظر الى التسلسل التاريخي للاحداث ، وذلك بحثا عن مكان لبطله بين الخالدين من ابناء الجزيرة العربية في كل ناحية من نواحي الخلود . فمن ناحية الفروسية يخلق المؤلف المواقف التي يلتقى فيها بطله بمشهورى الفرسان العرب ، كذى الخمار وعروة بن الورد وهانيء بن مسعود وعمرو ابن معديكرب وعمرو ذى الكلب وغيرهم . ويتبع المؤلف طريقة متكررة في تقديم هذه الشخصيات ، فهو يصف لنا نشأة البطل ثم شهرته ثم تغلبه على كل من يعاديه حتى يقر له جميع الفرسان بالشجاعة والتفوق ، وبعد ذلك يضع حوله هالات البطولة والفار ، وأخيرا يجمع بينه وبين بطله عنتره لثبت اهميته وقيمته وليسطر اسمه في سجل الفرسان العرب المعروفين في التاريخ ، حين يتغلب عنتره على اولئك الابطال المغاوير .



وفي الحكمة يختار المؤلف ، أشهر الاسماء بين من شهد لهم تاريخ العرب بصواب الرأي ورجاحة الفكر كقيس بن زهير ودريد بن الصمة والشيخ عبد المطلب رأس قبيلة قريش ويخلق بينهم وبين بطله (عنتره) علاقات متينة تجعله أولا ، لا يصدر في تصرفاته الا عن حكمة وصواب ، وتجعله ثانيا مرتبطا في اذهان الناس بهذه الاسماء المشهورة في هذا الميدان . ومن قبيل ذلك ايضا ما فعله المؤلف من خلق لقاء بين بطله عنتره وبين أشهر كرماء العرب « حاتم الطائي » وجعل من احداث السيرة ما يجعل عنتره صاحب فضل على صاحب الفضل المشهود له في كتب التاريخ .

اما في الشعر ، فالمؤلف يحشد لبطله كل اسم مشهور في ميدانه ، ويكفي انه خلق له لقائين بشعراء المعلقات جميعا ، يمتحنونه فيهما ويجمعون على الاقرار له بالفضل في الفروسية وفي العلم وفي الشعر جميعا . كما انه خلق لعنتره لقاءات اخرى بكثير من الشعراء المعروفين كهروة بن الورد والحطيئة وغيرهم .

٤ - وفي الاماكن استعرض المؤلف امكانياته الكبيرة في تنقل البطل بين مختلف انحاء الجزيرة العربية ، ذكرا اسماء منازل القبائل واماكنها وموردا اسماء الجبال والوديان واسماء المدن والقرى في حشد ضخم يشي بسعة اطلاعه ومعرفته ، ثم هو يربط بطله عنتره باسماء كثير من الأماكن التي ترتبط في اذهان الناس باحداث معينة مثل مكة والحيرة وبلاد الفرس بلدا بلدا وبلاد الروم المعروفة عند معاصريه وحتى حين يدخله مصر يجعله يلتقي بفرسان من الاسكندرية ومن الفيوم ومن الجزيرة ومن غيرها من المدن المصرية المعروفة .

هذا الامام من جانب المؤلف له اهميته القصوى من ناحية البناء الموضوعي للسيرة لانه استطاع ان يكسب بطله رداء من الحقيقة القصصية التي تجعله شخصية مجسدة ، تعيش وتتفاعل مع شخصيات معروفة وتشارك في احداث معروفة وتتحرك في اماكن معروفة ، فلا يصبح بذلك مجرد عمل تجريدي وانما هو شخصية حية اكسبها المؤلف باطلاعه الواسع صدقا من لون خاص .

\*\*\*

الكاتب اذن اختار شخصيته لاسباب معينة ، كما انه حين اختار الشخصية ، درس الاطار الزمني والمكاني الذي تتحرك فيه هذه الشخصية دراسة وافية ، وهو الى جوار هذا قد درس شخصية بطله ايضا دراسة وافية من الداخل ومن الخارج كذلك .



... أما دراسته لها من الخارج فتتمثل في هذا التقارب الكبير بين شخصية عنترة في التاريخ ، وشخصية عنترة في السيرة وخاصة في المرحلة الأولى منها (وهي المرحلة التاريخية) فقد حدد المؤلف - لنفسه - وإقارء معاً - الأشخاص الذين يكونون مجتمع عنترة الخاص ويلعبون الأدوار الأساسية في حياته . وقد استقى المؤلف هذه الشخصيات - إلى حد كبير - من المعين التاريخي ، الأمر الذي اقتضى منه معرفة وثيقة ببطون عبس وأشهر رجالها ليحدد من منهم في صف عنترة ، ومن منهم سوف يأخذ موقف المضاد ، وقد وصل بقسمته هذه إلى أولاد الملك زهير أنفسهم ، فجعل منهم من يعاضدون عنترة ومنهم من يعادونه ويتعصبون ضده .

ومن ناحية الوصف الخارجي كذلك وصف لنا المؤلف عنترة في صورة فارس لا يشق له غبار ، مهول الخلقة ، متين البنيان ، يجيد الطعن والضرب ، وأساليب القتال ، ويسود ميدان الحرب بشجاعة خارقة فائقة ، تبررها نشأة مستوحشة وملامح للقوة تبدو منه الطفولة ، إلى جوار البنيان الجسدي الذي يسهب المؤلف في وصفه ، ولذلك فإن عنترة حينما يتحرك في إطار بطولي ، لا يبدو هذا شاذاً ولا غريباً ولا مستهجناً ، وجمع له المؤلف أيضاً سمات الفارس العربي كما تعرفه الجزيرة العربية من شهامة وكرم ونجدة وجلد ، ووضع له ذهن المفكر العاقل الحكيم الذي يكتمل معه تكاملاً بطولياً طبيعياً وذلك هو أخوه شيبوب الذي يستطيع بخفته وحيلته ولصوصيته أن يقدم على أعمال يعف عنها عنترة الفارس ، ولكنها ضرورية لكسب المعارك والتفوق على الأقران .

فمؤلف السيرة اذن قد فهم المظهر الخارجي لبطله تمام الفهم ، واعطى له من الامكانيات ما يتلاءم مع فهمه لشخصيته ودوره .

أما الدراسة الداخلية للبطل فيبدو أن المؤلف قد توافر عليها تماماً وكرس لها جزءاً كبيراً من جهده ، لأننا رأينا في دراستنا لتطور شخصية عنترة في السيرة أن المؤلف قد رسم خلود كل مرحلة من مراحل حياة عنترة رسماً دقيقاً ووفر لها الامكانيات لتتطابق الواقع الروائي والصدق الفني .

فالمؤلف حين يرسم شخصية عنترة في مرحلة التكوين ، يضع يده على موقفه من المجتمع الخاص الذي يعيش فيه ، وموقف هذا المجتمع منه ، وما يسبب هذا الصراع من عقد عند البطل وعند مجتمعه على السواء ، فعنترة يقاوم الأصل في مجتمع لا يعرف الناس ، إلا بأثسابهم وأحسابهم ، وعنترة يقاوم ضعة اللون في مجتمع بدائي .

يضع للون أهميته الكبرى ويرسم للسود مكانا بذاته في آخر درجات هذا المجتمع - ان لم يكن خارجه - وعنتره يقاوم عاطفة الحب التي خرجت الى العلن في مجتمع يخشى على العرض خشية تفوق العقول حتى انه ليئد البنات خوف العار ، ويجعل من العاطفة المكشوفة المعروفة ، جريمة لا تغتفر وانتهاكا لمقدساتها .

فليس غريبا اذن ان يأخذ المجتمع الصغير نفسه موقفا من هذا البطل فيقف حجر عثرة في سبيل تحقيق آمانياته بتلقائية طبيعية وبدون تعسف او تكلف من المؤلف

وكاتب السيرة لا ينسى في هذه المرحلة ان بطله بشر ، تقطع فيه الكلمة اكثر مما يقطع فيه السلاح ، ويؤثر فيه التجاهل اكثر مما تؤثر فيه المواجهة ، وانه طالب حق يتمثل حقه مجسدا في اشياء بعينها فيحاول ان يحطم الحواجز التي تحول بينه وبين هذا الحق . ومن خلال هذا الصراع تتبلور شخصية البطل وتزداد خبراته وتتأصل معرفته بالحياة وقدرته على مواجهة حقائقها . فاذا ما تغلب عنتره على هذه العقبات ، كان هذا هو الايدان بمولد بطل له من الصفات النفسية والجسدية ما يؤهله لأن يخوض المرحلة التالية من السيرة ، وكأنما يريد المؤلف ان يبرر لنا الصفات التي ينسبها لبطله تبريرا حدثيا لا تبريرا تقريريا ، فوقفه عند كل مرحلة من مراحل الصراع ضد النسب او ضد اللون او ضد الحب انما هو جلاء لمكونات بطله ، جلاء يستغل فيه أحداث هذا الصراع في عمله القصصى من ناحية ، ويمهد به لتكامل شخصية عنتره فيما بعد من ناحية اخرى .

وحينما ينتقل المؤلف الى المراحل التالية من شخصية بطله . لا يهمل اثر المعارك الاولى التي خاضها والتصرفات التي تصرفها حيال الاحداث . وحيال الناس ، فهو يرق لكل عبد يروم التحرر ، وهو ينصر بسيفه وبماله كل محب يريد أن يفوز بحبيبته ، وهو يؤيد بكل قوته ، كل طموح يريد أن يثبت نسبه .

ومؤلف السيرة لا ينسى بشرية بطله حتى في المراحل الاسطورية من حياته ، فيقف به امام الموت عاجزا حزينا مشلول الارادة لا يملك الا الدموع ، ويقف به امام الثأر عاتيا جبارا لا يرحم ولا يلين ، ويقف به امام الحب ضعيفا وامقا اسيرا لهواه .

وهناك نقطة هامة في موقف المؤلف من بطله في هذه المراحل ، تلك هي انه راعى التاريخ حين لم يذكر لعنتره اولادا من عبلة ولكنه راعى الفن ومقتضيات الاستمرار ، حين جعل له اولادا من غير عبلة ، وخرج من هذا المأزق بان جعل مغامرات عنتره الفسرامية - مع غير عبلة -

مجرد لحظات عابرة لا تمحو حبه لها ، ولا تغير من تعلقه بها . فكاننا بهذا الكاتب وقد استبطن شخصية بطله المعقدة في التركيب وتمثلها وفهمها فأجاد في عرضه لها وعرض ما يصدر عنها من اقوال وافعال .

مؤلف سيرة عنتره اذن عرف لماذا اختار شخصية البطل ، ثم عرف كيف يدرس هذه الشخصية وكيف يفهمها ثم كيف يقدمها في قصته . فشخصية عنتره ليست من الشخصيات الثابتة - اى غير المتغيرة - وانما هى شخصية نامية تبدأ مع الكاتب مادة قابلة للتشكيل يضبط اليها كل حين جديداً وتتكامل بين يديه تدريجياً وتتطور خطوة خطوة ، بينما الكاتب يخلق لها العلاقات التى تربطها بالناس وبالأحداث ربطاً طبيعياً ويخرجها من كل علاقة وقد ازدادت شيئاً يقرب بينها وبين التكامل . ولهذا فقد قسم كاتب السيرة أحداثها تقسيماً راعى فيه التاريخ ، وراعى فيه الأهمية كما راعى فيه بناء شخصية البطل . فنحن نراه يقابل بين عنتره - وهو طفل - وبين كلب متوحش ، فاذا ما كبر عنتره أصبح الكلب اسداً ، ولسنا فى حاجة بعد هذا لان نخبرنا المؤلف ان بطله قد كبر وازدادت قوته شجاعته . وعنتره - فى أول أمره - يتزعم العبيد ، وعلى رأسهم أخوه شيبوب - ثم هو بعد ذلك يتزعم فرسان بنى قراد ، وعلى رأسهم أبوه شداد ، ثم هو يتزعم فرسان بنى عيس ، وعلى رأسهم زهير ثم ابنه قيس من بعده ، ولا يلبث عنتره أن يتزعم فرسان الجزيرة العربية بأسرهم ، وعلى رأسهم دريد بن الصمة وهانيء بن مسعود ، وليس المؤلف فى حاجة لأن يقرر لنا بعد هذا ان بطله قد أصبح فارس العرب لا فارساً من العرب .

واعداد عنتره فى أول الأمر ، عمه مالك ، وفى المرحلة التالية ، الربيع ابن زياد الزعيم العيسى الكبير ، ثم بعد ذلك واحد من أبناء الملك زهير - واخ للملك قيس - ثم يعاديه أشهر فرسان الجزيرة العربية واكبر ملوكها ، فاذا مر بهذه المرحلة فالذى يعاديه هو ملك الفساسنة حيناً وملك الناذرة حيناً آخر ، واذا بنا نجده - بعد قليل - يعادى قيصر الروم وكسرى العجم ، وقيل اليمن ونجاشى الحبشة . وليس بالمؤلف حاجة بعد هذا لأن يقول لنا ان فارسه قد أصبح فارس العالم بأسره .

هذه الدقة فى الانتقال بالبطل من مرحلة الى مرحلة تدلنا بوضوح على براعة الكاتب وفهمه لشخصية بطله ولنمائها ، كما تدلنا أيضاً على فهمه للأحداث وترتيبها وحين يعطينا الصورة التى يريد لها لفارسه عنتره لا نجد فيها غرابة ولا شذوذاً ، ولا نحس فى قلبها بغضاضة او استنكار ، وانما نلمح آثار قدرة روائية خلاقة فاهمة تمام الفهم للعمل القصصى الذى يقدمه .



## الشخصيات

وكما وفق المؤلف في اختيار موضوع السيرة وفي رسم تلامح الشخصية الأساسية فيها - وهي شخصية البطل عنتره بن شداد - وفق كذلك في اختيار بقية شخصيات السيرة بحيث تتناسب مع الإطار العام للموضوع من جهة ومع شخصية البطل ومراحل تطورها من جهة أخرى . فالشخصيات المكملة في السيرة - سواء قصر دورها فيها أو طال - تسير جميعا في خطوط متوازية مع شخصية البطل لتتفاعل معها في نماء قصصى سليم ولتخرج لنا - في النهاية - رواية متكاملة البناء .

وتنقسم شخصيات السيرة الى قسمين متميزين . فهناك شخصيات واقعية - اى معروفة تاريخيا - وهناك شخصيات خيالية اخترعها المؤلف ليكمل بها البناء القصصى . فموضوع السيرة موضوع تاريخى يصور حقبة معينة في تاريخ الجزيرة العربية ، ومؤلف السيرة اختار لبطولتها شخصية تاريخية حقيقية عرف الناس صاحبها شاعرا وفارسا وعاشقا ، وتناقلوا اشعاره واخباره ، لهذا فلا بد أن تكون بقية الشخصيات المتعاملة معه في السيرة شخصيات تاريخية حقيقية ، وان تكون الاحداث التى تدور فيها تلك الشخصيات اقرب ما يكون الى الاحداث التاريخية الحقيقية خصوصا في المرحلة الاولى من القصة التى تعتبر مرحلة تقديم لشخصية البطل .

ولما كان هذا البطل - كما يريد ان يقدمه المؤلف - انسانا له وجود تاريخى ولما كانت هذه القصة هى سيرة حياته ، لهذا لجأ المؤلف الى شخصيات التاريخ الحقيقى لعنتره ، واستعان بها ليستعملها في المرحلة الاولى من السيرة استعمالا يكاد يطابق الواقع المعروف عنها تاريخيا . فام عنتره زبيبة الحبشية ، وابوه شداد ، واخوه شيبوب واعمامه ، ثم عبلة وابوها واخوها والربيع خطيبها ، وسمية زوجة شداد . . كل اولئك يجب ان يظهروا في نفس الادوار الحقيقية التى اثبت عنهم تاريخيا ، والتى وردت في تاريخ حياة عنتره وما تدول حوله من روايات . وقبيلة عبس بأفرادها الحقيقيين ، وملكها زهير ابن جذيمة وقصة زواجه المشهورة ، وتأمره على بطون قيس عيلان برمتها ، ثم اصسهار النعمان بن المنذر له . . كل ذلك يجب ان يبدو في سياقه الطبيعى ليعطى للسيرة واقعها التاريخى المطلوب .

ومع ان المؤلف قد استقى تلك الشخصيات من التاريخ ويحاول أن



يجعلها تلعب نفس الدور الذي لعبته في الحقيقة ، الا ان طريقة عرضه لها وتعيين مواعيد ظهورها ، وتحديد علاقاتها يبطل السيرة ، يدل على ان المؤلف لديه حاسة قصصية سليمة ، تعرف كيف تحرك هذه الشخصيات في اطار قصصى بعيد كل البعد عن السرد التاريخي المسترسل ، كما تعرف كيف تنمي الشخصية تدريجيا بحيث يتعرف عليها القارئ أولا ثم يتابعها بعد ذلك وهو مطمئن لما عرف عنها .

وعلى الرغم من ان دور معظم تلك الشخصيات ، يكاد ينتهي بانتهاام المرحلة الاولى من مراحل حياة عنتره - اذ تبدأ بعد ذلك مراحل تبعه تدريجيا عن واقع التاريخ - الا ان المؤلف اجاد استغلال هذه الشخصيات في بقية السيرة ، وشكلها في مهارة لتلتقى مع الاحداث التي اصطنعها بعد ذلك ، ولتأخذ دورها القصصى على طول السيرة ، ثم لتعطى المضامين التي يهدف اليها ، كل ذلك مع الاحتفاظ لها بمعظم السمات الحقيقية التي اثرت عنها تاريخيا والتي اضافها عليها في المرحلة الاولى . . فشيبوب مثلا يستمر في مصاحبة عنتره في جميع مراحل حياته التالية، سواء كانت أسطورية او ملحمية، ويشترك معه فيها بأعمال تحمل السمة المميزة له وهي الدهاء واصطناع الحيلة ، فهو الذي يتجسس ليأتي له بالاخبار ، وهو الذي يخادع لينقذه من الاسر بحيلة او بأخرى، ثم هو الذي يشترك معه في الزواج أيضا فيتزوج من جارية الفتاة التي اقترن بها عنتره، وذلك ليخلق المؤلف امتدادا لهما معا ممثلا في الفضبان ابن عنتره وصاحبه الخدروف بن شيبوب اللذين يحمل كل منهما شخصية أبيه ويلعبان دورا هاما في المرحلة النهائية من السيرة .

ومثل هذا نجده في شخصية ملك بنى عبس ، فزهير يؤدي دوره الحقيقي مضافا اليه كثير من الاضافات التي يتطلبها البناء القصصى لشخصية عنتره ، فاذا ما اتى ابنه قيس من بعده لعب دورا قصصيا خالصا وشارك في خلق المواقف الدرامية التي تنتقل بالقصة من مرحلة الى مرحلة حتى تنتهي بالحقيقة التاريخية ، التي هي فناء قبيلة بنى عبس وخروج قيس بمفرده هائما في صحراء الجزيرة .

ولعل اجمل الشخصيات التاريخية التي صورها المؤلف تصويرا قصصيا ممتازا ، وشاركت مشاركة فعالة في احكام بناء السيرة هي شخصية غبلة ، ومن اجاط بها كأيها وأخيها وعشاقها وخطابها أعدايد بنى . فعيلة - بجمالها - هي التي تدفع عنتره الى السعى وراء المجد والشهرة في المرحلتين الاولى والثانية من السيرة ، وعيلة - بدلالها - هي التي تدفعه الى ترك القبيلة مفضيا ، في المرحلتين الثالثة والرابعة ، ثم ان الرغبة في حمايتها والدود عنها هي التي بنت ذلك المشهد الدرامي الرائع الذي يختم به عنتره حياته .

وهكذا نجد ان مؤلف السيرة قد اختار لها شخصيات مكمله من تلك التى لها دور تاريخى حقيقى فى حياة عنتره ، حسب مقتضيات موضوع السيرة ، وانه شكل هذه الشخصيات وطوعها ، لتعمل متساندة فى احكام البناء القصصى لعمله الروائى مع محاولة الاحتفاظ لها بدورها المعروف تاريخيا وزمنيا .

وهناك شخصيات تاريخية اخرى لم يكن لها دور واقعى فى حياة عنتره بل وربما اختلفت معه - من حيث الوجود - زمنيا ومكانيا ، ومع ذلك فقد استعملها المؤلف واوجد لها دورا فى روايته رغم استحالة حدوث ذلك تاريخيا . وربما كان هدف المؤلف من هذا العمل ، هو تأكيد الواقعية التاريخية لقصته باستغلال أسماء ذكرها التاريخ ، ووقرت فى اذهان الناس من ناحية ، ثم تحقيق الاهداف التى يريد ان يصل اليها بطله من ناحية اخرى ، وايهام المتلقى بان ما يورده من احداث تتسم بميسم الحقيقة ، وذلك اذا ما كانت الاطراف المشتركة فيها لها واقع تاريخى حقيقى .

فعنتره الفارس، لكى يتبوا مكان الصدارة فى الفروسية، يجب عليه ان ينازل جميع الفرسان الذين عرفهم تاريخ الجزيرة العربية بصرف النظر عن مكان وجودهم وزمانه . ففي المرحلة الاولى من حياة عنتره نراه يلتقى بعسرة بن الورد من فرسان العرب المعروفين تاريخيا ، وبرستم من فرسان العجم المعروفين تاريخيا كذلك ، ويصف لنا المؤلف هذا اللقاء وصفا قصصيا مطولا . وما ان تبدأ المرحلة الثانية من مراحل حياة عنتره - وهى مرحلة الفروسية - حتى يعدد لنا المؤلف أسماء سبعين فارسا من فرسان العرب والعجم والروم والاحباش - معظمها أسماء ذكرها التاريخ - ليقول ان بطله التقى بهم وقهرهم جميعا (١) .

وعنتره الشاعر لكى يحصل على اماره الشعر ويعلق قصيدته على الكعبة ، لابد له ان يلتقى بجميع شعراء الجزيرة العربية لا سيما اصحاب المعلقات ، ويجب ان يبرزهم لا فى قول الشعر واتقان علوم العربية فحسب ، وانما فى الفروسية واستعمال السلاح كذلك (٢) .

وعنتره الفاتح الذى يسير على رأس جيش واسطول بحرى يفتح العالم بلدا بعد بلد ، يجب ان يلتقى بالملوك الحقيقيين لتلك البلاد . فهو بعد ان التقى بكسرى وقيصر اشرك معه « هرقل » - ابن قيصر - فى غزو جنوب اوربا وشمال افريقيا ، ثم التقى بهرمس فى الاسكندرية وبالنجاشى فى الحبشة . ويقول الدكتور فؤاد حسنين على ان « حضرموت »

(١) السيرة مجلد ٣ ص ٢٥١ .

(٢) السيرة مجلد ٥ ص ١٤٨ .

فارس ايران المشهور الذى هزمه عنتره هو « بوهيمند Bohemund »  
الفارس المعروف تاريخيا ، (١) وان «جوفران» ابن عنتره من-مريم التى  
أهداها اليه قيصر هو فى الواقع احد فرسان الحروب الصليبية المسمى  
« جودفراى Godfrey » (٢) .

ثم ان هناك جوانب اخرى للفروسية يجب ان يستكملها البطل  
عن طريق اتصاله بمنابعها التاريخية الحقيقية . فاذا ما اراد المؤلف ان  
يؤكد له صفات الكرم والشهامة ، جعل له فضلا على اشهر كرماء  
العرب « حاتم الطائي » عن طريق اتصال مباشر به . واذا ما اراد  
المؤلف ان يؤكد لبطله الحكمة والقيادة الفكرية جعله صنوا لشيخ  
العرب دريد بن الصمة وصديقا له ، واذا ما اراد ان يحقق له  
اخطر اهداف السيرة بتحديد مكانه من الدين الاسلامى ، وايجاد دور له  
فى الرسالة المحمدية ، جعله يتصل اتصالا مباشرا بعبد المطلب - جد  
الرسول - ويشترك معه فى رد حملات الهنود والاحباش عن الكعبة ،  
واذا ما اراد ان يجعل منه حاميا للجزيرة العربية ضد الغزوات الاجنبية  
اشركه فى موقعة ذى قار الشهيرة - عن طريق غير مباشر - فجعل من  
يطلبها الحقيقى « هانىء بن مسعود » صديقا لعنتره وجنديا من جنوده .

فالمؤلف فى اختياره لهذه الشخصيات جميعا يعتمد على التاريخ  
ولكن بشكل يختلف عما اصطنعه فى الشخصيات السابقة ذات العلاقة  
التاريخية المباشرة بحياة عنتره ، وبالتى كان تاريخها الزمانى والمكانى  
يسمح باتصاله بهم ، اما هذه الشخصيات التاريخية الجديدة فلا يربطها  
بعنتره اى رابط اللهم الا رغبة المؤلف فى استغلالها لتأكيد مفاهيم معينة،  
وتحقيق اهداف يتطلبها البناء القصصى ، بالاضافة الى محاولة زيادة  
الاقناع بما لروايته من واقع تاريخى .

ثم يستمر البناء القصصى فى نمائه ، مما يتطلب خلق شخصيات  
تناسب المواقف القصصية التى يوردها المؤلف دون أن يكون هناك اى  
اتصال بينها وبين الواقع التاريخى ، وهنا تتجلى براعة الكاتب فيما  
يظهر من قدرة فائقة على التأليف القصصى وحسن تفهمه لمقتضيات  
الخلق الدرامى . فهو حين قدم احداثا تاريخية ثابتة استغل فيها  
الشخصيات التاريخية الحقيقية التى لها اتصال بالبطل وبموضوع  
السيرة ، وحين قدم احداثا قصصية لها علاقة بالشخصية التاريخية  
للبطل ، ولها دور فى بناء تلك الشخصية، وتطورها ، استغل شخصيات

(١) قصصنا الشعبى ص ٧٥

(٢) قصصنا الشعبى ص ٧٦



تاريخية كذلك وان كان لا يربطها بالبطل الواقع الزماني والمكاني ، أما حينما حاول تقديم أحداث قصصية درامية لا علاقة لها بالتاريخ ، وإنما أتت لمقتضيات البناء الفني وحده اتجه في اصطناعه لشخصياتها الفني وحده اتجه في اصطناعه لشخصياتها اتجاها آخر هو الاتجاه الرمزي الذي يؤكد المضمون الدرامي ، ويحقق قوة التأثير وينقل المشاعر الانفعالية الى المتلقى .

فامتداد عنتره - بعد وفاته - يجب ان يأخذ جميع السمات التي كانت له حتى يكون امتدادا طبيعيا وحتى يعطى التأثير المطلوب ، ولن يوحى بهذا الامتداد اكثر من اسم يحمل سمات الامتداد في الاحرف والتركيب والايحاءات الصوتية . لهذا نجد ان المؤلف قد اطلق على ابنة عنتره اسم « عنيترة » ليعطى تشابه الاسم ايحاءات لتشابه الشخصية وتشابه الحياة . ومثل هذا يقال في اختيار المؤلف للاسم الذي اطلقه على ابن شيبوب ( اخى عنتره ) والذي حمله جميع سمات ابيه بل وجعل دوره في الرواية - بالنسبة لعنيترة - هو نفس الدور الذي كان يقوم به ابوه شيبوب لابيه عنتره ، ولهذا فقد اطلق عليه اسم « الخذروف » .

وتتواتر في السيرة هذه الاسماء الموحية التي تحمل الرمز الكامل لدورها الدرامي في القصة ، فملك السودان اسمه « لون الظلام » (١) ، وقائد النصاري الذي اراد ان يهاجم الكعبة اسمه « كافر بن فاجر » (٢) ، والسرطان الذي سرق الابجر - فرس عنتره الاثري - اسمه « المختلس بن ناهب » (٣) ، وفارس الاحباش يدعى « عبد زنجير » (٤) ، بينما يدعى أمير السواحل الجنوبية « عقريب السواحل » (٥) . أما الفرسان الذين هزمهم عنتره وهو في اوج مجده الفروسي فمنهم « محارب بن جيشان » ومنهم « معاوية بن النزال » ، في حين ان صديق عنتره الحميم وزميله في السراء وفي الضراء يدعى « مقرى الوحش » .

فاختيار المؤلف لهذه الاسماء الرمزية الموحية التي تكاد تحمل - في ذاتها - كل المعاني الدرامية التي يريد ان يحملها للحدث والتي هي في نفس الوقت بعيدة عن الاسماء التاريخية المعروفة أتت لتدل على ان الكاتب يعطى هنا أحداثا غير تاريخية تخيلها هو واصطنعها ليكمل بها البناء القصصي وليس تفيد منها في تطوير شخصية بطله ورسم الصورة التي تصورها له ولاطوار حياته .

من هذا نستطيع - في بساطة - ان نفرق في سيرة عنتره بين الشخصيات التاريخية الحقيقية التي لعبت دورا أساسيا في حياة البطل ، وبين الشخصيات التاريخية التي استعارها المؤلف ليكمل



الصورة التاريخية له ويبرز سمات وملامح معينة شفاء أن يصفها عليه، ثم بين الشخصيات الكاملة التي أنشأها المؤلف انشاء تخيليا استجابة لمقتضيات البناء القصصى واستكمالا للصورة الروائية التي أراد أن يرسنها لعنترة .

ولا يقتصر خلق مؤلف السيرة على حسن اختياره للشخصيات وعمق فهمه لأدوارها في روايته التاريخية ( حتى بمفهوم النقد المعاصر لها ) وإنما يتعداه الى حسن اصطناعه لتلك الشخصيات والسير بها في نماء قصصى ممتاز . وقد وضحت لنا مظاهر هذا الخلق ، حينما تتبعنا نماء الشخصية الرئيسية في الرواية - وهي شخصية عنترة - بحيث أمكننا في سير مسامرة الكاتب منذ أول خلقه للشخصية ثم تطوره بها حتى نهايتها ، وبعد ذلك في امتداداتها وارهاساتها . وقد تم له احكام بناء تلك الشخصية بواسطة الخطوات المتعاقبة المتناسقة التي سار بها ، وبواسطة المراحل المتتالية والمتساندة التي اصطنعها بحيث كانت كل مرحلة من مراحل بناء شخصية عنترة ، تؤدي الى المرحلة التالية لها أداء طبيعيا مقبولا ، كما كانت كل مرحلة من تلك المراحل تعتمد اعتمادا كليا على المرحلة السابقة لها وتتعاون معها لتقودنا الى المرحلة التالية لها ، وهكذا .

والذي رأيناه في بناء شخصية عنترة نجد مثله في بناء معظم شخصيات السيرة ، فاذا تتبعنا أى شخصية من تلك الشخصيات وجدنا ان المؤلف يقدمها لنا - أول الامر - في مكانها الطبيعي المناسب ، ثم يستمر ينميتها نماء قصصيا سليما ومسائرا للبناء العام حتى يصل بها الى القمة الدرامية ، دون أن نحس فيها بأى نقص أو انحراف أو اهتزاز ودون أن يفقد الكاتب الخيط الذي يربط الشخصية بأحداث القصة ( التي تبلغ نيفا وأربعة آلاف صفحة ) مهما طالت الفواصل بين مواضع ظهور تلك الشخصية ومهما صغرت المواقف التي تظهر فيها . فشداد - أبو عنترة - الذي يأخذ دورا رئيسيا في الفصول الأولى من الرواية ثم يستخفى الى حين ، يظل محتفظا بشخصيته وبالسمات المميزة له حين يظهر بعد ذلك في الفصول الأخيرة . ومثل هذا عروة بن الورد الذي يظهر ويختفى بين الحين والحين ، ودون حدوث أى اهتزاز في شخصيته ودون أن ينسى المؤلف أى لمحة أو سمة من السمات التي أضفاها عليه من أول الامر .

ولعل شخصية عبله أن تكون هي الشخصية المثالية في بيان مدى كفاية المؤلف واتقانه عملية بناء الشخصيات وانماؤها . فعبله في أول السيرة فتاة مدللة تستهوى الرجال وتقودهم الى جيبها وتبذل



السيرة ، حيث ينتهى دورها بخروج عنتره من حيز الاقليمية القبلية الى ميدان الفروسية الدولية ، ثم لا تلبث ان تظهر بعد منتصف الرواية تقريبا ، حينما يلتقى عنتره بالاحباش ، لتلعب زبيبة دورها فى الربط بين عنتره وبين جدها النجاشي ، مؤكدة علاقات الود والترابط بين العرب والاحباش ومثبتة لسلامة نسب عنتره من جهة امه كما اثبتتها له من جهة ابيه بامتناعها على بقية الفرسان المصاحبين لشداد فى اول الرواية .

وهكذا نجد ان مؤلف السيرة قد اجاد ايضا فى تحريك شخصيات روايته ، وفى الربط بينهم وبين الاحداث ، بحيث يتفاعلان معا لينتجا البناء القصصى السليم وليحققا المضمين الذى هدف اليها من وضع سيرته ، وهى المضمين التى سوف نتحدث عنها فى الفصل التالى .



هذا من حيث الشخصيات الفردية فى السيرة ، اى الاشخاص الذين لهم دور ذاتى يلعبونه باسمائهم المحددة ووجودهم الفردى . فاذا انتقلنا الى الشخصيات العامة ، اى مجموع الاشخاص الذين تتطلب الاحداث وجودهم فى المواقف المختلفة كجزء مكمل للصورة التى يرسمها المؤلف ، كان اهم ما يعيننا هو ملاءمتهم للموقف الذى يلعبون دورهم فيه من ناحية ، وصديق تعبيريهم عن البيئة التى يجرى فيها الحدث من ناحية اخرى .

وسيرة عنتره تنتقل باحداثها فى اكثر من بيئة ، وتتناول اكثر من مجتمع . فهى لا تقتصر على الجزيرة العربية - رغم اختلاف مجتمعاتها من يذو فى الشمال ويمنيين فى الجنوب ، ويهود ومسيحيين - ولكنها تنتقل الى بلاط كسرى مرة ، وإلى بلاط قيصر مرة اخرى ، ثم تجملنا معها الى بلاد الاحباش والسودان وتجوّب ممالك جنوب أوروبا وشمال افريقيا ، وتصف جيش الهند وجنود الجن . والمؤلف لا يقتصر فى تصوير هذه المجتمعات المختلفة المتباينة فى صورة واحدة وانما ينقل الينا اوجهاها المختلفة ، فهو حين يأخذنا الى بلاط قيصر مثلا يصور لنا مجتمعه من زوايا شتى فيرسم لنا صورة للحياة القامة فى قصر قيصر وفى قصور غيره من الأمراء ، ثم ينتقل مع بطله عنتره الى السجن مرة وإلى حلبات المصارعة والترفيه مرة اخرى ،

ثم الى تجهيز الجيوش ثالثة ، يضرب الى هذا تصويره للمواقع الحربية ومواقف المصارعة والقتال التى يختلف من بيئة لبيئة ومن شعب لشعب .



وأظهر ما تدل عليه السيرة هو أن مؤلفها على علم واسع بمعظم  
البيئات التي أجرى فيها أحداث روايته ، وعلى معرفة عميقة  
بمعتقداتها وأوصاف أهلها وعاداتهم وتقاليدهم ، كما أنه على خبرة  
ثامة بمواقفهم من العرب - أو على الأصح - بموقف العرب منهم  
سواء قبل الإسلام أو بعده . وكذلك فإن الصديق الفنى والواقعية  
والوصف المستند الى الحقائق الجغرافية والطبيعية يبدو بوضوح في  
كل ما يكتبه عنهم فاذا ما انتقل الى أماكن خيالية كأرض الجن والغيلان  
في تصويرها ورسم لها أشكالا تدل على ما يتمتع به - كمؤلف - من  
أو الى مناطق لا خيرة له بها مثل مجاهل بلاد السودان اعتمد على خياله  
في تصويرها ، ورسم لها أشكالا لا تدل على ما يتمتع به - كمؤلف - من  
تصور واسع وخيال عريض يسعفانه بما يريد وبما يتلاءم ملائمة تامة  
ابرازها من وراء ذلك .

ولعل أبرز ما يوضح لنا دقة هذا المؤلف في رسم الشخصيات  
العامية في البيئات المختلفة ، هو اختياره لضيفة - أو مجموعة من  
الصفات - تبين شخصية القوم وتدل عليهم دلالات واضحة . فنحن  
نجد مثلا أن أول صورة أعطاها للقارىء عن بلاط كسرى تتناول  
الدسائس والمؤامرات التفشئية فيه ، والتي يحكيها رجال القصر والاتباع  
بعضهم لبعض ، ثم هدف المؤلف الى اثارتنا ضد هذه الأوضاع بأن  
أظهرنا على دسيسة حاكها اتباع كسرى للملك العربى « المنذر »  
ليوقعوا بينهما ويثيروا حفيظة كسرى عليه . (١) . حينما تنتقل القصة  
الى حصن خيبر حيث يقف عنجرة أمام سكانه اليهود بينى المؤلف  
جميع معاركهم ضده على أسس من القدر ويجعل كل أحداث هذا  
الجزء من القصة تجرى بسبب خياناتهم وحنثهم بالوعد . (٢)  
وعندما بلغ مصر ، قد لنا صورة لم يسبق لها مثيل في القصة هي  
وصفه لسير ركب عنجرة في طرقات الاسكندرية وخروج سكانها  
لتحيته . . « وقد علت منهم الزعقات ، وأكثروا من الصياح  
والضججات ، والناس صاروا من أعالي الاسطحة يتفرجون على شجيع  
عيسى وذبيان . (٣) »

ومما يدل على الملم المؤلف بالمعالم العامة لكل بيئة من البيئات  
التي أجرى فيها أحداث قصته ، وعلى المظاهر المميزة لكل شعب من  
شعوبها أنه اختار أبرز تلك المعالم في كل إقليم وصوره في قصته

(١) السيرة - مجلد ١ ص ٢٤٦

(٢) السيرة - مجلد ٥ ص ٢٣٢

(٣) السيرة - مجلد ٨ ص ٩٠



تصويرا دقيقا رائعا فمن البيئة البدوية في الجزيرة العربية تخير المؤلف صورتين بارزتين ورسم لكل منهما لوحة كاملة : الأولى هي صورة الاجتماعات الادبية ومجالس المطارحات الشعرية والمعارضات القولية (١) ، أما الصورة الثانية ، فیرسمها في أواخر القصة مبینا طريقة أخذ الثار من أسرى الأعداء (٢) فإذا انتقلنا الى بلاط كسرى أو قیصر ، أو حتى بلاط النعمان ، فلا مكان للاجتماعات الادبية التي يحل محلها لون آخر من الرياضة الجماعية هو حلبات المبارزة واختبار قوى الفرسان ثم ما يعقبها من حفلات سمر وطرب وشراب .

ولما كانت العادات الفردية مظهرا من مظاهر تحديد الشخصية الجماعية كذلك ، فان مؤلف السيرة لم يهمل إبراز هذا الجانب . لهذا كان في كل لقاء يجريه بين عنصرة وبين فرسان بيئة من البيئات يصف لنا - في دقة وتعمق - طريقة ذلك الفارس في لقاء خصمه ، والاسلوب الذي يتبعه في النزال ، كما يصف نوع السلاح الذي يحمله وطريقته الخاصة في استعماله ، بحيث أصبحنا نستطيع بسهولة أن نميز بين طريقة قتال الفارس العربي والفارس المعجمي والفارس الرومي وفرسان اليمن والجنوب . ثم ان المؤلف كان يتحرى أن يضيف الى كل لقاء من تلك اللقاءات بعض الاحداث الصغيرة أو المحاورات القولية ، التي توضح جوانب شخصية ذلك الخصم وتعكس صورة لبيئته وقومه تساعد على تحديد شخصيتها العامة .

وقد فطن المؤلف السيرة كذلك الى مظهر من أهم المظاهر التي تحدد شخصية الشعوب ، ونعني به نوع الملابس والوانها ووسائل التألق فيها ونوع الزينات التي يصطنعها الافراد ويقبلون عليها . ولقد وجدناه كلما انتقل الى بيئة جديدة أو أجرى مبارزة بين عنصرة وبين فارس أجنبي تعمد وصف هيئته وملبسه ومظهره .

بهذه اللمسات الناجحة استطاع مؤلف السيرة أن يرسم صورة دقيقة للشخصيات العامة ، لا تقل في اتقانها وفاعليتها عن تلك التي رسمها للشخصيات الفردية في روايته ، وبحيث تتعاونان معا في تشييد بناء قصصى سليم يجعل من سيرة عنصرة عملا أدبيا قد توافرت له جميع الأركان الفنية .

(١) السيرة مجلد ٤ ص ١٠

(٢) السيرة مجلد ٦ ص ٧٣

## المضامين

حسبت السير الشعبية بعامة موقفها من العمل الفني ، اذ بنيت منذ أول نشأتها على وجود هدف أو أكثر تخدمه بما تسوق من أحداث وبما تسرد من أفعال وأخبار ، وقد حدد هذا - الى حد كبير - كون السيرة عملاً تقصده به الجماهير ، اذ أن الصورة التي نعرفها عن المتلقين أنهم جماعة يستمعون الى راو ، فكان لابد لهذا الراوي - كى يستحوذ على أسماعهم - أن يمس من المشكلات ما يرضيهم ويتجاوب مع مشاعرهم ، وكان لابد له كذلك أن يعبر عن وجهة نظرهم بأن يقف بأحداث سيرته وأخبارها موقف الممارك لما يعارضون بالمؤيد. لهذا يؤيدون . وهكذا نجد أن مشكلات العصر قد اطلت براسها في هذه السير الشعبية .

وقد حملت لنا كتب الأدب من الروايات ما يقرر أن سلطات حاكمة في غصور بلدانها قد أملت بعض هذه القصص أو أوحى بها لتحميل من الآراء والمعتقدات ما يوجه الجماهير المتلقية الوجهة التي يريدون ، وقد ذهبنا نحن الى نفس هذا الرأي ولكن بصورة عكسية هي مناهضة السلطات الحاكمة الدخيلة والوقوف في وجه تعسفها وجورها ، والواقع أن الاعتماد على السير الشعبية في تغليف الاتجاهات السياسية وتثبيت عصبية معينة وتبرير أوضاع بذاتها عمل يتفق مع امكانياتها الضخمة ، وطبيعة انشائها وتلقيها . ولهذا فانه ليس من الغريب حين ندرس سيرة ما أن نسأل ونحن نتبع الأحداث المثيرة التي تتضمنها : ماذا وراءها ؟

وسيرة عنتره تثير هذا السؤال بحكم ما اختارته من شخصيات وما تتحرك فيه من بيئات . فالشخصيات التي وردت فيها تعكس دفاعاً عن أكثر من قضية ، والبيئات التي جرت فيها أحداثها ، تضع الإجابة لأكثر من سؤال ، يتردد عن الصراع بين العرب وغيرهم من الشعوبيين . فلا شك أن هذا الاخبار اذن كان يستهدف مضامين سياسية بذاتها ، تلح على العصر الذي كتبت فيه ، كما تلح على أهل هذا العصر الذين احتفلوا بسيرة عنتره كمخرج فني لكثير من مشكلاتهم .

حظيت معظم قبائل العرب بذكر خالد بعد الاسلام لارتباطها بأكثر من بطل ، لعبوا أدواراً هامة في نشر الدعوة المحمدية ، ولكن قتيلة

عبس كان حظها ضئيلا - أو معدوما - (١) ولا يأتى ذكرها الا داخل قبيلتها الأم « ربيعة » . ومن الطبيعي حين يتفاخر الناس بعد الاسلام بمشاركتهم في الدعوة ، ان يبحث بنو عبس عن سند يعتمدون عليه في ان يكونوا اصحاب حق في الدعوة الجديدة ، ولهذا اخذ العباسيون يبحثون في تاريخهم فوجدوا ان اظهر شخصيات نقلها التاريخ الجاهلي اليهم هي شخصيات عنتره وزهير الملك . وقيس ابنه وعروة بن الورد . وقد اشتهر زهير وابنه قيس بالحكمة واصالة الرأي ، واشتهر عروة بالشعر والفروسية وبجماعة الصعاليك التي كان يتزعمها حتى لقد اطلق عليه « عروة الصعاليك » (٢) اما عنتره فلعله الوحيد فيهم الذي نقل التاريخ عن حياته ما يصلح ان يكون مجالا لعمل قصصى بل وان يكون مجالا للدفاع عن اكثر من قضية .

وحين اختار واضع السيرة شخصية عنتره ليجعل منه بطلها وليدير الاحداث حوله ، استغل الشخصيات الباقية جميعا ، لتلعب ادوارها فيما يسوق من احداث ولتسهم بسماتها ومآثرها في ابراز القضايا التي يدافع عنها وتؤكد المضامين التي يريدنا .

وهكذا استطاع مؤلف سيرة عنتره ان يجعل لقبيلة عبس مكانا في التاريخ وان يخلق لها كيانا يصلح ان يكون بيئة اجتماعية فيها الخير عند عنتره وفيها الشر عند الربيع بن زياد ، وفيها النجدة عند عروة وفيها الراى الحكيم عند قيس وعند زهير . واستطاع المؤلف ايضا ان ينمى هذه البيئة ويبعث في مجتمعها الحياة بحيث لا تصبح مجرد خلية من خلايا المجتمع العربي القبلى بل يجعلها اهم خلايا هذا المجتمع قاطبة ، تدور حولها الاحداث وتتصارع في سبيل رفعتها مجموعة من الابطال العباسيين على رأسهم عنتره ، بل وتكتل القبائل العربية - التي عرفها التاريخ والتي استمرت بعد ذلك تسهم في الاحداث الاسلامية - لتقضى على قبيلة عبس فتنجح مرة وتفشل أكثر من مرة ولكنها في كل مرة تؤكد أهمية هذه القبيلة وقيمتها في تاريخ الجزيرة العربية .

وحين نشهد هذا الجهد الكبير الذى يبذله المؤلف لتثبيت قيمة هذه القبيلة نحس ان جزءا كبيرا من أهدافه ، يمكن فى تأكيد مركز القبيلة خاصة حين نجده يعلن أن عنتره ما ظهر الا لأمر تريده القوة

---

(١) معجم قبائل العرب لعمر رضا كحلا ج ٢ ص ٦٨٩ « وربما يعود هذا لانتهاك تكتلهم قبيل الاسلام . اذ فنى منهم من فنى ولجأ من بقى الى قبيلته يحاول الحاق نفسه بها » .

الغيبية الكبرى ، ادخرته له وزودته بالفروسية الخارقة ليحققه وامدته  
— في سبيل ذلك — بقدرات خارقة غير عادية اذ يقول المؤلف ان  
« عنترة كان فيه سر خفى لا يعلمه الا الذي ركب فيه ، وهذا انه كان  
اذا انتهى به التعب مع خصمه من شدة القراع وانفصلا عن بعضهما  
البعض وصار بينهما من الاتساع باع او ذراع زال عنه تعب ، واستمد  
بقوة الله عصبه ، وكأنه لم كان ويشتاقي الى الحرب والطعان كما كان  
في اول الحال » . (١)

ويضيف مؤلف السيرة ان السبب في هذا التأيد المادي الذي  
أيده به الله سبحانه وتعالى هو ان العرب في الجاهلية « كانوا يعبدون  
الأوثان ولا يخافون الله ولا يراقبونه ولا يخشونه ولا يحترمونه » (٢) ،  
فأراد تعالى اهلاكهم « وقهرهم بأقل الأشياء عليه ، واحقرهم لديه ،  
وكان ذلك غير عسير عليه ، وذلك بالعبد الموصوف بأنه حية بطن  
الواد ، الذكي الفؤاد ، الطيب الميلاد ، عنترة بن شداد ، الذي كان في  
زمانه شرارة خرجت من زناد ، فقمع الله به الجبابرة في زمن الجاهلية  
حتى مهد الأرض قبل ظهور سيدنا محمد خير البرية . » (٣)

فالمسألة اذن ان رسالة العباسيين — معثلة في عنترة — كانت  
تمهيد الجزيرة العربية للدعوة الجديدة ، وكانت القضاء على الجبابرة  
من الفرسان العرب الذين قد يعوقون انتشار الدين الاسلامي . وقد  
حرص المؤلف على ايراد الابطال والفرسان الذين اشتهر أمرهم في  
المعارك الاسلامية وليقوموا بدور في السيرة ، اما كأعداء لعنترة يقفون  
منه نفس الموقف الذي وقفوه من الاسلام فيما بعد مثل ذي الخمار  
وغيره ، واما كأصدقاء مؤيدين لعنترة وهو نفس الموقف الذي وقفوه  
من الدعوة الاسلامية ، مثل دريد بن الصمة .

وهكذا نجد ان المؤلف حرص على ان يثبت في  
الأذهان ان العباسيين وان لم يقوموا بدور في الاسلام فقد خدموا  
الاسلام فعلا بالتمهيد له ، بل انه يحرص في نهاية السيرة على ان يذكر  
ان اولاد عنترة وعلى رأسهم عنترة والخدروف بن شبيب قد  
اسلموا على يد الرسول وحاربوا في صفوفه واستشهدوا في غزواته ،  
وزاد على ذلك أنهم جمعوا للرسول من تبقى في الجزيرة من بني عبس  
في شبه كتيبة عبسية اسلامية محاربة . (٤)

(١) السيرة — مجلد ٦ ص ٣٩٦

(٢) السيرة — مجلد ١ ص ٤

(٣) السيرة — مجلد ١ ص ٥٠٤

(٤) السيرة — مجلد ٨ ص ٣٥٠



وثمة ملحوظة أخرى تلفتنا إلى هذا الجهد الذي يبذله المؤلف لتثبيت مكان قبيلة عبس ودورها في الدعوة الإسلامية تلك هي خاقه للعلاقة بين منثرة وبين عبد المطلب - جد النبي - تلك العلاقة التي تقوم على الاحترام المتبادل والطاعة من جانب منثرة والتأييد من جانب عبد المطلب في موقعة ذي قار ، وفي تعليق قصيدته على الكعبة ثم في استدعاء عبد المطلب له ليرد عن الكعبة غزاتها من الهنود والروم النصرانيين .

والمؤلف يلجأ إلى وسيلة أخرى لتثبيت هذا المعنى تلك هي الصورة الاستعلائية التي ظهر بها منثرة على فرسان الروم والفرس وغيرهم من الأمم التي حاربها الإسلام بعد ذلك وانتصر عليها ، وكأنما يريد أن يقول أن هذا الفارس العبي ، قد واجه أعداء الدعوة الإسلامية من قبل فأذلهم وانتصر عليهم وبث في قلوبهم الرعب من فرسان العرب المسلمين بعد ذلك .

يمكننا إذن أن نعتبر قضية عبس - قبيلة - واحدة من القضايا السياسية التي تبناها مؤلف السيرة . ورب قضية أخرى لها الصبغة السياسية أيضا ، هي دفاع عن موقف أهل الجزيرة الشماليين من أهل اليمن الجنوبيين . ولعلنا نفترض لقيام هذه القضية سببين : السبب الأول هو أن أهل اليمن لهم من التاريخ والحضارة والعراقة ما يجعلهم يستنبذون في فخرهم وتثبيت مكانتهم إلى رصيد كثير من الأبطال الأسطوريين والتاريخيين معا - فمما عرف العرب الأساطير وهم يرددون أسماء الملوك من التبابعة كمظهر من مظاهر القوة والعظمة وعنوان على السيطرة ورفعة الشأن ، فلتبع الأول حكايات كثيرة هزمت فيها الممالك من حوله وقضى على الأعداء الذين فازعوه الأفراد بحكمهم العالم المعروف آنذاك (١) ، وإلى جوار اسمه وضعت الأساطير أسماء تبع الأوسط « شمربرعش » وتبع الأصغر والملك الصخر ذو القرنين بل وسليمان الحكيم وملكة سبأ (٢) ثم حكايات كثيرة عن تهود اليمن وتنصرها تثبت أسماء « ذي نواس » وغيره ، بالإضافة إلى معارك مع الأحباش والفرس خلقت فيما بعد أبطالاً أسطوريين مثل « سيف بن ذي يزن » .

أما عرب الشمال فلعل تاريخهم الحقيقي يبدأ منذ الإسلام أو قبل ذلك بقليل ، وحتى من سكنوا الشمال من الجزيرة كالجراهمة

(١) السيرة مجلد ٨ ص ٣٥٠

(٢) كتاب التيجان لوهب بن منبه

والعمالق ، فقد أسندتهم الاساطير الى اصول يمنية لاشبهة فيها (١) .  
 وحين قدم اسماعيل الى الجزيرة ليبدأ العنصر الشمالى فيها امتزج  
 بهؤلاء الجراهمة ليدع للاساطير الحق فى أن تجعل من عرب الشمال  
 امتدادا جنسيا لعرب الجنوب . ولسنا هنا فى مجال مناقشة هذه  
 الاوضاع كلها ، ولكننا نريد فقط القول بأن عرب الشمال احسنوا بخلو  
 تاريخهم الاسطورى من عمد يستندون اليها فى منافسة عرب الجنوب  
 عراقتهم وامجادهم ، وحين يجيء عنتره العيسى الشمالى يخوض من  
 المعارك ما يرسم لليمنيين - والجنوبيين بصفة عامة - صورة ضعيفة  
 هزيلة يتعمدها المؤلف ، فأبطالهم امامه يفرون من الميدان ولا يصمدون  
 بالسيف أو فى مباراة بالشعر ، وكلما احتاج الى مال غزا اليمن والجنوب  
 كأنما هى من البساطة واليسر بحيث تأخذ شكل الغنيمة الباردة ، بل  
 ان بعض الابطال الذين هزمهم عنتره ، كان يدخل وحده الى مدينة كبيرة  
 من مدن اليمن فيهزم جيوشها بمفرده ويسوق امامه ملوكهم فى الاسر  
 واموالهم فى الغنيمة . (٢)

فالمؤلف اذن لا يكتفى بان يجعل من عنتره بطلا شماليا يشابه  
 أبطال الجنوب المعروفين فى التاريخ والاساطير ، وانما هو يدخل عنتره  
 فى مجال المقارنة والمفاضلة بينه وبين أبطال اليمن ليعلن تغلبه عليهم .

أما السبب الثانى فى قضية دفاع المؤلف عن موقف الشماليين  
 ضد اهل اليمن فهو ما افترضناه من أن سيرة عنتره كتبت بمصر ، ونحن  
 نعلم - مما حكاه تاريخ الفتوحات الاسلامية أن جيش عمرو بن العاص  
 الذى فتح مصر كان يتكون أساسا من اليمنيين (٣) ، ومما لاشك فيه  
 أن هذه العناصر اليمنية كونت دعائم المجتمع العربى فى مصر . فربما  
 كان فى الامر نوع من العصبية يريد أن يحد من غلواء اليمنيين الذين  
 يعيشون فى مصر مرددين امجادهم السوالف ومسيطرين على الاجهزة  
 الحاكمة فى مصر وخاصة بعد انتقال الحكم الى ايدى الفاطميين فلم تعد  
 الدولة تحميهم من لسان القاص وأحداثه المؤلفة .

هذان السببان يجعلان من موقف الشمال العربى عنصرا آخر  
 من عناصر المضامين السياسية لسيرة عنتره بن شداد .

والقضية السياسية الثالثة قضية أكثر عموما من القضيتين  
 السابقتين ، إذ تتعلق بموقف العرب من الشعوبيين من أبناء الامم الاخرى .

(١) راجع خطط المقرئى ج ٢ ص ٧٦ وما بعدها .

(٢) السيرة - مجلد ٤ ص ١٤٣

(٣) راجع خطط المقرئى ج ٢ ص ٧٦ وما بعدها

وبطل السيرة ، ان كان يمثل أمته في المعارك الدائرة داخل الجزيرة ، فانه يمثل أمته في المعارك التي يخوضها مع أعداء الجزيرة والشعوب المحيطة بها . ومؤلف السيرة لا يجعل بطله يخوض المعارك مع دولتي الفرس والروم فحسب ، وانما هو قد أدار معاركه مع الهنود تارة ومع الاحباش تارة ومع الافريقيين والافرنج تارة أخرى ، وهو في كل ذلك لا ينسى الصديق الفنى ، فيما يحكى اذ نراه حريصا كل الحرص على أن يجعل النتائج التي يصل اليها من رسم اللقاء بين بطله وبين هذه الشعوب تبدو مقبولة ومعقولة . فحين يتعرض للهند يرسم صورة خطيرة لقوة الهنود وغناهم وحضارتهم وأسلحتهم وفنون حربهم ، (١) ولهجته حين يتحدث عنهم يملؤها الاحترام والتقدير ، وهو ان أراد أن يؤكد تفوق بطله عليهم ، فانه لا ينسى مكانتهم وقوتهم فينهى حرب العرب معهم صلحا ورضاء بعد اعترافهم بقيمة فارسه ومقدرته (٢)

أما حين يصطدم عنتر بالاحباش فهو يخلق جوا أسطوريا ضبابيا يتناسب مع جهله بالحبشة وعدم معرفته بحياة أهلها ، بل ان السحر والفيضان لا تظهر الا في حرب عنتر مع الاحباش (٣) ولكن مؤلف السيرة لا يستطيع أن يتجاهل مانثا بين الاحباش والعرب بعد الاسلام من تآلف ومودة جعلتهم يذكرون النجاشي بشيء من التقدير المشوب بالحب الذي لعل مرجعه هو موقف النجاشي من المهاجرين المسلمين في مبدأ الدعوة الاسلامية وقد هيا هذا الاحترام الفرصة امام المؤلف ليخلق نسبا بين عنتر والاحباش ، وليصلح من موقف زيبه - أم عنتر - وليعيد العبيسين من الحبشة كما عاد المهاجرون المسلمون منها وهم يحملون أطيب الذكريات ويتحدثون عن علاقات النسب التي تربطهم ببلاد الحبشة .

أما موقف مؤلف السيرة من الاحداث التي جرت بين عنتر والفرس فهي تعبر - الى حد كبير - عن موقف الامة الاسلامية من دعوى الشعوبية التي تزعمها الفرس ، اذ انها ترسم صورة للصراع بين العربى كفرد وبين الفارسى كفرد ، وتؤكد أن عنتر - البطل العربى - يفوق أبطال الفرس المعروفين من أمثال « رستم » القائد الفارسى المشهور . ويقف المؤلف طويلا ليدبر المبارزات بين عنتر والاعجام الذين يحملون من الاسلحة كل ما هو مهول مخيف ولكن عنتر يتغلب في كل مرة على « عبدة النار » من فرسان كسرى . بل ان المؤلف يرسم

(١) السيرة مجلد ٦ ص ٢٠١

(٢) السيرة مجلد ٦ ص ٢٥٢

(٣) السيرة مجلد ٦ ص ٢٦٠

صورة رائعة لتنصيب عنثرة - وابنه الغضبان من بعده - سيدا على كل الفرسان في ملك كسرى ، وحين يشتد الامر بكسرى ، يطبق عليه الروم من كل جانب ، لا يجد سوى سيف عنثرة ، ليفك من حوله الحصار ، ويشتت المهاجمين ، ويصل الامر عنده الى اكثر من هذا فحين يشور فرسان من التمرديين على كسرى ويستقلون بأجزاء من ملكه لا يردهم الى طاعته غير سيف عنثرة (١) .

والمؤلف في هذه الصور التي يرسمها لا يريد أن يجعل من عنثرة سيد فرسان دولة كسرى فحسب ، وانما هو يريد أن يجعل له الدالة على كسرى نفسه ، فكانما ملك كسرى الذي يتشدد به أصحاب الشعوبية من سلالات الفرس ما حماه وأقامه الا سيف عربى لولاه لانهار هذا الملك وانتهى .

ونفس هذا الموقف تماما هو مايقفه المؤلف من الاحداث التي يجريها مع الروم بحيث يتشابه هرقل مع كسرى في التسليم لعنثرة بالفروسية ، وفي الادانة لسيفه العربى ببناء ملكهم وحفظه من الضياع . ويتلاعب المؤلف بهذا الموقف كثيرا ، فحين ينهزم الفرس امام الروم ، يقف عنثرة الى جوارهم فينتصرون ، وحين ينهزم الروم امام الفرس ، يقف عنثرة الى جوارهم فيستردون ما فقدوا . وكما ثبت عنثرة ملك الفرس فانه يخوض معارك كثيرة في صف الروم ، ليثبت بها ملكهم في امبراطوريتهم الواسعة ، ويؤكد مكانة الفارس العربى في كل جزء منها .

من هذا يبدو لنا ان المؤلف يدافع عن قضية الشعب العربى امام العناصر التي دخلت الاسلام من شعوب اخرى تزعم لنفسها عراقا ومجدا دونهما عراقا العرب ومجدهم . وهذه تكاد تكون هي ابرز القضايا السياسية التي هاجها مؤلف السيرة ، اذ انها تبدأ عنده منذ وقت مبكر جدا وتستمر الى نهاية روايته بينما تشتغل الاحداث دائما لترسم صورة العلاقة بين العرب وغيرهم من الشعوب محددة مكان العرب منهم ومبينة فضلهم وتفوقهم .



## المضامين الاجتماعية

كما تحمل سيرة عنتر بن شداد من المضامين السياسية ما يدافع عن قضية العرب امام الشعوبيين ، فانها الى جانب ذلك تمثل موقفا اجتماعيا معيناً يدافع عن كيان الشخصية العربية ، التي وضعها المجتمع الجديد - زمن كتابة السيرة - في غير موضع الصدارة . فالحكام ليسوا عربا خلصا وانما هم دخلاء استولوا على البلاد من يد الخليفة العباسي صاحب السلطة الشرعية في الدولة الاسلامية . وكان قوام جيش المعتز - الذي فتح مصر - جندا من المغاربة على راسهم قائد غير عربي هو « جوه الصقلي » ، كما كان ذلك بتدبير وزير غير عربي - بل وغير مسلم كذلك - هو يعقوب بن كلس اليهودي (١) كما استقدم الخليفة معه شاعره الخاص - غير العربي - ونعنى به « ابن هانيء الاندلسي » الذي كان يريد ان يفاخر به شعراء المشرق . (٢)

وكان من الطبيعي ان يحتل المغاربة والشيعيون جميع المناصب الرسمية في الدولة من وزارة وقضاء وامامة وغيرها بعد ان اقصوا عنها اهل البلاد والسنيين ، وبذلك اصبح مكان الصدارة لانصار الدولة من مغاربة واتراك واكراد ، بينما تقهقر مكان اهل البلاد الاصليين . خطوات كثيرة للخلف . يضاف الى هذا ان الكثيرين من اهل الذمة ( وهم النصارى واليهود ) سارعوا باعتناق المذهب الشيعي وعلان ولائهم له رغبة في الحصول على المناصب والعطايا فعاملهم الفاطميون معاملة تتجلى فيها المحابة والرعاية (٣) .

وهكذا نجد ان المجتمع المصري قد انشطر الى فئتين متميزتين : فئة الحكام وانصارهم واتباعهم ، وهي فئة تتكون من غير العرب الذين احتلوا مكان الصدارة ، وظهروا بمظهر الغاصب المتجبر المستعلى ، واعتنقوا المذهب الشيعي ، وجاهرُوا بالشعوية مفاخرين متباهين . أما الفئة الثانية فهي فئة الشعب المغلوب على أمره الذي اتاه من اغتصب منه بلده

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي - للدكتور حسن ابراهيم حسن

ج ٣ ص ٢٥٢ و ٢٥٣

(٢) المرجع السابق ص ٥٥٢

(٣) المرجع السابق ص ٦١٣

وبالتالى اغتصب مكانه الممتاز فى مجتمعه فنجاه عن موضع الصدارة  
واعتبره فئة من العبيد بنى العبيد (١) .

هذه الفئة المستضعفة التى كان لها مجد فزال ، وكان لاهلها  
المركز الاول فى مجتمعهم فازيحوا عنه الى الاماكن الخلفية ، والتى كان  
منهم الحكام والقضاة والرسميون فأصبحوا زراعا اجراء ، ونقراء يتحكم  
فيهم المغاربة والأتراك والاكراذ ... هذه الطبقة من المجتمع التى تطرا  
عليها مثل تلك المظاهر العارمة المدمرة لابد ان يعانى أفرادها من الاحساس  
بالنقص ومن العقد النفسية ، ونحن نجد مدى ذلك واضحا فى سيرة  
عنتره الشعبية . فمؤلف السيرة يحمل بطله ترجمات صريحة لتلك  
الاحاسيس والعقد النفسية التى يعانىها الشعب ثم يجعل عنتره يتخلص  
منها ويتغلب عليها .

وأول هذه العقد عقدة اللون . فاللون كان هو السمة التى تميز  
رجال الدولة الجديدة من مغاربة وأتراك عن سُواد الشعب ، وكان  
هؤلاء يباهون بلون بشرتهم ويعتزون به ويتخذونه مجال مفاخرة على  
السمر من أبناء البلاد . لذلك نجد أن مؤلف السيرة يختار لبطلتها  
عبدا أسود اللون ، ويخلق له نفس العقدة اللونية التى تجعله فى مكان  
العبد من سادة يميزهم عنه لونهم . ولكن عنتره سرعان ما يتغلب على  
هذه العقدة - لا بالنسبة لنفسه فحسب - وإنما بالنسبة للمقاييس  
العامة والأحكام الصحيحة اذ يستطيع بقوته وشجاعته ، أن يرغم الناس  
جميعا على تجاهل اللون كأساس فى تقييم الاشخاص وفى المفاضلة  
بينهم ، وأن يجعل من صفات أخرى - غير اللون - المقومات والاسس  
التي تعمل على رفعة صانعها أو خفض قدره .

وفى هذه الفترة الزمنية كان أمر الشعوبية قد استفحل فجهروا  
بمناهضة العرب والخط من قدرهم وقيمتهم الاجتماعية ، وكان أحد  
سهم وجهه الشعوبيون الى العرب هو سهم النسب - لا من حيث الابد  
وإنما من ناحية الام . وقد سلك الشعوبيون الى ذلك طريقين أولهما  
الطعن فى النسب الخاص - أى الفردى - وذلك لان العرب فى الجاهلية  
كانوا يغيرون على بعضهم البعض فيأسرون الرجال ويأخذون النساء  
سبايا مردقات على حقائب الابل ويطؤوهن . (٢) ولهذا « قالت الشعوبية  
إنما كانت العرب فى الجاهلية ينكح بعضهم نساء بعض فى غاراتهم بلا عقد

---

(١) الحياة الفكرية والادبية بمصر - للدكتور محمد كامل حسين

ص ٢٢٥ .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٧١

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٧٤

تكاح ولا استبراء من طمث ، فكيف يدري أحدهم من أبوه ؟ » (١) .  
والطريق الثانى الذى سلكه الشعوبيون فى ذلك هو الطعن فى النسب  
العام - أى نسب العرب جميعا - باعتبار أنهم من ولد « هاجر » وهى  
جارية . ولهذا نعتوهم ببني اللخناء فى مقابل بني الاحرار الذين هم  
العجم من اولاد سارة الحرة (١) .

وقد تناول مؤلف سيرة عنتره هذه العقدة من ناحيتها كذلك ،  
فهو أولا يثبت نسب عنتره الفردى مؤكدا أن أباه هو شداد وحده لان  
أمه زبيبة امتنعت على رفاقه من الفرسان (٢) . ولان قاضى العرب حكم  
بذلك (٣) ، فاذا ما أبى اشراف القبيلة أن يعترفون بذلك أرغمهم عنتره  
على ادخاله فى نسبهم والتسليم له بحقه المشروع فى الانتساب الى أبيه  
شداد ، وبذلك يكون عنتره قد حقق لنفسه النسب الخاص . أما  
النسب العام فان مؤلف السيرة يمهلنا الى مابعد منتصف الرواية ليعود  
الى هذه العقدة فيجلوها بارجاع زبيبة - ام عنتره - الى أصل ملكى  
ودم أزرق نبيل هو دم النجاشى ملك الاحباش (٤) . وكأما يريد المؤلف  
أن يؤكد أن عدم معرفة أصل الام السوداء - أو غير السوداء - ليس  
دليلا على وضاعتها وعدم اصلتها ، وانخفاض قيمتها الاجتماعية .

ويلجأ المؤلف الى حيلة بارعة يرد بها هذا السهم الشعوبى المسموم  
الى نحور مطلقيه ، فنراه يعيد قصة عنتره وطريقة ولادته وعدم ظهور  
نسبه ، فيكررها لابناء عنتره جميعا مع فارق واحد ، هو أن الامهات هذه  
المررة ليسوا من العرب وانما هن من الفرس والروم والاحباش واليمنيين  
جميعا . فعنتره يقع على نساء من تلك الشعوب ، ويتركهن ليلدن أبناء  
له ينشأون دون أن يعرفوا أباهم ثم يتضح بعد ذلك أنهم ينتسبون الى  
ذلك البطل العربى الكبير فيفرحون ويعتزون بهذا النسب ، وكأنمنا  
يريد المؤلف أن يثبت أن كل الشعوب - على اختلافها - تتعرض لمثل  
هذا الموقف ، وانه اذا ما اعتبرنا هذا الموقف مأخذا من المأخذ فلن ينجو  
منه أحد على الاطلاق .

ويستمر المؤلف فى مواجهته للدعوى الشعوبيين الذين اخذوا  
يفتخرون بانتمائهم الى دول غير عربية وأن هذه الدول لها من التأصل  
فى الحضارة المدنية والرقى ، ما لم يصل اليه أولئك البدو المتبربرون .

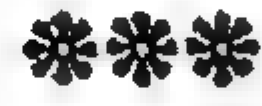
(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٧٣

(٢) السيرة مجلد ١ ص ٧٦

(٣) السيرة مجلد ١ ص ٨٠

(٤) السيرة مجلد ٥ ص ٤٢٠

وكان بديهيًا أن يخلق هذا الموقف للعرب عقدا نفسية كثيرة زاد في تعقيدها مكان هذا العربي المحكوم في دولته الإسلامية، بينما يرجع حكمه بنسبهم إلى شعوب أخرى غير عربية . وقد حل مؤلف السيرة هذه العقدة بإبراز مقدرة عنجرة الفائقة على هزيمة كل أعدائه مهما كان نسبهم ومهما كان أصلهم وموطنهم ، فهو يتغلب على أشهر فرسان الروم والفرس ، ثم يقتل اعتى ملوك السودان والحبشة واليمن . ثم يزيد المؤلف على ذلك بأن يبرز عنجرة في مظهر المنقذ لعرش كسرى والمقيم للملك قيصر والمتحكم في ملوك السودان والحباش والفتح لجميع ممالك العالم المعروف آنذاك . فعنجرة الفارس العربي - الذي هو في الواقع رمز للجزيرة والعروبة - قد أقر له أشهر الفرسان المعروفين في جميع أنحاء الأرض بالغلبة وعلو الشأن ، كما اعترفت له امبراطوريتا الروم والفرس بالفضل وببهره في اقامتهما بحد سيفه العربي بعد أن انتصر على فرسانهم ، فلخصعهم وفتح بلادهم ، ثم آزرهم فقضى على جميع أعدائهم وفتح لهم الممالك والبلدان . أي أن هؤلاء الشعوبيين - مهما كان مجدهم - فإن فضل اقامته كان للعرب كما أن تقويضه جاء على يد العرب كذلك .



والى جانب هذا فإن سيرة عنجرة تحمل من المضامين الاجتماعية مايبين مواقف طبقات المجتمع العربي ومكوناته ونظرة العربي الى هذه المكونات سواء اكانت معنوية أو مادية . ومن هذه المكونات : -

١ - الدين : والدين في السيرة دينان ، دين عربي ودين غير عربي . ويتمركز مفهوم الدين العربي في الالتفاف حول الكعبة وسادتها الشيخ عبد المطلب ، أما الأديان الأخرى غير العربية فتختلف بين عبادات غريبة في بلاد الحبشة والهند والسودان ، والمجوسية عند العجم والمسيحية عند الروم والافرنج . ومؤلف السيرة قد حاول محاولة جيدة لاثبات فضل الدين العربي على غيره من الأديان ، وكأنما هو يبت في ذلك أرهاصا لظهور الدعوة الحمديّة . فعنجرة يصادق مسيحيا هو « مقرى الوحش » ، وهو بعد ذلك يتزوج من مسيحيات وينجب أولادا مسيحيين ، ومع ذلك فهم جميعا يتمسكون بالحفاظ على الكعبة ضد من يهاجمها من الشعوب المسيحية . وعنجرة قد يوقر المجوس وقد يدخل كنائس النصارى ، ولكنه ما أن يغادر بلاد الفرس والروم حتى يعود الى الكعبة والى الالتفاف حولها هو وأهله . وفي خلال رحلات عنجرة المتتالية في مختلف بلاد العالم نحس أنه لا يعدل بدين العربي دينها آخر .



هذا الموقف الذى يقفه عنتره من الدين العربى هو فى واقع الامر مقدمة لازمة لتلك الرسالة الدينية التى زعمها المؤلف لعنتره والتى ربطه فيها بالاسلام كدين عربى يمتد من اصالة ارتباط العرب بالكعبة . فرسالته هى تمهيد الجزيرة واعدادها لاستقبال الدين الجديد ، وذلك بالقضاء على الجبابرة الظالمين ثم بحماية الكعبة من المغيرين الاثمين .

وقد استدعى هذا من المؤلف الا يتعرض لموقف عنتره من الاصنام متعمدا تجاهل هذه النقطة حتى لايربط بطله بوثنية مكروهة ، لذلك نراه يربطه برسالة مبهمه غامضة تتجه نحو المكان الذى تواتر تقديسه على مر الاجيال - عند العرب وعند المسلمين - وهو الكعبة .

٢ - مفهوم الشرف : يمكننا أن نعتبر سيرة عنتره محاولة لوضع قيم جديد لمعنى الشرف ، وهى قيم تقاوم مظاهر المدنية والحضارة فى الفترة التى كتبت فيها السيرة حيث ادى التطور الاجتماعى الطبيعى الى ظهور طبقة الاشراف بالوراثة والاشراف بالمال والاشراف بالتبعية . وهذه القيم الجديدة للشرف يستمدنها المؤلف من المفاهيم العربية التى وجدت فى المجتمع العربى الجاهلى ، فهو يحط قدر امكانه من العوامل الخارجية لتكوين معنى الشرف ، ويحاول أن يستمد هذا المعنى من تصرفات الذات نفسها . ويتبلور هذا المفهوم فى مبادئ الفروسية التى يعتنقها عنتره ويدافع عنها ويسير حياته بمقتضياتها ، من ذلك مثلا الدفاع عن الضعيف ونصرة المظلوم واطعام المحتاج وتأمين الخائف واخذ الحق وعدم قبول الضيم والتغلب على الاعداء ورد المعتدين واقصاء المخطئ مما بلغ ارتباطه بالقبيلة ومهما كانت قيمته فى النسب مثلما فعل عنتره مع الربيع بن زياد ومع الاسود بن النعمان (١) .

٣ - مكان المرأة : تلقى السيرة أضواء حقيقية على مكانة المرأة فى المجتمع العربى الذى اعتبرها - الى حد كبير - متاعا وترفا مهما بلغت من الاهمية والشجاعة حدا يعجز عنه الرجال . فمؤلف السيرة يدافع عن قضية أن المرأة وعاء للاطفال دون ما اعتبار لذاتيتها وشخصيتها . لهذا نجد أن السيرة تظهر أكثر من صورة لامرأة عربية بلغت فى الفروسية مكانا مرموقا ومع ذلك فهى ضجيعة لا أزيد ، وأم لا أكثر . وبما أن هذا هو وضع المرأة ، لذلك فانها لا يمكن أن تكون شخصية أساسية محركة للأحداث - الا اذا تم ذلك عن طريق غير

(١) السيرة مجلد ١ ص ٩٣ ومجلد ٣ ص ٣٥

مباشر . وعيلة هي ذروة الصورة التي يرسمها المؤلف للمرأة ، فهي التي انعكست عليها مجالات الصراع في السيرة لان البطل جعل من الحصول عليها هي حصولا على تحرره من جميع عوامل العبودية التي كانت تحط من قدره ، إلا أن عيلة نفسها يتغير موقفها بمجرد الزواج - لأنها لا تستطيع أن تكون أما - فيهجرها عنثرة الى غيرها من النساء ليصيب منهن الذرية ، وتتوارى شخصية عيلة من صدارة الاحداث الى ذيلها ، حيث نراها في النهاية مقتولة قتلة مهينة بعد أن فقدت حاميتها عنثرة . فعيلة اذن - في حد ذاتها - لا قيمة لها ، وانما الذي خلق لها القيمة واعطاها الاهمية هو علاقتها بعنثرة - أى بالرجل - . ولعل هذا أن يعطينا تفسيراً لتعدد الزوجات عند عنثرة ، فدور المرأة المشاركة مشاركة كاملة - في السراء وفي الضراء - لا مكان له في حياة عنثرة ، ولا مكان له في السيرة كذلك ، وانما الدور للمرأة الغنيمة ، والمرأة المتعة ، ثم المرأة الام ، ولا شيء وراء هذا .

٤ - الاسرة : تعكس السيرة أهمية رابطة الاسرة عند العربى ، والواقع أنها كانت منذ البدء هي الأساس الذى تدور عليه وحوله الحياة العربية ، فرابطة الام التي تربط أفراد الاسرة هي أساس العلاقة بين المجتمع العربى الكبير ، فمن أجل الحصول على القوات للاسرة ، يشن الفرسان الغارات ويتعرضون للموت ، ومن أجل ثارات القتلى من الاسرة تنشب المعارك أخذا للثأر باعتباره واجب أسرى . فكأنما الدفاع عن الاسرة - أحيائها وأمواتها - هو المحور الاول للمجتمع العربى .

والاسرة العربية التي تعكسها السيرة تعطى صورة متكاملة للاب والحنون المثل الاعلى في الفروسية ، وللأخوة الاشقاء المتساندين في السراء وفى الضراء على حد سواء ، ثم للمرأة الوحيدة التي لها احترامها وهى الام . ومع ذلك فان احترامها هنا ليس رعاية وتقديرا وانما هو عطف ومنة . وفى أسرة عنثرة يقف شداد مثالا للاب ، ويقف شيبوب مثالا للاخ ، كما تقف زبيبة مثالا للام . والعلاقة بين الاب والام ليس لها جذور عميقة وانما هى مشهد سطحي للاغتياب بشيء واحد هو الولد ، وكذلك يبدو الارتباط بين الاب والابناء ، وكأنه انعكاس للاعتراف بالجميل والولاء . ومثل هذا يتضح في موقف أولاد عنثرة من أبيهم - وخاصة الغضبان - فنداء الدم يعرف كل منهما بالآخر ويمنع أحدهما ان يسفك دم الآخر وهما في موقف النزال ، بينما لا يزيد الامر عن الولاء لرأس القبيلة وزعيمها بعد ذلك ، بل ان الموقف قد يتغير اذا ما كان الابن أكثر فروسية من أبيه فيتبع الاب ابنه في ولاء ووطاعة مثلما حدث لشداد مع عنثرة .

أما موقف الاولاد من الام فهو موقف باهت يكاد يكشف عن ضعف في الصلة ، اذ ان دور الام كمرربة في مجتمع مثل ذلك المجتمع العربي الجاهلي يكاد ألا يكون له وجود ، وصورتها التي تظهر لنا تكاد تضعها في موضع العبودية لزوجها ، فهو سيدها الذي لا تملك معه من الامر شيئاً ، وهو يعطف عايتها ان شاء ويهملها الى غيرها اذا اراد .

وهناك صورة أخرى للام تتكرر في أكثر من مكان في السيرة آخذة دور الام الحانية العطوف التي تقرب من الرجال في حملها للسيف ومقارعتها للفرسان وحدها على الاولاد ، غير أن معظم هذه الصور انما يوردها مؤلف السيرة عن أمهات أجنيات أما من السودان ، والحبيشة وأما من الرومان والافرنج ، وهى تبرز أكثر ما تبرز في صور أمهات اولاد عنتره ، ومبررها - في رأينا - هو اختفاء الاب فلا بد ان تحل الام محله حتى اذا ما ظهر توارت صورتها وانطفأت .

هـ - **التقاليد الاجتماعية :** وتعكس السيرة صوراً من علاقات أجزاء هذا المجتمع بعضه ببعض لترسم لنا مفاهيمهم وعاداتهم ، ومن هذه المظاهر الاجتماعية مايلي : -

( ١ ) الزواج : تلعب فكرة الزواج دوراً أساسياً في خلق صلات المجتمع العربي بعضه ببعض ، بل وصلاته بغيره من المجتمعات . فصلات الزواج هي التي تخلق علاقات النسب بين القبائل وتكون أساساً للأحلاف فيما بينهم ، وهى نفسها التي تربط البطل في السيرة بكثير من الأبطال الآخرين الذين يظهرون في الجزيرة فتشاً بينهم روابط لا انفصام لها مثلما حدث بينه وبين عمرو ذى الكلب الذى تزوج أخته ( ١ ) ، أما بالنسبة لغير الشعب العربى فان الزواج أيضاً هو الطريق الذى خلق العلاقات بينه وبين الاحباش - عن طريق امه ثم عن طريق زواجه هو واخيه - وبينه وبين الروم .

والواقع ان علاقات النسب هذه جعلت من المتعذر إقامة أى دعوى للمفاضلة ( من تلك الدعاوى التى كان يثيرها الشعوبيون ) ، لان علاقة الزواج قد حققت المساواة امام الامومة وامام الاصل ، وخلقت الارتباط بين الشريف والوضيع ، وبين العربى وغير العربى . ثم ان الاخوال - الذين هم من اصل غير عربى - يلعبون دوراً كبيراً في نصره اولاد عنتره بل وفي نصره عنتره نفسه .

ب - الصداقة : لعل اقدس العلاقات عند العربى - كما تظهرها السيرة - هي علاقة الصداقة ، التى ترتفع الى مرتبة الارتباط بالدم ان

---

(١) السيرة مجلد ٨ ص ١٤٦



لم تفقها في كثير من الاحيان حيث كان مزج الدم هنا يأخذ صورة عملية كاجراء من اجراءات المآخاة (١) . وصداقة العربى في هذه السيرة مبنية على الاحترام المتبادل والاقتناع بكفاءة الصديق والاعتماد عليه اعتمادا كليا في جميع الامور ، نلمح ذلك في صداقة عنتره بعروة بن الورد وفي صداقته بمقرى الوحش ثم في صداقته بهانىء بن مسعود ، كما اننا نستطيع ان ندخل في هذا الباب تلك العلاقة المتينة التى نشأت بين عنتره وبين أخيه من أمه شيبوبيا وذلك أن هذه العلاقة ارتفعت من مرتبة الاخوة الى مرتبة الصداقة بكل معانيها .

ومن تقاليد الصداقة العربية استمدت السيرة الكثير من مفاهيم الشرف اذ رسمت - بما قدمت من صورها - معانى الوفاء والإيثار والنجدة والبذل ، كما استطاعت عن طريق هذه العلاقة ان تربط بين البطل وبين الكثيرين من أبطال التاريخ الحقيقيين كدريد بن الصمة والشيخ عبدالمطلب وهانىء بن مسعود ، لان ربط عنتره بهم معناه انه يتحلى بالصفات التى تقربه اليهم وتجعل منهم أكفاء له وتجعله صنوا لهم جديرا بصداقتهم واخوتهم ، كما تؤكد له الواقع التاريخى وتضفى على السيرة ظلال الحقيقة والاقتناع .

ج - الاخذ بالتأثر : لعلنا نخص بالذكر هذه العادة من عادات العرب لما كان لها من أثر كبير على حياتهم وعالى تكوينهم الاجتماعى ، كما كان لها دور فعال في السيرة اذ اعطت المبرر للكثير من الاحداث الدموية غير المفهومة ، كما اعطت المبرر للكثير من الوقائع الحربية التى ادت الى ارتفاع قدر بنى عبس ، كما اعطت المبرر - آخر الامر - للنهضة التى انتهى بها بنو عبس حين تجمعت عليهم ثارات العرب . وهذه العادة الاجتماعية هى التى منحت عنتره حرية كبيرة في الحركة وحيوية ونشاطا وتناوبا لقوى الشد والجذب ، فحين يأخذ عنتره بثارات قبيلته فانه - بذلك وفي نفس الوقت - يكثر من الثارات عليها ، وهو فخر للقبيلة حين يأخذ بثاراتها من اعدائها ولكنه ايضا نقمة عليها لانه يكثر بذلك من الطالبين لثاراتهم منه يومئذ .

وهذه العادة الاجتماعية تبرر لنا ايضا موقف القبيلة من عنتره فهى تريده ولا تريده في آن واحد ، تريده حين يشتهد بها الخطب ويصبح وجوده ضروريا للحفاظ على ارواح ابنائها وحريتهم وكرامتهم ، ولا تريده في اوقات السلم حين يكثر من غزواته فيزيد الثارات ويؤلب الاعداء ويصبح مجرد وجوده بين ظهرانيتها منذرا بحملة او هجمة لقتله

---

(١) النظم السياسية والاجتماعية عند قدماء العرب - لمحمد محمود جمعة .



والاخذ بالثأر منه والافتئات على امن القبيلة وسلامتها لمجرد انتسابه اليها . وهكذا نجد ان هذه العادة الاجتماعية ، قد اباحت للمؤلف الحركة بحرية والقدرة على خلق الاحداث ووضع المبررات لها ، كما منحته مجالا واسعا يبرز فيه الحياة العربية . وما فيها من مد وجزر ومن خير يولد الشر ، وشر يولد الخير .

وقد استعان المؤلف بهذه العادة الاجتماعية ايضا في ابراز عمق حزن عنجرة ومكانة المصروعين من ابناء القبيلة عنده بوزن ذلك حين كان يسوق ابناء القبائل التي قتلت اولاده واحبائه الى قبر القتيل ليذبحهم بالثأر والالوف، فمن خلال هذا المظهر القاسى استطاع المؤلف ان يبرز مدى احساس عنجرة بالالام والحزن .

وفي ختام السيرة تاتى نهاية عنجرة على يد الاسد الرهيص كمظهر من مظاهر الاخذ بالثأر ، وكتصوير لمدى تأصل هذه العادة ومدى عراققتها ، حيث لم يستطع ان يقف في طريقها توالى الهزائم كما لم يمنعها فقد البصر .

د - الفرس والسيف : تعكس السيرة اهمية الفرس في حياة العربى ، فهو يسميها الاسماء وهو يحتال للحصول عليها وينفق في سبيل ذلك كل ما في يده من اموال ومتاع ، ويهيم عنجرة بحب فرسه «الابجر» حتى يكاد ينسى حبه لعيلة . وترسم لنا السيرة صورة مجموعة من الناس اسمهم « السلالين » مهمتهم سرقة الخيل والاتجار بها بوخوض الحروب والمعارك في سبيلها ، كما ترسم لنا مدى ارتباط الفارس بفرسه وتصور كيف يطعمه ويغذوه ويرتب له من يعتنون به ، ويستغل مؤلف السيرة هذه العلاقة بين الفارس والفرس في خلق الكثير من الاحداث وفي اقامة المعارك المتكررة المتتالية بسبب سرقة فرس يخرج صاحبه - مع قبيلته - ليصرع السارق بينما تخرج القبيلة كلها لتحمى من سرقة من ابنائها .

وليس هذا الارتباط بين الفارس والفرس وليد الهواية او الصدفة، وانما هو وليد الحاجة الحقيقية . فعلى قدر اصاله الفرس وقوة احتماله ومدى فهمه يكون نجاح الفارس في التغلب على اعدائه والحفاظ على حياته .

والسيف كالفرس ، له اسماءه المدللة وله انواعه المتعددة واطواله المختلفة وله عند الفارس الالف الذى يشيع في نفسه الامان ويشيع في قلب اعدائه الذعر . ومن اجل سيف ودرع تنشب المعارك الطاحنة التى يعتنى بها مؤلف السيرة في فصلها ويفسرها ويصفها وصفا دقيقا .

ومن أجل هذا أيضا لا يرضى المؤلف لبطله حمل سيف عادي مألوف ،  
وانما يجلب له سيفاً صنع من شهاب . لهذا كان السيف والفرس ركنين  
أساسيين يحددان معالم القيم في المجتمع العربي الذي أقامته البراعة  
في ركوب الفرس . والمهارة في استعمال السيف .

هـ - الماء : تنعكس البيئة العربية انعكاساً كبيراً في تحديد معالم  
الصراع بنوعيه ، صراع الافراد من أجل الحياة ، وصراعهم من أجل  
التفوق . فالصراع من أجل الحياة في مثل هذه البيئة يعنى تدليل  
قسوتها من ناحية الجذب وقلة الماء ، وسيرة عنجرة ترسم لنا صورة  
متعددة لفناء قبائل بأسرها اذا ضلت عن الطريق الى الماء أو هزمت  
في محاولة الوصول اليه ، كما ترسم صورة لمدى حرص العربي على ان  
تكون منازلهم بجوار الغدران .

اما الصراع في سبيل التفاضل فيدخل فيه الصراع العربي من أجل  
موارد الماء ومتابعه وكفاحه من أجل الاستيلاء على أكثر الأماكن امناً -  
وهي الأماكن التي يتوافر فيها الماء . هذه الظاهرة تؤدي الى مظهر  
اجتماعي هام من مظاهر المجتمع القبلي هو مظهر «الموارد أو التحالف»  
الذين يستأذنون القبيلة المالكة للغدير في الإقامة بجوارها حيث أن الماء  
متوافر والمرعى خصيب . وهذا التجاوز يتحول عادة الى أحد  
أمرين ، فاما ان يكون عاملاً من عوامل الربط والتحالف القوي بين  
القبيلتين وهذا نادر الحدوث - أو على الاصح نادر الدوام - واما ان  
يكون سبباً لمدارمة الاحتكاك والصراع بين القبائل اذ يطمع كل منهم  
في الاستئثار بالمكان وما فيه من ماء وعشب ، فتبدأ الحزازات بينهما  
ثم تكبر كالدوائر لتشمل أكثر من قبيلة في أكثر من معركة .

وسيرة عنجرة تصور لنا هذا المظهر الاجتماعي كأوضح ما يكون ،  
اذ يستغله المؤلف أولاً في بناء العلاقات بين القبائل ثم في خلق اسباب  
النزاع بينها ، واخيراً في رسم صور للمعارك الطاحنة التي تدور  
بسببه .

## الفصل الرابع

### شخصية عنتره

### في الأدب الحديث

لم يكن الاعجاب بسيرة عنتره والانفعال بها وقفاً على سواد الناس الذين يلتفون كل ليلة حول القاص الشعبي ، ولكن تأثيرها في المثقفين كان أقوى وافعل . فالمستشرقون الذين وقعوا على هذه السيرة لم يألوا جهداً في ترجمتها وحملها معهم الى بلادهم ، وادباء العرب الذين سمعوها او قرؤوها لم يكونوا اقل تأثراً بها من غيرهم . وبما ان هؤلاء من المثقفين فلا غرو ان هذا التأثير سوف يختزن في نفوسهم - بعد ان لمس وجدانهم - ليظهر وشيكاً في اعمال ادبية من انتاجهم اما صريحاً واضحاً واما متفاعلاً مع غيره من المؤثرات لينتج عملاً ادبياً جديداً متأثراً بتلك المخترنات .

وفي عصرنا الحاضر نلتقى بثلاثة اعمال ادبية حديثة تظهر جميعها حول عنتره وحبيبته عبلة . ومن الواضح ان تأثيرات الاعمال وجذورها تعود الى سيرة عنتره الشعبية وليس الى تاريخه الحقيقي الذي لم نجد فيه بعد البحث والعناء ما يكفي لاعطاء صورة متكاملة عن عنتره وحياته بينما السيرة الشعبية التي في متناول اليد قد قصت الكثير عنه وعن احداثه .

وعلى ذلك فان هدفنا من اضافة هذا الفصل الى البحث هو تناول تلك الاعمال الادبية الحديثة بالتحليل بغية الوصول الى مدى ارتباطها بالسيرة الشعبية والوقوف على قيمة الاثر الذي تأثر به المنتج الحديث ، وعلى مقدار ما بين عمله وبين الاصل من اوجه الالتقاء والاختلاف . كما ان هدفنا في المكان الاول هو الوصول الى كيفية تصور هؤلاء المنتجين المحدثين لشخصية عنتره بن شداد ومدى فهمهم للسيرة الشعبية كعمل فني متكامل .

وقد آثرنا ان نتناول هذه الاعمال حسب اسبقية وجودها الزمني فبدأنا بمسرحية « عنتره » للشاعر احمد شوقي ، ثم مسرحية « حواء الخالدة » للقصاص محمود تيمور ، وأخيراً قصة « أبو الفوارس » للاديب محمد فريد أبو حديد .

## مسر حية « عنتره »

للشاعر : احمد شوقي

كتب الشاعر احمد شوقي مسرحية شعرية بعنوان « عنتره » ،  
أدارها - كدابه - حول مفاهيم عقلية ، وان أستعان الى اقصى حد  
بأحداث التاريخ وبالروايات السطحية التي رويت عن عنتره وعن علاقته  
بمحبوبته عبله . ولكنه بعد عن تلك الروايات التاريخية في أحداث  
مسرحيته ليخدم الغرض العقلى الذى هدف اليه ، كما لجأ فى تسمية  
الأشخاص الى اصطناع اسماء لها شهرة معينة فى التاريخ وأطلقها على  
أشخاص مخالفين لطبيعة ما اشتهرت به . فمثلا أطلق على رفيق عنتره  
اسم « داحس » ، ومعروف تاريخيا ان هذا الاسم لاحد الجوادين  
المشهورين اللذين تسببا فى قيام الحرب التى عرفت باسمهما وأطلق  
على الثرى الذى نافس عنتره فى حب عبله اسم « صخر » ، والمعروف  
تاريخيا أن هذا الاسم اشتهر به أخو الخنساء الشاعرة الذى لم يكن  
له أى علاقة بعنتره وعبله .

ومهما يكن من أمر فان الهدفين الذهنيين اللذين هدف اليهما  
الشاعر احمد شوقي يتعلق اولهما بالعاطفة والحب بينما يعتبر الثانى  
هدفا اجتماعيا يتعلق بحياة العرب جميعا . فصاحب المسرحية يثير  
قضية عاطفية وهى : هل تميل المرأة بقلبها نحو الشاب الامرد الحسن  
الصورة ، الانيق الملبس ، الالهى العايب ، الظريف الذى يجيد الفواية  
واحاديث الهوى ، المؤصل الحسب والنسب ، الرافل فى حلل النعيم ،  
ولو انه لين العريكة بعيد عن الشدائد ، يفر من وجه الصعاب . ام انها  
تترك هذا وتمنح قلبها لعبد أسود خشن المظهر ، سيء الهيئة ، طاعن  
السن ، لا يعرف من الحياة الا امتشاق الحسام وخوض المعارك ؟ .

ومنذ البداية يطلعنا شوقي على رأيه فى هذه القضية ، اذ يجعل  
المنافرة فيها بين صخر كطرف اول وبين عبله التى اختارت فعلا عنتره  
العبد الاسود الخشن واخذت تدافع عنه وعن قضيته كطرف ثان  
فى المناظرة . ويصطنع صخر المنطق محتجا بان الجميل للجميل ،  
والشباب للشباب ، لا ان تزف الأطباء الى الذئاب . ولكن عبله ترد بان  
أهم من هذا وذاك حماية الدمار ورد المغير . فيجيب صخر بان الحياة  
خير وسلام وليست هى شرا وقتالا . . . . . وقبل ان يكمل حديثه يأتبه



جواب عملى من غير عبلة اذ يهاجمهم اللصوص، فلا يلبث هو أن يستخفى ليظهر عنثرة في الميدان وكأن واقع الحياة الطبيعى في البيئة العربية البدوية قد كفاه الحاجة بـغلبه في المناقشة وأنهى القضية لصالح عنثرة.

ويكاد يكون هذا الجزء من المسرحية - الذى يعالج فيه الشاعر هذه القضية الذهنية - خاليا خلوا تاما من رسم الشخصيات لاسيما شخصية عنثرة سواء بصورته التاريخية او بصورة جديدة تخيلها الشاعر واطهر ملامحها . فجهد الشاعر كله كان مركزا حول الجدل المنطقى للدرجة انه جعل عنثرة ينام الى جوار خباء عبلة فيهاجمها اللصوص ويضطرب الحى ، ويعلو الصراخ وقصر السيوف ، بينما عنثرة في سباته لم توقظه كل تلك الضوضاء ، فاذا ما نادى عليه ابوه شداد بصوت خفيض افاق من غفوته وهرع لانقاذ الحى .

وقد حاول صاحب المسرحية أن يستغل في هذا المشهد الموقف التاريخى المعروف لاستلحاق عنثرة حين امتنع عن القتال فوعده شداد باستلحاقه اذا ما فعل . ولكن شوقى لم يتم الموقف هكذا ، وانما جعل امتناع عنثرة عن القتال يتلشى عند علمه بان عبلة اسيرة فيسرع لانقاذها ، اما اعتراف ابيه به فلم يعنه فى شيء . ولعل شوقى قد فعل ذلك خدمة لقضيته الذهنية الاولى التى ادار حولها النصف الاول من المسرحية وانهاه بمناظرة اخرى بين عبلة وعنثرة اذ تخبره بأنها انما تحبه لشجاعته وقوته وحمايته للدمار فيشقى بذلك عنثرة ويخاطبها متسائلا :

لم لا تعشقين عبـل جوادى لم لا تعنين عبـل حسامى  
أو ليسا هما شريكى فى التفكـك وضرب الطلى وحصد الهام<sup>(١)</sup>

فلا تحير عبلة جوابا . وهكذا تتميع القضية من جديد ، وتتميع معها شخصية عبلة وشخصية عنثرة على حد سواء . ثم لا تلبث شخصية عبلة ان تتميع اكثر واكثر على لسان ابيها الذى يصفها بانها تبغض الرجل الدميم والرجل العنيف فى حين ان هاتين الخصلتين هما قوام شخصية عنثرة ، او هما المحور الذى اراد صاحب المسرحية ان يدير حوله المأساة ، ولكن عنايته بقرض الشعر الهته عن احكام بناء القصة غبدا فيها هذا التفكك والتميع ، وهى بعد لم تبلغنا شيئا مما نريد وهو تصوير شخصية عنثرة .

(١) المسرحية ص ٣٨ ط ١٩٣٢

فاذا انتقلنا الى الهدف الذهني الثاني في المسرحية - وهو الهدف الاجتماعي الذي يتعلق بحياة العرب - محاولين ان نستشف منه شخصية عنتره كما تصورها احمد شوقي لوجدنا ان صاحب المسرحية قد ادار هذا الجزء الثاني من مسرحيته بعيدا كل البعد عن عنتره كذلك . وعلى الرغم من ان المحور الاساسي للقضية التي ساقها المؤلف هو عنتره ، الا ان كل مدار حول القضية كان يجري خلف ظهر البطل ودون اشتراكه فيه ، وبالتالي دون ان تتضح ملامح شخصيته او يظهر تصور المؤلف لها . فضرغام - الفارس الثاني الذي نafs عنتره في حب عبله - يشهد لخصمه عنتره بانه قد الف القوم وقادهم الى النصر فيحاجه مالك - ابو عبله - بانه لايرضى بان يؤلفهم عبله ، وان خسف كسرى وذل قيصر احب اليه من ان يكون عبله شداد هو مانعهم وحاميهم . وكعادة المؤلف الذي لا يحب المناقشات الجدلية وانما يقطعها دائما بشواهد عملية مقنعة ، يهجم عليهم جيش الفرس بقيادة رستم وقد تحالفت معه قبيلة « بنى لخم » ، فيتصدى لهم عنتره ويهزمهم ويقتل قائدهم رستم . وهنا تقف عبله خطيبة في بنى لخم تعنفهم على مخالفة كسرى الذي اتخذ منهم جسرا الى بلاد العرب ، وتذكرهم بانهم اخوة ابناء جنس واحد ، وتدعوهم الى نبذ الفرس والانضمام الى اخوانهم العرب ليكونوا حلفا قويا يستطيع الصمود امام كسرى وامام قيصر وامام جميع اعداء العرب .

هذه هي القضية الذهنية الثانية التي عالجها احمد شوقي في مسرحيته وهي - كما نرى - لم تصور لنا اى لحظة من لحظات شخصية عنتره ، اما الفصل الختامي الذي انهى به الشاعر مسرحيته فقد صور لنا فيه عنتره مصطنعا الحيلة ليفوز بحبيبته ، فبينما عبله تزف الى صخر ، يتدخل عنتره سرا ويتفق معها على ان تستخفى هي وتدع مكانها « ناجية » تلك الفتاة العيسية التي تحب صخر . وما ان تتم مراسم القران حتى يظهر عنتره ويكشف عن حيلته ويرغم الجميع على قبولها ، وينتهي الموقف بان تكون ناجية لصخر وعبله لعنتر .

هذه النهاية المسرحية - وان دارت كلها حول عنتره - الا انها لا ترسم لنا الا مظهرها واحدا فقط من مظاهر شخصيته هو في واقع الامر بعيد كل البعد عن الشخصية الحقيقية لعنتره ، او انه مظهر جانبي بعيد الاثر هين الشأن يعتبر ايراده مع اغفال الجوانب الهامة والمظاهر الاساسية للشخصية عملا غير مستساغ . فاصطناع الحيلة شيء تافه بالنسبة لشخصية عنتره ، او هو شيء تال للعمد الاساسية في بناء شخصيته البطولية كما انه من ناحية اخرى - امر بعيد عن

الواقعية ، فمن المعروف ان الشجاعة تعتمد على الاقدام وسرعة البت وربما التهور ، بينما تعتمد الحيلة على الروية في التفكير واصطياد الطرق الجانبية للوصول الى الهدف ، وبذلك يكون الجمع بين الشجاعة والحيلة - وان لم يكن مستحيلا - فهو على كل حال امر بعيد عن الواقع مخالف ، لمنطق الاشياء ، كما يكون اهتمام المؤلف بهذا المظهر الجانبي لشخصية عنتره مع اهمال جميع المظاهر الاساسية عملا مغلا باحكام البناء القصصى والفنى .

وليس هذا حكما على مسرحية شوقى باعتبارها عملا متكاملا ، فنحن لم نحاول طرق هذا الموضوع ، وانما انصب جهدنا على جانب واحد فقط هو متابعة تصوير المؤلف لشخصية عنتره .

## مسرحية « حواء الخالدة »

للاستاذ محمود تيمور

تعتبر مسرحية حواء الخالدة عملا ادبيا قائما بذاته بعيدا عن كل من التاريخ الحقيقى لعنترة ، وعما ورد في السيرة الشعبية المؤلفة حوله . فالمسرحية ليس فيها من الواقع التاريخى الصحيح شيء ، اللهم الا أسماء ابطالها والبيئة الصحراوية التى جرت فيها أحداثها ، كما انه ليس في المسرحية من السيرة الشعبية شيء كذلك ، اللهم الا اشتراك عنترة في حروب فارس . وحول هذين الاساسين بنى الكاتب مسرحيته ليعبر بها عن فكرة جديدة تتركز حول عبلة وليس حول عنترة - كما يوحى بذلك اسم المسرحية - وهذه الفكرة هى تلك الاسلحة الخفية التى حبا بها الله حواء منذ بدء الخليقة والى الابد ، تلك الاسلحة التى استعملتها حواء مع آدم ، ودليلة مع شمشون ، وكليوباترا مع انطونيوس ، كذلك استعملتها عبلة مع عنترة ، وستظل تستعملها كل حواء ما واثتها الفرصة وسمح لها الحال . فمهما كان الرجل نبيا او عظيما او شجاعا او غير ذلك من الصفات - سواء قلت او كثرت - فانه لن يستطيع الصمود امام اسلحة حواء الخفية ، فلا بد له ان يهزم ، ولا بد له ان يسلم ، ولا بد له ان يرضى بمصيره المحتوم وهو ان يكون العوبة في يد المرأة .

وهكذا نجد ان الكاتب يحاول ان يصور لنا عنترة العوبة في يد عبلة ، تصيره كما تشاء ، وتسيره أينما أرادت ، وتدفعه الى عظيم الافعال وخطيرها لمجرد نزوة طارئة او رغبة عابرة . فعليه ان يصارع الهزبر الاشم بيديه العاريتين ، حتى يحصل لها على جلده سليما لتزهو به أمام اترابها من بنات القبيلة ، وعليه ان يضرب في مشارق الارض ومغاربها سعيا وراء حجر الزبرجد ليهديه اليها . ثم هى اذا ما أرادت أن تعابثه دفعته الى ازالة لحيته المهيبة ، ولكنه ما ان يفعل حتى تهزأ به وتعيره بمظهره الامرد .

واذا ما يثست عبلة من عنترة ، وظنت أنه هلك في الرحلة التى دفعته اليها لم تأبه لذلك ، واخذت في القاء شباكها حول رجل آخر مستعملة نفس الاسلحة التى تجعل منه عجيئة لينة بين يديها ، واخذت في ارهاقه بالمطالب وبالذلال ، لتؤكد أنها ما زالت تستطيع استعمال اسلحتها بكل مهارة ونجاح . فاذا ما التقى الغريمان فان الامر اهون من



أن تأبه به ، بل هو على العكس من ذلك ، يعتبر موقفا أفضل في تبيان تلك المهارة . وادعى الى شحذ همة حواء ، واغرز في ارضاء غرورها . فللغريمين أن يتشاحنا بسببها ، وأن يقتتلا من أجلها ، أما هي فسوف تفوز في النهاية بإيهما يكتب له النصر . وهكذا نجد أن عبلة تدير المعركة بين عنتره وبين الأمير عمارة بكل كياسة وحنكة حتى تصل بهما الى الذروة فيقتتلان وتفوز هي في النهاية بالغالب منهما .

هذه هي الفكرة العامة لمسرحية « حواء الخالدة » ، بطلها الاول هو عبلة وليس عنتره ، وهدفها ليس تصوير البطولة ورسم صور الفروسية ، ولكنه على النقيض من ذلك ، يكاد يكون سخرية من البطولة واستهزاء من الفروسية ، وتحطيمها لها على يد المرأة ، أو هو بعبارة أخرى موازنة بين اسلحة الفارس واسلحة المرأة وتبيان لاي منهما تكون الغلبة . وقد انتهى كاتب المسرحية الى رأى لم يؤيده التاريخ ولم يأت به السير ولكنه الوضع الطبيعي على أى حال . . فكما كانت الغلبة لحواء على آدم ، وللدليلة على شمشون ، ولكليوباترا على انطونيوس ، كذلك كانت الغلبة لعبلة على عنتره .

وكاتب المسرحية يقدم لنا « الحب » في صورتين مختلفتين ، ومع ذلك فإن معينهما واحد ونهايتهما واحدة ومصير كل منهما في يد المرأة . فعنتره يحب عبلة في اول الامر ذلك الحب البدوى القوى الذى جعل قلبه يهيم بأفتن بنات البادية ، وركز آماله في الحصول عليها ، وطلب رضائها مهما كان الثمن ، فكانت هي بذلك هدفه الاوحد والاسمى في الحياة . وهنا نجد أن سعيه وراء عبلة كان لمرضاة ذلك القلب الكبير ، واستجابة لتلك الرغبة الذاتية الجامحة . فاذا ما سافر عنتره وتغرب سعيًا وراء حجر الزبرجد الذى طلبته فانتته التقى بحياة أخرى ، وبأحداث مختلفة شغلته عن تلك التى خلفها وراءه في ديار عبس ، ووضعت أمامه أهدافا آخرى ليس لعبلة فيها مكان ، وأصبح النصر في الحروب والحصول على المغانم هو الذى يشغل بال عنتره وهو الذى يستحوذ على نفسه وعلى قلبه جميعا بحيث نستطيع أن نقول في بساطة أنه برأ من حب عبلة . وأصبحت بالنسبة اليه امرأة بين النساء وليست ذلك الصنم المعبود ، وهو يصرح أمامها في صراحة بأن معبودته الآن هي الحرب . . تلك التى وهبها عقله وقلبه ووقف عليها عمره اجمع (١) . ولكن متى كانت حواء تتقبل الهزيمة ؟ أن في جعلتها لكل موقف اسلحته ، ولكل ظرف ما يناسبه . فاذا كانت اسلحة الاغراء قد فل حدها ، ففي اسلحة الغيرة ما يتر القلب العصى . وحيث أن الحرب

هى التى اصبحت شغل عنتره الشاغل ، وحيث ان هدفه اصبغ دائما الفوز على خصومه ، اذن فلتدفعه هى ، الى حرب هدفها الفوز ، ويكون مظهر هذا الفوز هو الحصول عليها .

وهنا نشهد الصورة الثانية للحب الذى لا يتجه مباشرة نحو المرأة وانما تكون هى فيه منزوية فى جانب من الجوانب كجزء من النتيجة ، اما هدفه المباشر فهو الرغبة فى ارضاء نزعة الفوز والظهور على غريم . فالحب هنا - أو الغيرة أو غير ذلك من الاسماء ، ليست مركزة فى حواء ولا موجهة اليها، وانما مظهرها الرغبة فى الفوز واثبات القوة الشخصية . فهى حب للنفس قبل ان تكون حبا للغير ، وهى مظهر من مظاهر القوة الذاتية ، وليست رغبة فى المرأة واشتهاء اليها . ومع ذلك فان حواء تعرف كيف تستغل كل ذلك لصالحها ، وتحوله الى مكسب شخصي لها . وهذا ما فعلته عبلة مع عنتره اذ حارب فى سبيلها وهو يظن انه يحارب فى سبيل نفسه ، وحصلت هى عليه فى النهاية دون ان يفطن " انه هو الذى سعى اليها .

هذه هى الخطوط العريضة لمسرحية حواء الخالدة، ومنها نجد ان المسرحية عمل أدبي مستقل قائم بذاته لا يربطها رابط باى من تاريخ عنتره او سيرته ، وان فكرتها العامة فكرة جديدة قديمة فى نفس الوقت، استغل المؤلف شهرة عنتره وعبلة لاطهارها وخرج بمسرحيته من حيز « التراجيديا » الى ميدان « الفارس الخفيف » بحيث نستطيع ان نعتبرها مسرحية حديثة او عصرية استمدت رموز شخصياتها من التاريخ .

وهكذا نجد اننا لا نستطيع ان نحاسب كاتب هذه المسرحية عن تصويره لشخصية عنتره ، بل ولا نستطيع كذلك ان نستشف الصورة التى تخيلها هو لبطننا . فواضح ان عنايته لم تكن منصبة على تصوير الشخصيات ، وانما اتجهت اتجاها اخر نحو توضيح الفكرة الذهنية للمسرحية ، وهى عرض أسلحة المرأة الخفية ، ونحو اضعاف شئ من الهزل وخفة الروح عليها . ولذلك نجد انه قد طوع الشخصيات لهذين العاملين دون النظر الى بنائهما بناء فنيا سليما ، وعلى ذلك ضاعت منه معالمهما ، وانقطعت جميع وشائج الصلة بين شخصية عنتره الحقيقية وبين تلك الشخصية التى اصطنعها كاتب المسرحية ، واصبح لا يجمعهما سوى الاسم والشهرة والارتباط بعبلة .

## أبو الفوارس

### للاستاذ محمد فريد أبو حديد

يبدأ الأستاذ أبو حديد قصته بتصوير عنتره كعبد من عبید شداد تتنازع عواطف شتى متباينة . فهو ابن شداد كما أخبرته أمه زبيبة بذلك ، وهو يجب أباه ويعتبره صورة للبطل العربي ، ومع ذلك فان شدادا لا يقبل أن يلحقه بنسبة ويعترف بينوته . ثم هو فارس بنى عبس وحاميه ومفرج كربهم وجالب الاسلاب لهم ، ومع ذلك فانهم لا يجعلون له سوى نصف سهم من الضائم لانه عبد وليس بسيد . وهو بعد ذلك محب لعبلة هائم بعشقتها ، منشد لارق الشعر واجمله فيها ، ولكنه لا يستطيع التطلع اليها ولا الوصول الى مكانها الا بوصفه خادما وبوصفها مولاته .

وكان عنتره يشقى بكل تلك المشاعر ، وكم غضب من نفسه لقبولها والسكوت على ذلك الوضع المهين ، وكم حدثته نفسه بترك بنى عبس الذين يعيش بينهم عبدا الى قوم آخرين . يمكنه أن يعيش بينهم سيدا . ولكنه لا يلبث ان يقرر امرا . . لماذا لا يكون سيدا بين بنى عبس انفسهم ؟ ان الذى يمكنه من ان يكون سيدا بين غيرهم لا بد وان يوصله الى نفس المكان بينهم . وهكذا يوطد العزم على الوصول الى بغيته ويعاونه فى ذلك اخوه شيبوب - ابن زبيبة - بعد ان حاول صرفه عنها وعن حب عبلة كذلك ولكنه لم يستطع .

وتتضافر قوى الشر على عنتره فيقع العداء بينه وبين عمارة ابن زياد ، ويرفض أبوه شداد الاعتراف به خوفا من معرفة العرب ، واخيرا يتقدم عمارة لخطبة عبلة فيفزع عنتره الى الصحراء يحكى همه لرمالها . ولا يلبث بنو طيء أن يهاجموا عبسا فيظهروا عليهم ، حينئذ يستنجد شداد بعنتره ويعدده بان يلحقه بنسبه اذا ما هزم الاعداء . وهكذا يحقق عنتره اول هدف من اهدافه ، ولكن مالك بن قراد لم يلبث ان حمل اهله وابنته عبلة وغادر وادى الجواء بعد ان جهر عنتره بحب عبلة وشبب بها . ونزل مالك الى جوار بنى شيبان حيث تكاثر الخطاب على عبلة ، وتعهد احدهم وهو « بسطام بن قيس » بان يأتى برأس عنتره مهرا لعبلة . ولكن عنتره ترفع عن قتله بعد ان قدر عليه عدة مرات ، فلما علم أبوه قيس بن مسعود بذلك اعجب بعنتره واستضافه فى منزله وعطف على قضيتته واقنع مالكا بأن يحكم عبلة فى امرها فاختارت ابن عمها . وخرج عنتره يضرب فى الصحراء قاصدا العراق ليفوز بمهر عبلة - الفا من النوق العصافير . وهناك يأسره النعمان ، ولكنه لا يلبث ان يعجب بشجاعته وفصاحته فيضمه الى جيشه ويحرز



له عنتره النصر تلو النصر ، فيكافئه النعمان بفيض من الخلع والعطايا . ويعسود عنتره الى قومه في ركب عظيم وثروة طائلة ليجد أن عبلة على وشك الزفاف الى غيره فيرسل أخاه شيبوبا ليفرق ثروته على آل عيس ، يأخذ هو مكانه في الصحراء وحيدا شريدا ، ولكن سرعان ما يتجمع القوم حوله ليقدّموا اليه عبلة زوجا .

وهكذا نجد أن موضوع قصة الاستاذ فريد ابو حديد يكاد يتفق في مبناه واحداثه مع القسم الاول من سيرة عنتره ، بل أنه يكاد ينقل عنه في كثير من الاحيان فقرات بأكملها من الحوار بعد صقلها لتلائم الاسلوب العام الذي اصطنعه الكاتب لقصته ، ومع ذلك فاننا اذا نظرنا الى هذا العمل من الزاوية التي نحن بصدددها - وهي تصوير شخصية عنتره - لوجدنا أن الفرق شاسع بين العمليين . فتصوير الاستاذ ابو حديد لشخصية عنتره يختلف اختلافا كبيرا عن تصوير كاتب السيرة لها رغم اتفاق الموضوع وتطابق الاحداث . والسبب الاساسي في هذا يرجع الى اختلاف طريقة التناول عند الكاتبين . فصاحب السيرة اصطنع طريقة السرد القصصي التي يقدم فيها الاحداث مجردة من أي شرح أو تعليل ، ودون أن يعرض لأسبابها ودوافعها ويناقش احتمالاتها ونتائجها . وهو يدير في داخل القصة الشخصيات بأجسادهم وحركاتهم دون أن يعنى بأفكارهم ومشاعرهم وما يعتور في صدورهم من انفعالات أو مايتوالى على أذهانهم من أفكار ، اللهم الا لمحات بسيطة قد تظهر في الحوار . وبذلك فإنه يعطينا فقط صورة خارجية لعنتره تصور حركاته وافعاله دون أن تغوص في أعماق نفسه البشرية لتجلو لنا احساسه ومشاعره .

أما صاحب « ابو الفوارس » فقد اصطنع في قصته المنهج النفسي - بالمعنى العام لهذه الكلمة - فهو إذ يسرد الاحداث التي تعطي الصورة الخارجية لعنتره نقلا عن السيرة ، لا يلبث في كل موقف من المواقف أن ينتحى جانبا يبطله ليفوص في أعماق نفسه ويطلعنا على مكنونات سريرته ، ويتناول النوازع والمشاعر بالبحث والتحليل والعرض الموفق الذي ينسب بين الاحداث في تلاؤم وامتزاج يجعل من عمله انتاجا جديدا مغايرا للأصل المنقول عنه ، ليس في طريقة التناول فحسب ، ولا في التصوير النفسي لشخصية عنتره فقط ، وإنما في معاني القصة وقضاياها كذلك .

فالاستاذ ابو حديد لا يكتفى بعرض شخصية عنتره عرضا شكليا وموضوعيا ، وإنما يعرض لنا في مقابها شخصية أخرى تصور الجوانب النفسية العكسية التي أضفاها على عنتره هي شخصية أخيه - من أمه - شيبوب . فبينما هما ابنا أم واحدة ، ويعيشان تحت ظروف بيئية واحدة ، إذ بهما يقفان على طرفي تقيض . فعنتره لا يحتمل ذل العبودية وشيبوب يستمرئه ويرضاه ، وعنتره ثائر على لونه الاسود



بينما شيبوب غير عابىء به ، وعنترة حائق على وضعه فى القبيلة كعبد أو كخادم ، ولذلك يبلل كل جهده لتغيير وضعه ، أما شيبوب فقانع بما هو فيه لا يشعر معه بحطة ولا يسعى لتغييره . وعنترة يسمو بالحب ويتمثله عاطفة نبيلة يركزها حول عبلة بينما لا يعرف شيبوب سوى الرغبة الجنسية التى يطفئها مع أى امرأة فى أى مكان ، ثم أن عنترة بقدر الفضائل ويعتنقها فلا يكذب ولا يسرق ولا يخون ، أما شيبوب فإنه لا يتورع عن اقتراف شىء من هذا ، بل ويعتبرها أساس السلوك وقوام الحياة التى يحياها . وأخيرا فإن عنترة يعتبر أن بنى عبس قومه وأن جاروا عليه بينما يعتبرهم شيبوب أعداءه .

وهكذا نجد أن الأستاذ أبو حديد لم يكتف بعرض شخصية عنترة عرضا نفسيا ، وتوضيح جوانب ملك الشخصية من جميع نواحيها ، وإنما زاد ذلك إبانة بعرض شخصية مقابلة لها عرضا نفسيا كذلك ليكون فى عرضها وتوضيح للضد الذى هو شخصية عنترة ، ولهذا كانت قصته أبعد الأعمال الأدبية جميعا فى رسم صورة مشرقة دقيقة واضحة المعالم بارزة القسمات لشخصية عنترة ، والإبانة عن معالم البطولة فيها سواء من ناحية البطولة العامة أو الموضوعية التى يتفق فيها مع السيرة ، وكذلك من ناحية البطولة الذاتية أو المعنوية ، كما يجب أن تكون فى كل فرد . وهذا هو الفرق فى الغاية المستقاة من كلا العاملين . فهو يتفق مع كاتب سيرة عنترة فى توضيح معالم البطولة الموضوعية من شجاعة وإقدام وحسن خصال وما إلى ذلك مما تصوره أعمال عنترة ، ثم يزيد على ذلك تصوير نوع آخر من البطولة التى لا تتمثل فى جلائل الأعمال وإنما تنبع من قرارة النفس البشرية ويكون مجالها النزوع إلى الأفضل وإطراد التقدم وإباء الضيم والرغبة فى الحق والتسامى عما يشين . ثم هو يوضح لنا غاية أخرى تثبت أن طالب التحرر والرفعة لا بد بالغها إذا ما هو سعى اليهما وأصر فى سعيه على إدراكهما .

ولعل الفترة الزمنية التى كتب فيها الأستاذ أبو حديد قصته ، والظروف السياسية والاجتماعية التى أظلت ذاك العصر ، أن توضح لنا سبب اختياره لهذه الشخصية بالذات وهى شخصية عنترة بن شداد وانتقاله للقسم الأول من سيرته المعروفة ، ثم اصطناع الأسلوب النفسى لعرضها بهذا الشكل . وكأنما يريد الكاتب أن يقول . . . أن ما يصدق على الفرد يصدق كذلك على المجموع . . . وأن المصريين الذين كانوا يرزحون تحت نير الاستعمار آنذاك مثلهم مثل عنترة الذى كان يعانى من العبودية . . . وأن هناك طريقين لمواجهة هذا الموقف : طريق البطولة الذى سلكه عنترة ، وطريق الاستكانة الذى ارتضاه شيبوب . فعلى الشعب أن يختار أيهما . . . وقد رأينا كيف أن طريق عنترة قد أبلغه العزة ونوله المراد ، وكيف بقى شيبوب كما هو عبداً وأن اختلف الاسياد .

## ثبت المراجع الأجنبية

- |   |                     |
|---|---------------------|
| 1. An Introduction to Mythology                 | Lewis Spence        |
| 2. An Introduction to Mythology and Folklore    | Sir George William  |
| 3. An Introduction to the Iliad and the Odyssey | R.C. Gebb           |
| 4. Arabia before Mohamed                        | O'leary             |
| 5. Arabic Thought                               | O'leary             |
| 6. A short history of the Fatimid Khalifah      | O'leary             |
| 7. Bibliographie des Ouvrages Arabes            | Victor Chauvin      |
| 8. Encyclopaedia Britanica                      |                     |
| 9. Folklore and Historical Science              | Sir George Gomme    |
| 10. Geschichte der Arabischen Literatur         | Carl Brockelmann    |
| 11. Kinship                                     | Smith               |
| 12. Modern Mythology                            | Lang                |
| 13. Mohamed and the rise of Islam               | D. S. Maregoliouth  |
| 14. Myth ; Ritual and Repigion                  | Lang                |
| 15. Pre-Islamic Arabia                          | Della Vida          |
| 16. Primitive Society                           | R. Lowic            |
| 17. Primitive Culture                           | Tylor               |
| 18. Principles of Sociology                     | Herbart Spenser     |
| 19. Literature Arabe                            | Huart               |
| 20. Lit. History of Arabs                       | Nicholson           |
| 21. The Encyclopaedia of Islam                  | M. Hartmann         |
| 22. The golden bough                            | Sir James G. Fraser |
| 23. The Origins of Arabic Poetry                | D.S. Maregoliouth   |







١٥٧ شارع عبید - روض الفرج  
تليفون ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥



الشمس ٢٥ قرشا

العدد ٧